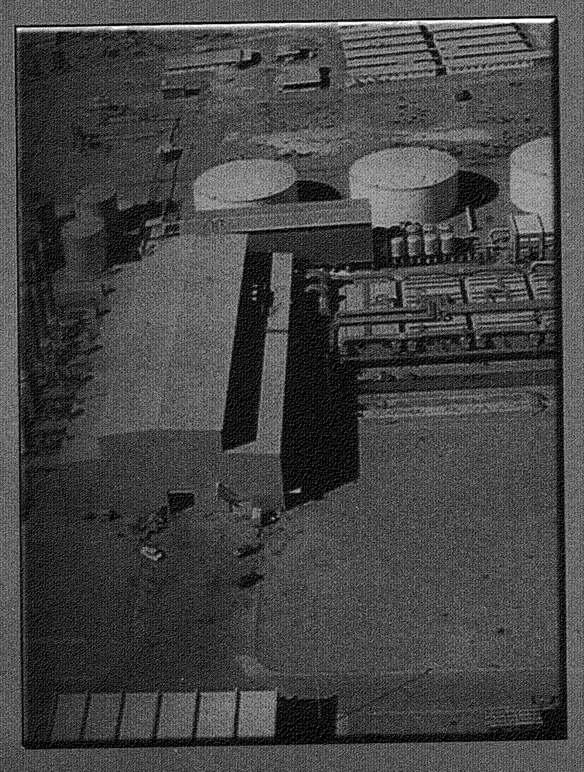
حسين قاسم



الجزيرة العربية أمام التحدي الحضاري

جيل الستينات . حوارات - 2

الجزيرة العربية
أمام التحدي الحضاري

حسين قاسم

الجزيرة العربية
أمام التحدي الحضاري



حسين قاسم

الجزيرة العربية أمام التحدي الحضاري: حوارات ـ 2

الطبعة الاولى 2007

المركز الوطني للدراسات

هاتف 17742522

فاكس 17710086

البريد الالكتروني NSTUDIES@BATELCO.COM.BH

التوزيع: دار الكنوز الادبية

بيروت ـ لبنان

تلفاكس: 01-739696

ص.ب: 11-7226

الإهداء

إلى الشباب،

أمل المستقبل،

لتحقيق ما عجزنا عن تحقيقه

المحتويات

موضوع الكتاب الثاني

في كتاب "مختصر دراسة للتاريخ" للعلامة: أرنولد توينبي **Arnold Toynbee** ترجمة (الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية) جاء فيه:

"... يخلص المؤلف من آرائه بشأن ظهور الحضارات إلى أنها نتيجة استجابة لتحد صادر: إما عن البيئة المادية، وإما عن الوسط البشري، أو عن كليهما.."

فنظرية هذا العالم قائمة على: "التحدي والاستجابة" في نشوء الحضارات البشرية المبنية في أساسها على التحدي الصادر من الوسط البشري لبيئته المادية المحيطة به، بسيطرته عليها وتطويعها حتى تستجيب لتحقيق أهدافه في بناء حضارته المتقدمة في كافة المجالات كافة؛ الإنسانية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والعلمية والصناعية.

وبذلك يصبح المجتمع الإنساني ملقىً على عاتقه مسؤولية تحقيق تقدمه الحضاري البشري باستخدامه لوسائله المتاحة في تحديه لبيئته الطبيعية والجغرافية والبشرية المحيطة، بحيث يخضعها لتستجيب لمتطلبات حياته وتقدمه الاجتماعي.

هذا التحدي هو ما يتفق مع ما قام به الإنسان العربي في تحديه وتطويعه لبيئته الصحراوية التي استجابت له استجابة مظفرة حققت وحدته التجارية، مستخدماً فيها قوافله التجارية التي عبدت بأقدامها طرقها الطويلة

في رمال الصحراء، فشيدت على تلك الطرق المدن العربية المتحضرة، ومع بزوغ فجر الإسلام انطلقت من تلك المدن؛ وحدة دينية أضيفت إلى الوحدة التجارية، فعندها توحد العرب حضارياً؛ لغوياً ودينياً وثقافياً وتجارياً..إلخ

إلا أن العربي اليوم، وهو في عصر النفط والغاز والمعادن، لم يتبق له من الوحدة العربية شيء يذكر سوى حلم قديم، بعد أن انتهت في مجتمعه وعند سلطته إرادة التحدي والاستجابة لبيئته ومجتمعه البشري، في الخلق والإبداع، فأصبح في وضع متخلف حضارياً وعلمياً وصناعياً وثقافياً واجتماعياً وسياسياً، لأن الوحدة التي بنتها الأجيال تهدمت واندثرت .

وحيث إن مبدأ نشوء الحضارات قائم على التحديات الكبرى، فإن الشباب من أمتنا العربية مدعو للقيام بواجبه الإنساني الحياتي - من واقع بيئته التي تزخر بالخيرات - بالتصدي والتحدي لمتطلبات عصر الحضارة الحديثة؛ ليحقق وحدة التحدي العلمي والتكنولوجي لوطنه الكبير، ويستمر بتحديه حتى تنفيذ وتطبيق قيام الوحدة الاقتصادية والثقافية والسياسية العربية؛ المبنية على مبادئ الديموقراطية البرلمانية الدستورية، ومبدأ تداول السلطة وحقوق الإنسان وحقوق المرأة العربية، وبتحديه أيضا في إقامته للحكم الصالح الذي يطرد الغزاة من أرضه، ويحفظ المال العام ويحقق النهضة الزراعية والصناعية المتقدمة، ليقضي بها على البطالة والأمية العربية.

ولا يخامر ذهن أي عربي أدنى ريب في أن الشباب العربي هم اليوم أكثر من أي وقت مضى، لديهم القدرة والتصميم على تحقيق أهداف التحدي الحضاري تلك، بما لهم من علم وثقافة ومعرفة عصرية متقدمة بهويتهم العربية التاريخية المرتبطة بالحضارة العالمية الحديثة.

تمهيد:

المجتمع العربي وهرم السلطة

علاقة المجتمع العربي بالسلطة أو الدولة العربية بالمجتمع، هذه الثنائية السياسية هي من أقدم وأخطر الأوضاع العربية، فهي المسببة للمشاكل وللأزمة المستحكمة بين أنظمة الحكم العربية قديمها وحديثها. من هنا يمكن القول أن الأزمة القائمة بين السلطة العربية الحاكمة من جهة ومجموع المجتمع العربي من جهة أخرى، هي المسبب الحقيقي لتأخر الأمة العربية وشعبها، وانه لا تقدم لشعبنا العربي إلا بتسوية هذه الأزمة التاريخية الناشبة بين **سلطة** المجتمع العربي و**سلطته** السياسية.

في ظل الوضع السياسي المعتاد يصبح **المجتمع** هو صاحب السلطة والسلطة السياسية ما هي إلا ممثل لإرادة المجتمع، فالسلطة السياسية تنبثق من إرادة قوى المجتمع وفئاته وتشكيلاته الاجتماعية، وعلى هذا فإن المجتمع سابق على السلطة السياسية وهو أساسها. أما في مجتمعنا العربي فإن السلطة السياسية التي أخذت بالغلبة والقوة من المجتمع، من قبل فئة قليلة منه، لقيت دعماً وحماية من قوى أجنبية مهيمنة تفوق قوتها القوى المجتمعية، فهذا الوضع أخل بالتوازن بين **حقوق** المجتمع، وبين ما تملكته السلطة من قوة جعلتها في حل من الاعتراف بتلك الحقوق، فالسلطة السياسية بقوتها عملت على سلب حقوق المواطنين في المجتمع، في التمثيل وإدارة المجتمع، مما

جعل الأزمة مستمرة بين الدولة العربية والمجتمع. وكل ذلك مرجعه الخلل في حقوق وواجبات المواطنين، ذلك لأن الدولة/ السلطة تعمل بكل ما لديها من قوة بسيطرتها على مفاصل المجتمع من كل نواحيه، على قهر الإرادة الشعبية لمواطنيها، في محاولة منها لإبعاد قوى المجتمع المدني وتنظيماته من الوصول إلى حقوقهم العادلة المقررة طبيعياً وإنسانياً.

فالصراع الناشب بين المجتمع العربي ودوله، هو في إصرار أفراد المجتمع على مطالبهم بإلغاء حالة الطوارئ وإلغاء القوانين والتشريعات الاستثنائية، ومطالبتهم بتأسيس نظام دستوري ديموقراطي يحقق الشرعية لأنظمة الحكم عن طريق تطبيقها وتنفيذها لمبدأ الفصل بين السلطات وتداول السلطة، من أجل بناء مجتمع متقدم حضاري عماده مبادئ الدستور الذي من خلاله تتحقق العدالة والديموقراطية البرلمانية، التي تساعد في الوصول إلى تنفيذ الخطط والبرامج الإنمائية الصناعية والعلمية، وتقضي بالتالي على البطالة والفقر والأمية، ومن خلال هذه الإصلاحات السياسية والمجتمعية يتحقق التكتل والتضامن الشعبي الذي عن طريقه تتحرر الأراضي المغتصبة، وبتنفيذ تلك الإصلاحات يتحقق للمجتمع قدراته في التصدي للتحدي الحضاري لعالم اليوم المتقدم.

ذلك عن المجتمع العربي، أما عن "**هرم السلطة**" العربية، فإنها تعني من ناحية أن السلطة العربية "هرمة" متقادمة ومتهالكة بنظامها ورجال حكمها، كما أنها تعني أيضاً أن الشكل الهرمي المكون منه نظام السلطة العربية هو عتيق وقديم وبال وله طابعه الأثري التاريخي، كتقادم أهرام الجيزة المصرية! (مع كل التقدير للحضارة المصرية وآثارها)، وذلك لأن تركيبة السلطة التي هي بشكلها الهرمي التقليدي المعهود قد ولى عهده إلا في مجتمعاتنا، فهرم السلطة القديم، يتكون **أفقياً** من طبقة حاكمة عليا تمثل الملك/ السلطان/ الأمير/ الضابط القائد الأوحد، وعائلة وحاشية كل واحد منهم ورجال قبيلته وفئات الأعيان من المنافقين والمنتفعين، هؤلاء يتخذون من رأس الهرم مكانا لهم،

أما باقي الطبقات الاجتماعية المنتجة فهي قابعة في القاعدة الدنيا من ذلك المسطح يطلقون عليهم الرعية والرعايا. هذا **المجتمع القديم**، الذي استمر لقرون عديدة، قائم على طبقتين اجتماعيتين رئيسيتين هما السادة وأشباه العبيد ـ وإن كانت قد جرت الآن بعض التعديلات الطبقية وفقا للعلاقات العشائرية المرتبطة بالموارد المالية والمنافع الاقتصادية الحديثة ـ فالأمر واضح في هذه الحالة أن حقوق الطرفين في الطبقتين المذكورتين غير متساوية بصورة قطعية، وأن الفئة الأخيرة التي قهرتها السلطة بوضعها في أسفل السلم الاجتماعي، لا تتمتع بحقوق وواجبات المواطنة مع أنها هي الطبقة المنتجة، ومن هنا تظهر عمق الفجوة التي خلقتها السلطة بينها وبين المجتمع بكافة تكويناته الاجتماعية، من ناحية حقوق وواجبات المواطنة.

ولا حاجة بنا الإشارة إلى أن الشباب من أمتنا العربية يدرك أن التركيبة المجتمعية السابقة تمثل المجتمعات المتخلفة والمتأخرة حضارياً؛ في الإنتاج وفي العمل، وهي المسبب للبطالة والفقر، ذلك لأن التركيبة الإنسانية في المجتمعات المتقدمة حضاريا هي أن يتشكل هرم السلطة السياسية في وضع رأسي، هو المجتمع الواقف وليس المنبطح، والناس في **المجتمع الواقف جميعهم** متساوون في الحقوق والواجبات، فهم جميعاً يمثلون هيكل بناء الهرم كله وأن البنية السياسية الفوقية منبثقة أصلاً من البناء المجتمعي كله، الذي شيد هيكله على نظام حكم ارتضاه المجتمع من خلال انتخابه للأشخاص الذين وجد فيهم الكفاءة والمقدرة والصدق والأمانة لتمثيله في تنفيذ مصالحه وتحقيق مطالبه الاجتماعية والاقتصادية..إلخ، فقام المجتمع برفع ممثليه ونوابه ووضعهم في ذلك الموقع السياسي المميز المرموق، في سلطة الحكم التي اكتسبها ممثلو الشعب، فسلطة الحكم هذه **ينبوعها هي** سلطة المجتمع.

وعلى هذا الأساس يصبح هرم السلطة السياسية قد ارتفع بناؤه من قبل القوى الاجتماعية جميعها التي ساهمت بحرية وديموقراطية في بناء سلطتها

السياسية، فهذا البناء السياسي يتفق مع الوضع الطبيعي والمنطقي في هندسة البناء والتشييد المعتادة، إذ إنه مخالف للعقل والواقع، ولطبيعة الأشياء، أن يأتي بناء الهرم من الرأس ثم القاعدة! فإذا لم يقم بناء هرم السلطة، مثله مثل الهرم الهندسي على القواعد الاجتماعية السليمة فإن الهرم ليس فقط مصيره الانهيار، وإنما لن يصبح له وجود، فهرم بتلك الكيفية مصيره الزوال، ذلك لأن الطبقات الشعبية وكافة قوى المجتمع المدني من أحزاب سياسية وجمعيات نسائية وثقافية ودينية وغيرها، هي المكونة لهيكل بناء قواعد وطبقات الهرم الاجتماعي المختلفة، إذ إنها في تنافسها وصراعها السياسي السلمي، تقوم برفع قواعد بناء الهرم بصورة مباشرة.

لذا فإن الفئات الاجتماعية كافة، في المجتمع المدني، في حراكها السياسي والاجتماعي والثقافي، المستمر والدؤوب، تكون هي التي عملت على رفع ممثلي المجتمع إلى قمة السلطة السياسية التي تتشكل منها ثلاث سلطات أساسية؛ سلطة تشريعية وسلطة تنفيذية وسلطة قضائية، وحيث إنه لا يتصور مجتمع دون **سلطة تحميه**، فتكونت السلطات الثلاث على الأقل لتقوم بواجب حماية المجتمع وتحقيق تقدمه.

كما أن من أولى واجبات ومسؤوليات قوى المجتمع التي رفعت ممثليها بصورة مباشرة إلى رأس هرم السلطة السياسية، وجب عليها القيام بصورة واعية ومستمرة مراقبة ومحاسبة من وضعتهم في أعلى قمة هرم السلطات الثلاث؛ البرلمانية والحكومية والقضائية (مع ضرورة الفصل بين هذه السلطات الثلاث)، ففي حالة مخالفة ممثلي ونواب البرلمان للدستور، على سبيل المثال، أي في حالة تقصيرهم في واجباتهم في محاربة الفساد والكف عن التصرف في المال العام بدون وجه حق، أو التقصير في الدفاع عن الوطن، فإنه غني عن القول أن لهذه القوى التي انتخبتهم الحق في محاكمة من أساءوا أو تغييرهم أو تغيير حزبهم الحاكم طبقا لنظام وقانون تداول السلطة السياسية التي تتم وفق دورات انتخابية نيابية منتظمة، تعمل فيها

جاهدة على وصول الجهة أو الكتلة السياسية المعارضة التي وعدت الناخبين بتقويم وإصلاح الاعوجاج الذي أحدثته الحكومة السابقة التي كانت في السلطة وارتكبت الأخطاء. وأنه بهذه الصورة لا مكان في هيكل بناء هرم المجتمع الدستوري الديموقراطي، للسلطة العليا الحاكمة فيه بأن تغدو وراثية أو دائمة، وإنما هي مؤقتة تقوم بتنفيذ الأهداف والغايات الدستورية الموكلة إليها في دورتها الانتخابية وفقاً لما خولت به من قبل فئات وقوى المجتمع المدني.

وبما أن الهيكل الهرمي للسلطات العربية، قديمها وحديثها، كلها قد أخذت السلطة غصبًا وبالقوة من قبل قبيلة أو تحالف قبلي، أو من قبل تحالف قوى العسكر والجيش، الذين يقومون فيه بانقلاب عسكري ويذيع فيه أحد قادتهم البيان رقم واحد، هذه السلطات الحاكمة جميعها، القديمة /الحديثة، التي اعتلت عرش السلطة العربية بالغلبة والشوكة وقهر إرادة قوى المجتمع، فإنه من الطبيعي أن يكون نظام وتركيبة حكم السلطة فيها انفراديًا استبدادياً دكتاتورياً، فهذا الوضع يخلق تنازعاً في الحقوق بين طرفي **السلطة** المنفردة بالحكم وبين القوى الاجتماعية في **سلطة المجتمع** التي تريد الوصول **إلى حقوقها** في المشاركة السياسية التي سلبت منها، وأنه كلما زادت مطالبة سلطة المجتمع بالمشاركة السياسية، ازداد الوضع تأزماً وعملت السلطة الغاصبة المهيمنة مزيداً من سيطرتها البوليسية على مقدرات المجتمع من خلال تغلغلها في مختلف مؤسساته وعدم ترك المجال لقيام أحزاب سياسية ومنع التعددية السياسية والفكرية، مما عطل تقدم المجتمع العربي، وعمل هذا النظام على ازدياد البطالة والفقر والجهل في المجتمع. ومن أجل تغطية السلطات العربية على الفشل الذي وصلت إليه أنظمتها إلى ذلك المستوى من التأخر، تعمل الأنظمة جاهدة على **إضعاف** المجتمع وقواه الفاعلة، ولكنها بإضعافها سلطة المجتمع تكون محصلته ضعف السلطة الحاكمة نفسها، وتخلفها في نفس الوقت.

هذه الأنظمة العربية الحاكمة قبلياً/عائلياً/ طائفياً/عسكرياً/مناطقياً، تصبح هي المسئولة دون سواها، عما أصاب ويصيب مجتمعنا العربي من تخلف فكري وعلمي وصناعي، وتأخر حضاري، فهي المسئولة عن الفشل الحضاري الذي حل بالأمة العربية، ومسئولة عما أصاب أقطارنا كافة من مآس ونكبات، فهذه الأنظمة ورجالها مسؤولون بدون استثناء عن المآسي والكوارث التي يعيشها الشعب العربي في كل أقطاره؛ الاحتلال الصهيوني والاحتلال الأميركي لأراضينا في فلسطين والعراق، والأنظمة مسؤولة عن تخلف شعبنا وتمزق وحدته؛ قبائل ووحدانا في السودان والصومال، ومسؤولة هي ورجالها بإقامتهم لكيانات قطرية ضعيفة استبدادية وغير ديموقراطية.

فهذه الأنظمة هي المسؤولة عن تخلفنا في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والثقافية والتعليمية كافة، ومسؤولة عن تأخرنا وتخلفنا عن ركب الحضارة الإنسانية في علوم تقنيات المعلومات وتقنيات التكنولوجيا وفي علوم الذرة والفضاء، وغيرها وغيرها، وبالتالي هي المسؤولة عما حل بالمجتمع وأفراده وفئاته من فقر وبطالة. ونتيجة لذلك نشأ البون الشاسع بين المجتمع بجميع طبقاته وفئاته الشعبية، وبين الطبقة الحاكمة الاستبدادية الديكتاتورية، الذي لا يمثل نظام حكمها إرادة ورغبات الشعب، فهي أنظمة بالية ومتخلفة لا تتماشى ومتطلبات العصر الحديث. ولهذا فإن الأزمة تصبح قائمة ومستمرة بين المجتمع العربي وسلطات حكمه، ما لم يبادر في الحال، ليس إلى ترميم، وإنما إلى إصلاح وتغيير السلطات المتربعة على رأس الهرم السياسي العربي القديم وبناء الهرم السياسي العربي القائم على قوة الدستور والعدالة الاجتماعية والديموقراطية البرلمانية بتداول السلطة والفصل بين السلطات.

ويحسن بنا الإشارة إلى أن أخذ السلطة بالغلبة والقوة من مجموع المجتمع هي حالة غير متحضرة أقرب ما تكون إلى حالة الحيوان منها إلى حالة الإنسان؛ لقد كانت البشرية في عصورها الأولى المظلمة، كانت في

حالة الإنسان الذئب الذي يقتنص الفرصة للانقضاض على الضعيف. إلا أن المجتمع العربي الذي يحمل على أكتافه تاريخ حضارة إنسانية عريقة غير لائق بالسلطات الحاكمة أن تنقض عليه بوحشية تعطل فيه قواه الإنسانية البشرية الخلاقة المبدعة، وتسوقه إلى التخلف والفقر والأمية، مع أن هذا الشعب قد قام بجهد حضاري أثبت فيه تحديه للظروف الطبيعية والجغرافية التي كانت تحيط به، وأثبت فيه وحدته الثقافية والاجتماعية واللغوية التي لا نزال نعيشها اليوم، على الرغم من تعطيل الأنظمة في الوقت الراهن للجانب السياسي من هذه الوحدة.

* فما نهدف إليه في هذا الكتاب هو تبيان أن السلطة العربية يجب أن تنبثق من إرادة المجتمع العربي وعلى الخصوص من مكونات وفئات المجتمع المدني بأحزابه السياسية واتحاداته المهنية وتشكيلاته الاجتماعية بأطيافه المختلفة وبألوان فسيفساء المجتمع العربي على أساس متساو في الحقوق والواجبات حتى يشعر كل فرد بأنه مواطن صالح، ومنها وعلى الخصوص وبالذات أن يكون للمرأة العربية موقع ومكان بارز في تشكيلة السلطة في البنية الفوقية، في مراكز اتخاذ القرار حتى يتحقق التقدم في مجتمعنا العربي، ابتكاراً واختراعاً وصناعة، مدعومة بالعدالة والحرية التي تضمنها القول الحكيم: "لقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا".

وأنه استكمالا لما جاء طرحه من حوارات في الكتاب السابق **(حوارات ــ1)**، فالحوارات مستمرة دون انقطاع مع الشباب العربي الذين منهم جيل السبعينيات بصفة عامة، وعلى الأخص من شباب الجزيرة العربية، وهدفنا من تلك الحوارات هو القيام بمحاولة العمل على خلق تنمية إنسانية بشرية فكرية ثقافية تعمل على بناء الوحدة العربية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فحواراتنا سندها وقوة اعتمادها على الاستجابة لتحدي قوى المجتمع المدني العربي التي ستأتي بأنظمة حكم وسلطات شعبية تأخذ بكل القدرات والإمكانات البشرية والمادية والثقافية العظيمة التي يملكها شعبنا،

وكذلك التحدي والاستجابة للثروات العربية الهائلة المخزونة في أرضنا، والثروة والغنى في ثقافتنا وتاريخنا، وأهمها جميعاً هي الأخذ بالثروة البشرية العربية الحقيقية في وطننا الكبير، والتحدي والاستجابة في الأخذ بصورة أساسية بالثروة البشرية لنسائنا ورجالنا وأولادنا، الذين هم الأمل والثروة في إقامة أنظمة حكم سياسية حضارية حديثة تعمل على تحقيق **التحدي الحضاري** المطلوب، باستخدامهم لكافة تلك الإمكانات العربية المتوافرة لشعبنا من أجل بناء مستقبل الحرية والوحدة العربية وتقدمها الحضاري.

لقد وجدنا انه لتحقيق الأهداف المشار إليها في التنمية والبناء الوطني والقومي العربي وتحقيق الحرية التي تأتي بالتقدم العلمي والصناعي، فإنه لن يقوم بهذه الأهداف إلا المجتمع السليم المعافى الذي يفرض إرادته على الدولة للوصول إلى تلك الغايات، فاقتضى منا الأمر البحث في السلطة والمجتمع اللذين أوصلانا إلى **الظاهرة القبلية** في مجتمعنا التي بنيت عليها أنظمتنا السياسية القديمة والحديثة، التي هي ضمن موضوع فصول هذا الكتاب.

وأنه في هذا الخصوص، نود بداية ذي بدء التنويه إلى أن **النظام القبلي** كان هو النظام السائد في العالم القديم في شرقه وغربه بدون استثناء، لقد استمر النظام القبلي العالمي في الغرب لقرون طويلة، إلا أن المجتمع الغربي الذي دخل عصر الحداثة – منذ عدة قرون – أمكنه التغلب فيها على **العصبية القبلية** وبتغلبه هذا أمكنه الوصول إلى بناء مجتمع دستوري متقدم حضاريا. أما في بلادنا العربية فإن النظام القبلي لا يزال سائداً في مجتمعنا، وأنظمة حكمنا التقليدية، تتمثل فيها العصبية القبلية/ العشائرية/ العائلية/ الطائفية غير الدستورية، وأنه بهذا الحديث معكم نحاول بمعرفتنا المتواضعة أن **نتحاور** للوصول إلى حلول لهذه المعضلة الاجتماعية- السياسية العربية لنبني معاً الوطن السعيد المرتجى.

الفصل الأول

السلطات القبلية العربية، وقوى الاستعمار الغربي

وإنه إلى الحد الذي وصلنا إليه في التمهيد السابق الذي تناولنا فيه جوانب من السلطة العربية، نكمل هنا حوارنا المستمر مع الشباب العربي، للتعرف على السبل الكفيلة ببناء الشباب لسلطتهم السياسية التي تساعدهم على النهوض الحضاري المأمول، وقد وجدنا أنه من المناسب الذهاب بعيداً معهم عبر تاريخنا الطويل، لمعرفة مدى تأثير النظام القبلي العتيق، في أنظمة الحكم الحالية، والتعرف على الكيفية التي وصلت إليها السلطات الحاكمة العربية إلى سدة الحكم. ذلك لأن أفراد المجتمع العربي، الذين من بينهم الشباب، قد عانوا الكثير من قسوة السلطات الحاكمة العربية، وأصبح من حق كل منهم أن يتساءل عن شرعية هذه السلطات التي أخرت المجتمعات، ويتساءل كيف يكون باستطاعته، من خلال حقوقه و**سلطاته** الطبيعية الإنسانية، أن يساعد في إيصال سلطات حاكمة عربية تضع على عاتقها مهمة **إعادة الاعتبار** للإنسان العربي وتحقيق تقدمه ونهضته؟

فأسئلة أولئك الشباب كثيرة، منها على سبيل المثال، كيف تولت الأنظمة العربية حكمها لأقطارنا؟ وكيف نالت شرعيتها؟ وهل حكمها الراهن هو بدون شرعية سياسية واجتماعية ودستورية شعبية؟ وكيف يمكن إصلاح هذا الوضع؟ ولماذا لا تزال الأنظمة العربية، جميعها تقريبا، متمسكة بالنظام

القبلي التقليدي؛ نظام البادية، ونظام العائلات والعشائر، وأنها لا تتبع نظام الدولة الحديثة؟. هؤلاء الشباب يريدون تفسيراً لطبيعة السلطة السياسية في الوطن العربي حتى يكون باستطاعتهم رسم مستقبلهم الذي يأملون.

إن موضوع كتابنا يدور حول السلطة العربية القديمة، بالذات في الجزيرة العربية، ثم ينتقل منها إلى السلطة العربية الحديثة، وفي كل من القديم والحديث نتبيّن منهما علاقات السلطة بالمجتمع العربي.

لقد كانت قوى المجتمع العربي المنتجة في كل الفترات التاريخية تقوم بواجبها الملقى عليها في بنائها لحضارة إنسانية متقدمة مشهودة في أركان الدنيا، على الرغم من معاناة المجتمع المستمرة من أنظمة حكمه. والموضوع الحالي "الجزيرة العربية أمام التحدي الحضاري"، المقصود منه واجب العربي قيامه باستغلاله الأمثل للعناصر والمكونات المادية والبشرية كافة في أرض وطنه، وهي إمكانات هائلة وعظيمة، تساعد، لو أحسن استخدامها من خلال حكومات رشيدة وصالحة، في تحقيق التقدم الحضاري للمجتمع العربي، الذي يتحدى بفعالياته وإنجازاته التقدم الحضاري الراهن.

ولكي نعطي المجتمع العربي حقه الحضاري العظيم، اقتضى الأمر منا الرجوع إلى الوراء وإمعان النظر في سلطة النظام القبلي، الممتدة جذوره منذ الأزمان الغائرة في القدم، وعندها قد لا نصاب بالدهشة والاستغراب إذا عرفنا أن ذلك النظام القبلي القديم لا يزال يعيش بيننا بكل تكويناته السياسية والثقافية.

* وقبل الرجوع إلى الماضي القديم، سنتناول في هذا الفصل بصورة عاجلة، علاقة السلطة العربية بالمجتمع، متخذين فترة زمنية من التاريخ العربي في الجزيرة العربية، وهي التي حل بها الاستعمار الغربي على أرضها، منذ منتصف الألفية الأخيرة، أي قبل خمسمائة عام مضت، مع بيان العلاقة التي نشأت بين السلطة القبلية العربية وسلطات الحماية

الاستعمارية، وسنترك جوانب عديدة متعلقة بالقبيلة العربية القديمة إلى فصول قادمة في هذا الكتاب، آخذين في الاعتبار النهضة الحضارية التي قامت في المجتمعات العربية في الجزيرة العربية منذ قرون عديدة.

فحديثنا في هذا الفصل يشتمل على مشاهد ومحطات موجزة ومختصرة جداً، سياسية واجتماعية، عن السلطة والمجتمع في الجزيرة العربية منذ نهاية القرن الثامن عشر، مع أن الاستعمار الغربي في المنطقة كان قد بدأ تواجده على شواطئ الجزيرة العربية منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وقد تناولنا شيئاً من هذا الموضوع في الكتاب السابق. فتلك المشاهد والمحطات نختصرها فيما يلي :

ـ **أولا: عصر بداية الحماية الاستعمارية للمنطقة**، ولنبدأ تلك الفترة بتصور للمشاهد التالية:

من المعلوم أن مجتمعات الجزيرة العربية هي عبارة عن تشكيلات قبلية تحالف بعضها وتصادم كثير منها مع الآخرين، فتكون مجتمعها القبلي القائم على الغلبة والشوكة. ويتمثل مشهد **المجتمع** في أطراف وشواطئ الجزيرة العربية؛ **في تركيبته** القبلية، من مكونات تجمعات أصولها قبلية. هذه التجمعات القبلية منحدر بعضها من فروع لقبائل من داخل الجزيرة قدمت إلى شواطئها وفقاً للتنقل القبلي المتعدد الأسباب، فسكنت هذه في أراضٍ، كانت قد تسببت في نزولها نزاعات محلية، كما يحدث في النظام القبلي عند نزول الغير في أراضيها ومشاركتها في المراعي وفي موارد الرزق والمياه المحدودة المصدر. ويشتد النزاع خاصة في حالة فقدان الطرفين لسلطة حاكمة منتخبة عشائرياً لها القدرة على حل الخلافات عن طريق المساومات والتسويات القبلية، ففي حالة عدم توافر السلطة الحاكمة في **تثبيت الحقوق**، يتحول النزاع بين القبيلتين إلى حرب، والحرب نتيجتها غالب أو مغلوب، الغالب ينفذ مبدأ **الغلبة** في إخضاعه المغلوبين لأمره. وبهذه الصورة تتكون

كيانات قبلية من طرف المجموعة الغالبة، التي تقوم بالتحالف مع جماعات قبلية أخرى - إما رهبة أو رغبة - فغرض التحالف هو استزادة القبيلة الغالبة قوة على قوتها للدفاع عن نفسها أمام القبيلة المغلوبة التي يحسب لها حسابها عندما تجمع قواها لتأخذ **بالثأر** ممن غلبها. وعلى هذا المنوال يستمر دوران رحى الحرب القبلية قائمة بين الطرفين.

هذا المشهد **السياسي في ثغور الجزيرة العربية**؛ منها ما هو في الجنوب ومنها ما هو في الشرق، وفي الغرب وفي الوسط وفي الشمال أيضاً، كانت قد تكونت فيها كيانات قبلية أو فروع وبطون لها، استقرت في سواحل الجزيرة العربية، سواء أكانت متحالفة أم خاضعة لقوى أخرى. هذه الكيانات لم تشكل **مجتمعات** قوية لأنها كانت كيانات قبلية متنافرة في انتماءاتها وزعاماتها، ومشتتة في قوتها، وبالتالي لم يكن في مقدورها مواجهة قوى كبيرة مثل القوة العثمانية والإيرانية اللتين كانتا متواجدتين في المنطقة وقتئذ.

وإنه بوصول الأساطيل الغربية أضحى واضحاً أكثر من ذي قبل، أنه قد قدمت إلى المنطقة قوى جديدة، قوى صاعدة، قوى دولية فرضت هيمنتها العسكرية والسياسية في مناطق عالمية، هذه القوى الاستعمارية الجديدة وجدت أن مصالحها الاستراتيجية تقتضي تواجدها في الشواطئ العربية بالدرجة الأولى، منذ أن بدأت زحفها الاستعماري للوصول إلى الهند، ففرضت **الحماية** على النقاط الجغرافية الاستراتيجية كالمنافذ والمضايق البحرية والموانئ والثغور على شواطئ الجزيرة العربية المهمة، حماية لمصالحها وأهدافها التجارية والاقتصادية والعسكرية التوسعية.

كانت الظروف **الاقتصادية** المحلية التي يعيش عليها **المجتمع** أثناء المرحلة الاستعمارية الأولى؛ هي أن الموارد المعيشية في هذه المناطق شحيحة، حيث كان المجتمع يعيش على اقتصاد ندرة وكفاف، قوامه الرعي

والزراعة المعتمدة أكثرها على مواسم الأمطار. كان الناس يزرعون النخيل في الواحات، ويعتمدون على صيد الأسماك والغوص على اللؤلؤ في البحار المجاورة، بالإضافة إلى أعمال حرفية تمثل إنتاج المجتمع البدوي، أما سلطاتهم المحلية، عماد مواردها يكاد ينحصر في تحصيلها مكوس التجارة المارة وعلى الضرائب المحلية، وفي بعضها يعتمد على ضريبة الغوص على اللؤلؤ، التي كانت تحصل من الغواصين، وأكثر هذه الضرائب مبالغ في نسبتها وقيمتها التي كانت تجبى من أفراد المجتمع الفقير العاجز ويتم تحصيلها بالعنت والقوة. ومع أن التجارة البحرية في هذه الثغور حرفة رئيسية قديمة لشرق الجزيرة وجنوبها، إلا أن تواجد الأساطيل الغربية التجارية المتنافسة قد أرغمت أهل المنطقة على عدم الاعتماد على هذا النشاط بعد أن فرضت عليهم قيود من قبل القوى الاستعمارية، بل أنها قامت بمحاربتهم وإحراق سفنهم وتحديد خطوط الأماكن التي يمكنهم الإبحار فيها، وأن لا يتم ذلك إلا بإذن وتصريح منهم.

ففي تلك الفترة، كان النظام السائد هو نظام القبيلة التقليدي الشائع منذ أزمنة بعيدة، **السلطة** تتمثل في شيخ القبيلة وعائلته، والباقون أتباع **رعايا** (من الرعية جمعها رعايا، وبحسب معجم الوسيط فإن الرعية هي الماشية الراعية، والماشية المرعية، وعامة الناس الذين عليهم راعٍ يدير أمرهم ويرعى مصالحهم)، وإذا أمكننا أن نطلق على واقع هذا المجتمع، فلن نجد فيه سوى تجمع قبلي نشاطه الاقتصادي قبلي، ونشاطه الثقافي والاجتماعي قائم على العادات والتقاليد القبلية الموروثة.

فإذا أخذنا بتلك الهيكلية القبلية التي كان قائما عليها المجتمع القبلي في وقت تواجدت القوى الاستعمارية الغربية، فنجد أنه قد تكونت من مجموع هذه الحالة الوضعية التالية:

لقد كانت الطرق البحرية المؤدية إلى جزر التوابل في شبه القارة الهندية وجنوبها ــ كما مر بنا في الكتاب السابق ــ مصدر منافسة بين أساطيل سفن القوى الاستعمارية الغربية، وكانت منطقتنا العربية الواقعة في وسط حروب المنافسة الاستعمارية الغربية، قد جعلت من بريطانيا العظمى مسيطرة على شواطئ الجزيرة العربية، بعد أن تمكنت من استعمارها لشبه القارة الهندية ــ لقد طردت منها آنئذٍ المستعمرين الذين سبقوها؛ البرتغاليون والهولنديون ــ وأنه اعتباراً من القرن التاسع عشر الميلادي، قامت بريطانيا العظمى بتأمين طرقها في الثغور والمضايق البحرية في الجزيرة العربية، فقامت بتغطية وتحصين مواقعها أمام القوى الأخرى البعيدة والقريبة، ولإعطاء الشرعية لوجودها، قامت بعقد معاهدات واتفاقيات **حماية** مع كل شيخ قبيلة أو رئيس عشيرة (عشيرة الرجل، بنو أبيه الأقربون وقبيلته) في الموانئ العربية، وتوسعت فيما بعد لتشمل أراض عربية أخرى. لكن هذه الكلمة السحرية "حماية" **protection** التي تعني دفع الأذى عن جانبي التعاقد ووقايتهما من المخاطر، تطورت إلى حكم محميات **Protectorates** تحت حماية الدولة المستعمرة.

كان الاستعمار البريطاني قد طبق نظام الإمارات المحمية في شبه القارة الهندية التي استمرت تديرها الأسر الهندية الحاكمة القديمة تحت إشراف وكلاء سياسيين بريطانيين، فتمكنت بريطانيا بهذه الطريقة من **تجزئة** الأراضي الهندية، ومن ثم أمكنها السيطرة على القارة الهندية بكاملها.

إلا أن مفهوم الحماية في الجزيرة العربية قد توافقت مع الأعراف القبلية، التي تحمي أو يحتمي بها المستجير، إذ كان شيخ القبيلة وعائلته في هذه المنطقة وفي تلك الفترة، هم بالفعل في وضع المستجير من قوى المجتمع المحلية، ومن القوى الخارجية المحيطة التي هي قوى قبلية منافسة، أو قوى عربية وأجنبية طامعة، وذلك بحسب تواجد تلك القوى وأهدافها

الإستراتيجية في المنطقة في تلك الفترة. وبهذه الصورة كانت معاهدات الحماية البريطانية متفقة مع أهداف وغايات العائلات القبلية في المنطقة.

* ومتابعة لموضوع الحماية البريطانية نقوم بنقل بعض من **مضمون فقرات** قليلة من معاهدات للحماية البريطانية اطلعنا عليها نوردها على سبيل المثال لا الحصر، وفي هذه المعاهدات يكون الطرف المحمي فيها هو شيخ القبيلة الذي يتعهد في سبيل حمايته بما يلي:

ـ يتعهد أن لا يستقبل وكيلاً أو ممثلاً لدولة أجنبية لا في داخل حدود أراضيه ولا في أي مكان آخر بدون إذن مسبق من الحكومة البريطانية،

ـ ويتعهد أن لا يتنازل ولا يبيع ولا يؤجر ولا يرهن، ولا يعطي للتملك أو أي غرض آخر، أي جزء من أراضيه إلى حكومة أو رعايا أية دولة أخرى، بدون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية،

ـ وأنه في حالة العثور على منجم للبترول في أراضيه، لا يحق استغلاله من قبل أي شخص عدا الشخص الذي تعينه الحكومة البريطانية،

ـ وعدم السماح مستقبلاً **باستخراج** أي مواد معدنية أو بترولية سواء من **جانب الشيخ** أو من أية دولة أجنبية أو مواطن دولة أجنبية دون استشارة المقيم البريطاني،

ـ وتعترف الحكومة البريطانية بالشيخ **رئيساً مطلقاً لقبائله وأبنائه وخلفائه من بعده بالوراثة** لكن شريطة أن يكون اختيار شخصية الحاكم بناء على تعيين "الحاكم القائم" لخليفته مع مراعاة ألا يكونوا من الأشخاص الذين يعارضون الحكومة البريطانية في أي جانب من الجوانب.

يلاحظ أن الطرفين في هذه المعاهدات غير متساويين فهي معاهدات قائمة على الخضوع والإذلال للطرف الأضعف، وخاصة أنها جاءت بعد حرب بين الطرفين.

سبقت الإشارة أعلاه، إلى أن الإمارات الهندية التي فرضت عليها الحماية كانت سبباً في تجزئتها للقارة الهندية، ولكون المشيخات أو الإمارات العربية كانت مجزأة وكثيرة العدد حسب وضعها القبلي وقتئذ، فتكون الحماية البريطانية قد عملت على تثبيت **تجزئة المجزأ، فأضعفتهم فسيطرت عليهم.** لقد كانت بريطانيا هي اللاعب الوحيد بلا منافس في الجزيرة العربية، مما أتاح لها بسهولة توطيد أركان استعمارها طوال تلك الفترة. وأنه مما لا شك فيه أن تلك المعاهدات هي قديمة، وقد ألغيت بعد انسحاب بريطانيا من المنطقة عام 1971 وإعلان الاستقلال عنها، والتحرر من الهيمنة والاستعمار البريطاني (يحتفل سنويا بعيد الاستقلال الذي هو **العيد الوطني)**، إلا أن تأثيرها في مجرى حياتنا الحالية لا يزال قائمًا.

فالحماية البريطانية، كانت بتلك المعاهدات، قد أعطت لها صفة شرعية في الحماية الخارجية لشيوخ القبائل في الثغور والموانئ في سواحل الجزيرة العربية، كما أعطت لها حرية التدخل التدريجي في الشئون الداخلية لتثبيت حكم شيخ القبيلة الذي عقدت اتفاقها معه، لحمايته من كل مكروه، في مقابل تسليمه لها بكل شيء؛ سياسي واقتصادي واستثماري في بقعة الأرض التي له سيطرة عليها، وهي تلك التي كانت القبيلة قد استولت عليها بالغلبة أو بالتحالف أو كانت قد جزأتها بريطانيا أو سواه، وخاصة وأن الوضع المالي والاقتصادي في معظم تلك المشايخ كان في حالة رثة، فلم يكن لتلك المشايخ بالفعل أي مقومات معيشية اقتصادية بعد أن حرمت من الغارات القبلية، أو من النشاط التجاري البحري بعيد المسافات البحرية.

يتضح مما سبق أنه في المراحل الأولى للحماية البريطانية لم يكن هناك كيان لسلطة رسمية إدارية من قبل الجهات القبلية القائمة التي كانت مستلمة لزمام النفوذ، إلا أن توقيع معاهدة الحماية في حد ذاتها تعني وجود طرفين، بغض النظر عن ضعف أو قوة أي منهما، فتوقيع الأمير/ الشيخ على

معاهدة الحماية استتبعه أن الشيخ الموقع على المعاهدة أصبحت له صفة رسمية، بل له سلطة اتخاذ القرار.

وبهذه الكيفية أعطت الحماية البريطانية للشيخ الموقع على المعاهدة، **سلطة** رسمية سياسية، اتخذت صفة أمير أو شيخ أو سلطان مثلاً، وأصبح الشيخ على رأس الإمارة التي اتخذت مسمى الإمارة من اسم أرض القبيلة أو العائلة التي ينتمي إليها الشيخ، وهكذا تكون قد ولدت **سلطة المشيخة** داخل الإمارة التي غدت لها رقعة أرض في حدود جغرافية غير معلومة على وجه الدقة إلا من قبل دوائر الاستعمار البريطاني التي رسمت خرائط الحدود لكل إمارة متداخلة أراضيها بعضها في بعض، كما ظهر من النزاعات الحدودية التي برزت بين حكومات قبائل المنطقة، أثناء وبعد خروج بريطانيا، فالحماية البريطانية قد تعاملت مع سلطات المشايخ بمبدئها المعروف "فرق تسد" فيما يتعلق بحدود أراضي تلك الإمارات !

لقد نفذت بريطانيا على الأرض ما هو في مصلحتها الإستراتيجية، ووقعت ونفذت المعاهدات مع الأسر الحاكمة، إلا أنها لم تأخذ في حسبانها أي دور أو أي اعتبار **للمجتمع** وقواه المنتجة التي يتشكل منها مجموع الناس في تلك المناطق، لقد أهملتهم الحماية واعتبرت أنه لا يوجد أي مجتمع بشري على أرض تلك المنطقة سوى الأسر الحاكمة.

وعلى هذا الأساس وبهذه الصورة، أصبح **المجتمع** كله من قبل سلطات الحماية كماً مهملاً منذ البداية، وتركزت **السلطة** الكاملة للمشيخة/ الإمارة في يد الشيخ الذي وقع معاهدة الحماية، فأهمل هذا إرادة المجتمع أيضا، وأنه تحت إشراف ومساندة سلطة الحماية قام هذا الشيخ بحصر الحكم في ذريته في أبنائه وخلفائه من أصلابه - سنرجع لموضوع الوراثة في النظام القبلي- وحمت السلطة الأجنبية هذا النظام الوراثي بموجب نصوص معاهدة الحماية، بل نراها في كثير من الأحيان تتدخل لتثبيت هذا النظام من

الوراثية، على أن تكون هذه الوراثة: (لا تعارض الحكومة البريطانية في أي جانب من الجوانب) كما نصت على ذلك المعاهدات. فبحصول الشيخ الحاكم على **شرعية** الحكم والوراثة من السلطة الحامية، أصبحت شرعيته أمام أسرته وعشيرته مضمونة، أما باقي أفراد المجتمع فليس لأي منهم أية حقوق تساعدهم في التدخل، سواء بصورة مباشرة أم غير مباشرة، في إدارة شئون حياتهم، فالحقوق مقتصرة على طبقة العائلة المحمية التي تحكم المجتمع. من هنا جاء فصل المجتمع عن السلطة طبقا للحماية البريطانية، وتم تقوية وحماية مركز السلطة إلى الحد الذي يذكر فيه هؤلاء الحكام، في مواجهة أي نوع من المعارضة لسلطتهم المطالبة بشيء من الحقوق والإصلاح، فإنهم يهددون ويذكرون جميع المواطنين، في صورة مستمرة، بأنهم قد أخذوا الحكم بالسيف والغلبة وأن السيف لا يزال في يدهم!

وعندما استقرت **شرعية سلطة** الحكم في يد شيخ الإمارة، قام هذا باحتكار السلطة في ذريته، معتبراً أن الإمارة؛ أرضها والبشر المقيمين عليها هم من "الرعايا" الذين أصبحوا ضمن ملكية إقطاعية كبيرة، أي أنه قد أصبح للأمير الشيخ حق فردي في السلطة، قد حازها بداية بالغلبة القسرية من الآخرين، ومعاهدة الحماية أكدت له هذا الحق أيضاً، فعمل على أساس أن حقه الفردي هذا يجيز له توظيفه كأي من أشياء التملك والاستثمار الاقتصادي الشخصي الخاص به؛ يحق له أن يقوم في إمارته بالاستيلاء والحيازة والبيع والرهن، لكل ما في داخل إمارته من موارد وأراض وغيرها لصالحه الشخصي، كما يحق له إهداؤها وتقسيمها بين الورثة وعائلته وأسرته وأفراد قبيلته وحلفائه والمقربين إليه، فهذه أمور تلقى مساندة من السلطات الحامية بحجة أنها أمور داخلية.

لقد قامت الحماية البريطانية بتمكين الأسر الحاكمة من كل هذه الأمور التي تتعارض مع القوانين والأنظمة والأعراف الدولية الإنسانية، ومع الأنظمة الشرعية الإسلامية؛ ذلك لأن كثيراً من **المذاهب الإسلامية** في

الجزيرة العربية تطبق مبدأ الانتخاب لرئيس السلطة ولا تقر احتكارها أو وراثتها. بل أن الحماية البريطانية في تعاملها مع الأسر الحاكمة لم تراع الإجراءات والأعراف القبلية التقليدية المتعارف عليها أيضاً، فالإجراءات القبلية تقتضي أن لا يصبح شيخ للقبيلة، وهو مركز اجتماعي- سياسي هام، إلا إذا توافرت في الشيخ المنتخب شروط قيادية وخلقية وأدبية معينة، وأنه لا يصل إلى هذا المنصب إلا عن طريق التزكية من قبل رجالات المجتمع، كما حدث مثلاً لأمراء الكويت في فترات ليست ببعيدة، وبالتالي فإن أمر التوريث غير وارد، ولا يفرض أمره بالولادة سلفاً، وإنما يترك **لقرار الجماعة** (أي الجمعية المنعقدة أو المجتمع) الذي يتخذ فيها القرار بالشورى فيما بينها ليحقق ولى الأمر المنتخب، الحماية وتقديم اجتهاد جديد وتغيير بنيوي تعود فوائده على الجماعة والمجتمع. كما أنه من العرف القبلي أن الأملاك العامة مشاعة للرعي والصيد والسقاية، وإذا فرضت ضرائب ومكوس على التجارة أو محصولات الأراضي مثلا، فإن حصيلتها تكون لصالح المجتمع القبلي، ويعطى منها للشيخ لتسييره شؤون إدارة المركز القبلي الذي من مسؤولياته توفير الأشغال العامة، واستصلاح الأراضي، وتطوير قنوات الزراعة والري ويقدم الناس الضرائب على أساس هذه الخدمات، وعلى الشيخ ألا يبذر الأموال العامة ولا يخون الأمانة فهي من الأخلاقيات الأساسية للقبائل العربية، وخاصة لدى شيوخها وزعمائها، ويسمى أميراً وشيخاً لكونه قد تحلى بتلك الأخلاق.

إلا أن الاستعمار البريطاني قد ثبت الحكم الفردي وعزز الوراثة الأسرية القبلية، وأعطى السلطة المطلقة في يد أسر حاكمة استولت على المال العام كله، وقام بحمايتها وفقا لمعاهدته معها، وحارب تطلعات المجتمع في المشاركة في الحكم وبناء الدولة الحديثة، فما يهمها سوى تحقيق مصالحها الاستراتيجية الاستعمارية، فتلك الدول الاستعمارية المنادية اليوم

بالديموقراطية، هي المسؤولة عما ورثته لمجتمعاتنا من أنظمة حكم غير ديموقراطية كانت هي المؤسس والراعي لها.

ثانيا: عصر اكتشاف النفط:

مع مطلع القرن العشرين انبعثت من جوف الأرض العربية رائحة نفاذة من سائل النفط، كانت الأرض العربية قد احتفظت بكنوزها في جوفها طوال آلاف السنين، وأباحت ببعض من أسرار نعمتها فعمت تباشيرها المنطقة، فأصبحت مالكة للثروات الجيولوجية المستخرجة من أعماق أرضها الطيبة. أشرنا إلى هذا الموضوع في الكتاب السابق.

نذكرّ، بما نصت عليه معاهدات ومواثيق الحماية البريطانية، أن كل ما في أرض الحماية وبحرها من معادن يرجع التصرف فيها إلى الدولة المستعمرة بريطانيا العظمى، فجاء استغلالها لتلك الموارد أبشع استغلال.

لقد ضخت آبار النفط العربية ثروة هائلة، لم تكن مجتمعاتها متوقعة حصولها بهذه السرعة والكيفية، لقد جاءت الثروة الهائلة للمجتمع العربي كأنها هابطة عليه من السماء، هطلت بغيث مواردها الضخمة على الأرض العربية المجدبة الجافة في الصحراء القاحلة، لقد جاءت موارد وعائدات استخراج النفط لهذه المنطقة وهو لحدث عظيم ترك آثاره الكبيرة على مجتمع وحكام المنطقة.

وإذا أخذنا الأمر من ناحيته **الاقتصادية** نجد أن المال لا يتأتى الحصول عليه من قبل المجتمع أو الأفراد إلا بعمل وعرق وجهد وتعب، وحتى المال العائد من صافي الربح (التجاري أو المالي مثلاً) لا يتوافر إلا بتضافر ثلاثة عناصر على الأقل، مطلوب من الأفراد والمجتمع توفيرها حتى يمكنهم الحصول على **الربح**، وذلك لأن الربح وتراكمه يتولد من عناصر؛ قوة رأس المال، وقوة العمل، وقوة الإنتاج. والإنتاج تتمثل فيه المحصلة التي

يتقرر فيها الربح والخسارة في سوق متنافسة في العرض والطلب، والذي يفوز فيه هو المنتج الأحدث اختراعاً والأفضل تقبلاً لرغبات وحاجات المستهلكين.

إلا أن الذي حدث في المجتمع النفطي العربي، هو أنه عندما وصلت ليده أموال النفط لم يكن يملك شيئاً من تلك العناصر الثلاثة المذكورة، وكل ما كان يعلم عنه هو أن هذه المادة النفطية التي لها تركيباتها الكيميائية الكثيرة قد تم اكتشافها واستخراجها، ليست نتيجة علم ومعرفة منه، ولا بآلات أنتجتها صناعته، فهذه المادة إذن تم تحويلها إلى سلعة بعقول وعلم وعمل وآلات أجنبية، فوصلت إليه أموال مواردها دون أن يكون للمجتمع؛ علم، أو صناعة، أو معرفة تفصيلية بها، ولم يكن يملك أية استثمارات للبحث عنها واستخراجها وشحنها وتوصيلها وتسويقها، فهي قد جاءت نتيجة استثمارات وعمل الآخرين، فصارت تدر مالاً وثروة كبيرة على المجتمع وحكامه، دون جهد يذكر ممن حصلوا على تلك الثروة.

لقد نظر الاقتصاديون إلى الموارد الطارئة الجديدة من منظور استثنائي، عندما تساءلوا: كيف يتأتى لثروة يتم الحصول عليها بدون إنتاج، ولا حتى بدون المساهمة فيها من قبل الذين حصلوا على موارد الثروة؟ والأغرب من ذلك هو أن موارد الثروة هذه،قد جاءت إلى مجتمع متأخر في **علومه ونظمه الاجتماعية**، لم يشارك بشيء في خلقه لأي مصدر من مصادر الحصول على هذه الثروة، فطبق الاقتصاديون على هذا النوع من الاقتصاد تسمية "**الاقتصاد الريعي**"، الذي هو دخل وغلة، جاءت تفضلاً ونعمة من الله منحتها أرضنا، و لم تصل مواردها إلى المجتمع بطريق الإنتاج والعمل، وإنما قد جاءت إليه دون جهد مبذول ممن جنوا ثمرات تلك الغلة من الموارد المالية.

كانت الحماية الاستعمارية البريطانية، طبقاً للمعاهدات المعقودة معها، قد رعت امتيازات النفط للشركات البريطانية أو الشركات الأخرى التي حظيت بموافقتها على التنقيب والاستخراج، وقامت الحماية البريطانية بالتحكم في إنتاج وسعر هذه المادة الاستراتيجية. أما موارد عائدات النفط التي كانت تحصل عليها الدولة المحمية، فإنه بعد أن يودع جزء منها لدى المصارف البريطانية ــ وخاصة أثناء الحرب العالمية الثانية وما بعدها التي دعمت بها موازناتها المالية ــ يوضع الجزء المتبقي تحت تصرف الحكام الذين هم تحت حمايتها، مما أدى إلى تكريس سلطتهم الفردية المطلقة، فتدفقت عليها الموارد والثروة النفطية، مما قوى من هيمنتها، وأعاد إنتاج الموروث القبلي في تثبيت سيطرتها على السلطة والمال العام والأراضي وغيرها، فبدلا من أن تبني مجتمعاً صالحاً من هذه الموارد، اتبعت السياسة القبلية الانتهازية في إعطاء المنح والشرهات والهدايا، دون أي ثمرة من الإنتاج والعمل الخلاق للمجتمع، استخدمت جلها مقابل شراء الولاء القبلي المعهود، واستخدمت في الإنفاق أسلوب الجاهل لقيمة المال والجهد في تحصيله، أي التبذير الاستهلاكي المشين حيث أنفقت الأموال على بناء القصور الفارهة العالية الأسوار، الكبيرة الضخمة الممتدة بالكيلومترات، لعدد من القصور لا حصر لها ولا عد؛ خصصت للزوجات المتعددة وللأبناء والبنات، ولأبناء الأبناء في سلسلة طويلة قوامها الآلاف، لقد فاق التبذير في الإنفاق أبعاد الخيال، مما خلق شراهة في النهب وقتالاً للمصلحة الشخصية الذاتية، ليت أولئك تذكروا خيامهم السابقة، أو ليتهم تذكروا الآن خيام اللاجئين الفلسطينيين، وليتهم يتذكرون الفقراء في مجتمعاتهم!

فاستحواذ الأسر الحاكمة على كافة الموارد وثروات المجتمع، قد جعلها تشعر بالاستغناء عن شعوبها، وتعمل كل ما يحقق مصلحة أفراد أسرتها ومن يتحالف معها بصورة مستقلة غير آبهة لأي تأثير ينشأ من أفراد المجتمع المطالبين بحقوقهم في العيش الكريم. من هنا نشأت الفروق ونشأ

الخلل في الحقوق وأدى إلى الصراع بين السلطة الحاكمة والمجتمع من أجل تنازع الحقوق والواجبات في المجتمع، فالمشاكل الناشئة الحالية بين السلطة السياسية والمجتمع في هذه المنطقة مرده تنازع في الحقوق الواجبة.

فدولة الحماية الاستعمارية لم تساعد في استغلال الثروة الجديدة من عائدات النفط والتوجه بها ناحية إنتاجية صناعية، فكل ما فعلته أنها أنتجت مجتمعاً استهلاكياً لمنتجاتها وتوكيلات بضائع الدول الرأسمالية لتبذير المال العام في الرفاهية الزائفة، هذا من الناحية الاقتصادية، أما من الناحية السياسية فإن النظام الاستعماري قد قام بدعم سلطة الحاكم ذي النظام التقليدي المبني على علاقات الإخضاع للمواطنين، ولم يعتمد نظاماً حديثاً في إدارة الحكم والدولة للمجتمع الذي تحت الحماية، إلا فيما يتعلق فقط بمصالحه الإستراتيجية؛ من تكوين دوائر سياسية تحاول بها قطع الطريق على المطالبين بالإصلاح، وتكوينها لدوائر أمنية ودواوين حكومية تركز البيروقراطية العشائرية والطائفية في إدارة شؤون المجتمع بهدف رفع الإدارة الحكومية في المحميات إلى مركزها الذي يصل إلى ما **قبل – الدولة**.

أما على الصعيد الاجتماعي، فقد أبقى الاستعمار المواطنين، كما كانوا قبل عصر النفط، ضمن التحالف القبلي والعشائري والطائفي والمناطقي، بل أيد وعضد هذا التوجه، وحارب تأسيس مجتمع مدني قائم على دستور شرعي وبرلمان منتخب من خلال المجتمع الأهلي وتنظيماته السياسية والاجتماعية، وإذا وجدت بقايا من المجتمع المدني فهي ضعيفة ومتهالكة، فكل ما فعلته سياسة بريطانيا الاستعمارية المرسومة قائمة في المجتمع على مبدأ: "فرق تسد"، أما من ينتمي إلى فكر حر فمصيره غياهب السجون والمعتقلات والنفي خارج الأوطان.

وبناء على ما ذكر، فإن الحماية البريطانية قد ثبتت الحكم الفردي للأسر القبلية الحاكمة وأعطتها السلطة السياسية المطلقة وأعطتها كل المال العام

في يدها وقامت بحمايتها وفقا لمعاهدتها وحاربت تطلعات المجتمع في المشاركة في الحكم لبناء الدولة الحديثة.

وما فعلته في الفترة الأخيرة من حمايتها أنها قامت بتعزيز الدوائر الحكومية في الداخل، وسمحت للجهات الحاكمة القبلية بإقامة علاقات جزئية مع دول استعمارية تربطها معها علاقات إستراتيجية في المنطقة والعالم، كل ذلك تمهيدا لإعداد هذه الأنظمة لمرحلة الدولة القادمة بعد رفع حمايتها عنها بصورة رسمية، وتسليمها لقوى استعمارية أخرى، بعد هزيمة بريطانيا وفرنسا أمام المد الثوري العربي الذي بدا في الستينيات من القرن الماضي.

فما تركته الحماية الأجنبية للمنطقة هو: نظام دولة قبلية وأنظمة عشائرية، يرتكز على نظام طائفي، أي أن الحماية قد تركت المواطن في المجتمع فرداً من الرعية، كما كان منذ وصول دولة الحماية الاستعمارية، لم يرق فيها لدرجة المواطنة بحقه في المشاركة في تحقيق تطلعاته في الحرية والديموقراطية.

ولا يفوتنا الإشارة إلى ما فعلته الحماية الأجنبية من محاولاتها القسرية في إبعاد الشعوب العربية في الأنظمة المستعمرة والمحمية، عن مساهمتهم في قضاياهم القومية العربية المصيرية في فلسطين وغيرها، إمعانا في التفرقة العربية، مما أوجد الهوة بين تلك الأنظمة وشعوبها المتطلعة إلى التآزر والتعاون العربي المشترك.

ثالثاً: فترة الاستقلال

إنه ضمن موضوعنا الذي هو علاقة الدولة العربية بالمجتمع، نجد أن الحماية الأجنبية قد رفعت يدها تدريجياً عن مشاركتها في قرارات الشؤون الداخلية للدول المحمية، تمهيداً للاعتراف الدولي بها كدولة ذات سيادة عضوًا في الأمم المتحدة، أما من ناحية الحماية العسكرية فقد سلمت زمام

أمرها العسكري وقواعدها؛ في الدقيقة والساعة التي سحبت فيها قواتها، سلمتها إلى قوة عظمى مهيمنة في المنطقة لحماية مصالحها وحماية الكيان الصهيوني والمصالح الغربية عموما.

* لقد ترك الاستعمار والحماية معاً، كيان دولة قبلية هي امتداد لما قبلها، وأنه مما لا شك فيه، من الناحية الاجتماعية في الجزيرة العربية، أن الكيان القبلي الموروث لا يزال يمثل وحدة اجتماعية سياسية متماسكة للحفاظ على مصالحها وامتيازاتها، وهي موجودة ومؤثرة، لما لها من علاقات بين الأسر الحاكمة وما تربطهم من قرابة الدم والنسب في الفروع والأفخاذ والعشائر على امتداد الجزيرة العربية والبلاد المجاورة لها، وأنهم قد يختلفون فيما بينهم لمصالحهم القبلية العائلية، إلا أن مصالح شعوبهم المتطلعة إلى العدالة الاجتماعية والحرية والتقدم الاجتماعي والديموقراطية والوحدة، فهذه يتم تأجيلها، كما يتم الحد من تطلع شعوبهم لتقديم العون ومناصرة قضية الشعب الفلسطيني ضد الهجمة الصهيونية، وطمس أي تطلع لشعوبهم إلى وحدة الشعب العربي العلمية والتكنولوجية والصناعية والاقتصادية والاجتماعية والبرلمانية..إلخ

ولكن ما هو ثابت أن هذه الكيانات القبلية التاريخية، قد أصبحت اليوم دولاً اعترفت بها الأمم المتحدة على هذا الأساس، وتعايشت معها شعوبها التي تتطلع إلى الحاضر والمستقبل الأفضل، وذلك لأن الدولة الحديثة تتكون من **أرض ودولة ومجتمع**، فإذا كانت تلك كانت تعبر عن قبائل حاكمة تاريخياً، فإنها اليوم حكومة دولة ضمن حدود أرضها، فينبغي أن يتم الاعتراف بأن الذين يعيشون على هذه الأرض هم بشر يشتركون مع الأسر الحاكمة في العيش عليها، أي أن المجتمع قائم على أناس لم يعودوا رعايا وإنما هم مواطنون، لهم حقوق وعليهم واجبات وطنية محلية وقومية عربية، وأن حقوق المواطنة، بصورتها الموجزة، تتمثل في: الحقوق **المدنية**، وهي حرية المواطن في التعبير والتمثيل والتنظيم وغيرها من الحقوق، وفي

الحقوق **السياسية**؛ التي فيها ضمان مشاركة الفرد السياسية، أما ثالث تلك الحقوق فهي الحقوق **الاجتماعية**، التي فيها للمواطن حقوق المساهمة في كل مؤسسات ونشاطات المجتمع المدني، ومؤسسات المجتمع العربي، فحقوق المواطنة تلك غايتها الأساسية هي أن يصبح المواطنون متساوين في الحقوق والواجبات، وأن يصبح ولاؤهم للوطن قائم على العدل والدستور.

يفهم من ذلك أن الدولة هي شيء آخر غير القبيلة، وإذا رجعنا إلى معجم المحيط نجد أن الدولة مشتقة من "دال" التي تعني انتقل من حال إلى حال، ومن جعله متداولاً، فالدولة في اللغة **هي التداول في السلطات**.

لقد تغيرت الظروف الاجتماعية الداخلية، ولم يعد باستطاعة أي سلطات حاكمة أن تحكم بأسلوب حكمها القبلي المعتاد، كما أنه لم يعد مقبولاً من المجتمع في داخل هذه الأقطار العربية أو غيرها من الأقطار العربية ولا في خارجها أن يحتكر فرد أو قلة أو أسرة تحديد خيارات المجتمع وتطلعاته في بناء نظامه الديموقراطي الدستوري الذي يرتضيه، ولم يعد مقبولاً أن يتخذ القرارات العامة فرد أو قلة تعتبر نفسها في غنى عن مؤسسات الدولة الدستورية ومجتمعها المدني.

*** التحدي الحضاري المأمول من الشباب:**

لقد أثبت الحكم القبلي وغيره من الأنظمة المشابهة له، على الرغم من موارده الهائلة، أنه لا يستطيع أن يخرج من أزمة الفقر والبطالة والفساد الاجتماعي والاقتصادي بنظامه القديم في استحواذه على المال العام وفي سيره في النظام غير الدستوري البرلماني، فأصبح لا مجال أمام الأنظمة سوى القبول والعمل **بالحكم الدستوري** حتى يتم الاستخدام الأمثل لاستثمار الموارد النفطية/ المعدنية المتوافرة الآن قبل نضوبها، بالخروج من الاقتصاد الريعي إلى اقتصاد الإنتاج والعمل، وذلك باستثمار تلك الموارد

استثماراً منظماً في التنمية البشرية والتنمية الاقتصادية وتنمية الوحدة الاقتصادية والسياسية بين الأقطار العربية جميعها.

كلنا يعلم أن شعوباً ليست متوافرة لديها مواد أولية ومنها النفط، مثل اليابان والنمور الآسيوية، قد قامت شعوبها ومجتمعاتها وأنظمة حكمها الدستورية بتحدي ظروفها فكونت **حضارة** من خلال الإبداع والابتكار الصناعي التكنولوجي حتى استجابت لها تلك الظروف بالنجاح والتقدم الحضاري. ذلك أن ما هو حاصل اليوم من ثورة تكنولوجية قد عملت على تقليل الاعتماد على الموارد الطبيعية وحدها، فقامت هذه الشعوب باستخلاص مواد "مخلقة" man made يكونها الإنسان بعلومه المتقدمة، يستخلصها من عناصر رخيصة متوافرة لديه – وهي متوافرة عندنا بكثرة – مستخلصات كثيرة من النفط، ومن السليكون المستخلص من الرمال (الألياف الزجاجية)، وهكذا أيضاً بالنسبة لموارد قوة الطاقة؛ الرياح والشمس والذرة وغيرها.

صحيح أن كثيرًا من إنتاج هذه العلوم وأبحاثها لا تزال في مراحلها الأولية، إلا أن ما نريد الوصول إليه هو أنه للدخول إلى الحضارة الحديثة، لا بد لنا من **التحدي والاستجابة لهذا التحدي** من واقع مواردنا الطبيعية، لنكون جزءاً من المجتمع البشري المنتج، فيجب العمل منذ الآن على الصناعة التي هي السبيل الأمثل للقضاء على البطالة والفقر. والصناعة تعني تحول كيفي هائل في إنتاج السلع والبضائع وفي تصريفها وتداولها، إلا أن الأهم من هذا كله هو أن الصناعة تؤدي إلى تحول في علاقات الإنتاج البشرية وما ينجم عنها من تحول جذري في العلاقات الاجتماعية، فالمجتمعات البشرية الصناعية هي بهذا التحول في حاجة إلى إدارة جديدة تعمل الدولة والمجتمع معا على إنجازهم التقدم الحضاري، ومن هنا يبدأ التحدي الأكبر من ناحية تكوين هيكلية المجتمع الذي تكون فيه الدولة المنتجة للتقدم العلمي العصري الذي يرفع من مستوى المجتمع، ويشركه في الحضارة الحديثة.

* وعلى هذا النحو، فإن شباب الجزيرة العربية الذين يجلسون في المقاهي المنتشرة في المجمعات التجارية الحديثة في كل مكان، يحاولون أن يقتلوا أوقاتهم الثمينة في التدخين الشره، وفي المحادثات الهاتفية الطويلة المملة والتافهة، وهم يجولون بأبصارهم فيما حولهم في واجهات التجمعات التجارية فلا يرون إلا ماركات الصناعة الاستهلاكية العالمية.

نتوجه إلى الشباب في قول صريح معهم، أن هذه المجمعات الراقية والمرفهة قد شيدت لإدخال الجميع في السوق الاستهلاكي، ولكن فيما تعنيه أيضاً هو محاولة منها لإدخال المجتمع في جو حضاري يساعد في انتزاع روح القبيلة المتخلفة من نفوس وعقول هذا الجيل المتشبث بالعقلية وبالتقاليد القبلية، وبالذات الشباب منهم، هذه المجتمعات التجارية تجعلهم يعيشون على أمل الوصول إلى الحضارة والتقدم.

فالحضارة والتقدم هما ما يتوخاه شباب الجزيرة، لذا نتوجه إليكم، لتذكيركم - أيتها البنات قبل الأولاد- أن رفاهيتكم هذه قد أتت من موارد نفطية هي في طريقها إلى النضوب، وأن موارد هذا النفط لكي تصل إلى جيوب الشباب قد مرت بمراحل علمية عديدة ومعقدة: أبحاث، تنقيب، استخراج، شحن، تسويق..إلخ، فأين هو دور ومكان الشباب، رجالاً ونساءً، في أي من مراحل هذه العمليات العلمية التكنولوجية الحديثة؟ فهل أنتم على استعداد لتحمل المسؤولية النفطية قبل نضوب النفط وبعدها؟ بل نسأل ما هي مساهماتكم وما هي مجالات علومكم في البحث عن المعادن والمناجم في أرضكم؟ وهناك سؤال آخر هو، هل سألتم أنفسكم أيها الشباب- شابات وشبانا- عن بضائع الماركات العالمية المعروضة في واجهات المتاجر الزاهية المتلألئة، لماذا لم تكن من بينها بضاعة مصنعة بأياد وعقول محلية أو عربية؟ لماذا لا يكون لكم مساهمة مبادرة الابتكار والاختراع في شتى مجالات الحياة؟ ما هي العوائق؟ وإذا كانت هناك عوائق أليست من مسؤوليتكم تذليلها للقضاء على البطالة وتحقيق المساواة الاجتماعية ؟

وتواصلاً مع ما سبق نطرح تساؤلنا بالنسبة للسيارة والهاتف والكمبيوتر والطائرة وكل الآلات والأجهزة التكنولوجية الحديثة التي نستخدمها، لماذا لم يكن لنا دور في اختراعها و تصنيعها؟ يتضح من ذلك أن هناك علة وسبباً، فإذا عرفنا العلة علينا أن نبحث عن السبب؟ ألسنا نقول أن لدينا ثروة وأموال النفط، فلماذا البطالة ولماذا لا نصنع ما نلبسه ونستخدمه بل ونبيع منه لغيرنا؟ بالتأكيد هذه المشاكل الكبيرة والمعقدة لا يستطيع أن يقوم بحلها الشابات والشباب وحدهم وإنما يجب أن يتم من خلال مجتمع ودولة، ومن خلال نظام اجتماعي/ اقتصادي/ سياسي سليم. إذن لا بد من وجود نظام ودولة أساسها المجتمع القادر على القيام بتلك الواجبات، وتحمل المسؤوليات كافة؟

العرب لم يخلقوا بعد مجتمعاً وأنظمة ودولة منتجة خلاقة مبدعة، وما نفعله هو تضييع للوقت الثمين وهدر للأموال دون إنتاج، إلا أن المستقبل يخبئ لنا الأسوأ إذا لم نتدارك وضعنا السياسي والاجتماعي والعلمي منذ اليوم، والمسؤولية أولاً وأخيراً تقع على عاتق الشباب قبل غيرهم لأنهم هم الذين سيعانون الأمرين في المستقبل إذا لم نتقدم بأنظمتنا الحاكمة ومجتمعاتنا خطوة إلى الأمام.

ولنكن في منتهى الصراحة أيضاً مع الشباب المتواجدين في المقاهي هل قرأ أحد منكم كتاباً؟ لا نجدكم وأنتم في المقاهي الكثيرة أنكم تقرأون أو تتناقشون في موضوع كتاب! أي كتاب؛ علمي أو أدبي! ولا نراكم تتناقشون في مواضيع متعلقة بالمسرح أو الفن أو الموسيقى! ثم، هل ينتمي أي منكم لأي نشاط اجتماعي؟ هل أحد منكم ينتمي إلى حزب سياسي؟ (يا للهول! الانتماء إلى حزب وإلى سياسة؟!!)، على أقل تقدير، هل أحد منكم عضو في جمعية طلابية أو مهنية؟

فإذا كانت إجاباتكم بالإيجاب على تلك الأسئلة، فإنه يحق لكم الجلوس على المقاهي كما تفعل الشعوب المتقدمة الراقية التي لا تضيع الوقت هدراً وهباء منثورا دون أن تعود بالفائدة عليهم وعلى المجتمع!

* وإذا كان الشباب يريدون القضاء على البطالة المستشرية والمتفاقمة، وخاصة تلك التي بين صفوفهم، فإن علينا وعليهم أولاً أن نفهم العصر الذي يتم على أساسه بناء المجتمع والدول، هل يقضى على البطالة بجرة قلم وبسحر ساحر، أم أن هناك وسائل علمية للقضاء عليها؟ لقد مضى زمن السحر، لا يتم القضاء على البطالة إلا بتضافر مؤسسات المجتمع المدني كافة التي كل واحد منا عضو فيها، فما لم يكن لكم وللجميع دور في نشاط في هذا المجتمع المدني (جمعية طلابية، نقابة عمالية ومهنية، عضوية في حزب سياسي..الخ.) وما لم يعمل ويقرأ ويكتب ويخترع كل منكم فإن البطالة ستستشري فلنقض عليها بتحقيق المجتمع والدولة الراعية لتنمية المهارات البشرية ولبناء الديموقراطية والعدالة والتقدم العلمي.

إذن فالمطلوب من الشباب هو إنجاز **التحدي الحضاري** للوحدة العربية العلمية والتكنولوجية والصناعية والاجتماعية والثقافية والجامعية والطلابية.. إلخ، فالزمن أيها الشباب ليس هو بمرور الوقت وإنما هو بحساب الوقت (الثانية، الدقيقة، الساعة، اليوم)، أليس هذا هو ما تظهره لكم الأجهزة التي تحملونها والسيارة التي تركبونها؟ فالزمن اليوم هو "التغيير" الذي يعني ألا تأخذ الموروثات القبلية كأمر مسلم به، وإنما هي أمور قابلة للفحص والتدقيق، بحيث نأخذ من تاريخنا ما يفيد ويعين على حياتنا الحاضرة، ويجعل المجتمع والدولة يسيران إلى الأمام لا إلى الخلف، ولكي تتقدم أيها الشاب العربي عليك أن تتغير ثقافياً وفكرياً وعقلياً، ليتغير على أساسه المجتمع كله الذي ينتج الدولة التي تنشد "التغيير" و"التقدم". فالأمر يبدأ ومن ثم ينتهي بكم أيها الشباب!

الفصل الثاني

تمكين المرأة العربية من حقوقها

تمكين المرأة العربية من حقوقها الإنسانية والتاريخية، هو أساس تقدم المجتمع العربي.

يبدو أن مطلب تمكين المرأة العربية من حقوقها لم يكن وارداً ومطروحاً في المجتمع العربي القديم، قبل ما يقرب من ثلاثة آلاف عام، ذلك لأن المرأة العربية في ذلك الزمان البعيد كانت متمكنة من حقوقها التي قررها لها المجتمع العربي القديم، إذ كان النظام المجتمعي العربي القديم آنذاك يمكن المرأة من الوصول إلى سدة الحكم وإدارتها لشؤون الدولة؛ سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، فكانت تدير شؤون بلدها بإشراك مواطنيها معها في صنع القرارات السياسية، ودليلنا في ذلك هو ما ورد ذكره في القرآن الكريم:

".. وجئتك من **سبأ بنبأ يقين**، إني وجدت **امرأة تملكهم** وأوتيت من كل شيئ ولها عرش عظيم." (الآيتان 22 و23 من سورة النمل).

فالآيتان القرآنيتان؛ تشتملان على ذكر امرأة عربية حكمت جنوب شبه الجزيرة العربية قبل ما يقرب من ألف سنة قبل ميلاد المسيح، أي قبل نحو ثلاثة آلاف سنة مضت من عمر البشرية، فمنذ ذلك الزمن السحيق

والمرأة العربية "**امرأة تملكهم**"، كما ويؤكد لنا القرآن الكريم من أن هذه الملكة "**وأوتيت من كل شئ..**" أوتيت من الجمال والعلم والفطنة والذكاء، ومن كل المواصفات الإنسانية التي يتمتع بها الإنسان الذي هو في مركز إدارة شئون الحكم، وما تتطلبها مسؤولية تحمل أعباء قيادة الشعوب، فهذه الملكة العربية السبئية قد أوتيت من **الصفات الإنسانية** القيادية، وأكثر من ذلك (من كل شيء..) من **الصفات المادية الاقتصادية** أيضاً التي تتميز بها مملكتها، فقد أعلمنا القرآن الكريم "**ولها عرش عظيم**" والعرش العظيم يدل على مكانة الدولة بما تملكه من إمكانات اقتصادية وما يملكه الشعب من قدرات ثقافية وعلمية، فبناء العروش العظيمة لا يأتي إلا نتيجة للغنى الثقافي والعلمي والمادي الذي يملكه المجتمع؛ فالعرش العظيم هو نتاج ذلك النشاط الإنتاجي الإنساني الشعبي الكبير، وعليه تكون هذه الملكة ومملكتها قد أوتيت من مختلف الإمكانات المادية والمعنوية والبشرية، وأن ذلك مؤكداً ويقيناً وفقاً لقول الآية الكريمة "**بنبأ يقين**" ومدى ذلك التقدم الحضاري توضحه الآية التالية:

"قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين، **اذهب بكتابي هذا** فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون، قالت يا أيها الملأ إني ألقي **إلي كتاب كريم**" (الآيات من 27 إلى 29 من سورة النمل)

فما نصت عليه الآيات "**بكتابي هذا**" هو الكتاب الذي بعثه الملك سليمان (ع) من فلسطين، إلى ملكة سبأ في اليمن، التي قالت لشعبها وممثليهم: "إني ألقي **إلي كتاب كريم**".

إن ما جاء في الآيات يؤكد أن تبادل الكتب والرسائل بين شمال شبه الجزيرة العربية، وبين أقصى جنوبها كان جارياً في الألف الأول قبل مولد المسيح (ع)، كما أن في هذا تأكيداً قاطعاً وجازماً أن شعب الجزيرة العربية كان يتقن القراءة ويحسن الكتابة "**بنبأ يقين**"، أي أن الكتابة- وكلمة الكتاب

مشتقة من الكتابة- كانت موجودة في ذلك الوقت لدى كل من مملكة سليمان ولدى مملكة اليمن القديمتين، وأن تبادل كتب المراسلات كانت وسيلتهم في إنجاز الأعمال والمهام بين الشعوب، ومن بينها النشاط السياسي الذي كان يتم فيه تبادل الكتب بين الملوك والحكام الأقدمين، فالفترة المذكورة في الآيات الكريمة عن مملكة سبأ، هي الحقبة التي يقال عنها أنه قد بدأت تنفصل فيها الأبجدية العربية عن الأبجدية الكنعانية الآرامية التي اعتبرت الأم للغة العربية، وأن اللغة والكتابة العبرانية في مملكة سليمان هي من اللغات السامية المنتسبة إلى الكنعانية الآرامية. والذي يهمنا في هذا الصدد أن الكتابة كانت موجودة في شمال الجزيرة العربية وفي جنوبها أيضاً.

وما علينا إلا أن نكمل قراءة الآيات التالية التي ستزيد من معرفتنا بعلو شأن الأقدمين في إتقانهم لقراءة وكتابة الرسائل، ومنها الكتب الدبلوماسية:

"قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي **كتاب** كريم، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين، قالت يا أيها الملأ **أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون**، قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين" (الآيات من 29 إلى 33 من سورة النمل)

لقد أصبح واضحاً في هذه الحالة أن الملكة اليمنية القديمة قد قرأت على "الملأ"، مجمع زعماء القبائل، قرأت عليهم الكتاب الكريم الذي ألقي إليها "ألقي إلي كتاب كريم" والذي بدأ بـــ "بسم الله الرحمن الرحيم"، فنادت فيهم: "**يا أيها الملأ**"، فمناداتها للمجتمعين في مجلسها عائد إلى كون أن هذا الكتاب الذي تسلمته من ملك فلسطين هو في غاية الأهمية والخطورة وذلك لأن النبي سليمان قد طلب من شعب مملكة سبأ أن يأتوا إلى مملكته صاغرين دون علو منهم وغطرسة وتكبر، مسالمين يطيعون ما يؤمرون.

إن في هذا لهو درس لنا في وقتنا الحاضر، فأميركا والقوى العظمى والقوى الصهيونية، تقوم جميعها بصورة يومية باحتلالها لأراضينا وتهديدها لأمننا العربي، وتعمل على إذلال شعبنا وحرمانه من البحوث العلمية والتكنولوجية، وحكامنا وأنظمتهم لا يطلعون شعوبهم على حقيقة ما يبيت لهم من قبل القوى العظمى، فعدم إطلاع ممثلي الشعب على الاتفاقيات والمعاهدات السرية التي تبرمها الحكومات العربية مع القوى الخارجية، هو السبب في الأوضاع السيئة التي وصلت إليها المجتمعات العربية في تخلفها العلمي والتقني، وفي أوضاعها السيئة السياسية والاقتصادية، ومن هنا يتضح الفرق بين حكامنا الحاليين وبين الملكة العربية القديمة، أن حكامنا في الوقت الراهن لا ينادون على شعوبهم ولا يطلعونهم على أي أمر يخص مصير الشعب والأمة، فالشعب لديهم مهمل ومعزول ومهمش، لا يعلم بأمر مصيره شيئاً ولا يؤخذ رأيه في شيء. فالحكام يديرون أمور الشعوب في الظلام، فتقع الكوارث التي يتحمل عبئها ووطأتها قوى الشعب المهملة الفاقدة الإرادة والمبعدة عن المشاركة في تحقيق مصيرها، إنه حكم الفرد المستبد الذي أوجد الهوة العميقة بين الحاكمين والمحكومين.

والآية قد أوضحت أيضاً، أن الملكة بعد قراءتها ذلك الكتاب، توجهت إلى شعبها أو ممثليهم مرة أخرى " **قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري..**"

لقد مضى على هذا القول وهذه الحكمة والكياسة في قيادة الشعوب ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة، ويبقى هذا النداء يمثل أبلغ قول صدر من حاكم إلى مواطنيه، ومن ملكة عربية إلى شعبها، إنها كلمات "**أفتوني في أمري**" لو أن أحداً من بين حكامنا الحاليين قال لشعبه: "**يا أيها الملأ أفتوني في أمري**" وأشرك معه المواطنين وممثليهم المنتخبين في صنع القرار وإدارة شئون الحكم في البلاد العربية – نقول أنه لو جرى شيء من ذلك؟!– لما أصيبت ورزيت أمتنا بكل هذه النكبات والنكسات القومية؛ السياسية والحربية والاقتصادية والاجتماعية والصناعية والعلمية، ولما وصلنا إلى ما نحن عليه

من انعدام الثقة بين السلطة والمجتمع، الذي سببه الحكم الاستبدادي الفردي للسلطة العربية، التي لا تشرك قوى المجتمع ومؤسساته البرلمانية والدستورية – إن وجدت – في اتخاذ القرارات المصيرية في الحرب أو السلم أو حتى بإشراك المجتمع في التنمية ومحاربة البطالة، فقد عطلت الأنظمة العربية مبادئ وأهداف نظام الديموقراطية الدستورية، واستعاضت عنها بالقوى البوليسية القمعية.

فأين هي أنظمة الحكم العربية الحالية من حكم ملكة عربية قديمة كانت تقول لشعبها "أفتوني في أمري" ؟ فعمر الأنظمة العربية الحالية يقارب قرناً من الزمان بعد تسلمهم السلطات من الحكم الاستعماري أو حكم الانتداب الاستعماري، والأنظمة العربية إذا أخذت بنظام "**الاستفتاء الشعبي**" فإنها تقوم بذلك تضليلاً وخداعاً، فهي تأخذ بالاستفتاء على أنه انتخاب لرئيس الدولة الذي اتخذ الصفة الوراثية في الحكم فهو المرشح الأوحد دون منافس، فلا انتخابات شعبية تحقق المنافسة بين القوى السياسية المجتمعية التي تؤدي إلى تداول السلطة والقضاء على فرض السلطة الوراثية على الشعب، وإذا أخذت سلطة عربية في قطر ما بمبدأ الاستفتاء فإنها تقوم بذلك لتتلافى به ضغوطًا شعبية ودولية، ولكنها عندما تحصل على ما تريده من نتيجة الاستفتاء الشعبي، تتنكر لكل ما تضمنته النصوص الواردة في الاستفتاء وما تم توافق الشعب عليه معها.

هذه الملكة العربية القديمة في زمنها لم تقف عند حد " أفتوني في أمري" إنما تعهدت لشعبها: "**ما كنت قاطعة أمرًا حتى تشهدون**". لقد أكدت الملكة لشعبها أنها لن تتخذ قراراً قاطعاً ونهائياً، حتى تتم الموافقة الشعبية عليه، كما أكدت لهم أن أي قرار يتخذ، لا بد وأن يحظى بالمصادقة الشعبية على القرار من قبل ممثلي الشعب بأن يشهدوا به على الملكة، وتشهد به الملكة عليهم. فما ننادي به اليوم من حكم صالح يقوم فيه المجتمع بممارسته لحقوقه في تعيينه للسلطة السياسية التي تقوم بإدارة شئون المجتمع من خلال

ممثليه المنتخبين، ذلك الحكم الصالح المتمثل في الإدارة الرشيدة، كانت ملكة يمنية عربية قديمة تنفذه منذ ذلك الزمن الغابر متخذة مبدأ المشاركة في اتخاذ القرارات الشعبية المشتركة، ووفقاً لهذا الفارق في القياس الزمني، فإنه يحق لنا أن نسأل: أي تأخر وتخلف هي عليه أنظمتنا العربية الراهنة في الإدارة الرشيدة والحكم الصالح للشعب؟

وبعد أن طلبت ملكة سبأ من قومها أن يفتوها في أمر خطاب التهديد الذي استلمته، فإن الرد الذي حصلت عليه منهم قولهم لها: "قالوا نحن أولوا **قوة** وأولوا **بأس** شديد". قالوا لها أن لديهم القوة الحربية ولديهم العزيمة والبأس على تحمل أعباء القتال. أنه مما لا شك في أن مثل هذه الأقوال تصدر عادة من أفراد الشعب في المجتمع، عندما تأخذ بهم الحماسة والعاطفة الوطنية مأخذها لتواجه بها التهديد الصادر من الأجنبي، وخاصة حين يشعر المجتمع أن هناك إهانة لكرامته الوطنية ومسّاً بمقدرات الوطن وبحياة الناس، فأول ما يتبادر لكثير من أفراد المجتمع، كرد فعل على التهديد، هو تذكير المواطنين بما لديهم من القوة ولديهم من البأس الشديد اللذين تعينهم على صدهم لقوة المعتدين. ويبدو أنه بعد أن دار النقاش بين الذين طالبوا باستعمال القوة تجاه تهديد الملك سليمان، وبين الذين لا يحبذون استخدام القوة والبأس، جاء القرار الذي أتخذه المجتمعون في أنهم يحتكمون لرأي ملكتهم، فقالوا لها: "والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين".

ولكن القيادة الشعبية الحكيمة ذات الإدارة الرشيدة في الحكم الصالح، الذي يقوم على الحوار والشفافية في اتخاذ القرارات الشعبية المشتركة، كان عليها أن تعلم شعبها برأيها في هذا الأمر الخطير، بما لها من تجربة وخبرة في الشأن العام، فالملكة كانت ضد اللجوء إلى استعمال القوة الحربية، وإنما كانت مع اتباع الأساليب الدبلوماسية، فقالت كلماتها الخالدة التي أوردها القرآن الكريم: "**قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون**" (الآية 34 من سورة النمل).

يعمل الإعلام الرسمي الحكومي العربي بوسائله المختلفة محاولاً تجنب ذكره الآية الكريمة وتحاشيه تلاوتها وذلك لما يتضمنه مدلول قولها الحكيم من ملامسته لجوهر واقع الوضع العربي الراهن، فممارسات الاستبداد التي تقوم بها أنظمتنا العربية وعدم الديموقراطية قد وصلت إلى الآيات القرآنية كذلك، فالملكة العربية اليمنية القديمة كانت تدرك مخاطر الحروب والنتائج المترتبة على استخدام القوة والبأس، اللذين تؤديان إلى احتلال الأرض وإذلال الشعب وإزهاق الأرواح، وما يتبع ذلك من خراب للعمران وضياع للمال ودمار للاقتصاد وتهدم للإنتاج القومي، فالحروب والغزوات تتشابه فيما بينها بما تلحقه بالشعوب من أضرار، وقد عبرت الآية الكريمة عن كل ذلك، بكلمة "**أفسدوها**" فهذه الكلمة معبرة بأصدق تعبير عما نحن فيه مع أنظمة الحكم القائمة على الفساد في إدارة الحكم والفساد الاقتصادي والاجتماعي. إن الفساد في إدارة الأنظمة العربية هو ما نعاني منه؛ فساد في الحكم والحكومة وإدارة الدولة، ينتج عنه فساد في الاقتصاد والمال، وتخلف في التعليم والصناعة والإنتاج، وهذا قد أدى إلى فساد اجتماعي بتقسيمات الدولة قبليا، عشائريا، طائفيا..الخ. وفي نظام حكم فكره وعقيدته قبلية، الحكم فيها قائم على عقيدة الغلبة؛ فضاع المال العام، وتعطل الإنتاج السليم،وتمزقت وحدة الإرادة الشعبية إرباً، حيث أصبحت المصالح القبلية والعشائرية والطائفية والدينية واستغلال النفوذ وانتهاك سيادة القانون، هو النظام القائم.

إنه الفساد وما أدراك ما الفساد، الذي جاءت على ذكره آية قرآنية أخرى: "ظهر الفساد في البر والبحر بما **كسبت أيدي الناس**" أي أن مسؤولية القضاء على الفساد تقع على عاتق أفراد المجتمع وتجمعاته الأهلية الذين كانوا بصورة مباشرة أو غير مباشرة من مسئوليتهم تنصيب الحكومات والإدارات التي أنتجت الفساد والتخلف.

فالآية الكريمة تكون قد أكدت في قول موجز: "**وكذلك يفعلون**" وعلى أساس ما يفعله حكامنا بنا، فإنه في مواجهة ذلك الفساد المستشري في وقتنا الحالي، هبت قوى الشعب العربي في كل أقطاره كافة تطالب بالقضاء على الفساد، ومطالبة بالإصلاح الجذري لمواجهة التحديات الحضارية ولإقامة الدولة الدستورية الديموقراطية المبنية على العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان وحقوق المرأة.

* وإنه تجنباً لتلك المفاسد الناجمة عن الحروب وغطرسة القوة فقد اقترحت الملكة على شعبها بدلا من الدخول في الحرب: "**إني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون**" (الآية 35 من سورة النمل)، بتلك الوسائل الدبلوماسية العقلانية المبنية على التفاهم يمكن أن تساعد في نزع فتيل الحرب.

* نهدف مما ذكر إلى أن الآيات القرآنية السابقة جاءت للتأكيد على أن المرأة العربية كانت لها حقوقها وكانت تتولى السلطات التنفيذية؛ سلطات الحكم، وكانت تقوم بواجبها بمقدرة وجدارة وحكمة في إدارة دفة السلطة التنفيذية في مملكة اليمن القديمة، وأنه لكون المرأة العربية اليمنية كانت متمكنة من حقوقها الإنسانية الطبيعية، فإن مملكتها قد حظيت بذلك التقدم والازدهار، فإذا كان هذا هو شأن المرأة العربية قديماً، فلماذا يحرم عليها ممارسة هذا الحق الآن؟ وعلى أي سند يمنع عنها حقها في المشاركة السياسية والبرلمانية والاجتماعية؟ وهو الحق الذي أثبته لها وأكده القرآن الكريم! وإذا حرمت الأنظمة في مجتمعنا العربي الراهن المرأة العربية من حقوقها المكتسبة الإنسانية والتاريخية فإن هذا المجتمع اليوم هوالذي يعيش في عصر الجاهلية الأولى، ويكون الرجال والمجتمع في عصر ملكة سبأ، المملكة اليمنية القديمة، هم الذين يعتبرون في عصر متقدم، وأن مجتمعنا الذي يعطل هذه الحقوق الآن هو في عصر متأخر.

إن القرآن الكريم يورد تلك الآيات لنأخذ منها العظة والحكمة، وهذا ما تأكد لنا من تلك الآيات الكريمة، من أن المرأة العربية قد أثبتت جدارتها وحنكتها في قيادة شعبها، وأنها قد أقامت حكمها على مشورة الشعب، واتخاذ القرارات بالحوارات البناءة، معتمدة على مشورة شعبها: "**قالت يا أيها** الملأ أفتوني في أمري.. "و"**قالوا نحن**.." أي نحن الشعب، في حين أن ما هو حاصل في أقطارنا العربية اليوم هو حكم الفرد المستبد المتسلط الذي لا يقيم وزناً لرأي الشعب ولا حتى لقواه البرلمانية التمثيلية المنتخبة، وقد دلت الآية الكريمة على أن القرار الذي تم اتخاذه كان قد تم اتخاذه من قبل "**الملأ**" مجلس ممثلي رؤساء القبائل. ودلت النقوش والكتابات القديمة اليمنية التي تم اكتشافها على وجود تنظيمات للحكم وبوجود أكثر من مجلس، يبدأ من مجلس الدولة من رؤساء القبائل ومن الكهنة، ومجالس شورى، يأتي ممثلوهم من مجالس مدن وقرى، وقد عززت هذه الآثار ما كتبه اليونانيون في القرن الرابع قبل ميلاد المسيح عن اليمن وطبقاته الاجتماعية، كما كتبوا عن الحرية الواسعة التي كانت تتمتع بها المرأة في ذلك المجتمع.

نوجه عنايتكم إلى أن ما يجب الإشارة إليه، من أنه يجب ألا يفهم مما سبق أن المجتمع اليمني القبلي القديم هو في وضع مثالي تجاه حقوق المرأة أو غيرها كما هو مفهوم لدينا اليوم، إذ كان النظام العبودي القديم هو السائد، كانت القبيلة المنتصرة في الحرب تفاخر على القبيلة المهزومة بأنها سبت واسترقت نساءها ووزعتهن على قومها الصغار منهم والكبار ليمارسوا مع المرأة الأسيرة أعمال الاغتصاب وأبشع أنواع المذلة والإهانة. كما أنه كانت المرأة تهدى للمعابد، وكانت بعض القبائل تئد بناتها، لقد كان مركز المرأة الاجتماعي قوياً عندما يكون مركز قبيلتها وعائلتها قويا بالجاه والمال قبل أن تهزم في غارة أو غزوة، وعندها قد تباع في سوق النخاسة والعبيد، كما تباع أي بضاعة أو حيوان؟!

* وعلى أية حال، فإن ما جاء في القرآن الكريم عن ملكة سبأ يكاد يكون له ما يقرب من معناه في التوراة، لقد كان ذكر رواية ملكة سبأ في التوراة، حافزاً كبيراً على دفع الرحالة والمكتشفين والمستشرقين (الغربيون الذين يبحثون عن "شرقهم"!) قاموا بالتنقيب عن آثار مملكة سبأ القديمة والبحث عما تركته هذه المملكة من معالم تاريخية اعتبرت من أبهى صفحات التاريخ القديم وأكثرها بريقا، فقد جاء في سفر الملوك من التوراة ما معناه:

(وسمعت ملكة سبأ بسليمان، **فجاءت** إليه **تمتحنه** بأسئلة صعبة.. فأجاب على جميع أسئلتها، ولم يترك أصعبها من دون جواب. وأ**هدت** الملك عشري قنطار **ذهب** و**أطياباً** كثيرة و**حجارة كريمة**)

يستدل من المعنى الذي ذكرته التوراة أن ملكة سبأ التي هي في اليمن في جنوب الجزيرة العربية قد "**جاءت**" (إلى **الملك** سليمان،حسب التوراة) في فلسطين في شمال الجزيرة العربية، ويعني ذلك أن ملكة سبأ كانت قد انتقلت من جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها، قاطعة مسافة تعادل 3500 كيلومتر، وفي هذا دلالة واضحة على تقدم الطرق السالكة التي كانت بين جنوب الجزيرة وشمالها منذ ذلك الزمن البعيد إن لم يكن قبله أيضاً، كما دلت على أن الشعب في الجزيرة العربية كان على اتصال بين جنوبه وشماله في زمن هو أبعد من ذلك التاريخ، لكون هذه الطرق وغيرها كانت مستخدمة ومعروفة ومعبدة بسالكيها قبل وصول ملكة سبأ إلى فلسطين، وعلى الخصوص لسالكيها من القوافل التجارية القديمة.

كما يستدل مما جاء في التوراة: "**فجاءت إليه تمتحنه بأسئلة صعبة**" أن الملكة العربية هي التي كانت تطرح الأسئلة الصعبة لتمتحن بها الملك الذي حضرت لزيارته والتباحث معه في الشؤون العديدة التي قدمت من أجلها والتي من بينها الشئون السياسية والاقتصادية وغيرها. إن طرح الملكة أسئلتها على الملك المضيف، يؤكد أن الملكة العربية هي على درجة عالية

من العلم والثقافة والمعرفة، بدليل أنها "**تمتحنه بأسئلة صعبة**" وما يؤكد على أهمية الأسئلة التي أمتحن بها الملك سليمان وجدّيتها "**فأجاب عن جميع أسئلتها، ولم يترك أصعبها دون جواب**" أنه بهذا التوضيح عن إجابة الملك سليمان على الأسئلة الصعبة لملكة سبأ يؤكد بلا ريب أن الثقافة والتقدم المعرفي والعلمي في المملكة اليمنية الجنوبية القديمة، كانت على درجات متساوية مع نظيرتها في مملكة سليمان، فقد كانا ندّين لبعضهما في العلم والمعرفة.

فتلك الأسئلة التي اعتبرت **امتحاناً** للملك سليمان تؤكد درجة **التقدم العلمي** الذي بلغته حضارة جنوب الجزيرة العربية؛ من جنوب الحجاز إلى عمان. **أما عن تقدمها الحضاري الاقتصادي** فقد دلت عليه الهدايا التي قدمتها ملكة سبأ إلى الملك سليمان، والتي تمثلت في: "**عشري قنطار ذهب، وأطيابا كثيرة، وحجارة كريمة**"، فهذا ما كانت تنتجه أرض جنوب الجزيرة وتصدره اليمن في تلك الأزمنة السحيقة؛ الذهب والعطور والطيب والبخور واللبان والمر والصمغ، وتستخرج من مناجمها الأحجار الكريمة والمعادن الثمينة، فهذه السلع والبضائع النفيسة والثمينة هي التي كانت قد قامت على أساسها تجارتها القديمة التي أدت إلى تقدم حضارات جنوب الجزيرة العربية وازدهارها ورقيها قروناً عديدة، كما سيمر بنا.

* ومن كل ما سبق ذكره أصبح واضحًا أن المرأة العربية في الأزمنة الغابرة كانت تتبوأ المراكز القيادية في الدولة والمجتمع وأنها قد أثبتت جدارتها وكفاءتها وعلمها ومعرفتها ودلت على حسن إدارتها لشئون الحكم وبروزها في المجتمع وأن هذا كله مطابق ومتفق مع النصوص الدينية المختلفة، فلماذا يحجر على المرأة اليوم باسم الدين من أن تمارس حقوقها الإنسانية وهي المساوية للرجل في العلم والمعرفة والحكمة؟ مع أننا في زمن أصبح فيه للحيوانات من الكلاب والقطط وسواهم لهم حقوق تدافع عنها جمعيات مختلفة؟! وأن عدم تمكين المرأة من حقوقها ألا يدل هذا على

التأخر الاجتماعي والاقتصادي والعلمي والسياسي والثقافي والتعليمي وحتى التأخر العسكري والأمني والتدهور البيئي الذي وصل إليه العرب الآن؟ أليس سببه تغييب دور المرأة العربية والتمييز ضدها؟ وهي **التي تمثل** في الحقيقة كل المجتمع لكونها تمثل الأسرة التي هي أساس وعماد المجتمع؟

إن موضوع تمكين المرأة العربية من حقوقها والقضاء على كافة أشكال التمييز ضدها في عصرنا الراهن، ليس موضوعه ومكانه هو قول قصيدة شعر يظهر فيها التعاطف مع قضايا المرأة العربية، أو هي متروكة لجدال ومناقشة الرجال الذين هم مع حرية المرأة أو ضدها؟ كل هذه العناوين قد غدت بالية ولا مكان لها البتة في يومنا هذا، ذلك لأن تمكين المرأة من حقوقها لم يترك تقريره لأفراد أو فئات أو حتى لمجتمعات أو دول أو حكومات دون أخرى، إنما هي قد أضحت مسألة حضارية إنسانية ملحة، عاجلة وضرورية، فرضت نفسها على المجتمع الإنساني البشري كله، في كل مكان وفي كل ركن وبقعة من أرجاء المعمورة، وذلك بعد أن أصبح مؤكداً بصورة بارزة وقاطعة، أنه لا تنمية بشرية؛ اقتصادية ومالية واجتماعية وسياسية، وبرلمانية، وأسرية، وصحية وبيئية، إلى آخره، من دون أن يكون للمرأة الحق المتساوي في تنفيذ تلك الأهداف والغايات التنموية للمجتمعات الإنسانية في وقتنا الراهن.

فموضوع تمكين المرأة العربية من حقوقها ليس هو تفضل من أنظمة الحكم أو من الرجال العرب، يتفضلون به على النساء العربيات لنيل حقوقهن في المساواة والعدالة الاجتماعية والقانونية التشريعية، وفي القضاء على كل أشكال التمييز ضد المرأة، وإنما هو قد أصبح معلوماً لدى كل من: الاقتصادي والسياسي والطبيب والمهندس والمعلم وغيرهم من أنه؛ لا تنمية اقتصادية ومالية وصناعية، وصحية وبيئية وتعليمية وغيرها- أي المجتمع بأكمله- من دون تمكين المرأة العربية من حقوقها، وهذا ما تيقن من حقيقته الأجداد، وذكره القرآن: "**ولها عرش عظيم**".. فعندما تم تمكين المرأة من

حقوقها الطبيعية، تقدم المجتمع وازدهر عطاؤه، فبنى المجتمع حضارته التي خلدها له التاريخ.

كما أن تمكين المرأة العربية من حقوقها ليس متروكاً أمره وقراره بيد الحكومات والأنظمة العربية في أن تمنع أو تمنح، وذلك لأنه في الوقت الراهن، كانت قد أخذت على تلك الحكومات والأنظمة المواثيق الغليظة، من قبل منظمات شعبية **محلية** ودولية، وعلى الخصوص عندما قامت الحكومات بالتصديق على معاهدات وقرارات للأمم المتحدة ومنظماتها بحيث لا يمكنها التنصل من تنفيذها أبداً، لأن تلك المواثيق أصبحت مرتبطة بالقانون الإنساني البشري العام، ودولنا وحكوماتنا العربية هم أعضاء في الأمم المتحدة، وفي منظمات دولية عديدة، وهم جزء من المجتمع الدولي الحديث، فالحكومات ودوائرها ومؤسساتها ومجتمعها المدني جميعهم ملزمون بتنفيذ تلك التعهدات والتوصيات والاتفاقيات والبروتوكولات والمعاهدات الدولية، وخاصة وأن الأمم المتحدة ومؤسساتها ومنظمات دولية مختلفة عقدت العديد من المؤتمرات التي حضرتها الدول العربية وصادقت على قراراتها الملزمة والمحددة فيها الفترات الزمنية الواجبة التنفيذ والتطبيق لتلك المقررات، وتأتي إلزامية تلك القرارات والمعاهدات من كون أن تمكين المرأة لحقوقها وتحملها مسؤولياتها هي من الأمور الأساسية لتنفيذ **المشاريع الإنمائية** المحلية التي تتطلبها التنمية الدولية الحالية، والتي يتم بموجبها منح أو منع المساعدات الدولية على أساسها، حتى أن بعض صفقات البيع والشراء والاستثمار والمساعدات التي تتم بين عدد من المؤسسات والحكومات، تضع نصب أعينها مبدأ حقوق المرأة والديموقراطية قبل المضي في تنفيذها للصفقات المالية والتجارية والثقافية والعلمية مع الأنظمة الحاكمة، وأن على تلك المؤسسات التحقق من استيفاء الدول والمنظمات **للمعايير** الواجبة التطبيق لحقوق المرأة والقضاء على التمييز ضدها، قبل الشروع في تنفيذ الصفقات والمشاريع المتعاقد عليها بين الجانبين.

ويتأكد لنا ذلك إذا أخذنا علماً أن العالم كله، بمؤسساته المحلية والدولية كان في العقود الماضية قد انصبت فيه جهوده على دراسة مشاكل العصر؛ من حروب واحتلال وغزوات، وما نتج عنها من أزمات وكوارث اجتماعية وبيئية وصحية وأسرية ومن فقر وجوع وتشرد.. وغيرها، فقد وجدت تلك الدراسات أنه لا حل لتلك المشكلات الإنسانية الضخمة والمعقدة، إلا بتمكين المرأة، من حقوقها ووقف التمييز ضدها، التي هي أمور أساسية ضرورية مرتبطة بحقوق الإنسان والديموقراطية، وذلك حتى تستطيع النساء من أن تقدم مساعدتها وجهدها وخبرتها في العمل الإنساني في حل الكثير من تلك المشكلات المعقدة، وأن **تهميش دور المرأة هو أحد أسباب** تراكم تلك المعضلات الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية المزمنة.

إن ذلك يعبر عن أمر بديهي وهو أن المجتمع البشري منذ نشأته قائم على عنصرين بشريين هما: المرأة والرجل، وهناك كثير من التماثيل القديمة التي تصور الإنسان نصفه امرأة والنصف الآخر رجل، وفي هذا تعبير صادق عن الوضع الاجتماعي البشري الذي كان عليه منذ نشأته قائم على مشاركة النصفين؛ الرجل والمرأة، وأن إتاحة الفرصة المتساوية لهما، هو الذي يبني الأسرة الصالحة وينشئ الحكم الصالح، ويدفع المجتمع إلى التقدم والازدهار.

وعلى ضوء ما أكدته النتائج والبحوث المستفيضة في العقود الخمسة الأخيرة، وما تمخض عن العديد من المؤتمرات العالمية والإقليمية والوطنية التي عقدت، كلها تؤكد ضرورة الإسراع في تمكين المرأة من حقوقها، وسنشير إلى بعض من المؤتمرات العالمية، وإلى ما اتخذته من قرارات وتوصيات في هذا الشأن، وهذه كلها نسوقها على سبيل المثال لا الحصر.

إلا أنه في بداية هذا الحديث نود التحذير من الطريقة والأسلوب الذي يستغل به المحتلون والغزاة موضوع المرأة العربية بتصويرهم أن إنجازات

نضالها قد أتت نتيجة سياسة الاحتلال، نحذر المرأة العربية من أساليب المستعمرين **الدعائية السياسية**، في تصويرهم أن أي تقدم للمرأة قد جاء من عندهم، في حين أنها قد جاءت نتيجة لنضالات الشعوب وخاصة تلك الشعوب التي كانت تحت استعمارهم واحتلالهم، والدليل على تسيسهم لموضوع المرأة، وقوفهم في المؤتمرات العديدة التي سيشار إليها في وجه إصدار قرارات فاعلة تناصر المرأة العربية الفلسطينية تحت الاحتلال الصهيوني الغاشم، وبخصوص موضوع تمكين المرأة العربية نقدم بعضا من المؤتمرات، نشير إليها في صورة موجزة ومختصرة لأخذ ما يفيدنا منها:

*** أولاً: المؤتمر العالمي الرابع للمرأة في " بكين"**

ـ لقد توجه المجتمع الدولي في العقود الأخيرة للدفاع عن قضايا المرأة، فتبنت الأمم المتحدة عقد مؤتمرات عديدة تختص بشأن المرأة في العالم كله، ومنها المؤتمر العالمي للمرأة الذي انعقد مؤتمره الأول في المكسيك في عام 1975، ثم تلته اجتماعات أخرى، حتى جاء العام 1995، الذي عقدت فيه المنظمة الدولية "المؤتمر العالمي الرابع للمرأة" في العاصمة الصينية "بكين ".

ـ لقد كان لهذا المؤتمر أصداء بعيدة في الوطن العربي وفي العالم، وتعود أصداؤه إلى ما نتجت عنه من قرارات وما دارت فيه من مناقشات، ولما تمخضت عنه من توصيات هامة، وأن منتديات هذا المؤتمر لا تزال تجوب الوطن العربي، لإنجاز مهامه التي لم تكتمل بعد.

ـ وأنه من بين القرارات العديدة والكثيرة التي اتخذها المؤتمر، في سبيل تمكين المرأة في العالم من حقوقها السياسية والاجتماعية والتعليمية، فإن هذا المؤتمر العالمي قد تبنى قراراً بأن تسعى الدول المشاركة إلى مساعدة المرأة في دخول الهيئات التشريعية، على أمل أن تكون نسبة مشاركة المرأة تعادل 30% من أعضاء البرلمانات، كما لاحظ المؤتمر أن

عدة دول قد تولت نظام "الكوتا" النسائية (الحصة النسائية) لتمثيلها في البرلمان والتي فرضت من خلالها على الناخبين إدخال ما نسبته ما بين 20 إلى 30 في المائة من النساء، من تمكينهن في التمثيل ضمن مجموع أعضاء البرلمانات التشريعية المنتخبة.

* ثانياً: **عملية برشلونة**

ــ وإذا كان مؤتمر بكين للمرأة قد انعقد على المستوى الدولي، فإنه قد عقد مؤتمر آخر على المستوى الأوروبي، تم عقده في نفس العام 1995، في "برشلونة": وحضره أعضاء الاتحاد الأوروبي والدول المطلة على البحر الأبيض المتوسط. وكان من بين الدول التي حضرته دول عربية، وكان قد أعلن عن أهدافه المتمثلة في المطالبة بتحقيق الإصلاحات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المرتبطة بحقوق الإنسان وتمكين المرأة.

ــ وأطلق على تلك الأهداف "عملية برشلونة". وهكذا **فإن تمكين المرأة لحقوقها قد ارتبطت بالإصلاحات** التي هدفت إليها "عملية برشلونة". وبعدها عقدت عملية برشلونة، عدة دورات تناولت فيها العديد من الموضوعات والأهداف المتعلقة بهذه "العملية" ومنها انتقاصها لحق العرب في الدفاع عن أنفسهم تجاه القوى الاستعمارية الاستيطانية الغازية في العراق وفلسطين، مع أن هذا حق مشروع في العرف البشري، هو الدفاع عن النفس والعرض والأرض، إلا أنه في كل الأحوال أن موضوع **تمكين المرأة**، حاضر في كل اجتماعات هذه المجموعة الأوروبية أيضاً.

*** ثالثاً: مؤتمر قمة الأمم المتحدة للألفية، في سبتمبر 2000**

وقبل أن تنصرم سني الألفية الثانية تنادى زعماء العالم لعقد "قمة الأمم المتحدة للألفية" ليختتموا بها أعمال الألفية الثانية من عمر البشرية.

لقد تدارس زعماء العالم الأعضاء في الأمم المتحدة المشاكل المستعصية التي كانت قد عصفت بالعالم؛ مثل الفقر والجوع والأمراض والأمية، فوجدوا ألا سبيل إلى مكافحتها إلا بالإقرار أن تعزيز المساواة بين الجنسين وتمكين المرأة وعدم التمييز ضدها، باعتبارها حقوق إنسانية أساسية بالغة الأهمية، هي التي تساعد في محاربة تلك الأمراض، وقد تعهدت جميع الدول الأعضاء وعددها 191 دولة في ذلك الوقت، **وكانت من ضمنها الدول العربية**، التي تعهدت الوفاء والالتزام **بالبرامج الإنمائية التي تمكن المرأة من حقوقها وعدم التمييز ضدها**، لكي تساعد في القضاء على الأمراض الاجتماعية الخطيرة المذكورة بحلول عام 2015 الذي يتم بموجبه تعزيز المساواة بين الجنسين، وإزالة التفاوت بينهما في التعليم الابتدائي والثانوي، وقد فضل المجتمعون أن يتم تنفيذ هذين المستويين من التعليم الابتدائي والثانوي بحلول عام 2005 أما بالنسبة لجميع مراحل التعليم الأخرى فقد حدد لها أن يكون **عام 2015 هو الموعد النهائي لهذا البرنامج**، وأنه من بين التوصيات العديدة التي اتخذت أيضاً؛ تحسين الصحة النفسية، وكفالة الاستدامة (أي التواصل والاستمرار) في تحسين مستوى البيئة..إلخ

وعندما نظر أعضاء المنظمة الدولية في منظمة الأمم المتحدة، إلى مستقبل منظمتهم في نهاية الألفية الثانية، كانت قد انصبت اهتماماتهم على **الأهداف الإنمائية للألفية** الثالثة القادمة، ومن بين الأهداف الإنمائية للألفية الحالية كانت في الدرجة الأولى التأكيد فيها على التزامات الأعضاء بتعزيز المساواة بين الجنسين وبتمكين المرأة من حقوقها ووقف كافة أشكال التمييز ضدها، وأن هذه المطالب قد غدت مطلباً أساسياً يتفق مع المقررات والتوصيات العديدة لمؤتمرات الأمم المتحدة، هذا إلى جانب التزامات الأعضاء المؤتمرين بحقوق الإنسان وبالحكم الرشيد وبالديموقراطية.

*** رابعاً: مؤتمر مجموعة الدول الثماني الصناعية:**

عقد هذا المؤتمر في عام 2004، بعد الغزو والاحتلال الأميركي الغاشم للعراق، وكان قد جاء تحت عنوان "إصلاح الشرق الأوسط الكبير" حسب المبادرة الأميركية أو بعد تعديل عنوانها من قبل فرنسا "الشرق الأوسط الموسع وشمال إفريقيا" وأنه من بين العناوين الرئيسية التي كررتها مجموعة الدول الثماني في مؤتمرها، هو موضوع تمكين المرأة في وطننا العربي، وأنه على الرغم من اختلافنا مع هذا المؤتمر ابتداء من تسميته "الشرق الأوسط الكبير أو الموسع" والذي يقصد منه إدخال الكيان الصهيوني ضمن المنظومة العربية ودول أخرى، واختلاف وجهات نظرنا حول ما يرمي إليه من معنى "الإصلاح" من وجهة نظر الدول الثماني التي تسعى من ورائها إلى أهداف استراتيجية؛ سياسية واقتصادية وعسكرية عدوانية احتلالية، إلا أن المجتمع العربي وقواه الفاعلة تناضل طويلاً من أجل الإصلاح في الحكم، وأن خلافها بين السلطة والمجتمع خلاف طال أمده، في الوقت الذي كانت فيه القوى الإمبريالية الاستعمارية تدعم أنظمة السلطة، وتعطل قوى المجتمع، وأنها تأتي اليوم لتظهر للآخرين بأنها هي التي أبدعت لشعبنا طريق المناداة بالديموقراطية وإصلاح الحكم والعدالة في مجتمعنا، وفي الوقت الذي تعقد مثل هذه المؤتمرات فإن الشعب العراقي الأبي يرزح تحت نير الاحتلال لأراضيه، والاحتلال الصهيوني جاثم على أرض فلسطين يعيث فيها قتلاً وتدميراً. وما نهدف إليه في هذا الصدد هو أن موضوع تمكين المرأة هو مطلب أساسي، يتفق مع المطالب الشعبية القديمة ومع المقررات والتوصيات العديدة لمؤتمرات الأمم المتحدة، ومع أهداف قوى اجتماعية محلية وعالمية، فهذا المؤتمر قد تطرق لموضوع تمكين المرأة من حقوقها، وذلك عندما ناقش المؤتمرون إقامة شراكة دائمة من أجل **التنمية** بين شعوب هذه المنطقة (المقصود بذلك إدخال كيان العدو الصهيوني ضمن تركيبة دول المنطقة العربية، فهو حق أريد به باطل)، إلا

أنه قد أصبح معتاداً عندما تذكر التنمية، فلا بد أن يصاحبها ذكر "تمكين المرأة من حقوقها" ذلك لأن الموضوعين قد أصبحا متلازمين، فالهم العالمي المشترك في مكافحة الفقر والجوع والمرض والأمية والتدهور البيئي يقتضي تمكين المرأة من حقوقها والقضاء على التمييز ضدها حتى تستطيع المساهمة بكل طاقتها في القضاء على الآفات الاجتماعية الخطيرة.

* خامساً: **لجنة المرأة العربية**، التابعة للجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لدول غرب آسيا.

كانت الأمم المتحدة قد **أتبعت لجنة المرأة باللجنة الاقتصادية والاجتماعية**، لأنه في إلحاق لجنة المرأة باللجنة الاقتصادية والاجتماعية، فيه تأكيد على أن الأهداف والغايات المرتبطة بتمكين المرأة من حقوقها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً **بالأهداف الإنمائية** للمجتمعات الدولية.

وعلى هذا الأساس قسمت لجان المرأة في مؤتمر "بكين" على أساس جغرافي لتشمل كل دول العالم، مما يعني أن أمر تمكين المرأة من حقوقها اصبح مطلباً عالمياً وليس إقليمياً فقط، وأنه مرتبط بما تحققه التنمية البشرية وحقوق الإنسان، من تقدم ومن عدالة اقتصادية واجتماعية.

وبناء على ذلك، فإن لجنة المرأة العربية المنبثقة عن مؤتمر "بكين" قد أصبحت جزءًا من دول غرب آسيا، فعقدت لجنة المرأة العربية بعد مؤتمر بكين، دورات قامت فيها بتقويم ما تم تنفيذه من نهوض المرأة العربية، ومراجعة الإنجازات والعقبات والتحديات التي تواجهها في عملية تمكينها من حقوقها اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً.

وقد تمت هذه المراجعة في دورات للمرأة العربية للتحقق من أن المرأة العربية قادرة على الوفاء بما التزمت بتحقيقه! فعام 2005 الذي مضى يكون فيه قد انقضت عشر سنوات على انعقاد مؤتمر عام 1995، فمدة عشر سنوات كانت مطلوبة من المرأة العربية تلك أن تقوم بإنجاز ما تعهدت

به من الوفاء بالتزاماتها أمام المؤتمر العالمي السابق، فهل حققت المرأة العربية ما تعهدت به في دورتها الأخيرة التي انعقدت في بكين ؟!

* نستنتج مما سبق، أن المؤتمرات الدولية والإقليمية والمحلية قد وجدت جميعها وبصورة قاطعة، أنه لا سبيل للقضاء على الأخطار والآفات الاقتصادية والاجتماعية التي تكاد أن تقضي على الحضارة التي وصل إليها الإنسان في العصر الحاضر، إلا بالأخذ بنظام وطريق و**غايات التنمية**، بكل ما تحمله كلمة التنمية من معنى، وعلى الخصوص فإن الدول التي رحل عنها الاستعمار الغربي القديم بعد أن نهب مواردها الطبيعية واستخدمها سوقا لمنتجاته، وتركها بدون تصنيع وفي تخلف تام، فقد كانت مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية وغيرها هي وسيلتها لنهوضها من الحالة المتردية التي تركها فيها الاستعمار، إلا أنه قد وجد في نفس الوقت، أن **التنمية** لن تنجز أبدا إلا إذا تمكنت المرأة من حقوقها وتم وقف كافة أشكال التمييز ضدها، فكافة الغايات والأهداف الإنمائية تصبح عديمة الجدوى، إذا لم يكن للمرأة نصيب متساو في تنفيذ البرامج الإنمائية التي تتطلع لها المجتمعات البشرية والفقيرة والمتأخرة على وجه الخصوص.

* وبناء على النتائج التي توصلت إليها كافة البحوث والدراسات، التي طرحت بقوة ووضوح في كافة المؤتمرات، فإن الأهداف الإنمائية لبداية القرن الجديد من الألفية الثالثة، تكاد تتمثل في عنوان رئيسي واحد وهو: تمكين المرأة، و**تعزيز المساواة** بين الجنسين والقضاء على أشكال التمييز ضد المرأة كافة. ويقصد بالمساواة هنا هو أن تحصل المرأة العربية على حصتها المتساوية في **العدالة** الاجتماعية لأن المرأة تمتلك **حصة متساوية مشتركة في المجتمع** مقدارها **النصف** وأن هذا هو حقها ونصيبها العادل، وبناء عليه ليس من حق أحد الانتقاص من هذه الحصة الطبيعية التي للمرأة العربية.

* لقد أضحى مؤكداً من واقع الدراسات التي أجريت أن النساء في جميع أرجاء المعمورة يؤدين أدواراً بالغة الأهمية في النمو الاقتصادي والتنمية بكافة أشكالها عبر تأثيرهن المباشر في إدارة شئون الأسرة وصحة أفرادها وتغذيتهم وتعليمهم. وقد وجد أنه بدون تمكين المرأة من فرص العلم والتعليم العالي خصوصاً، لن يتم تحقيق التنمية بصورتها المرجوة في الأسرة والصحة والبيئة، وأنه لكي تصل المرأة إلى تلك الدرجات العلمية المتقدمة، يقتضي توفير فرص العمل للمرأة لتستخدم قواها الفكرية وما توصلت إليه من علومها لصالح المجتمع، كما أن حصول المرأة على أجرها المادي يساعدها في كسب عيشها والارتفاع بمستوى أسرتها، وما دامت المرأة ستلقى عليها مسؤولية المشاركة في برامج التنمية الواسعة المدى فإن ذلك يقتضي تواجدها في المراكز التي يصنع فيها القرارات المجتمعية أي في البرلمان وفي السلطة الحكومية، بل في السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية، وذلك لكونها عنصراً بشرياً منتجاً وفاعلاً في المجتمع، وبالتالي لا بد من تمكينها بصورة متساوية في تنفيذ برامج التنمية الأسرية والمجتمعية.

ولقد تأكد أيضاً لجميع الدراسات التي أجريت، أن المجالس النيابية والمحلية التي احتوت على كتل نسائية، قد صدرت عنها تشريعات وقرارات أكثر عدلا ورحمة بالأسرة وبتوزيع مزايا الرعاية الاجتماعية، والاهتمام بالتعليم والعمل، كما انصبت اهتمامات العضوات البرلمانيات على الحاجات الأساسية للمجتمع مثل الماء النظيف والصحة الأسرية، ونظافة المجتمع من الرذيلة.

وقد أظهرت تجارب الصراعات الأخيرة في العالم أن المرأة بعاطفتها ومشاعرها الإنسانية العالية تساعد بعملها الفعال على الارتقاء فوق الانقسامات الإقليمية والعرقية والدينية والسياسية، إذ وجد أن هدف النسوة في تلك الصراعات هي المساهمة بقسط كبير في التنمية الاجتماعية ورفع المستوى الاقتصادي لجميع أفراد المجتمع بعيداً عن الخلافات؛ العرقية

والدينية والسياسية التي تعصف بالمجتمعات، فالمرأة بهذه الصورة هي عامل **موحد للمجتمع** ومساعد في **حل الخلافات** التي تعصف به.

كما أظهرت الدراسات، أن المجازر والحروب - في فلسطين والعراق ورواندا وغيرها - هي أول ما تطال النسوة بجرائمها؛ من اغتصاب وقتل وتشريد، إلا أنه قد وجد أنه على الرغم من ذلك فإن هؤلاء النسوة ومع ما قاسينه من الآلام، إلا أنهن كن يحتضن المصابين والمشردين والمعاقين والعجزة والأطفال واليتامى والجياع، وكن يقمن برعاية الجميع بدون تمييز وتفرقة بين من حلت بهم تلك النكبات.

*** ولكن ما هو وضع ودور المرأة العربية في التنمية؟**

إنه بحسب الإحصاءات الصادرة من الأمم المتحدة، فإن دولنا العربية هي من أسوأ الدول في **إهمال** دور المرأة من المشاركة في التنمية إلى الحد الذي أصبحت فيه المرأة العربية **عبئاً على التنمية** في كافة مرافقها، وعلى هذا يمكن القول أنه لا توجد تنمية وطنية عربية طالما تم تهميش وإهمال دور المرأة، وهذه هي وفقاً للحقائق والنتائج العلمية التي عرضنا لها.

وأنه من هذا الجانب، لا يمكن للتنمية العربية أن تحقق أهدافها، ما لم يتم دعم الدور التنموي السليم للمرأة، وأن هذا لن يتحقق أبدا ما لم يتم إقرار نصوص تشريعية ملزمة النفاذ تحقق للمرأة العربية إنسانيتها، من الناحية الأسرية (الأحوال الشخصية: زواج، طلاق، نفقة، حضانة، وغيرها) والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية، وعن طريق اشتراك المرأة في المؤسسات النيابية التمثيلية لتمكينها من الدفاع عن حقوقها وأهدافها الاجتماعية والأسرية، والتي لها وحدها القدرة على صياغة القوانين والتشريعات التي تحمي المرأة وتمكنها من ممارسة حقوقها وتحمل واجباتها، فعندها تصبح المرأة العربية ركيزة من ركائز التنمية **المستدامة (المستمرة والمتواصلة)** **التي تحقق** التقدم **للجيل الحالي ولجيل المستقبل**، فالقوانين والتشريعات التي

تحظى بمشاركة وموافقة المرأة العربية التي تحقق لها المساواة القانونية ووقف التمييز، هي التي توفر للمرأة في مجتمعنا حالة من الأمان والاطمئنان الأسري بحيث تكون فيه المرأة/ الأسرة جزءاً فاعلاً في المجتمع، بكل ما في هذه من المعاني؛ تكون فيه **شريكاً** فاعلاً في تحقيق وضع تنموي سليم غايته الاستدامة لتحقيق الأهداف الحاضرة والمستقبلية.

وفي قول موجز، فإن النهوض والتقدم العربي لا يستقيم ولا يتم إطلاقًا إلا بتمكين المرأة العربية من حقوقها في المساواة الاجتماعية ضمن ثلاثة مجالات: التعليم والعمل والمشاركة السياسية في اتخاذ القرارات وإصدار القوانين، ولا يتم إصدار القوانين والتشريعات السليمة إلا بوجود المرأة ممثلة في البرلمان التشريعي النيابي، أي أن تكون المرأة العربية مساهمة ومشاركة في السلطات الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية.

وبناء عليه، فإن الشرعية الدينية، والشرعية الدولية الوضعية قد أقرت للمرأة العربية كامل حقوقها، ولم ينتقص من حقوقها سوى المجتمع العربي نفسه من محيطه إلى خليجه، والمرأة العربية بهذه الحقوق المقررة لها شرعاً قد رتبت عليها واجبات جسام، ينوء بحملها كاهلها المشتت الضعيف الذي سبب إضعافه هو الرجل العربي الذي عمل على تهميش دور المرأة قروناً وقروناً عديدة معتمداً على مفاهيم ونظرات اجتماعية متوارثة قديمة وعقيمة لا تتماشى ومتطلبات هذا العصر. وبناء على ذلك، فإنه لا يلومنّ أحد المرأة العربية عندما تقوم بثورتها العارمة التي تكسر فيها القيود والأغلال التي كبلها بها المجتمع العربي طويلا.

* لا نعتقد أن أيًا من أفراد المجتمع العربي غير مدرك وغير مقدر مدى الصعوبات المقامة أمام النساء العربيات، إذ لم **تزل روح القبيلة** وأنظمتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مؤثرة وسائدة في مجتمعاتنا العربية، إلا أن المرأة العربية عليها مواصلة الطريق مدعومة بالمشروعات

المحلية المتوافرة والمساندة الدولية، وعليها الاستفادة من هذه الظروف المتاحة لتأكيد حقوقها النضالية التي بذلتها وتبذلها في سبيل تنمية ورفعة المجتمع العربي وتحقيق أهدافه في الوحدة والديموقراطية.

والمعنى الذي يتضمنه تعبير "تمكين المرأة" ليس مقصوداً منه التوجه لطرف ثالث (تستجدي) منه المرأة "تمكينها من حقوقها"! وإنما المقصود به هو أن تقوم النساء العربيات متضامنات ومتكاتفات باستخدامهن قدراتهن وإمكاناتهن ليفرضن بها مشاركتهن المتساوية في حقول الحياة جميعها: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وأنه من خلال فعالياتهن التي يفرضنها على المجتمع، وبالذات على مؤسسات المجتمع المدني العربي، في تبني القرارات والتشريعات التي تحمي حقوقهن، وكل ما له صلة وثيقة بحياة المرأة والأسرة، أي أن المطلوب هو أن تكون المرأة العربية هي التي تقوم مدافعة عن حقوقها، مثلها مثل بقية الفئات الاجتماعية المهمشة والمحرومة التي تناضل للحصول على حقوقها المدنية المقررة إنسانيا وشرعيًا، ولا يكفيها أن تجأر بالشكوى، بل عليها أن تنظم صفوفها في المجتمع وتفعل كل ما في وسعها فلعل أحداً ممن غرقوا في المفاهيم التقليدية المتوارثة أن يخضع لإرادة العصر و**يستجيب مجبرًا** لقوة مطالبها وصدقها وعدالتها.

إن المرأة العربية ليست ضعيفة مطلقاً، وإنما هي في الواقع قوية إذا أحسنت تجميع قواها الكثيرة والعديدة والنافذة، فالنضال المطلوب من المرأة العربية ليست فيَ أن تكون وحدها في الميدان، وإنما عليها أن تكون عنصراً متضامناً مع مؤسسات المجتمع جميعها، وتكون متضامنة مع أسرتها العربية كلها أيضاً، ونعني به الرجل والأبناء، البيت والحي والمدينة، فالمرأة العربية ليست في معركتها المصيرية هي ضد والدها وزوجها وابنها، وإنما هي مثلها مثل قرابتها أولئك، فكلهم ضحية النظام الاجتماعي والاقتصادي السائد، والمطلوب منهم التكاتف مع جميع القوى الاجتماعية، لإعادة البناء المجتمعي العربي الذي يحقق العدالة والمساواة. وبما أن المرأة واقع عليها

الظلم الاجتماعي التقليدي الموروث **أكثر** من أية فئة اجتماعية أخرى، فإن من واجبها أن تكون في الصفوف الأمامية التي تسعى جاهدة لتحقيق مبدأ "**تمكين المرأة العربية من حقوقها والقضاء على كافة أشكال التمييز ضدها**"، رغم ما يؤخذ على المبدأ من مآخذ تفسيرية.

أنه مما لا شك فيه أن العديد من النساء العربيات يضاهين الرجال كفاءة ومقدرة في المجالات العملية والعلمية والثقافية والأدبية، إلا أن الممارسات والموروثات العربية هي التي عملت على تهميش المرأة مع أنها تمثل الشريحة الاجتماعية الأعظم والأهم في المجتمع. فالممارسات الظالمة التي فرضت التمييز ضد المرأة وأشاعت قيمة تدني دورها في المجتمع من خلال سياسات إعلامية وتعليمية متخلفة وخاطئة، اقتضى من المجتمع بكل فئاته النداء العاجل بوقف أشكال التمييز ضد المرأة العربية كافة.

ومن هنا يأتي معنى تمكين المرأة من حقوقها، وهو ضرورة إفساح المجتمع العربي للمرأة من ممارستها لحرية الاختيار في الانتخابات وفي العمل بعيدًا عن قهر وضغط الرجال، والتوقف عن اعتبار المرأة أنها من فئات الأقلية – وهي ليست كذلك – موضوعة في ركن جانبي منزو وهامشي في الحياة العائلية والأسرية والاجتماعية والاقتصادية، مسلوبة الإرادة والحقوق الإنسانية الواجبة في المجتمع، بدلاً من الاستفادة من قدراتها في بناء المجتمع المنشود وتنميته لصالح تحقيق بناء الأسرة الصالحة التي تقوم على تربية الأجيال التي تحقق التقدم العلمي لمجتمعنا في وقتهم الحالي ولأبنائهم في المستقبل.

* وبهذه الكيفية، فإنه مطلوب من المرأة العربية تواجدها في الحياة العامة من خلال مؤسسات المجتمع المدني، وعلى الخصوص أن يكون لها حضور قوي في **الأحزاب** السياسية، التي تؤدي إلى وصولها إلى قبة البرلمان و حجز مكانها في مقاعده، لأنه لا وسيلة لها بإيصال صوتها

وحصولها على حقوقها، إلا عن طريق المؤسسات البرلمانية، فمن داخل مقاعد البرلمان تستطيع أن تفرض التشريعات التي تحفظ لها حقوق أسرتها في العيش الإنساني الكريم.

* هذه الأهداف والغايات هي لتقدم البشرية ومنها المجتمع العربي وعلى رأسها حقوق المرأة العربية وكرامتها البشرية الإنسانية هذا المجتمع الذي يقوم على عاتقه قيام السلطة السياسية للدولة التي تحقق العدالة والتقدم في المجتمع للمرأة والرجل معا. إلا أنه مما يؤسف له ويحز في النفس أسى، أن نجد ممن يدعون التقدم والديموقراطية، قد اتخذوا موقفاً مؤيداً للاحتلال الإمبريالي تجاه ما قام به من سجن وتعذيب وجرائم إنسانية تجاه العالمات العراقيات، وانساقوا مع المحتلين وأبواقهم في إطلاق النعوت البذيئة على هؤلاء النساء العالمات العربيات، فقد نعتوهم هؤلاء بـــ"المرأة الجرثومة" أو المرأة الجراثيم، وغيرها من النعوت اللآإنسانية واللاأخلاقية تجاه نسائنا العربيات، فليس لهؤلاء النسوة من ذنب سوى كونهن عالمات باحثات ومدرسات للعلوم المتقدمة وأبحاثها، وأن كذبة الاحتلال الاستعماري بأسلحة الدمار الشامل، قد سقط زيفها أمام العالم كله، وأنها لم تسقط عند أولئك النفر من العرب الذين بقوا يرددون النعوت الزائفة تجاه العالمات العربيات، كما يرددها الإمبرياليون المحتلون. إن أهداف المستعمرين هو قتل أي إرادة عربية لدخول مجال التطور العلمي، وهذه سياسة واضحة وجلية في عدم تمكين العرب من التقدم العلمي البحثي والتكنولوجي وبخاصة سد الطريق أمام النساء العربيات، لإفساح المجال أمام العدو الصهيوني لإثبات ادعائه أن المرأة والرجل في المجتمع العربي في حالة تخلف، وأن التقدم في هذه المنطقة هو للصهيونية العنصرية، فحرمان العرب من تملك زمام العلوم المتقدمة يترك للصهيونية والاستعمار المجال لإشاعة التأخر والفوضى والجهل في عالمنا العربي، ولكن ما هي المصلحة التي يجنيها هؤلاء من قتل العلم والمعرفة لدى المرأة العربية؟

إنه الرغم من الذي حدث، فإن النساء العربيات قد أثبتن جدارتهن وقدرتهن في مجال البحوث والتقدم العلمي، وأن على المرأة العربية متضامنة مع الرجل العربي في النهوض بمجتمعنا من نواحيه العلمية في مجال الذرة وعلوم الفضاء والعلوم البيولوجية والتكنولوجية وعلوم المعلومات والتقنيات وغيرها، فالمرأة العربية بالذات لن تحصل على حريتها ورفعة شأن أبنائها دون امتلاك مجتمعها لناصية التقدم العلمي الحديث الذي فيه وسيلة القضاء على البطالة والعوز، فليس هناك أية قيمة تذكر للشعارات العربية في الحرية والتقدم إذا لم يصاحبها تقدم علمي، ففي هذا العصر، المجتمع الذي يمتلك **العلوم** والصناعة والاختراع هو الذي **يملك حريته** واستقلاله و تقدمه.

* لقد مرت بنا عبارة "الكوتا النسائية" التي أقرتها المنظمات الدولية. المعنى الإنجليزي لـــ quota هي "حصة نسبية"، "فالكوتا النسائية" تعني **حصة نسبية للنساء**، أي إجراء حصة من نسبة عدد من مقاعد مجلس النواب المنتخب، يختص بها النساء بعدد معلوم، يتم انتخابهن ضمن القوائم الانتخابية لكتل الأحزاب والمستقلين المرشحين للانتخابات النيابية.

فالديموقراطية أساسها وغايتها وهدفها **المساواة** بين أفراد المجتمع، وأن نظام الكوتا قد جاء من هذا المنطلق الديموقراطي، وذلك أن مجتمعات ديموقراطية قد أخذت بنظام الكوتا عندما وجدت أن فئات مجتمعية معزولة لم تستطع بمقدورها وحدها أن تتساوى في حقوقها الاجتماعية مع بقية أفراد المجتمع، فجاء دور الجمعيات المدافعة عن الحقوق المدنية التي تعمل جاهدة على إزالة الظلم عن الطبقات المهمشة اجتماعيا. لقد حدث هذا الأمر في جمهورية الهند، وهي كما نعرف أكبر دولة ديموقراطية، عندما وجدت طبقة في المجتمع الهندي يطلق عليهم المنبوذون Untouchable وأن هذه الطبقة في عرف الموروث الهندي الديني والاجتماعي هي طبقة نجسة لا تمس، لكن المجتمع الهندي الديموقراطي الموحد، وجد أن هذه الطبقة التي

حرمت لآلاف السنين من حقوقها الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية، يجب أن يفسح لها مجال في مؤسسات المجتمع المدني كافة للحاق بأقرانهم من الطبقات المجتمعية الأخرى، فخصصت لأفراد هذه الطبقة عدداً من المقاعد (كوتا) في الجامعات والمؤسسات الحكومية والاجتماعية يمكن لأفراد هذه الطبقة الوصول إليها قبل غيرهم.

وهذا ما فعلته الولايات المتحدة أيضاً، فأصحاب الحقوق المدنية قد طالبوا بمساواة السود بغيرهم في الوصول إلى مقاعد الدراسة في الجامعات الأميركية التي كانوا قد حرموا منها بسبب لونهم، فخصصت لهم حصة نسبية من المقاعد (كوتا) في تلك الجامعات.

وهنالك عدد من الدول الأوروبية ذات الديموقراطيات العريقة قد طبقت نظام الكوتا النسائية حتى طالت مؤسسات الدولة والمؤسسات الخاصة.

يفهم مما سبق أن الكوتا النسائية التي هي حصة نسبية تخصص فيها مقاعد للنساء في الانتخابات التشريعية، الغرض منها تحقيق **الديموقراطية والمساواة** وإعطاء فئات المهمشين أو "المنبوذين" في المجتمع فرصة لدخول المجال التشريعي والتنفيذي في المجتمع القائم على الوحدة والديموقراطية والمساواة، والغرض منه تحقيق هدف **مرحلي** لوقف عادات وتقاليد موروثة خاطئة في المجتمع.

وأن المجتمعات المدنية النسائية العالمية عندما أقرت "نظام الكوتا النسائية" وطالبت بتنفيذها والأخذ بها لزيادة المقاعد التي تحتلها النساء في المجالس النيابية، ذلك لأنها قد وجدت ألا حل لمشاكل المجتمعات الإنسانية إلا بإفساح المجال للمرأة بتبوء مقاعدها في البرلمان التشريعي النيابي.

يعترض البعض على الكوتا النسائية في الكتلة التشريعية الانتخابية البرلمانية، بأن في هذا **تمييز للمرأة** ولا يحقق العدالة والمساواة في المجتمع. المساواة وعدم التمييز هو ما يكافح الجميع من أجله، إلا أن

العادات والتقاليد والموروث التاريخي، قد استخدمت فيها كل وسائل التمييز ضد المرأة، فخلقت أمامها معوقات اقتصادية وثقافية وقانونية، مما جعل المرأة تعامل بدونية طوال حقب تاريخية طويلة، وقد تقادم الزمن على هذا الوضع المضر والخاطئ، فعلى هذا الأساس اقتضت **المصلحة العامة** للمجتمع عدم سلب أو **تعطيل نصف** طاقة المجتمع في مشاركتها معه، وهي التي لها نفس الحقوق وعليها نفس الواجبات، وبما أن المصلحة العامة هي أساس التشريعات والقوانين الاجتماعية، فأصبح مطلوب من المجتمع أن يحقق المساواة للشريك الآخر فتتحقق بذلك العدالة والتقدم، ولا يتم ذلك إلا بالمشاركة العملية الفعلية للمرأة.

وعلى هذا الأساس فإن المصلحة العامة تقتضي بأن يعمل المجتمع **بكامل طاقته البشرية**، وأنه لا يتحقق ذلك إلا بإعطاء المرأة بعضاً من حقوقها المسلوبة، فالكوتا تضمن لها استرداد بعض من حقها السياسي في التمثيل البرلماني بعد أن خذلت في انتخابات عديدة خاضتها المرأة بجدارة واقتدار، إلا أن التمييز ضدها قد أدى فعله فخذلت من احتلال مقعدها النيابي، وأصبح لا مجال أمام المجتمع إلا الإقرار بالكوتا النسائية سبيلا للتقدم الاجتماعي والاقتصادي والثقافي وغيره.

لقد تعرضت المرأة للتمييز وحان الوقت أن يجري **تمييز حقوقها عن طريق الكوتا** التي فيها **تمييز إيجابي مؤقت** تحصل فيه على نسب من المقاعد البرلمانية عن طريق الانتخاب والاقتراع الشعبي الحر والنزيه مثل بقية المقاعد البرلمانية الأخرى، فلعل في هذا التشريع **المؤقت** استرداد لبعض من حقوقها السياسية، ذلك لأن المطالبة بهذا التشريع المؤقت هو الوسيلة المتاحة – في الظروف المجتمعية الحالية- لوصولها إلى مقاعد البرلمان لإصدار التشريعات السليمة التي تخدم الأسرة والمجتمع كله.

* الملاحظ أن الأنظمة العربية بعد توقيعها على الاتفاقيات الدولية، قامت بخلق واجهات نسائية في التمثيل البرلماني والوزاري للمرأة، ولا حاجة لنا القول أن التمثيل الذي يجري على مثل هذه الشاكلة وبتلك الكيفية والصورة يقلل من شأن المرأة العربية ولا يرفع من قدرها ومكانتها الاجتماعية والسياسية، وأن هذا النوع من الإجراءات لا تحقق الأهداف والحقوق التي تطالب بها المرأة العربية. لقد قامت أنظمة عربية بالتركيز على مجموعة من النخب النسائية ووضعتها في (فترينة) الواجهة السياسية المحلية والدولية، فهذا بالتأكيد مخالف لما تهدف إليه المرأة العربية، فالمرأة العربية من خلال "الكوتا" أو غيرها تريد أن تصل إلى مقاعد البرلمان عن طريق **الانتخاب** الديموقراطي الحر والنزيه وليس عن طريق التعيين. إن المرأة العربية هي جزء من منظومة المجتمع الساعي إلى الإصلاح ومحاربة الفساد وتحقيق الديموقراطية، فالنساء هن أصحاب المصلحة الأساسية في الاستفادة من موارد التنمية، فالفئات النسائية الريفية المتفشية بينها الأمية، ونساء الطبقات الفقيرة، هي التي يجب أن يكون لها دورها في تمثيلها السياسي وفي بلوغها إلى مراتب صنع القرار للقضاء على الأمية التي هي عالية نسبتها بين النساء العربيات أكثر منها بين الرجال .

إن إصلاح الأمية والتخلف بين النساء لا يتم إلا بوصول النساء المتعلمات الفقيرات إلى مقاعد البرلمان، لقد أبعدتهن الطبقية والطائفية والقبلية عن إتاحة الفرصة لهن في التمثيل البرلماني، وعليه يجب أن يعطين حقهن في الكوتا قبل غيرهن لأنهن الأولى بها، لكونهن أصحاب المصلحة الأولى في التمثيل البرلماني الذي يعبر عن شقائهن وآلامهن قبل أي فئة اجتماعية أخرى.

فالنساء العربيات لسن في حاجة إلى وضعهن في واجهات سياسية (فترينات)، فهن قادرات على الوصول إلى مقاعد المجالس النيابية بقدراتهن الذاتية، إذا رفعت وكفت أيدي رجال الحكم والقبائل والعشائر والمفسرين

والمتنفذين والمتسلطين، وتوقفوا عن تمييز المرأة وإيذائها إعلاميا وتعليميا وتثقيفيا، وتحريض فئات المجتمع عليها في أماكن العبادة والأماكن العامة، أي إذا توقف هؤلاء الرجال وأمثالهم عن التمييز ضد المرأة في هذه المرحلة المؤقتة، فإن الكوتا النسائية المقرة بالتشريع، تصبح هي الطريقة العملية **المؤقتة المتاحة** حاليا لكي يكون للمرأة العربية مكان ولو أنه صغير في التمثيل البرلماني العربي.

إن المرأة العربية هي أول من تسعى جاهدة من أجل تحقيق الديموقراطية، فالبناء الديموقراطي هو الوسيلة لتحقيق أهداف المرأة ورفع الحيف والظلم عن كاهلها وبالتالي عن المجتمع كله، فالمرأة تمتلك كتلة تصويتية هائلة تعادل نصف المجتمع أو أكثر، وتستطيع النساء بنضالهن عبر جهودهن المتواصلة في تعزيز الوعي بقضايا المجتمع عموماً وقضايا المرأة من بينها، فتكفل تأييد هذه القوة الإقتراعية التصويتية النسائية إلى جانبها، سواء في المدينة أو في الريف، في المتجر أو المعمل، وبالتالي تتمكن من إعادة حقوقها الطبيعية، وتضع نفسها في موضعها الحقيقي في بناء المجتمع والدولة، وليست واجهة لسلطة أو حزب غير ديموقراطي. وأنه من خلال العمل الديموقراطي فإنه بقدرة المرأة التصويتية الانتخابية يمكنها تحقيق انتصارها في المعركة الانتخابية الحرة النزيهة بالكوتا في المرحلة الأولى وبغير الكوتا في مراحل لاحقة.

من كل ما سبق، نجد أن المرأة العربية مدعوة الآن أن تصل بالديموقراطية إلى مراكز القرارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وأن تتبوأ مكانتها المرموقة كما كانت قد فعلت من قبلها المرأة العربية القديمة، لتكون المرأة العربية الجديدة هي محررة الأوطان، من المغتصبين، وبانية للمجتمع الحديث والدولة الحديثة التي من مهامها تحقيق الديموقراطية والحرية، والوصول إلى التقدم العلمي والتكنولوجي للوطن العربي.

كما أن للمرأة العربية دورها ومساهمتها في "تمكين" الديموقراطية، إذ لا يمكن للديموقراطية أن يتم تنفيذها بدون أحزاب سياسية وجمعيات أهلية ونقابات مهنية ومنابر فكرية، فضلا عن صحافة حرة ونظام قضائي وقانوني يتمتع بالاحترام والمصداقية، وأن للمرأة العربية مكانتها المرموقة في كافة تلك المحافل والمجالات للوصول إلى العدالة والديموقراطية، وأن التحدي الحضاري العربي المطلوب طريقه هو أن تصل المرأة لحقوقها وتعمل على بناء المجتمع الديموقراطي المنبثقة منه السلطة الدستورية البرلمانية.

الفصل الثالث

المرأة العربية ملكة في مملكة سبأ القديمة

ونستكمل موضوع الفصل السابق الذي هو تمكين المرأة العربية من حقوقها التي أقرها الواقع والعرف العربي القديم وأقرتها لها الآيات القرآنية والشرائع الإنسانية، وكلها قد جاءت متفقة مع ما فرضه الواقع الحضاري الحالي لتحقيق التنمية الإنسانية البشرية وما يتبعها من تنمية اقتصادية واجتماعية وبناء مجتمع الديموقراطية والمساواة.

ولقد تلونا من "**سورة النمل**" آيات حدثتنا عن ملكة سبأ العربية القديمة، ونحن في هذا السياق نستطرد بالبحث في ذات الموضوع، مشيرين إلى أنه قد أفردت في القرآن الكريم سورة من سوره البالغ عددها 114 سورة، خصت هذه السورة بمملكة سبأ القديمة، تلك السورة التي يحمل عنوانها "**سورة سبأ**" ولنا أن نتلو منها الآيتين التاليتين:

ـ نقرأ الآية 15:

"لقد كان **لسبأ** في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له **بلدة طيبة** ورب غفور"

- ونقرأ الآية 16:

"فأعرضوا فأرسلنا عليهم **سيل العرم** وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل"

هاتان الآيتان البليغتان في معانيهما وفي هديهما، تختصران لنا تاريخنا العربي قديمه وحديثه، وتبينان لنا أسباب تقدم شعبنا ونهضته في مملكة سبأ القديمة، كما تبينان لنا من جانب آخر، الأسباب التي أدت إلى انحسار ذلك التقدم والازدهار وتهدم العمران الحضاري في ذلك الزمان، وبناء عليه نحاول في فقرات تالية ـ ضمن حدود معرفتنا ـ استخلاص الدروس التاريخية والاجتماعية والاقتصادية من المعاني التي ساقتها لنا هاتان الآيتان.

الآيتان ترشداننا إلى أسباب وظروف صعود حضارة الجزيرة العربية القديمة وإلى أسباب انتكاسة نهضتها وتراجعها، فهذا ما نحن في حاجة ملحة لمعرفته. الآن لنأخذ مما مضى الدروس والعبر لتكون لنا مصباحاً ينير طريقنا الحاضرة، ولكنه وفقاً لمتطلبات ظروفنا وشروط عصرنا الحاضر، ونشير إلى أن هذا هو موضوع كتابنا السابق أيضاً.

فالآيتان تلقيان علينا الدروس والعبر، حيث بينتا لنا أن الأسباب الكامنة وراء التقدم الحضاري لمجتمع مملكة سبأ القديمة، الذي كان عماده العمل والإنتاج، لأن الرزق والمعيشة الهانئة، لا تتأتى إلا بالعمل وبالإنتاج المثمر من خلال استغلال الموارد الطبيعية التي أتاحتها بيئة أرض الجزيرة العربية، وأن العمل والرزق لا يأتي إلا باستثمار الموارد البشرية التي يتحقق إنتاجها من الموارد الزراعية والتعدين والتجارة، فالإيمان بالإنتاج الأمثل هو الذي يحقق العدالة والمساواة، ويحقق التقدم والازدهار للمجتمع. فالمجتمع المنتج يشكر الله على ما حققه من إنتاج، وما أتيح له من رزق جراء ما بذله من جهده وعمله، فمن لا يعمل ولا ينتج إنتاجاً مثمراً ونافعاً هو عالة على المجتمع بل خطراً عليه، فالدين الإسلامي يحث على العمل والإنتاج واستثمار ما تزخر به الطبيعة والأرض واستثمار الجهد العقلي لتحقيق الاختراع والابتكار خدمة لحياة الإنسان وتقدمه.

وكما سيمر بنا من أن العرب في جنوب شبه الجزيرة العربية قد عملوا، منذ أقدم العصور على **تحدي الظروف البيئية والمناخية**، وأستجابوا للتحديات الجغرافية والطبيعية فقاموا بالعمل والإنتاج في جبالهم وفي وديانهم وسهولهم وصحاريهم، وفي بحارهم وعلى شواطئهم وفي جزرهم، وفي مضائقهم وممراتهم البحرية والبرية، فأقاموا السدود وبنوا المدرجات الزراعية، واحكموا أنظمة الري مستخدمين أساليب وتقنيات لا تزال آثارها حتى اليوم شاهدة على تقدمهم العلمي والهندسي، كما أنهم قد عبروا الفيافي والقفار متحملين قسوتها الطبيعية، كما بنوا السفن وعبروا البحار والمحيطات. لقد عرف هذا الشعب كيف يستفيد من الموقع الاستراتيجي لهذا الجزء من الجزيرة العربية، فقام بإنشاء الطرق التجارية العالمية البرية منها والبحرية، فكون له ثروة اقتصادية مكنته من تحقيق الرخاء والازدهار لمجتمعه ساعده في الوصول إلى أعلى درجات التحضر والرقي في تلك الأزمنة البعيدة.

فهذا الجهد الإنساني الخلاق هو الذي شيد النهضة العظيمة لمجتمع مملكة سبأ القديمة، إلا أننا نجد أن نهضته تلك قد أصيبت بانتكاسة وتراجع واضمحلال حينما فقد المجتمع، في وقت معين من تقدمه، إيمانه بالعمل في كافة المجالات الاقتصادية المتاحة في مجتمعه لصالح المجتمع كله وليس لطبقة تجارية وارستقراطية، وذلك عندما أغرت أفراداً من ذلك المجتمع الذين تهافتوا على جمعهم للثروة وتكديسهم الأرباح الناجمين عن إنتاج سلعة وحيدة كان عليها طلب عالمي في ذلك الحين؛ ثمنها كان غاليًا وربحها كان مغرياً فقام العربي بالمتاجرة فيها وأهمل ما دون ذلك من منتجات أخرى مكملة وضرورية لحاجات مجتمعه. وحيث إن المتاجرة بهذه السلعة كانت تعتمد على الطلب الخارجي وعلى الظروف السياسية الخارجية، فقد كان أمر بيع هذه السلعة خاضعاً لظروف خارجة عن إرادة ومقدرة المملكة اليمنية القديمة، كما أن للقوى الأجنبية أطماعاً في التحكم في تجارة تلك السلعة النفيسة والسيطرة على الأرض التي تنتجها، فالهدف الأجنبي النهائي

هو التحكم في مقدرات الشعب المنتج، واستغلال موارده الإنتاجية وموقعه الجغرافي الاستراتيجي.

لقد تصورت دول اليمن القديمة ومعها مجتمعها أن هذا المنتج وما يأتي به من ثروة هما مصدران دائمان، فخلد شعبها الحيوي النشيط إلى الاستكانة والدعة مهملاً العناية بمصادر الإنتاج الأخرى، وعلى هذا فإنه عندما انقطعت موارد الثروة من التجارة الخارجية، كان المجتمع قد فقد حركة التواصل في الداخل والخارج، فأصيب المجتمع بانتكاسة عظيمة أدت إلى **عزله عن مراكز الحضارات** الأخرى؛ اقتصادياً وسياسياً وثقافياً، عندها **فقد** المجتمع التأثير و**المساهمة** في النهوض الحضاري المشترك بينه وبين الشعوب والحضارات الأخرى. وعندما ضاعت مصادر التجارة في تلك السلعة الإنتاجية الفريدة وهي المر واللبان وغيرها، أدى هذا الوضع إلى هجرة الأعمال الرئيسية للإنتاج والابتكار، وأدت هذه بالتالي إلى إهمال أعمال الصيانة الضرورية لأنظمة الري، فصارت الترميمات للسدود تؤجل، إذا لم تكن تهمل، بسبب النزاعات التي نشأت في الدولة الواحدة، حتى فات الأوان وحدثت كارثة "السيل العرم".

وغني عن القول من أن كارثة "السيل العرم" قد بدلت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في مملكة سبأ، كما أدت إلى الحروب الداخلية مما سهل الغزو الخارجي. هذه القصة الواقعية لما حدث في سبأ القديمة، تتشابه في واقع تفاصيلها مع ما يحدث لمجتمعنا العربي في وقتنا الراهن، حيث أصبح إنتاجنا ومواردنا واقتصادنا يكاد يكون معتمداً، وربما بصورة مطلقة، على مصدر إنتاج وحيد، وهو النفط والغاز، السلعة الناضبة، التي تعتمد على الطلب الخارجي وتتبع لاستراتيجية القوى العظمى، فقصة الماضي تتكرر معنا في الحاضر. فحذار ثم حذار من أن يصيبنا السيل العرم؟

فإذا أخذنا بالآية الأولى نجد فيها تأكيد على أن أهل مملكة سبأ القديمة كانوا قد عمروا المساكن وشيدوا المباني، التي هي آية في التنسيق والجمال، وأن المزروعات والحقول والحدائق والبساتين؛ فيها الرزق الوافر، وفيها الخير الذي يعم على الناس جميعاً، ففيها "جنتان" عن اليمين وعن الشمال، ما يدل على الحضارة التي وصلت إليها تلك الدولة القديمة من تقدم وعمران.

وقد سمتها الآية "**بلدة طيبة**" والتي تعني الأرض الخصبة المعطاء، بنباتاتها العطرية، وتعني كذلك ما تجود به أرضها وجبالها من معادن وأحجار كريمة. فالبلدة الطيبة فيها الأرزاق الوفيرة والمأكل والمشرب الطيب، وتعني أيضاً ما تنتجه أرضها من الثمار الطيبة اللذيذة الطعم والرائحة. ولذلك طلبت منا الآية المحافظة على تقدم هذا البلد، والعمل على نهضته.

فملكة سبأ التي جاء ذكرها في "سورة النمل" - في الفصل السابق - هي تلك الملكة التي نصت عليها الآية الكريمة: "امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم". فهذه المملكة التي تتولى الملك وإدارة البلاد فيها تلك المرأة العربية هي في الواقع، هذه "**البلدة الطيبة**".

أما الآية الثانية، فهي تدلنا على أن "البلدة الطيبة" ستتبدل إذا **أعرضت** أنظمة الحكم عن الأهداف والمبادئ القائمة على المشاركة الشعبية في صنع القرارات الدستورية، وعندما يهدر ويضيع المال العام دون رقابة برلمانية شعبية على مصادر الموارد الوطنية، عندها تتبدل الأحوال الاجتماعية والاقتصادية الناتجة عن الخلل بين الحاكم والمحكومين، فتتعطل مشاريع صيانة السدود، وتتصدع جدرانها وتنهار أبنيتها، وعندها تفقد الأساسات والبنى قوتها التي تتحكم في مياه السدود، فيأتي السيل الجارف "**سيل العرم**"؛ سيول مندفعة من جدران السدود المتهدمة والمنهارة، عندها تهلك البساتين والزروع والمواشي، فتتبدل أحوال بلدتهم الطيبة ذات الظل والثمار والجنات الغناء، وذات الثمار الحلوة والنباتات والأشجار ذات الروائح العطرة، عندها

تكون هذه قد **تبدلت** بثمار مذاقها مرّ، وبشجر لا يثمر، بحيث لم يبق من تلك الجنات سوى شئ من نبق "**سدر**" قليل لا غذاء فيه يسد رمق الجائعين.

والحقيقة التاريخية وآثارها تبين لنا، أن مملكة سبأ كانت قد بنت السدود التي ارتوت من مياهها المزروعات التي أثمرت وآتت أكلها، فكانت محصولاتها الزراعية المختلفة، وعلى الخصوص تلك النباتات العطرية وما تنتجه من الأطياب؛ البخور والطيب واللبان والمر والصمغ، التي كانت ذائع صيتها، والتي قامت الممالك السابقة واللاحقة لمملكة سبأ بالإتجار في هذه المحاصيل الثمينة والغالية الثمن، مما أدى إلى ثراء هذه الممالك القديمة مستفيدين من كون المجتمع اليمني هو **مجتمع تجاري** بحكم توسط موقعه الجغرافي بين الأمم القديمة.

لكن أهل اليمن في ممالكهم المتعاقبة القديمة، كانوا مكونين من طبقات وسادات وقبائل وجماعات ذات نفوذ وسلطان، أعماهم الطمع والجشع في جمع المال وفي تبوء السلطة، فقل اهتمامهم بالزراعة وجعلوا اعتمادهم بشكل أساسي على ما تدره عليهم التجارة من ثراء، مما أوجد التنافس الحاد بينهم في الاستحواذ على الثروة والجاه والبذخ في العيش، وكانوا قد توجهوا في تنافسهم إلى تنازع السيادة والنفوذ على المناطق والطرقات التي تمر بها التجارة فأهملوا الزراعة وتوجهوا للتجارة وحدها، وبما أن التجارة كانت قد خضعت فيما بعد، لمنافسة قوى خارجية، أدت هذه لتدخلاتها في الشئون الداخلية اليمنية عندما وجدت القوى الأجنبية فرصة في الصراعات القائمة بين ممالك المدن في نزاعاتها المحلية، وزاد الأمر سوءاً، عندما قامت ممالك المدن المتفرقة والمتنازعة في قواها الداخلية بالاستعانة بالقوى الخارجية التي استباحت البلاد – بوصفها منقذاً لأحد الأطراف – فأخضعت أهلها جميعا لسلطان قوة احتلالها – كما سيأتي بيانه فيما بعد – فأهملت عندئذ صيانة المنشآت الزراعية وصيانة السدود، فاجتاحها "سيل العرم".

وحيث إنه عندما يتصدع السد يعقبه الخراب والجفاف، ويليه تهدم وخراب البنية التحتية لاقتصاد المجتمع، ثم تأتي الحروب بين السكان وتنازع البقاء بينهم للحصول على ما تبقى من أرزاق، إذ إنه بعد الخراب والجفاف، تأتي الحروب التي محصلتها الجوع والأمراض والأوبئة، وبعدها تأتي هجرة أهلها، فيفتقر البلد من سكانه، ويصبح ذلك الوادي وتلك السهول التي كانت تروى بمياه سد مأرب، أرضاً جرداء قاحلة لا ماء فيها ولا زرع، وخاصة وأن مدينة مأرب وسدها واقعان على أطراف الصحراء، التي تساعد على التصحر، وعلى تآكل المزروعات، فلا غرابة إذن أن يصل الوضع إلى تهدم العمارة القائمة واختفاء ما شيدت من المباني، وأنه برحيل البشر عن الأرض يتبعه اندثار معالم الحضارة التي كانت قائمة، فتلك هي اللعنة التي تحل بأنظمة الحكم القبلية الطائفية الفاسدة المستبدة التي تنشغل بالنزاعات على السلطة والاستيلاء على المال العام، فتحرم السد من الصيانة، وتهمل صيانة المنشآت العامة الحيوية التي تشكل عناصر أدوات الإنتاج للمجتمع وقوام معيشته، وعندها يبدأ "سيل العرم" الاجتماعي والاقتصادي من بطالة وفقر وجوع ينتشر على ضفتي الوادي الذي جف ماؤه.

فالحكم الصالح هو الذي يقوم بالمحافظة على الأرزاق ببرامجه التنموية المستدامة، المستمرة والدائمة لتصل منافعها للأجيال الحالية والأجيال القادمة، والتي تشترك في وضعها مؤسسات قوى المجتمع المدني المنتخبة دستوريا، فالسلطة الدستورية تكون مسؤولة ومراقبة على تنفيذ تلك الهياكل التنموية الاقتصادية والاجتماعية التي تقوم بها السلطة التنفيذية، وهي الحكومة، فيكون المال العام مضموناً من التبذير والفساد؛ المال العام يتم تحصيله وإنفاقه على أساس وصاية ورقابة برلمانية منبثقة من إرادة شعبية، وهذه الإرادة البرلمانية الشعبية، تقوم بمهمتها في مراقبة مشاريع الدولة، وأن إنفاق الأموال العامة يتم ضمن مبدأ الشفافية والمحاسبة العامة.

فالأموال والميزانية التي يقرها البرلمان، تخصص بنود أموالها للأهداف الإنتاجية التنموية المحددة الأهداف والغايات، بعيدة عن الفساد والرشوة والسرقة وضمن نظام المراقبة والمحاسبة والشفافية المنبثق قانونها وإجراءاتها الرقابية من قبل مؤسسات المجتمع المدني والصحافة والإعلام، الحرة النزيهة، وذلك لكون الصحافة والإعلام هي في حد ذاتها سلطة رقابية نقدية على السلطات الثلاث والمجتمع أيضاً، فهي سلطة مجتمعية رابعة. فالخزينة العامة للدولة هي مالية الشعب كله، جمعت من موارد أرضه وبحره وجوه ومختبراته ومعامله، وجمعت ضرائبها من عرق المواطنين واقتطعت من أرزاقهم ومن أفواه أبنائهم، هذه خزينته العامة، أو التي هي "بيت مال المسلمين"، لا يتم الإنفاق منها إلا من خلال نظام تداول السلطة في الحكم المنبثقة عن انتخابات تشريعية حرة ونزيهة.

فعندها لا مجال لتهدم السدود، إلا أنه إذا جاءت ظروف استثنائية وجاء "السيل العرم"، الذي مصدره تهدم جدران السدود، سيقف في وجهه المجتمع بكل فئاته ومؤسساته الديموقراطية، فالحكم الصالح له القوة والمنعة في مواجهة الأعاصير الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والحربية، وفي دحره العدوان على الأوطان، وذلك لأن هذا الحكم منبعه ومصدره الإرادة الشعبية الحرة، فهذا الحكم ومن خلال برامجه التنموية يكون قد تسلح بالعلوم التطبيقية والهندسية وبعلوم التكنولوجيا التي تدرس وتخطط لتجنب الكوارث، فتعد لها المال والاستعدادات اللوجستية والتقنية قبل وقوعها.

أما في حالتنا العربية الراهنة، المال العام منهوب ومسروق من قبل فئة قليلة متحكمة، لم تصل إلى سدة الحكم ضمن الوسائل والطرق الديموقراطية، هذه الفئة الفاسدة والفئات الأخرى التابعة لها، تعتبر الوطن كله أرضه وسماه **غنيمة** لتلك الطائفة أو القبيلة أو العشيرة أو المفرزة من ضباط الجيش والشرطة، همها المصلحة الشخصية الفردية، وليست المصلحة العامة، وعلى هذا الأساس تكون هذه الفئة عقبة في سبيل تقدم

المجتمع وتحقيق مشروع بناء الحكم الصالح الذي يكف أيديهم ويمنعهم من سرقة المال العام.

فعندما يفسد الحكم يصبح البناء معطلاً، عندئذ لا يقف شيء أمام "السيل العرم" أو المد البحري العارم **Tsunami** "تسونامي" من البطالة والفقر، وهذا قد يكون قادماً لا محالة وخاصة بين الشباب من أبنائنا، إذا بقيت أوضاعنا العربية على ما هي عليه الآن، فأنظمة الحكم في وطننا العربي ستواجه هذه المعضلات الاجتماعية، تواجهها فئات المجتمع كافة في جميع أقطار الوطن العربي كله بدون استثناء. فواجب مؤسسات المجتمع المدني والأحزاب السياسية، والصروح البرلمانية والحكومات والأنظمة العربية القطرية والاتحادية، أن تتدارك أمر البطالة والفقر والأمية سريعاً، وذلك في الأخذ بمبدأ حكم السلطة الدستورية وتداول السلطة البرلمانية، التي تحرص على المال العام وإنفاقه في سبيل التنمية العلمية المتقدمة والتنمية البشرية والاقتصادية والاجتماعية، فهذه هي الوسيلة الحضارية الوحيدة لمواجهة "السيل العرم" ومد "تسونامي" الاجتماعي.

* فالآيات التي جاءت على ذكر مملكة سبأ، تعبر عن نواحي سياسية واجتماعية كما سبقت الإشارة إليها، إلا أنها في نفس الوقت تعبر أصدق تعبير عن الوضع الطبيعي والجغرافي الذي كان سائدًا في جنوب الجزيرة العربية والذي كانت تمثله مملكة سبأ القديمة، فملكة سبأ العربية التي كانت تحكم تلك المملكة – جنوب الجزيرة العربية – يتمثل فيها شعب عظيم عاش على أرض شاسعة من جنوب شبه الجزيرة العربية، تمتد على مساحة كبيرة؛ تتكون منها جبالها ووديانها وسهولها وصحراءها، وبحارها وجزرها وشواطئها وموانئها. فملكة سبأ التي جاء على ذكرها في القرآن الكريم، كانت في زمانها ومكانها تمثل تلك المملكة القديمة المترامية الأطراف والغنية بمواردها الطبيعية، فاستغل شعبها تلك الموارد المتاحة وأقام منها

حضارة مزدهرة استمرت في عمق التاريخ منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة مضت.

فهذا الجزء من الجزيرة العربية، واقع بين المنطقة المدارية والمنطقة المعتدلة، وأن اليمن بجبالها الشاهقة التي تعانق السماء، ويرتفع بعضها إلى علو3500 متر عن سطح البحر، تغطي قممها الثلوج في بعض الأحيان، هذه الجبال العالية والكثيرة، تصطدم بسحب المحيط الهندي، فتسقط أمطارها الموسمية الغزيرة على سفوح تلك الجبال، التي تتدفع مياهها إلى الوديان الكثيرة والسهول الواسعة، مكونة من مائها المتساقط؛ من المساقط المائية والنهيرات والجداول التي تروي الزروع والأعناب في كل مكان على أرضها وجبالها.

وأنه إزاء هذه الوضعية الطبيعية لهذه الجبال العالية التي تقتنص السحب المحملة بالأمطار الغزيرة، فإن أهل اليمن قد حققوا وبنوا وشيدوا، منذ زمن قديم، العديد من المنشآت التي ساعدتهم على حسن استغلالهم للمياه، فأقيمت السدود التي تتحكم في توجيه السيول وضبطها خشية إغراقها الأراضي والمساكن والمزارع وجرفها للتربة الزراعية.

هذا الوضع الطبيعي قد جعل من شعب اليمن يبني السدود منذ قديم الزمان - التي قدرت من قبل الباحثين بأنهم كانوا قد بنوا ما يزيد على أكثر من مائة سد - فالمدن والممالك في اليمن كانت تقوم على مرتفعات الجبال، لنواحي أمنية، أما في الوديان المنحدرة من تلك الجبال القائمة عليها الممالك، فتقوم في الوديان ببناء السدود، التي تساعدها في حسن استغلال مياه الأمطار في زراعة الأودية والسهول الشاسعة الكثيرة، وهذه أحد عوامل نهضة وازدهار تلك الممالك زراعياً واقتصادياً وتجارياً، وأنه من بين السدود التي اشتهرت بها اليمن هو "**سد مأرب**" الذي كان العمود الاقتصادي لـــ"مملكة سبأ".

وإذا أردنا التعرف على المركز الذي كانت تمثله مملكة سبأ القديمة فسنجد أن موقعها هو في شرق اليمن، تسقط عليها الأمطار، فتسير سيولها في الوديان المختلفة حتى تصل إلى مقربة من مدينة "**مأرب**".

فعاصمة مملكة سبأ هي مدينة "مأرب"، وهذه المدينة تقع على أطراف سهل كانت تجري فيه السيول الغزيرة في موسمين من كل عام، موسم الأمطار الموسمية الغربية صيفاً، وموسم الأمطار الشمالية الشرقية شتاءً، فأقيم "سد مأرب" الشهير بـــ"العرم" لتجمع فيه مياه تلك الأمطار.

وكلمة "عرم" يطلقها اليمنيون بلغة قبيلة سبأ، وقبيلة **حمير** القديمة تلفظها عَرم و(عريم)، أما قبيلة قريش فقد أخذت في لغتها بكلمة: "سد"، التي أخذت مكان كلمة "عرم"، وذلك لأن كلمة: "السد" تعني العديد من المنشآت التي تؤدي إلى تخزين المياه والسيول وبالتالي إلى تحويلها أو تجميعها لاستخدامها في ري المزارع والبساتين.

وكما سبق القول إلى أنه تسقط الأمطار في شرق اليمن، في موسمين، وتسير سيولها في الوديان المختلفة حتى تصل إلى منطقة قريبة من مأرب، في الوادي الذي يعرف باسم "أذنة" فتدخل السيول مندفعة في فجوة الجبال مشكلة سداً طبيعياً، وكان عرب الجنوب قد بنوا منذ القدم لهذا السد جدران تحميه من التصدع، وعملوا له بوابات من أحجار يربطونها ببعضها بواسطة قضبان من النحاس أو الرصاص للاستزادة من قوة البناء، مما يدل على استخدامهم لتلك المعادن منذ ذلك الوقت.

فسد مأرب الشهير (بالعرم) أقيم بين جبلين يتحكم في سيول **وادي** "أذنة" وبذلك يحسن تصريف المياه من السد إلى الأراضي في جانبي الوادي الذي اسمه (**الجنتين**).

وبقراءة مرة أخرى للآية الكريمة: "لقد كان لسبأ في مسكنهم آية **جنتان** عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور"،

فيكون قد اتضح لنا أن الأراضي التي على ضفتي الوادي، ترويها مياه سد مأرب، وقد جعلت من مزروعاتها جنة عن اليمين وجنة عن الشمال وأينما نظرت، ذلك لأن الإنتاج الزراعي هو الذي قامت عليه حضارة اليمن القديمة. كما أن هذا السد يعد روعة في البناء الهندسي المعماري المتقن، الذي جعل المهندسين اليوم يقدرون عبقرية الأقدمين الهندسية في بناء السدود، بإنجازهم هذا العمل المعماري المميز، مما جعل الجميع يكنون إعجاباً وتقديراً لحضارة اليمن القديمة.

وبما أنه لم يذكر في القرآن الكريم ولا في التوراة، اسم لملكة سبأ في زمن نبي الله سليمان، إلا أنه وجدت حفريات تدل على أن اسم ملكة سبأ تسمى "بلقيس". ويعتقد أن ملكات أخر حكمن سبأ وأن من بينهن "الملكة بلقيس" وقد اكتشفت قطع أثرية في **معبد بلقيس** في مأرب تدل على مملكة سبأ.

و"سبأ" هي اسم دولة كانت عمود الكيان السياسي في اليمن عبر تاريخه القديم، وكان يطلق "سبأ" على كل بلاد اليمن، المتمثل في جنوب الجزيرة العربية، والتي تتنوع رقعتها الجغرافية؛ من جبال وسهول ووديان، وبحار وموانئ، وصحاري وبادية، فهذه العناصر الجغرافية مجتمعة قد ساعدت في تكوين حضارة اليمن القديمة.

والشعب اليمني في نشاطه الإنتاجي الدؤوب لم يكتف ببناء السدود لزراعة السهول والأودية فحسب، وإنما توجه إلى الجبال يزرعها، وهو جهد وعمل وفن أتقنه اليمنيون وشعب جنوب الجزيرة من قديم الزمان وحتى اليوم.

لقد زرع هذا الشعب الجبال وأقام فيها نظام المدرجات الزراعية، ولنا أن نتصور مقدار ما بذله من جهد في بنائه المدرجات الزراعية التي تبنى من طين وأحجار، وكانت بعض هذه المواد تنقل من أسفل الوديان حتى

مدرجات الجبال العالية فالمدرجات الزراعية التي تغطي قممها الجبال المغروسة بالأشجار المحملة بالثمار، هذه المدرجات الزراعية التي تكسو جبال اليمن خضرة وجمالا، تحيط بالجبال كخلخال في أرجل راقصة يمنية، أو سوار في معصم عروس في ليلة زفافها ينحدر بها المحتفلون درجات تلك المزروعات الخضراء. كل ذلك قد نفذه شعب منتج، محب للعمل، فجنى ثمار إنتاجه وجهده حضارة مزدهرة منذ قديم الزمان، فسماها القرآن الكريم "**بلدة طيبة**".

وهذا ما شاهده وكتب عنه مؤرخ يوناني قبل مولد المسيح بمائة عام، أي بعد ما يقرب من ثمانمائة عام من تاريخ مملكة سبأ – حسب التواريخ التي يذكرها مؤرخو التوراة – واصفاً مملكة سبأ القديمة: أن **تجارة البخور** كانت سبباً من أسباب **ثرائها الفاحش**، وكانت عاصمتها مزدانة بالمعابد ذات الأعمدة المربعة، وكانت تيجان هذه الأعمدة من **الذهب** و**الفضة**.

تعتبر تربة جنوب الجزيرة العربية – بصورة عامة – تربة بركانية ساعدت على قيام الزراعة، وإنتاج المعادن، وأن وفرة المياه والمناخ المعتدل الملائم للزراعة، ساعد أهلها في زراعتهم للتوابل والعطور والبخور وغيرها من المنتجات التي كانت تعتبر نادرة وذات قيمة في ذلك الوقت، وأن هذه قد ساعدت على استقرار الناس، كما ساعدت بالتالي على نشأة المدن وقيام المدينة التي استتبعتها بقيام الدولة ونشأة المدنية.

وإذا رجعنا إلى ما سبقت الإشارة إليه عن المعنى الذي ذكر في التوراة: "وسمعت ملكة سبأ بسليمان، **فجاءت إليه** تمتحنه بأسئلة صعبة.. وأهدت الملك عشري قنطار **ذهب** و**أطيابا كثيرة** و**حجارة** كريمة".

فما جاء في التوراة وما ذكره المؤرخ اليوناني القديم يدلنا على أن هذه "البلدة الطيبة" طيبة في مواردها الطبيعية والجغرافية التي سنتناول بعضاً منها فقط فيما يلي:

- وهي أن مملكة سبأ غنية بالذهب والفضة،

ـ وأنها غنية بالأحجار الكريمة،

ـ كما أنها تزرع وتنتج أطايب كثيرة من طيب البخور وغيره.

ونتيجة ذلك كله فإن شعب مملكة سبأ قد استغل موارده الطبيعية وأستثمرها في إقامة تجارة واسعة شملت العالم القديم، مما أدى إلى ثراء أهل هذه المملكة، ولا غرابة إذا وجدنا من يصف لنا عاصمتها (مأرب) أنها تلك المدينة ذات العمران والقصور والمعابد المرتفعة أعمدتها والمزدانة بالذهب والفضة.

إن موضوع تجارة البخور، والأحجار الكريمة والذهب التي أدت إلى الثراء الفاحش في هذه المملكة، ناشئ عن إنتاجها المعادن الثمينة، وعن عنايتها بالزراعة، تلك المنتجات التي استغلت في النشاط التجاري الذي جرى عبر الطريق التجاري البري إلى فلسطين، والذي كتبت عنه التوراة أن ملكة سبأ "**جاءت إليه**" أي إلى الملك سليمان في بداية الألف الأول قبل ميلاد المسيح، (سنترك موضوع القوافل التجارية وطرقها ومدنها لفصل قادم)، وسنتناول هنا موضوع الإنتاج الطبيعي من العطور والأطايب الطبيعية التي تنتجها أرض اليمن المعطاة:

ـ **شجرة البخور**: جذعها شاحب اللون تبرز منه الفروع من منبته تقريبا على سطح الأرض. وللحصول على البخور يشق الساق بسكين فيسيل من الشق سائل أخضر شفاف لا يلبث أن يتحول بعد أيام إلى مادة صلبة.

ـ **وشجرة اللبان** الأصلي صمغها من فصيلة البخوريات. وموطن زراعته وإنتاجه بشكل أساسي، هو الساحل الأوسط لجنوب الجزيرة العربية، وبالذات منطقة حضرموت، ومنطقة ظفار، وجزيرة سوقطرة اليمنية، والساحل الصومالي، فاللبان والمر والبخور تنمو أشجارها على

جانبي خليج عدن. وأفضل أنواع اللبان هو ذلك الذي يؤخذ من الأشجار التي تنمو في منحدرات ووديان المناطق الجبلية في إقليم ظفار.

ـ **والمر (الصبر)**: مأخوذة تسميته من طعم الإفرازات الصمغية المرة التي يتم جمعها من الأشجار.

وهكذا فإن المحصولات البخورية الصمغية يتم جمعها – بصورة عامة – بعمل شقوق طولية على طول سيقان وأفرع تلك الأشجار، تبدأ بعدها العصارة الصمغية فيها بالسيلان فتظهر كقطرات، تترك متدلية على الأشجار لتجف، فتصبح تلك القطرات "**كاللؤلؤ**".

فتلك القطرات اللؤلؤية الصمغية (اللبان والبخور والمر) هي التي شغلت تجارة العالم القديم، إذ كان يستخدمها الأقدمون عند تقديم النذور للآلهة في المعابد، ويستخدمونها أثناء حرق جثث الموتى من أجل القضاء على الروائح الكريهة المنبعثة منها، كما يستخدمونها في احتفالاتهم الدينية من أجل استرضاء الآلهة، وعند استقبال الملوك عند انتصارهم في غزواتهم، ولنا أن نتصور مقدار الحاجة إلى هذه السلعة حتى بعد ظهور المسيح.

وأن الأمر لم يقتصر على ذلك الحد، بل وجد مؤخراً أن من مواد تحنيط المومياوات المصرية يدخل فيها اللبان وبعض تلك الصمغيات، كما كانت تستخلص من تلك الأصماغ زيوت عطرية تستخدم في تحضير الروائح العطرية والمساحيق، وتحضر منها زيوت لها تأثير منبه وأدوية تفيد في وقف النزيف وضد التسمم وعلاج الجروح، وبخلطها مع مواد أخرى تستخدم لوقف وجع آلام الرأس وفي تعقيم الفم وعلاج أمراض اللثة ووقف وجع الأسنان، وما إلى غير ذلك.

فلا عجب إذن إذا وجدنا أن تلك الحبيبات الصمغية اللؤلؤية عندما تجمع وتعبأ، فإنها تحمل على ظهور الرجال والإبل عبر طريق التجارة العتيق، لتظهر بعد أسابيع أو أشهر في معابد وفي قصور قدماء المصريين

والفينيقيين والبابليين والفرس، ومن بعدهم الإغريق والرومان والبيزنطيين وغيرهم من الممالك القديمة، لقد كانت تلك المعابد والقصور القديمة يعبق في أرجائها أريج روائح عطور اليمن التي تزكم الأنوف وتشرح النفوس بطيب عطرها النفيس الذي لا ينسى أبداً.

فمنتجات اليمن من مواردها الطبيعية قد خلقت تجارتها الواسعة في العهود القديمة، وكيف لا تكون كذلك إذا أضيف إليها كونها مركزاً تجارياً هاماً و لكونها المنطقة التي كانت تتوسط بين أمم العالم القديم، فمنتجاتها وموقعها اللتان خلقتا ذلك التقدم المادي الحضاري، فمن خلال التجارة نشأت المدن اليمنية القديمة، ومنها مدينة مأرب، التي كانت حلقة وصل بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها حتى فلسطين وبلاد الشام.

* وبما أن عنوان حديثنا في هذا الفصل هو أن المرأة العربية ملكة، وأنه على الرغم من تناولنا فيما سبق لملكة سبأ القديمة، إلا أن المرأة العربية ــ رغم كل المعوقات المقامة أمامهاــ فإنها كانت تتولى القيادة السياسية بين فترة وأخرى في مناطق مختلفة من الجزيرة العربية، وللتدليل على ذلك نقدم لملكة أخرى في اليمن أيضاً حكمت في الفترة الإسلامية، في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، إنها السيدة بنت أحمد الصليحية، كما تحدثت عنها "الموسوعة اليمنية"، وكتبت عنها، مي الخليفة، في كتابها "من سواد الكوفة إلى البحرين".

كانت المملكة الصليحية، التي عاصمتها صنعاء، يمتد مجال حكمها من مكة في الحجاز إلى أقصى حضرموت، ففي عام 1069 ميلادية تزوج ملكها، السيدة بنت أحمد، التي لم تلبث أن أصبحت صاحبة السلطة الفعلية والحاكمة لإصابة زوجها بالفالج. كانت هذه المملكة قد تغلبت على مخاطر عديدة وهي تحت حكم وإدارة سيدة عربية، وننقل من الموسوعة أن: "**السيدة الملكة**" كانت على درجة عالية من العلم والكمال، وأثبتت بحسن

إدارتها ومقدرتها أن مكّنتها من الاستمرار طويلا في الحكم، وقد كان لحسن اختيارها لمن اعتمدت عليهم من وزراء وولاة على مختلف المناطق أثر لاستمرارها في حكم جنوب الجزيرة".

وبناء عليه فإن المرأة العربية المسلمة كانت ــ في العصور الوسطى الغربية ــ تتولى الحكم والقيادة السياسية أيضاً. وفي القرن العشرين استلمت العديد من مسلمات القيادة السياسية في بلدان منها: باكستان وبنجلادش وتركيا وإندونيسيا، وإن في هذا لدلالة واضحة على أن مساهمة المرأة العربية المسلمة في القيادة السياسية ليست حكرًا على جنس واحد من المواطنين، وهم الرجال فقط، وإنما للمرأة العربية والمسلمة كان لها دورها أيضاً في هذه القيادة.

فالأمر واضح وجلي من أنه ليس أمام المرأة العربية والمسلمة أي عائق شرعي أو اجتماعي يمنع من قيامها بقيادتها للمجتمعات العربية، لقد كانت ملكة في المجتمعات الملكية القبلية السابقة، وهي اليوم رئيسة منتخبة في دول جمهورية حديثة، هذه المكانة التي للمرأة العربية والمسلمة تخالف ما يروج لها دعاة يعملون على تفسير الدين الإسلامي بعيدًا عن حقيقته المعاشة اليوم، وهذا ما جعل الشباب من جيل السبعينيات يتساءل؛ عن الأسس التي تقوم عليها أنظمة الحكم قديمها وحديثها؟ وكيف تكتسب أنظمة الحكم شرعيتها؟ وما هو دور المجتمع في تكوين الدولة؟ وما هي مسؤولية المجتمع تجاه قيام الدول وحكوماتها قديمها وحديثها؟

للإجابة عن مثل هذه الأسئلة، نشير إلى أنه سبق التطرق في الفصل الأول إلى علاقة المجتمع بالسلطة العربية في الجزيرة العربية خلال الفترة التاريخية القريبة الماضية وحتى وضعنا الراهن، وبما أن موضوع هذا الكتاب يمتد إلى فترات أبعد مما ذكر، فإنه سيتم هنا تناول فترات زمنية بعيدة في علاقة المجتمع بالدولة.

- وحيث إنه قد بدأ الحديث بمملكة سبأ القديمة التي فترتها الزمنية موغلة في القدم، **فالمجتمع والدولة**، يمكن التعرف عليهما من خلال الآثار التي عثر عليها وكتب عنها، رغم قلتها، لهذا فإن المشهد الاجتماعي ونظام الحكم لتلك الفترات الزمنية البعيدة، تجعلنا ندخل فيه بجوانب **تصوّرية** عند الحديث عن الدولة والمجتمع القديمين.

* وأنه في محاولة لتقريب صورة المجتمعات القديمة وعلاقاتها الإنسانية، فإنه لو أخذت مدينة مأرب القديمة على سبيل المثال، التي هي أحد المراكز التجارية القديمة، فسنجد أن في هذه المدينة مجتمعاً يقوم نشاطه على توفير متطلباته الحياتية بتبادله المنافع التي صفتها الغالبة تجارية وزراعية، فالناس منشغلون بإنتاجهم الحياتي اليومي، يقسمهم هذا الإنتاج إلى طبقات اجتماعية منهم فئات تجارية وزراعية وحرفية وغيرها، وأنه من خلال نشاط الإنسان ضمن التجمع البشري الذي يعيش فيه، يجد نفسه في حاجة إلى تنظيم علاقاته المجتمعية: من مأكل ومشرب، وشراء وبيع وغيره، وهذا يقتضي من المجتمعين أن ينتجوا فيما بينهم نظاماً يحمي نشاطهم وملكيتهم الخاصة ومعتقداتهم وهويتهم، فينتخبون من بينهم من هو قادر على حماية ما أقروه من نظام كان قد توافق عليه الجميع بحرية ـــ كان العبيد والأرقاء لا ينتخبون لأنهم ليسوا أحراراً ـــ **فحرية الانتخاب** تعبر عنها **حرية الإرادة** الشخصية الطبيعية التي يمتلكها الأفراد، في عضويتهم في المجتمع، ويتمثل ذلك في وضع نصوص قانونية ملزمة للمعاملات، وقد عثر على مثل تلك القوانين والتشريعات مكتوبة على مسلات حجرية موضوعة في وسط الأسواق، فنظام المعاملات التجارية المالية، والنظام العام الاجتماعي هو المرحلة المتقدمة لتطور الفكر البشري.

* لقد تطورت المجتمعات البشرية حتى وصلت إلى المرحلة التي وضعت فيها "**دستورا**" وهو تسمية لقانون عام يرتضي به ويوافق عليه كل من المجتمعات البشرية على حدة، بحيث أصبح الدستور هو أبو القوانين

الذي توجز في صفحاته القليلة كل آمال وطموحات المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها، فالدستور تمثل بنوده وفقراته **العقد الاجتماعي** الذي هو بين أفراد المجتمع والسلطة المنتخبة، فعلى أساس ما تنص عليه بنود وفقرات الدستور يكون الشخص المنتخب ممثلاً عن مجموعة من أفراد المجتمع، ولكن عمله يجب أن يكون لمصلحة المجتمع كله، ويكون من واجبه تنظيم تلك العلاقات القائمة بين الفئات والطبقات الاجتماعية وحمايتها من اعتداء الآخرين عليها. كما أن عليه واجب القيام بتنفيذ ما اتفق عليه مع المجموع من الناس الذين بايعوه على أن يقوم بتحقيق كل ما من شأنه خدمة المصلحة العامة للمجتمع، وليس لمصلحة أو منفعة شخصية له أو لأقربائه، وعلى ألا تكون هناك أي مصلحة للمنتخب سوى المصلحة العامة، وبناء على ذلك فإن الشخص المنتخب يصبح ممثلاً بصفته العامة **لحقوق العامة** الممنوحة له من المجتمع الذي انتخبه وعينه طبقا لنص القانون العام والدستور، وبالمقابل فإن عليه أيضاً واجبات تنفيذ ما خول به من قبل الجميع.

ومعنى ذلك أن هذا الشخص المنتخب يكون بهذه الصفة قد **ملك سلطة** تملكها واختص بها بعد أن تنازل له المجموع من المجتمع عن **السلطات** الفردية الطبيعية لكل شخص فيه، وبالتالي إذا ما انتخب هؤلاء النواب رئيساً للدولة، فإنهم بذلك يكونون قد خولوا مجتمعين **سلطاتهم** الطبيعية؛ إلى الشخص الذي سموه إما **ملكًا** أو **سلطانًا** أو **شيخاً** أو **أميرًا** أو غير ذلك، كما ينص عليه الدستور، فمعنى ذلك أن ما يملكه هذا الرئيس من سلطات، هي في الأساس سلطات أفراد المجتمع الذين قاموا بموجب سلطاتهم الطبيعية التي يملكونها في تخويلهم السلطات للرئيس الذي اكتسب صفته ومكانته القانونية والشرعية من قبل نواب الشعب، فالأفراد في واقع الأمر بما يملكه كل منهم من حق طبيعي في تملك كل منهم سلطته الفردية التي يحمي بها إنسانيته وحريته، كل منهم قد تنازل ببعض منها إلى الرئيس لتسيير

أمور رئاسة الدولة التي تمثل إرادة كل فرد في المجتمع، هذا المجتمع الذي يهدف من إعطائه تلك السلطات للنواب من جهة وللرئيس من جهة أخرى بقصد أن يقوم جميعهم **بدرء المخاطر عن المجتمع** بجعله آمناً مستقراً، وبحمايته من الجوع والفقر والمرض والبطالة والعدوان، وغير ذلك.

وبهذه الكيفية يظهر الفرق بين الإنسان الحر الذي يملك إرادته والإنسان العبد المعدوم الحرية، لقد كان معظم (العبيد) من أسرى الحروب، في النظام القديم يتقرر مصير الأسير في الحرب إما أن يصبح عبداً أو يقتل، ومن يصبح عبداً يتصرف فيه بالبيع والشراء، أما من يكون مصيره الهلاك فيزج به إلى احتفاليات حلبات مصارعة الموت مثل أي حيوان، فالأسير حسب ذلك المفهوم إذا لم يقتل يصبح (عبداً)، ويكون بذلك قد **باع حريته** الإنسانية الفردية في سبيل الإبقاء على حياته، وكل ما نخشاه من هذا المعنى، هو أن نكون نحن اليوم عبيداً **بعنا حريتنا الإنسانية** في سبيل أن تبقي السلطة الحاكمة في وطننا العربي على حياتنا؟!

ويمكننا أن نوجز هذا **التصور الافتراضي العام** الموجه إلى الشباب (والذي له ما يماثله منذ أيام الإغريق والرومان في أرضنا العربية)، في أنه من واقع السلطات الفردية الطبيعية التي يملكها الأفراد، أنهم يكونون قد قاموا بتخويلهم السلطات التي يملكونها إلى الشخص الذي ارتضوه أن يمثلهم، الذي هو ممثلهم في المجلس النيابي حسب المفهوم الحديث، هذا المجلس الذي يمتلك **سلطات تشريعية** اكتسبها النواب من مجموع سلطة الأفراد الذين انتخبوهم وأنابوهم عنهم، وبالتالي فإن نواب المجلس النيابي بما لهم من قوة مستمدة من سلطاتهم التشريعية، التي اكتسبوها من لدن القوة والسلطان الشعبي، فيكون لـــ**(النواب)** حق تعيين السلطة التنفيذية، وهي الحكومة والدولة التي يكون على رأسها الملك أو السلطان أو الشيخ أو الأمير أو النبيل، أو الرئيس، فيصبح أي من هؤلاء على هذا الأساس؛ **ملكًا دستوريًا**، ورئيسًا **دستوريًا**، وشيخًا **دستوريًا** وأميرًا **دستوريًا**، أي أن رأس

الدولة وحكومته قد جاءوا وفقا للإجراءات الدستورية، وطبقاً وتنفيذا لبنود الدستور، وأن على هذه السلطة التنفيذية احترام الدستور والعمل بموجبه. كما أن من واجب السلطة التشريعية البرلمانية بعد انتخابها لرأس الدولة/ الحكومة التنفيذية، أن تعمل على انتخاب السلطة القضائية، التي لكل دولة نظامها في هذا الشأن، إلا أن على السلطة القضائية أن تنتخب من بينها مجلس القضاء الأعلى، الذي من مهامه سير العدالة، واستقلال القضاء عن السلطتين التشريعية والتنفيذية. فعندها تكون قد تأسست سلطات ثلاث: السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية، كل منها مستقلة عن الأخرى وتحاسب على أعمالها، وكلها منبتها ومنبعها ومصدرها السلطة الفردية الحرة لكل فرد عين فيه نوابه الذين اختارهم وارتضاهم (أو ضمن حزبه وكتلته النيابية)، والنواب من جانبهم قد بايعوا من انتخبوهم على القيام بتنفيذ المهام الملقى على عاتق كل نائب لمصلحة المجتمع كله بلا استثناء، فالأجهزة **الإدارية التنفيذية** تساعد رئيس الدولة المنتخب في **تنفيذ** ما تم الاتفاق عليه مع المجموع أي مع المجتمع، والتي أعطيت له بموجبها القوة والسلطة في تنفيذ الاتفاق بين الناس بصورة متساوية، وعليه أن يشكل **الحكومة** أو **الدولة** الإدارية التي تنفذ المهام لصالح المجتمع كله بدون استثناء، وبأمانة وإخلاص وفقا **للعقد المبرم** بين الطرفين وهو الدستور، فهذا **التعاقد الاجتماعي الدستوري** هو الذي يمثل ويكوّن ويؤسس الدولة والحكومة الحديثة، والذي بموجبه تتحدد الحقوق والواجبات لدى أفراد المجتمع وقواه الاجتماعية من هيئات المجتمع المدني والأحزاب السياسية والجمعيات المهنية والنقابية..الخ .

ما ذكر أعلاه ما هو إلا **تصور افتراضي عام** عن الكيفية التي يتكون منها مفهومي **المجتمع والدولة** (منذ الزمن الغابر للحضارة البشرية) نأمل أن يستفيد منه شباب الجزيرة، والتصور المذكور ينطبق اليوم على كثير من المجتمعات التي أنتجت تقدمها الحضاري، وأن الذي جعلنا نبدي هذا

التصور هو محاولة تقريب وجهة النظر عن الدولة اليمنية التي قامت في مملكة سبأ وما تبعتها بعد ذلك من ممالك وحكومات هي موضوعنا الحالي.

وما نود أن نحذر من تصورنا الافتراضي أعلاه، هو أنه لم يدخل في اعتباره الصراع الطبقي وآثاره الاجتماعية وانعكاسه بالتالي على تشكيلة الدولة، ويكفينا إلقاء نظرة عاجلة على مجريات الانتخابات الأميركية وقوانينها التي لا تترك مجالا للطبقات الدنيا المهمشة في وصولها إلى السلطة لما يحتاج ذلك من أموال كبيرة لخوض غمار الانتخابات الدستورية، فكثير من الديموقراطيات الغربية قائمة سلطاتها المنتخبة على تمويلات حملاتها الانتخابية من قبل أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة، وهؤلاء ينفقون تلك المبالغ الضخمة لخدمة مصالح شركاتهم الاحتكارية الإمبريالية الكولونالية، من شركات المصانع الحربية، تجار الحروب والصراعات الدولية، والشركات المتعددة الجنسية الاحتكارية. هذه الحقائق يعرفها شبابنا العربي أكثر من غيره، لأن عدداً من دول ومنظمات الديموقراطيات الغربية، كانت هي المستعمرة لأراضينا، وهي التي تقوم اليوم بشنها الحروب والعدوان والاحتلال وتنفذ الحصار على كثير من أرجاء وطننا العربي، وتحتكر مواردنا وتستخدم أرضنا مسرحاً لاستراتيجياتها العسكرية العدوانية، مشتركة معها في هذا العدوان والاحتلال صنيعتها الكيان الصهيوني المغتصب، هذا الكيان هو في حقيقته وتكوينه واحة للإرهاب البشري في المنطقة والعالم، وبؤرة لصناعة السلاح القائم على خلق الأزمات بين الشعوب. وبناء على ذلك فإن الديموقراطية المطلوبة هي الديموقراطية الإنسانية الاجتماعية التي تحقق العدالة الاجتماعية وتقضي على الفروق الطبقية، لا الديموقراطية التي تنتج هتلراً آخر، أو يؤدي بنظام الإنتاج إلى الاستعمار والتوسع والإمبريالية المتوحشة.

* وعودة لموضوع المجتمع والدولة في اليمن القديمة، وفقاً للصورة الافتراضية التي أشرنا إليها، لقد كانت الأرض بالنسبة لتلك المجتمعات هي

وسيلة الإنتاج الوحيدة التي منها يزرعون ويحصدون، ويقومون بالتعدين، ويستخرجون من البحر المنتجات مثل ما عليه في اليابسة.

في الأصل، كانت الأرض مشاعة، وبعد مراحل من التطور، أصبحت الأرض لمن يزرعها، فنشأت الملكية الفردية، ونشأت التشريعات، وانتخبت **السلطات الحاكمة** لتقوم بالمحافظة على الملكية وحمايتها من اعتداء المعتدين، فأنشأت الحكومة **قوة** من الأفراد مزودة بأدواتها، يأتمرون بأمرها لإظهار قوتها وهيبتها أمام من يخالف النظام العام في **الملكية الخاصة**، وحماية **الملكية العامة**.

إلا أن السلطات الحاكمة والقوة التي بحيازتها، قد جعلتها تنكث عما تعاقدت به مع مجموعة أفراد المجتمع، فاعتدت على الملكيات العامة من موارد الأرض، في اليابسة أو البحار واعتبرتها ملكا خاصا بها دون بقية مجموع المجتمع الذي خولها المحافظة على **المال العقاري والمال النقدي العام** وسواهما.

* وعلى هذا النحو عندما جمعت السلطات الحاكمة في يدها القوة التي خولت بها من قبل مجموع الشعب، والقوة التي حصلت عليها من استيلائها واستحواذها على المال العام، زاد هذا الاستلاب من قوتها قوة، وأصبح المجتمع بمجموعه في مواجهة مع سلطان خان الأمانة التي ائتمنه الناس عليها، وليس هناك من مجال لإعادة الأمور إلى نصابها الطبيعي والصحيح سوى المواجهة، السلطة / الدولة من جهة، والمجتمع بمكوناته وأفراده من جهة أخرى.

ـ وإنه باستلاب السلطات الحاكمة للمال العام، تكونت في المجتمع طبقات عليا وأخرى دنيا، فالطبقة التي هي في رأس الهرم المالكة للأرض ومواردها الزراعية وغيرها تكونت من الملك وحاشيته، ومعهم رجال الدين وما يتبعهم من الأراضي والمزروعات، ثم رجال التجارة والمال، أما الطبقة

الدنيا الواقعة في أسفل الهرم وهم بعض الأحرار والكثرة الغالبة، وهم الطبقة الأكثر عدداً وهذه هي الطبقة المنتجة في المجتمع.

– فالمجتمع في مملكة سبأ القديمة لا يختلف عما ذكرنا من حيث تقسيمه الطبقي، الناس الذين في الأعلى هم الذين لهم الحق في ملكية كافة الأراضي وموارد المجتمع، أما الفئات المسحوقة والمهمشة فلها الفقر والفاقة والمرض، مع أن هذه الفئة الأخيرة هي التي تزرع وتحصد وتجني وهي وقود الحرب والنزاعات القبلية، ولكنها لا تحصل مما حصدت إلا على ما يقيم أود حياتها، فيعيشون في كفاف من العيش لكي لا يجعلها تنفق وتموت كالبهائم في الأرض القاحلة، هذه الفئة الممثلة لغالبية السكان لا يعترف لها بحقوق وتعامل معاملة الحيوان السائبة.

* يفضي بنا ما سبق إلى القول أن التحدي الحضاري أمام الإنسان العربي اليوم يكمن في إقامته لمجتمع عربي متقدم حضاريا قائم على سلطة الدستور، بغض النظر عن المسميات التي تطلق على رأس الدولة، وأن ذلك لا يتحقق إلا بعمل ووعي جماعي من قبل الجيل العربي الجديد.

الفصل الرابع

الحضارة في "البلدة الطيبة" أو اليمن السعيد

جنوب غرب جزيرة العرب عرفها أهلها قديما باسم "اليمن" التي تعني "الجنوب"، والقرآن الكريم سماها "**البلدة الطيبة**"، وكان قد أطلق عليها المؤرخون والجغرافيون الإغريق، وكذلك الرومان من بعدهم صفة "**اليمن السعيد**"، أو "بلاد العرب السعيدة" فكلمة "السعيد" دلالة على ما احتواه هذا البلد الطيب من ثروات معدنية ونباتية لعبت دوراً أساسياً في الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية في تلك العصور، وفي مقدمتها العطور والطيب الذي تحدثنا عنه والتي كانت قد أثار خيال العالم القديم من بابل ووادي النيل إلى أثينا وروما.

عدد من كتاب اليونان والرومان أشاروا إلى ثروات "اليمن السعيد" بقولهم عنها "**إنها تزفر ريحا عطرًا**.." في دلالة على تجارتهم بالعطور والنباتات العطرة التي جلبت الغنى والازدهار لليمن القديم.

في فصل سابق جرى الحديث عن "البلدة الطيبة" بوضعها الطبيعي من حيث طبيعتها الجغرافية، ومواردها الطبيعية، والآن جاء الحديث عن "**البلدة الطيبة**" من ناحيتها الاقتصادية وأثر طرقها ونشاطها التجاري البري والبحري على اقتصادياتها، ذلك لأن الطرق والنشاط التجاري هي التي قامت عليها الممالك والحضارات المختلفة في الجزيرة العربية قاطبة؛

فالطرق التجارية هي التي جلبت الثروة لأهل جنوب الجزيرة، وقد عبرت التوراة عن التجارة وطرقها البرية في روايتها عن قدوم ملكة سبأ إلى سليمان (ع) في قولها "**جاءت إليه**"، ما يعني ذلك أن ملكة سبأ انتقلت من جنوب الجزيرة العربية (اليمن) إلى فلسطين في الألف الأول قبل الميلاد.

منذ القدم وأرض الجزيرة العربية تمثل **النهايات القصوى للطرق** البحرية التجارية للشرق، فقامت الحضارة اليمنية القديمة على المنافع التجارية، وفي بداية نهضتها اعتمدت في تجارتها على سلعها المحلية المنبت مثل اللبان والمر وسواها، إلا أن النشاط التجاري قد تطور إلى المتاجرة في بضائع أخرى.

فجاءت البضائع الشرقية القادمة بحراً من حوض شبه القارة الهندية وجزرها، كما استوردت البضائع من الساحل الشرقي للقارة الإفريقية التي لها روابط غير منقطعة مع اليمن منذ أقدم العصور الإنسانية، فقد كانت السفن تفرغ بضائعها في الموانئ العديدة لجنوب الجزيرة العربية فتزيد من نشاطها التجاري، وقد ساعدها في تجارتها البحرية الموقع الجغرافي المتوسط لهذا الإقليم العربي، الذي جعله على صلة بالمناطق **الاستوائية** في كل من القارة الهندية وفي القارة الإفريقية أيضاً، مما أتاح لشعب جنوب الجزيرة أن ينشط في استيراد البضائع المختلفة من هذه الأقاليم الاستوائية، وأن يجلب منها البضائع النادرة والغالية المتوافرة في الإقليم الاستوائي مثل التوابل بمختلف أنواعها، وهذه البضائع خفيفة الحمل وغالية الثمن مثلها مثل بضاعة جنوب الجزيرة العربية من: المر واللبان والصمغ والعطور. وعلى هذا النحو، فإن البضائع المحلية والبضائع المستوردة كان يجرى إعدادها للتصدير إلى أقطارٍ وأقاليم بعيدة عن أرض شبه الجزيرة العربية، وكانت القوافل العربية على طرقها التجارية تتكفل بتوصيلها للشعوب التي كانت تطلبها وتدفع ثمنها الغالي، قياساً لأسعارها في تلك الأزمان، وأنه لتسليم تلك البضائع لأيدي المشترين والطالبين والراغبين فيها، ولتنفيذ وتحقيق الغرض

التجاري المطلوب فإن هذه السلع كانت تحتاج لتسليمها لأيدي المستهلكين؛ بنقلها وتوزيعها براً وبحراً، وهذا ما قام به شعب الجزيرة خير قيام.

لقد كانت البضائع المطلوب تسليمها وتوزيعها براً، قد أعدت لها قوافل تجارية تسير بها ليالي وأياماً في الطرق البرية مستخدمة قوافل الإبل التي كانت تحمل البضائع على ظهور الجمال: "سفينة الصحراء" الوسيلة الملائمة في ذلك الوقت، فلقد أصبحت الطرق التي عبدتها القوافل التجارية البرية، هي بمثابة الشرايين التي أمدت حضارة الجزيرة العربية بالحياة لقرون عديدة.

فالعربي من أهل الصحراء قد وجد نفسه أنه يعيش على أرض تزخر بالثروات الطبيعية، وفي موقع جغرافي تنتشر فيه الموانئ التي تجلب البضائع من آسيا وأفريقيا وغيرها، وقد وجد أمامه الصحراء التي لا يعرف طرقها ولا يتحمل العيش في أجوائها سواه، وقد توافر الطلب على تلك المنتجات، فاندفع يشتغل بالتجارة ويتخذها حرفة له.

وبما أن هذا العربي بطبيعته وفي معيشته يعشق الحرية، ووجد أرضه واسعة لا يسيطر عليه فيها حكم ولا يحد من نشاطه سلطان، وأدرك أن الحياة التجارية متوقفة على ما يبذله من مجهود ونشاط ذاتي دفعته في هذا الاتجاه عناصر عدة؛ منها مبدأي المصلحة الشخصية والربح، فالعناصر الذاتية الشخصية والعناصر الاجتماعية والمعرفية هي التي دفعت بالعربي إلى الحركة والنشاط في سوق تجارية عالمية قوامها الحرية والمنافسة والتحدي ونعتقد أن هذا هو ما يتفق مع الأسباب التي قامت عليها الحركة التجارية قديماً وحديثاً.

وبما أن العرب كانوا قد قاموا باستئناس الجمل – أي قد جعلوه أليفاً في تعامله مع الإنسان، بعد أن كان متوحشاً – وذلك منذ آلاف السنين، فوجدوا أن هذا الحيوان هو الذي له القدرة على اجتياز البوادي والقفار الشاسعة واختراقها وتحمل مشاقها وعطشها، فالجمل قد أصبح هو الممون للبدو

بالوبر لصنع البيوت (حتى قيل للأعراب ساكني الصحراء أنهم **أهل الوبر)**، ومن جلوده يصنعون القرب والسروج وغيرها، ويأكلون لحمه ويشربون حليب الإبل، ولهم في الجمل منافع كثيرة.

وحيث إن الوسيلة المناسبة للنقل هي إحدى العناصر الهامة والمساعدة لنجاح وازدهار التجارة،فالإعرابي قد وجد في الجمل وسيلته في النقل التجاري، وكان الجمل من قبل ذلك عاملاً من عوامل مقومات حياته في نواحي مختلفة، كما سبقت الإشارة، فعندها أصبح العربي، بوسيلته في استخدامه للجمل جاهزاً لتحمل عبء التجارة والسفر والتنقل لمسافات طويلة يصل بها ما بين جنوب الجزيرة العربية حتى فلسطين وشواطئ البحر الأبيض المتوسط، وإلى حدود مصر، وكذلك إلى العراق وفارس، فالجمل الذي هو مركب العرب يحملهم ويحمل ماءهم وزادهم قد أصبح يحمل تجارتهم، وعلى هذا الأساس بدأت طرق القوافل التجارية عبر الصحارى العربية تشق طريقها منذ ذلك الزمن السحيق.

وإنه بالوسائل المتوافرة من الرجال الذين يعرفون طرق الصحراء، ويعرفون كيفية قيادتهم واستخدامهم للجمل، سارت القوافل التجارية يحمل فيها العربي بضاعته على ظهورها، فساقها مصطحباً إياها في تلك القفار الوعرة، حتى جعل من أقدام الجمال والإبل تعبد الطرق في بحور رمال الصحارى الشاسعة المتلاطمة في أمواج كثبانها، والمتفرعة طرقها في مساحات وهادها اللا متناهية.

لقد وجد العربي أنه كلما ازداد الطلب من قبل المشترين للسلع التجارية التي تجلبها قوافله في طريق ذهابها وعند إيابها وعودتها، كلما زاد وأكثر من عدد مطاياه وعدد رحاله وقوافله ورجالها، حتى تشعبت طرق تلك القوافل، وطالت مسافاتها وتفرعت ممراتها، فغدت تغطي كامل أديم أرض الجزيرة العربية من أدناها إلى أقصاها؛ إذ امتدت شمالاً إلى الشام وما

وراءها، وغربا إلى صحراء سيناء ومصر، وشرقا إلى العراق وما جاورها، وأنه ليس من المبالغة في شئ إذا قلنا أن تلك الطرق التجارية في تشابكها وتفرع طرقها، هي **كخيوط العنكبوت**؛ متشعبة ومتقاطعة بعضها بالبعض الآخر. ولا غرو عندئذ القول بأن هذه الطرق التجارية وحامياتها ومحطاتها ومستوطناتها التي أنشئت عليها، هي التي كونت المدينة العربية، وهي بهذه الكيفية تكون القوافل العربية قد كونت **المدينة/الدولة**، التي كونت الحضارة القديمة لشبه الجزيرة العربية، وذلك كما مر وسيمر بنا.

فالطرق التجارية البرية، التي هي بمثابة شرايين الحياة والرئة التي تنفست بها هواء الحضارة العربية، وهي عامل هام من عوامل قيامها، بما حملته من سلع وبضائع، وما حملته من أفكار وثقافات. فالمحصولات الزراعية ومنتوجاتها النفيسة الغالية الثمن، هي تلك البضائع والسلع التي أسست الشهرة للتجارة العربية، والتي كانت قد جلبت الثروة والجاه للطبقة الحاكمة والطبقات الإقطاعية والبرجوازية في المدن العربية القديمة، إلا أنها في نفس الوقت كانت مصدراً لصراعات داخلية بين الطبقات المتسلطة، كما كانت أيضاً مصدراً لأطماع الدول الخارجية في السيطرة على الثروة وطرق التجارة القديمة، وسنأتي على تناول بعض جوانبه.

وأنه للتدليل على أهمية طرق القوافل العربية، والمكونات الاقتصادية والعمرانية التي صاحبتها ونشأت بسببها، لا بد لنا من الرجوع إلى الآية 18 من سورة "**سبأ**" والتي فيها قول موجز لما نحن بصدده، كما ذكرتها كتب السيرة النبوية أيضا، فعلينا تلاوة هذه الآية:

* "وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرىً ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا ليالي وأياماً آمنين".

تدلنا هذه الآية على المسافة التي كان يقطعها المسافرون – في الزمن الماضي – بين المدن (القرى) التي **بورك فيها** في اليمن وبلاد الحجاز وفي

أرض الجزيرة العربية حتى بلاد الشام، لقد كانت قد شيدت مدن (قرى ظاهرة)، وكانت القوافل التجارية والمسافرون يقطعون المسافات الطويلة في مسيرتهم التي تستغرق منهم ليالي وأياماً، كانوا بعد عناء سفرهم الطويل، يجدون أمامهم (القرى الظاهرة) تؤمن لهم الظل والمأوى والماء والطعام ويحصلون فيها على الأمان والاطمئنان، فتلك المدن والقرى التي شيدت لراحتهم من وعثاء السفر الطويل المتعب، تكون قد توافرت فيها الوسائل المساعدة جميعها لراحة المسافرين في إقامتهم وإيابهم وترحالهم، ومؤمنة لهم المساعدة في إقامة أسواقهم وتبادلهم للتجارة والثقافة والمعرفة فيما بينهم، فهي **قرى مباركة** بخيرها ونعمتها.

إذن فالقوافل التجارية في خطوط سيرها الطويلة في الليالي والأيام، هي التي كونت الحضارة وأنشأت وشيدت عمارة المدن العربية في الجزيرة العربية بدون استثناء، وما علينا إلا أن ندخل (متحف) و(معرض) الجزيرة العربية، ونأخذ منها مثالا على تلك الخطوط التجارية البرية، ونتتبع خط سير طرق تلك القوافل القديمة حتى يتضح لنا شئ من هذا الأمر.

وسنأخذ على سبيل المثال **أربعة خطوط** لطرق رئيسة كانت تسلكها القوافل التجارية في داخل الجزيرة العربية حتى أطرافها، نعتقد أنه بعرضنا لطرق القوافل هذه فيها فائدة تساعد على تقريب الصورة التي قامت عليها حركة التجارة العربية قديما، وتساعد في الإلمام بما كانت تمثله تلك الطرق التجارية البرية من نواحي عديدة؛ سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ودينية، لشعب الجزيرة العربية في أزمنته البعيدة، كما أن هذه الطرق هي التي بنت الحضارات في **أقاليم** الجزيرة **الأربعة.** فعلى وقع أقدام الجمال المتهادية في الصحارى المترامية الأطراف، وفي رمالها المحرقة، أمكن للحضارة القديمة لشبه الجزيرة العربية أن تنهض وتصبح في مصاف الحضارات الأخرى القديمة في المنطقة، والتي أتاحت لها مساهمتها الفعالة في المد الحضاري الحي الذي غشي شعوبها.

وبهذه المناسبة نود الإشارة إلى أن كلمة "**قافلة**" تعني الرجوع، وقد أخذ المعنى من رجوع الدواب والمسافرين **سالمين**، معهم دوابهم وأمتعتهم وزادهم، فالقافلة هي: "الرفقة الكثيرة **الراجعة من السفر او المبتدئة به**". في هذا دلالة على مقدار مشقة السفر ومخاطره في ذلك الوقت، حيث أخذ معنى القفول والعودة من الرحلة سالمين، وأن بدايتها تفوق عودة الرحلة التي نجت من مخاطر السفر.

وعلى هذا الأساس، إذا تتبعنا **خط سير** لإحدى طرق القوافل التجارية، وهي التي تبدأ مع بداية الصيف ــ مع أن الرحلات التجارية لا تنقطع خلال الفصول المختلفة ــ وذلك عندما تهب الرياح وتهطل الأمطار **الموسمية** Monsoon فترتفع أمواج البحر العربي في جنوب الجزيرة العربية وتشتد أمواجها العالية فتتعطل الملاحة البحرية تقريباً بين عدد من الموانئ الخارجية وموانئ المدن الساحلية في جنوب الجزيرة، فإن القوافل التجارية البرية تجد طريقها بين المدن العربية، فنجدها تواصل سيرها قاطعة الطريق الطويل بداية من جنوب الجزيرة العربية حتى تصل إلى "بلاد ما بين النهرين".

إن خط سير هذه القوافل تبدأ من الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية، منطلقة من عدن وميناء "قنا" في حضرموت، متجهة في سيرها صوب بلاد المهرة وظفار، ومنها إلى مسقط وصحار على بحر عمان، ومن هناك يتجه خط سير القوافل متخذاً وجهته شطر شواطئ الخليج العربي إلى أن تصل إلى هجر والبحرين القديمة على الساحل الشرقي للجزيرة العربية، ومن ثم تنطلق القوافل من هناك إلى جنوب "بلاد ما بين النهرين"، عند مصبي دجلة والفرات. وبهذه الطريقة، يكون خط القوافل هذا قد ربطت بصورة تامة الطريق البري الذي يصل شواطئ جنوب الجزيرة العربية بكاملها مع الشاطئ الغربي للخليج العربي بكامله، حتى جنوب العراق.

* وهناك **خط تجاري آخر**، يبدأ سيره أيضاً من جنوب الجزيرة، من الموانئ اليمنية، من عدن والمكلا، ثم مدينة شبوة عاصمة حضرموت، تنتقل بعدها القافلة متجهة إلى مأرب، وبعد أن تمر بوادي الجوف وأدوية أخرى تصل إلى نجران، فيتفرع منها خط يسير متجها شرقا إلى الخليج العربي عبر طريق "الفاو" في وادي الدواسر ومنه إلى اليمامة، ويسير خط القوافل هذا حتى يلتقي في هجر والبحرين مع القوافل القادمة من جنوب عمان، وبعده يتجه إلى جنوب "بلاد ما بين النهرين"، أي أن هذا الخط ينتهي أيضاً في العراق، وأن الفرق بينه وبين خط القوافل السابق هو أنه عندما تصل القوافل على هذا الخط إلى أرض اليمامة، القريبة من نجد، تتفرع عنه خطوط تنقل البضائع التي حملتها هذه القوافل إلى طرق فرعية تصل إلى مدن أخرى واقعة على جانبي الطريق، وبهذه الصورة تكون هذه القوافل قد غطت منطقة نجد والحواضر الأخرى في وسط الجزيرة العربية.

ومن المفيد أن نتوقف قليلا أمام خريطة الطريق لخط مسار هاتين القافلتين لإلقاء نظرة سريعة على المناطق الجغرافية والظروف الطبيعية اللتين تمران بها، لقد لاحظنا أن الخط الثاني المذكور من خريطة سير هذه الرحلة نجدها بعد أن تترك القافلة الأراضي اليمنية في وادي نجران، تتجه إلى **إقليم نجد وأطرافه الشرقية**، فهذا الإقليم واسع من ناحيته الجغرافية، إذ تقدر مساحته بحوالي 20% من مساحة الجزيرة العربية؛ تقع في جنوبه صحراء الربع الخالي، وتحيط بإقليم نجد صحراء الدهناء من طرفيه الجنوبي والشرقي، وصحراء النفوذ في شماله. وإقليم نجد الواقع في وسط الجزيرة العربية، يعرف بالإقليم الأوسط، ويحتوي على تكوينات صخرية، تتشكل منها هضبة نجد التي تتخللها سلسلة من المرتفعات التي يتراوح ارتفاعها ما بين 4 إلى 6 آلاف قدماً فوق سطح البحر، وتسود المنطقة مجموعة من التشققات الصخرية والانكسارات التي تجري فيها الوديان، وتتجمع فيها مياه الأمطار فتتدفق سيولها التي تروي بطون الأودية. فالمياه

تندفع عبر الأودية العديدة لتستقر في بطاح ذات طبقات رسوبية تغطي مئات الكيلومترات، وهذه هي التي تجعل أرض اليمامة تنبجس منها المياه؛ ينابيع وعيون جوفية تغذي الزراعة في المنطقة. فالمرتفعات النجدية في اليمامة، بانحدارها شرقاً ناحية إقليم الخليج العربي، يجعلها تشكل من أرض إقليم اليمامة مخزوناً من مياه المرتفعات النجدية، وتقدر الخزانات الجوفية من هذه المياه النجدية **بما يبلغ مساحة الخليج العربي في سعته.** هذه الخزانات الجوفية هي التي **تغذي ينابيع** المياه في الساحل الشرقي للجزيرة العربية، ومنها المياه الجوفية في جزر البحرين (قبل أن تتلفها الحفريات والردم ويتم تلويث البيئة)، كما لا تفوتنا الإشارة إلى أن الصحارى المحيطة بإقليم نجد؛ الدهناء والنفوذ، تسقط عليها الأمطار شتاء فينبت فيها الكلأ والمرعى، وتنمو فيها الشجيرات، فتصبح في فصلي الشتاء والربيع قبلة سكان وسط الجزيرة العربية، ومصدر زرعهم ومرعاهم ونزهتهم.

وما نريد الوصول إليه من البيان السابق هو أن خطى سير هاتين الرحلتين، في كامل طريق رحلتهما الطويلة تمران في صحارى قاحلة إلا أنهما تمران أيضاً بواحات وعيون وزرع وضرع حسب الفصول التي تمر فيها قافلتهم، وأنه لولا توافر مثل هذه العناصر والعوامل الطبيعية الضرورية للحياة البشرية، لما أمكن لهاتين الرحلتين وغيرهما من أن تكمل مسيرتها في تلك الصحارى المقفرة.

* أما بحديثنا عن **اتجاه الخط الثالث** لسير رحلة القوافل التجارية في أرض الجزيرة العربية، فإنه لا يختلف عن غيره إلا من حيث المكان، بل أن هذا الخط يمتاز عن الخطين السابقين، في أن هذا الخط في حقيقته هو الخط التجاري الأول وهو خط القوافل الرئيسي القديم على طريق اللبان والمر والبخور، فهذا هو أيضاً يبدأ رحلته من موانئ جنوب الجزيرة من مينائي قنا وعدن وغيرهما، ويمر بمدينة مأرب، ثم يلتقي في نجران وعسير، كخط القوافل السابق، ولكن هذا الخط يواصل سيره شمالا، مارّا

بالطائف ومكة المكرمة، وبعدها يسير متجهاً إلى يثرب، ومدائن صالح، وتبوك، حتى يصل إلى مدين على خليج العقبة، ومنها إلى البتراء، وبوصوله إلى **البتراء** ينقسم هذا الخط إلى ثلاثة فروع؛ أحدهم يتجه إلى غزة على الساحل الفلسطيني، والآخر إلى دمشق ومدن الساحل السوري الفينيقي، وفرع ثالث منه يتخذ وجهته إلى إيران عن طريق العراق. ويتضح من تتبع هذا الخط التجاري البري، أنه من أطول وأهم الخطوط التجارية القديمة بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها.

وإذا أخذنا بالناحيتين الجغرافية والطبيعية للمواقع التي تمر بها هذه القافلة نجد أن مواقع سيرها بعد أن تترك الأراضي اليمنية فإنها تنطلق في إقليم الحجاز، الذي تكونه سلسلة جبال الحجاز وعسير، الممتدة من اليمن جنوبا حتى خليج العقبة شمالا. وإقليم عسير الذي هو ذو طبيعة جبلية هي الأكثر ارتفاعا في هذه السلسلة الجبلية، وذلك لأن سلسلة جبال الحجاز وعسير تحتجز في مرتفعاتها كمية من الأمطار تروي مزروعاتها وتغمر وديانها، منحدرة جهة الغرب لتلقي بسيولها في سهول تهامة. لقد تكونت على رأس تلك الوديان أو في وسطها أو في نهايتها مدن هامة في الجزيرة العربية؛ من بينها الطائف، ومكة، ويثرب (المدينة المنورة)، وأنه وفقا لهذه الوضعية الطبيعية والجغرافية لطريق الحجاز الذي تسلكه القوافل التجارية القديمة، فإن تلك القوافل يكاد أن يكون مرورها عبر مواقع أقل صحراوية من القافلتين السابقتين، فطريقها هو عبر مواقع تنتشر فيها العيون والواحات والبساتين.

وبعد خطوط القوافل الثلاث، نأتي بحديثنا **عن الخط الرابع** لسير القوافل التجارية البرية القديمة، وهو الخط الذي يمتد سيره على طول الساحل الغربي للجزيرة العربية القريب من شواطئ بحر القلزم (البحر الأحمر). وهذا الخط مثله مثل غيره من خطوط القوافل، يبدأ من عدن والموانئ الجنوبية حتى يصل إلى عسير متجها إلى شمال الحجاز، ويمتد خط سير

هذه الرحلة من جنوب الجزيرة إلى شمال شبه جزيرة سيناء، أي أن خط القوافل هذا قد اتخذ من إقليم تهامة طريقًا له، و**إقليم تهامة** هو السهل الساحلي الضيق الملاصق للبحر الأحمر، والمحاذي لمرتفعات الحجاز وعسير وجبال اليمن، ويمتد من العقبة شمالا إلى عدن جنوبا.

* وبعد عرض سريع لخطوط سير أربع من القوافل التجارية العربية القديمة، آن لنا أن نقف وقفة قصيرة متأملين لخريطة سير تلك القوافل التجارية القديمة، حيث سنجد أن خطوط تلك القوافل قد ربطت كل أراضي شبه الجزيرة العربية بلا استثناء، فهي قد ربطت جنوبها بشمالها، كما ربطت جنوبها مع غربها وشرقها، بالإضافة إلى وسط الجزيرة العربية وأطرافها، وعلى هذا النحو تكون قد أصبحت أرض الجزيرة العربية كلها متصلة بشبكة من طرق القوافل التجارية البرية. وأنه من الأهمية في كل ذلك الإشارة إلى أن هذه الطرق قد ربطت موانئ ومدن وواحات الجزيرة العربية بالعراق وإيران والشام ومصر، أي قد ربطتها بالحضارات الشمالية القديمة جميعها وهو ما يوضح لنا أن الشعب العربي ومنذ القدم لم يكن شعباً معزولاً عما تحيط به من المدنيات القديمة؛ بأفكارها وثقافاتها ودياناتها، وحتى في كثير من لغاتها وعاداتها وتقاليدها، بل كان العربي في حقيقة الأمر مساهماً في تلك الحضارات أيضاً.

تلك هي عن الرحلات البرية، إلا أن الرحلات البحرية كانت قد زادت من المكونات الثقافية الحضارية العربية التي كسبتها من رحلاتها البرية، فالرحلات البحرية قد زادت شعب الجزيرة العربية ثراء وغنى واتساعاً في ثقافته وعلومه، فالرحلات البحرية قد عززت من اتصالاته مع آسيا وإفريقيا، والذي هو موضوعنا في الفقرة التالية.

عاش عدد من شعب الجزيرة العربية على ضفاف البحار- تحدثنا في الكتاب السابق عن شرق الجزيرة العربية في الخليج العربي (حوارات ــ

1)- فالشعب في جنوب الجزيرة العربية عاش على ضفاف البحر الأحمر، كما قد كون البحر العربي والمحيط الهندي في جنوبه جزءاً من حياته، لما يصطاده من لؤلؤ ومن أسماك وحياة بحرية، وعلى أساس ذلك تعتبر الملاحة والتجارة البحرية هي من الأعمدة الرئيسة التي قامت عليها الحياة الاقتصادية لشعب جنوب الجزيرة العربية ذلك لأن التبادل التجاري البحري هو الذي أمد التجارة البرية العربية بالقوة والمنعة.

لقد كان شعب جنوب الجزيرة العربية مهيئاً منذ أزمنة بعيدة لعبور المحيط الهندي، الذي يكوّن البحر العربي جزءاً من مياهه في جنوب الجزيرة العربية (اليمن وعمان) حتى شواطئ الهند الغربية، وكان العربي قد استخدم الوسائل المادية والعلمية المتاحة له في تذليله عبور تلك البحار ووصوله إلى الموانئ البعيدة، فقد كان يعرف أسرار هبوب الرياح الموسمية ومواعيدها واتجاهاتها، ويقرأ النجوم في السماء ويعرف منها اتجاهه في البحر ومواعيد الفصول والرياح، فاحتكر على أساسها الملاحة في المنطقة ردحاً من الزمن. فمعرفة العلوم الطبيعية والجغرافية والفيزياء والكيمياء وعلوم الفلك هي التي قامت عليها المدنيات الإنسانية عمومًا ومنها المدنية الحديثة أيضاً، والشعب الذي يملك تلك العلوم، يملك ناصية التقدم الحضاري.

جنوب الجزيرة العربية لها شواطئ طويلة على: الخليج العربي وخليج عمان والبحر العربي والبحر الأحمر (بحر القلزم) يضاف إليه مئات الجزر التابعة لتلك الشواطئ، والتي منها تتكون موانئ طبيعية لرسو السفن، فقد كانت هذه المراسي مراكز لبناء السفن التجارية وسفن الصيد، التي ساعدت على تكوين ملاحين مهرة، اشتهر بحارتها وملاحيها بمهاراتهم ومعرفتهم بطرق الملاحة البحرية في البحار القريبة والبعيدة، فأتقنوا علم الملاحة **لرسو السفن واستقبالها وتفريغ حمولتها وتخزين بضاعتها وإعادة شحنها.**

وبذلك تكون قد توفرات للملاحة العربية كافة تلك الوسائل البشرية والمادية التي ساعدت شعب جنوب الجزيرة العربية على عبور مياه المحيط الهندي إلى شواطئ شبه القارة الهندية من جهة ووصلوه من جهة ثانية إلى الشواطئ الشرقية للقارة الإفريقية، لقد عبر العرب المحيط في رحلات بحرية مستمرة، على الرغم مما تحفه من مخاطر ومجازفات جسيمة ــ بحسب إمكانات تلك العصور ــ حيث توجه البحارة العرب من جنوب الجزيرة إلى شواطئ بلاد فارس الجنوبية، ثم اتخذوا طريقهم حتى مدخل نهر الإنديز عند مصب نهر السند، ومنه توجهوا جنوبا على طول الساحل الغربي لشبه القارة الهندية ــ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ــ حتى وصلوا إلى المناطق الاستوائية في موانئ ملبار، سعيا وراء الأصناف العديدة من البهارات والهيل والفلفل والزنجبيل والقرفة واللبان، وأصناف أخرى من البخور ومن العطور ذات المصدر الحيواني كالمسك والعنبر، وذات المصدر النباتي كالياسمين والنرجس، والصندل وأخشاب الأبنوس والمنسوجات المختلفة؛ الفرو والحرير وغيرها.

وإنه من الموضوعات والخرائط الأجنبية التي اطلعنا عليها على المواقع التاريخية والثقافية على "الأنترنت" فقد أظهرت تلك المواقع الكثيرة أن العرب الأقدمين منهم الأنباط وعرب جنوب الجزيرة العربية، عندما وصلوا جنوباً إلى نهاية الشواطئ الغربية لشبه الجزيرة الهندية في البحر العربي، اجتازوا البحر إلى جزيرة سيلان (سريلانكا) وواصلوا سيرهم إلى الشاطئ الشرقي من الهند **Chola Coast** على خليج البنغال **Bay of Bengal**، ومنه إلى شبه جزيرة ملايو **Malay Peninsula** في خليج البنغال، حيث يربط هذا الخليج أجزاء شرق آسيا بشبه القارة الهندية. وبناء على ذلك فإن العرب كانوا قد واصلوا رحلاتهم التجارية حتى **مضيق ملقا** **Strait of Malacca**، وهذا المضيق هو الذي تلتقي فيه الجزر الأندونيسية والماليزية التي تتكون منها جزر سومطرا وجاوا وبورينو وجزر أخرى عديدة

Malacca, Sumatra, Java, Borneo، وهي الجزر التي كان يطلق عليها منذ زمن بعيد: بـــ"**جزر التوابل**" **Spice Islands**.

فتواجد العرب في جزر التوابل، منذ فترة ما قبل ميلاد المسيح، عند مضيق ملقا، يعني تواجدهم في بحر الصين الجنوبي **South China Sea**، وذلك لأن مضيق ملقا من الناحية الجغرافية يعتبر أقرب طريق بحري يربط المحيط الهندي بالمحيط الهادي. فوصول عرب جنوب الجزيرة العربية في نشاطهم التجاري القديم مع جزر التوابل، وهي حقيقة لا تزال قائمة وثابتة حتى اليوم، يعني أنهم قد وصلوا إلى شواطئ الصين الجنوبية. فنشاط التبادل التجاري البحري العربي القديم قد وصل إلى المسافات البعيدة في جنوب وشرق أقصى القارة الآسيوية.

أما في الجانب الإفريقي الشرقي، في المنطقة الاستوائية، التي ليست ببعيدة عن جنوب الجزيرة العربية – مقارنة ببعدها عن حوضي الهند والصين – هذه المنطقة الاستوائية كانت تشكل جزءاً من النشاط الحيوي التجاري لجنوب الجزيرة العربية، فقد جلب بحارة جنوب الجزيرة العربية البضائع الإفريقية المكملة للبضائع الشرقية المستوردة من الهند وآسيا، وزادوا عليها أصنافاً أخرى كالعاج، والأخشاب لصناعة السفن، مثل خشب الصاج. إلا أن ما **يؤسف** له حقا أنه قد صاحبت تلك التجارة، نشاط تجاري آخر مذموم، وهي ممارستهم **لتجارة الرقيق** في مناطق كثيرة من الشواطئ الإفريقية، لقد كانت أسواق النخاسة منتشرة في مدن شواطئ الجزيرة العربية، وحتى في بعض مدنها المقدسة.

تلك الرحلات البحرية كانت تبدأ بتجميع السلع الشرقية من الهند وبلاد السند وما وراءها ومن داخل وشواطئ إفريقيا، فتأتي بها السفن إلى موانئ جنوب الجزيرة العربية التي منها مينائي **عدن وقنا**، وبعدها تحمل السلع والبضائع من هذه الموانئ العربية على ظهور الجمال (ولمسافات قصيرة

تحمل على ظهور البغال والحمير) فتنقل البضائع الثمينة عبر الطريق البري الطويل ــ الذي سبق أن مر بنا ذكره ــ مما جعل من تلك الموانئ الجنوبية العربية من أهم المراكز التجارية العالمية القديمة التي كان الاستيراد والتصدير يتم عن طريقها إلى أنحاء العالم القديم، وبذلك أصبحت اليمن محطة عظيمة بين آسيا وإفريقيا من جهة، وبين شمال الجزيرة العربية وأوروبا من جهة ثانية. وكان قد سبق لنا الإشارة إلى النشاط التجاري البحري القديم في شرق الجزيرة العربية، فشرق الجزيرة العربية وجنوبها وغربها كل منها يكمل الآخر، في ذلك النشاط التجاري البحري والبري الكبيرين في الجزيرة العربية في زمنها القديم.

وعلى هذا النحو دخلت اليمن القديمة في التجارة الدولية نتيجة لتعاملها التجاري النشط بين قارات العالم القديم، أي أن المجتمع اليمني القديم كان قد دخل نظام السوق مبكراً منذ العصور القديمة، ذلك النظام القائم على التبادل التجاري المبني على العرض والطلب، فإذا زاد الطلب وقل العرض، ارتفع ثمن البضاعة ــ نتيجة لعوامل عدة ــ وفي حالة البضاعة اليمنية التي هي من مواد البخوريات؛ فإن إنتاجها محدد بأرض معينة، وتنتج من قبل مجتمع معين، ويتاجر فيها الشعب الذي ينتجها، في سلعة خفيفة الوزن وغالية الثمن، فالبخور واللبان والمر، هي سلع تجارية كانت توازي البترول والذهب في عصرنا الحديث. هذه العوامل مجتمعة كانت قد ساعدت على تطوير تجارة واسعة ونشطة تركزت حول هذه السلع في البداية. إلا أنها قد امتدت إلى سلع أخرى من البن والصموغ والمنتجات الزراعية المختلفة التي منبتها وزراعتها أرض اليمن، وأضيفت إليها سلع تجارية عديدة تم استيرادها من الخارج، فالعمل الذي قامت به القوى العاملة في المجتمع اليمني والجهد الذي بذل في استثماره وإنتاجه، جعل الطريق إلى التجارة مفتوحة مع شعوب وأمم أخرى في حاجة إلى تلك الأصناف من البضائع.

والتبادل التجاري هو أخذ وعطاء، تبيع ما عندك لتشتري ما عند الآخرين من منتجات، وفقا لحاجة الجمهور المستهلك لتلك السلع وإقباله وطلبه إليها، وعلى هذا النحو استمرت طرق التجارة لقرون وقرون بانية الثروة والاقتصاد والمدن والحواضر وناقلة للأفكار والثقافات والأديان، وباختصار فإن هذه الطرق التجارية هي العمود الفقري الذي قامت عليه الحضارات المختلفة في الجزيرة العربية.

* لقد أفضنا في تناول موضوع حركة سير القوافل التجارية العربية، فما عرضنا له يمثل الجانب الجغرافي والمكاني لحركة سير القوافل فقط،ولم يتم التطرق إلى الجوانب الثقافية والعلمية التي حملها التجار معهم في رحلاتهم تلك، وإذا كانت الجمال والإبل قد حملت على ظهورها البضائع والسلع الخفيفة الوزن الغالية الثمن، فإن الرجال المصاحبين لتلك القوافل من تجار ومسافرين وقادة القوافل وأدلائهم وحراسهم، قد حملوا معهم الأفكار والعلم والمعرفة الإنسانية التي نقلوها من مكان إلى آخر، كما تنقل النحلة الرحيق من بستان إلى آخر، وعلى هذا الأساس فإن موضوع التجارة العربية القديمة ليست مقتصرة على جانب مادي مالي واقتصادي يتمثل فيه البيع والشراء فحسب، وإنما الجانب الأهم من كل ذلك هوأن هذا الحراك التجاري المالي قد خلق جوانب أخرى عديدة لا حصر لها، لقد نقلت القوافل التجارية ثقافات لشعوب مختلفة، وأدياناً ولغات وأدبا وشعرا وأخلاقا وعادات شعوب، كما خلقت وعززت روابط أسرية وقبلية على مساحة أرض الجزيرة العربية كلها بدون استثناء، فوحدت شعب أرض الجزيرة منذ ذلك الزمان في أقاليمها الجغرافية/التجارية الأربعة الرئيسية وهي: أرض الحجاز في غربها، واليمن وعمان في جنوبها، والإحساء وشاطئ الخليج في شرقها، ونجد في وسطها وشمالها، واستمرت هذه الأقاليم في وحدتها التجارية والبشرية لأزمنة وأحقاب ممتدة طويلة، بنت فيها حضارتها في أزمان مختلفة، كما سنلاحظ ذلك فيما بعد .

ومن هنا يمكننا القول أن الإنسان الإعرابي القديم الذي تواجد في صحارى وبوادي شبه الجزيرة العربية قد قام بدوره الحضاري في تنمية الوحدة الاقتصادية والبشرية الاجتماعية القديمة باستغلاله الأمثل للظروف والإمكانات المتاحة، رغماً عن الظروف الطبيعية القاسية لشبه الجزيرة العربية.

* ويحق لشباب الجزيرة العربية اليوم أن يتساءل أين هو التحدي العربي الحالي مما قام به الأقدمون من تحديهم للظروف الطبيعية وإقامتهم للطرق التجارية، فأين هي الطرق البرية الحديثة التي تربط بين أجزاء أرض الجزيرة العربية؟ فهل نحن بهذا عاجزون من أن نحقق ما سبق أن قام بتحقيقه الأقدمون من طرق قوافلهم ومواصلاتهم التي ساعدت على التنمية الحضارية لقرون عديدة؟

ربما يعزز موقف شباب الجزيرة العربية من المطالبة بتنفيذ بناء الطرق الحديثة بين أجزاء الجزيرة والوطن العربي، عندما نقدم للمسئولين والمستثمرين العرب بعضاً من التجربة والمثال الواقعي الذي قامت به شعوب أحيت بها ماضيها فعادت عليها بالفائدة الكبيرة، وذلك عندما اتبعت خط سير طريق التجارة الذي سارت عليه قوافل الأقدمين:

في القرن الثالث قبل الميلاد دشن إمبراطور الصين في ذلك الوقت، **طريق الحرير العظيم** الذي لعب دوراً حيويا للغاية في إثراء الحضارات وفي تعزيز التفاعل بين الثقافات والأسواق.

إن افتتاح طريق الحرير في القرن الثالث قبل مولد المسيح (ع) قد جاء بعد فترة طويلة من زيارة الملكة بلقيس إلى الملك سليمان في بداية الألف الأول قبل الميلاد، فالطريق العربي الذي كان يطلق عليه "طريق اللبان" هو سابق على "طريق الحرير (الصيني)، فإذا كان طريق الحرير، قد اتخذ اسمه من المادة الغالية والنادرة في ذلك الوقت، وهي (الحرير) الذي اشتهرت

بإنتاجه الصين من المادة الطبيعية التي تجمع من دودة القز ويصنع منها خيوط الحرير، فإن "طريق اللبان" كما رأينا اتخذ اسمه أيضاً من المادة الرئيسية التي كانت تنقل على هذا الطريق، وأنه رغم تسمية الطريقين: أحدهما باسم الحرير، والآخر باسم اللبان، فإن ذلك لا يعني عدم النقل عليهما لبضائع أخرى، كما لا يعني أن نقل التجارة فيهما مقتصرة على النقل البري دون النقل البحري، الطريقان قد استخدما كافة الوسائل المتوافرة لتحميل ونقل وتسليم البضائع التجارية المختلفة، وعلى هذا الأساس فإنه منذ الفترات الأولى لطريق الحرير كان **طريق اللبان** على اتصال **بطريق الحرير**.

كان طريق الحرير القديم يمتد من الأراضي الصينية إلى أواسط آسيا وتركيا والدول المشاطئة للبحر الأبيض المتوسط، وامتدت فروع منه لتصل إلى شمال سوريا والعراق عن طريق نهري دجلة والفرات. وبهذه الصورة كان يتم تبادل بضائع طريق الحرير العظيم مع بضائع طريق اللبان الكبير في منطقة شمال الجزيرة العربية، وإذا كان طريق الحرير قد كوّن وبنى وأسس المدن التي يمر عليها خط سيره في أواسط آسيا، فإن طريق اللبان كان قد كوّن وأسس المدن الواقعة في طريقه في مناطق الحجاز وغيرها. فالطريقان التجاريان لم يتم فيهما تبادل البضائع فقط، وإنما قد ساهما في تبادل ونشر أفكار وعقائد مختلفة، حيث ساعد الطريقان في ربط جذور الحضارة السامية، بالحضارة الآرية (الهندو أوروبية) وغيرها من الحضارات.

* تتضح لنا مما سبق الأهمية العظمى في مد خطوط طرق التجارة التي لا تخترق أراضي وأنهار الشعوب فحسب، وإنما تخترق أفكار وعقول الشعوب التي تمر بها تلك الطرق أيضاً، من هنا نجد أن العرب الأقدمين قد قاموا بواجبهم خير قيام في النشاط والعمل ومد خطوط **التواصل الحضاري** بين كافة أجزاء الجزيرة العربية والعالم القديم،وأنه يقتضي من جيل الشباب العربي، وبالذات من شباب الجزيرة العربية القيام بواجبهم في

توجيه اهتمامهم ناحية الطرق التجارية القديمة، وخلق طرق جديدة وفقا للمواصفات التكنولوجية والعلوم الحديثة.

ولنا أن نتخذ مثالا لما تقوم به الآن الشعوب الواقعة على طريق الحرير القديم من تطويرهم لهذا الطريق بصورة حديثة وهائلة وعظيمة.

فطريق الحرير الذي يجري اليوم تطويره ضمن مشاريع مستمرة قصيرة وبعيدة المدى، ضمن عملية تنموية ضخمة وشاملة منها؛ إقامة وتشييد خطوط سكك حديدية يصل طولها إلى ما يزيد على 10 آلاف كيلومتر، رابطة المرافئ الصينية على بحر الصين في المحيط الهادي، بمرفأ روتردام الهولندي على بحر الشمال في المحيط الأطلسي، مروراً بدول آسيا الوسطى الناهضة الغنية بالنفط والغاز، وبالصناعة وبمحطات الطيران والأقمار الاصطناعية.

إذا كان هذا ما تقوم بتنفيذه الشعوب المتقدمة على طريق الحرير القديم، فأحرى بنا أن نتمثل اليوم، ولو مرة، بذلك النشاط العربي الذي قام به الأقدمون في تقريبهم المسافات بين المناطق العربية بمدهم لطرق القوافل وتعميرها بالنقل التجاري والمسافرين، فواجب جيل الشباب أن يخطط ويستثمر في مد خطط سكك الحديد التي تخترق الصحراء والبلاد من أقصاها إلى أقصاها، كما فعل الأجداد على ظهور الجمال!

* إن على الشباب العربي واجباً قومياً في القيام بهذه المشروعات الحيوية في إنشاء الطرق والمواصلات التي تربط بين أجزاء الجسم الواحد في الوطن العربي بين مشرقه ومغربه. أشرنا إلى الأهمية العظمى من التواصل الذي يتم اليوم على طريق الحرير القديم بين الصين وشواطئ هولندا. وبالمثل فقد أصبح على الجيل العربي الناهض أن يعمل بكل ما يستطيع على إحياء التواصل التجاري القديم وذلك بدعوته لجمع وتحصيل الاستثمارات لبناء عشرات الآلاف من طرق السيارات وطرق سكك الحديد

لنقل البضائع والركاب، ومد خطوط أنابيب البترول والغاز وغيرها من أطراف موانئ جنوب الجزيرة العربية في كل من عمان واليمن، إلى شمال الجزيرة العربية، ومن شرقها على الخليج العربي إلى جنوبها وغربها، ومدها إلى المدن العربية على البحر الأبيض المتوسط، وإلى مصر وشمال إفريقيا حتى شواطئ المغرب على المحيط الأطلسي. إن منطق التحدي الحضاري يتمثل في القيام بالمشروعات العملاقة التي تختصر المسافات وتختزل الماضي في الحاضر في المستقبل لتوظيف الاستثمارات وجني الأرباح والعوائد المادية والاجتماعية والثقافية، كما فعل الأقدمون.

إن أنظمتنا ومؤسساتنا الاستثمارية، والقطاعات الخاصة منها والعامة ملقى على عاتقهم مسؤولية وطنية جسيمة في أن لا يصبح الربع الخالي صحراء خالية، وإنما يجب أن تكون طريقاً لحضارة ونهضة عربية متقدمة؛ بجعلها طريق مواصلات حيوي وجعلها مجال استثمارات واسعة المدى، وعندها لن يصبح الربع الخالي خالياً، إلا كاسم تاريخي!

* لا تنقص الشعب العربي الخبرات الهندسية والفنية الكبيرة، ولا ينقصهم التمويل من خلال الاستثمارات العربية الوفيرة (يستعان بالخبرات الأجنبية في حدود المنفعة القصوى) لاستكشافهم أسرار الصحارى واستخراج مناجمها الظاهرة والباطنة، عن طريق توفير مناخ جذاب لاستغلال الثروات المعدنية التي تزخر بها أرضنا العربية، ومنها الرمال. واستغلال الطاقة الشمسية، وطاقة الرياح، وربط الكهرباء، وربط أنابيب النفط والغاز من مناطق الخليج إلى بحر عمان والبحر العربي، وبناء موانئ للنفط والغاز، وموانئ تجارية عليها، لتوفر هذه الموانئ الجديدة المال والوقت في النقل والشحن والتوزيع، وقيام مراكز صناعية ومستوطنات على هذه الخطوط والموانئ، كما فعل الأقدمون، وأنه مما لا شك فيه أن هذه الاستثمارات ستعود بأكبر ربح ومنفعة اقتصادية واجتماعية على المستثمرين، والأهم من ذلك ستوجد وظائف لا حصر لها للعمالة العاطلة

في الجزيرة العربية، وستزودهم بخبرات فنية وعلمية جديدة. ومن هنا يكمن التحدي الحضاري المرتقب من قبل شباب الجزيرة العربية.

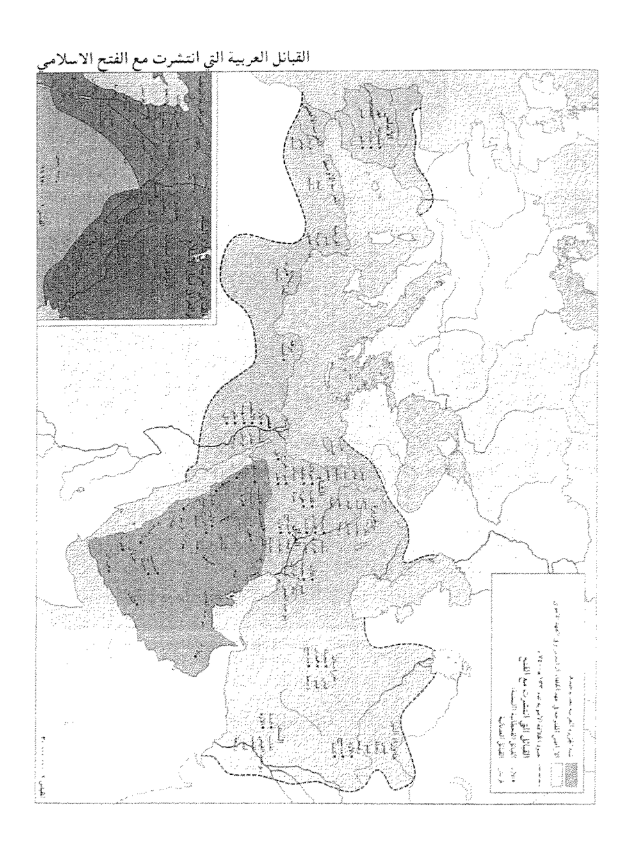
* وقبل الانتقال بحديثنا إلى الفصل التالي عن الممالك اليمنية القديمة، ألم يلحظ منكم أيها الشباب من قراءتكم للفصول السابقة الموقع الذي كانت تحتله فلسطين في العلاقة التجارية والثقافية القديمة بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها؟ سنترك الإجابة لكم على هذا التساؤل. وكل ما يمكن قوله، هو أن العلاقة الحالية بين أرض فلسطين المحتلة والعرب ليست طارئة وليست قائمة على نزعة عاطفية لما حل بشعب فلسطين، إنما العلاقة بين العرب جميعا وأرض فلسطين مرتبطة بأعماق التاريخ. **فميناء غزة** كما وجدنا من سير القوافل التجارية إليها، هو المرفأ والثغر الذي تصب فيه التجارة العربية التي تنطلق منه بضائع التجارة العربية إلى موانئ البحر الأبيض ومصر، وكما مر بنا أيضاً فإن مدينة القدس (التقاء ملكة سبأ في القدس بالنبي سليمان) أن الرباط بها قديم من نواحيه التجارية والدينية، وهو المعنى الذي ربطت به القدس في الإسراء من أرض الحجاز، وفي توجه المسلمين إليها في صلاتهم في بداية الإسلام.

وبناء عليه فإن العلاقة العربية بفلسطين تمثل نسيجاً متصلا من العلائق التي لا نهاية لها نسجت خيوطها عبر قرون من الزمن فأصبح تمزيقها وفصم عراها وفصلها أمراً مستحيلاً، ومن هنا فإن رباط الحبل السري العربي بأرض فلسطين ليس ناجماً عن نظرة إثنية شوفينية، أوعنصرية دينية! وإنما هي مرتبطة بوجود بشر على أرض عاشوا عليها فأصبحت لهم حقوق وعليهم واجبات إنسانية بشرية حياتية تاريخية تجاهها. الفلسطينيون مثلهم مثل بقية البشر على بساط المعمورة لهم مكان تحت ظل الشمس، ولا يستطيع الاحتلال والعدوان أن يغير هذه الحقيقة الثابتة. إنها مسؤولية الأمة العربية ممثلة في أنظمتها وشعوبها في رد الحق الفلسطيني إلى نصابه. ونترك بقية الموضوع إلى الشباب لإكماله.

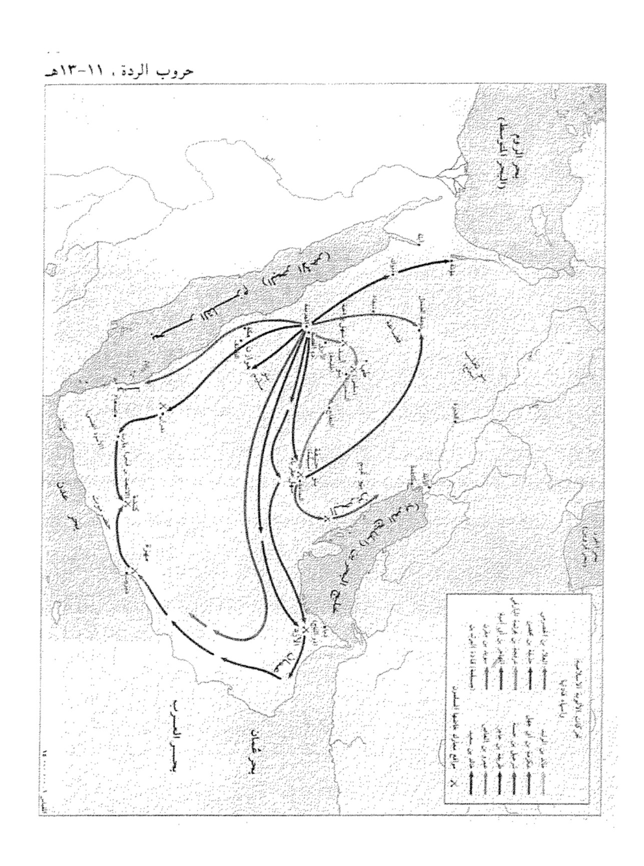
شبه الجزيرة العربية - قبيل الإسلام



القبائل العربية التي انتشرت مع الفتح الإسلامي



حروب الردة، 11 – 13 هـ



الفصل الخامس

الممالك العربية اليمنية القديمة

إقليم اليمن هو من أغنى وأنشط أقاليم الجزيرة الأربعة التي شكلت الحضارة العربية القديمة في هذه المنطقة.

لقد تلونا آيات كريمة من "سورة سبأ"، وأشرنا لبعض مما ذكر في التوراة عن زيارة ملكة سبأ إلى الملك سليمان في فلسطين في حوالي بداية الألفية الأولى قبل ميلاد المسيح، وأنه من خلال النقوش التي عثر عليها وعبّر لنا عنها الأثريون، فإن تلك جميعها قد أكدت على الصلات القديمة التي كانت قائمة بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها.

هذه الوقائع تؤكد ترابط وتواصل العلاقات التجارية والسياسية التي كانت قائمة بين مملكة سبأ القديمة وفلسطين وما جاورها، وهي بلا شك كانت قائمة في فترة سابقة على حكم الملك سليمان (ع) وأنها قد استمرت لفترة طويلة من بعده، بدليل أنه إذا أخذنا بحديث التوراة عن تجارة سبأ **(شبا في التوراة)** وعن قوافل السبئيين، فإن هذه كانت تأتي بالذهب وباللبان وبأفخر الطيب إلى فلسطين، منذ زمن بعيد، وإذا أخذنا بما ذكره البابليون والمصريون القدماء، وما كتبه اليونانيون والرومان من بعدهم، فهذه جميعها تؤكد تلك الصلات التي بقيت قائمة على مر دهور طويلة، تعبر عن الروابط المتينة والوحدة بين أبناء الجزيرة جنوبها بشمالها.

ومما مر ذكره يمكن فهم المعنى والهدف من زيارة ملكة سبأ العربية إلى ملك فلسطين، الملكة التي قامت بتلك الزيارة، وقطعت فيها المسافة الطويلة من جنوب الجزيرة العربية حتى بلغت مقر الملك سليمان في شمالها، وكانت قد جاءت في قافلتها الكبيرة من الجمال المحملة بالهدايا الثمينة والأطايب المتنوعة والبخور واللبان والأحجار الكريمة، وكل ما ندر من سلع، ومن بضائع غلت أثمانها وعزت قيمتها، في تلك الأزمان.

هذه الرحلة إذن ما هي إلا تعبير عن صلات الطرفين التاريخية القديمة السياسية منها والتجارية، فزيارة ملكة سبأ لفلسطين في تلك الصورة المدهشة قد أكدت على ما تتمتع به مملكة سبأ وشعبها من غنى وجاه وثروة، وأنه من الوجهة العملية فإن الزيارة في حقيقتها ليست لمجرد البحث عن الإيمان والحكمة وامتحان الملك سليمان – حسب التوراة – وإنما كان الهدف الذي رمى إليه الطرفان من ورائها هو توثيق العلاقات الاقتصادية وتسهيل المعاملات التجارية بينهما، وذلك لأن القوافل التجارية العربية الجنوبية كانت لها شهرتها بين حضارات العالم القديم، فكانت ترد إلى أرض فلسطين وهي محملة بالنفائس من البضائع والسلع الثمينة. وأن تجارة بهذه القيمة وهذه الأهمية لا شك في أنها تستدعي من الدولتين والمملكتين – سواء كان ذلك في الزمن الماضي أو في عصرنا الحاضر – ضرورة التباحث بين المسؤولين في كيفية استمرار المحافظة على تسهيل سير هذه المعاملات التجارية وتوطيدها وزيادتها كماً ونوعاً لكي تتحقق المصالح والمنافع للمملكتين. وأن يتم التباحث فيما بينهما حول؛ الضرائب التي تجبى على البضائع الواردة والبضائع المصدرة من فلسطين وتجارة الترانزيت، وحول تأمين الإقامة والمأوى، وعن كل ما يؤمن سلامة المسافرين وراحتهم، ويؤمن تسليم وتسلم البضائع، وتأمين طرقات القوافل وغيرها من هذه الأمور الضرورية التي تسهل التبادل التجاري بينهما، وعلى الخصوص إذا عرفنا أن مملكة سليمان قد ارتفع شأنها وزادت من ثرواتها نتيجة تقدم

تجارتها مع العربية الجنوبية اليمنية من جهة، ومع العربية الشمالية الفينيقية من جهة ثانية، فالدورة التجارية الاقتصادية ضمن الأرض العربية كانت قائمة منذ تلك الآماد البعيدة، وقد استفادت منها مملكة سليمان.

فملكة سبأ هذه التي كانت قد عملت على تمتين علاقاتها التجارية بين جنوب شبه الجزيرة العربية وشمالها، ما هي إلا إحدى الملكات والملوك والمسؤولون الذين أداروا شئون مملكة سبأ القديمة التي استمرت لقرون طويلة والتي كان أحد ركائز اهتمامات مجتمعاتهم هو إنعاش وتقوية السوق التجارية وتوسعة نشاطاتها في الجزيرة العربية، بتبادل تجاري واسع مع جيرانها؛ من ممالك وأقطار مختلفة. كل ذلك مع الأخذ في الاعتبار أن مملكة سبأ نفسها على الرغم من شهرتها إلا أنها كانت تشكل إحدى الممالك اليمنية القديمة التي كانت تحكم وتسيطر على الأرض الواسعة من جنوب الجزيرة العربية، وهي الأرض المتنوعة في تضاريسها وفي طبيعتها الجغرافية.

سبق لنا أن تطرقنا بإيجاز عن جغرافية وزراعة وتجارة الجنوب العربي في صورته العامة الشاملة دون ذكر لكياناته السياسية، مع أن للجانب السياسي أهميته في إكمال الموضوع الذي نحن بصدده، ذلك لأنه بمعرفة الجوانب السياسية، سيتمكن القارئ من إلقاء الضوء على كثير من الجوانب الحياتية الأخرى، كما ستساعده على تقريب الصورة عن الكيفية التي كانت تدار بها المجتمعات الإنسانية في داخل البلاد وعلاقاتها الخارجية، **فالنظام** السياسي يظهر العلاقة القائمة بين **المجتمع** وطبقاته وفئاته الاجتماعية من جهة، وبين الدولة وما آلت إليه في حكمها وسيطرتها على المجتمع من ناحية ثانية.

من هنا جاءت أهمية تناول الممالك اليمنية القديمة من حيث أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية حتى يكتمل الهدف الذي نسعى إليه من

حواراتنا التي ستتم بدخولنا إلى (متحف) و(معرض) الممالك اليمنية القديمة (القديم هو عبرة الحاضر)، وأنه بالبحث في شأن هذه الممالك القديمة نستخلص منها دروساً عن الأسباب التي حلت بذلك المجتمع من: تفرقة وتمزق وتخلف، وهو الذي كان غنياً بثرواته وغنياً بشعبه الخلاق المنتج، فإن كثيراً من تلك الأحوال والظروف السابقة، لها ما يماثلها في وضعنا العربي الراهن، فالأنظمة السياسية وإدارتها لشؤون المجتمع هي التي تقدم أو تؤخر المجتمعات الإنسانية.

وعلى هذا النحو سيتم تناول الممالك اليمنية القديمة، بأخذ لمحة مختصرة عنها، تساعدنا في الوصول إلى الغرض الذي نسعى ونعمل وندعو إليه من إقامة أنظمة حكم صالحة تحقق العلاقات الصحيحة بين المجتمع والدولة، والتي نأمل منها أن توصلنا إلى قيام تضامن أو اتحاد ووحدة عربية قائمة على قواعد حضارية حديثة، كما أن نتائج الحكم الصالح ستوصلنا إلى تغيير أوضاعنا الحالية ليصبح المجتمع العربي أكثر تقدماً وازدهاراً وإشراقاً، بعلومه وأبحاثه وابتكاراته وإنتاجه المتطور في الميادين التكنولوجية والصناعية وعلوم الفضاء وعلوم الذرة وعلوم الكيمياء والطبيعة والبيئة وغيرها. فهذه الدروس تساعدنا في تلمس ومعرفة أوضاعنا السياسية الحالية، فكلما درسنا وتمعنا في أخطاء المجتمعات والدول العربية الماضية وما مرت به من عثرات كثيرة، فإن ذلك لا شك يساعدنا في تجنب الوقوع في مثل تلك الأخطاء مرة أخرى، لأنه: (لا يلدغ المرء من جحر مرتين!)، إلا أننا في الحقيقة نلدغ عشرات المرات في اليوم ولم نتعظ بعد!!

وقبل تناول أوضاع تلك الممالك اليمنية القديمة، نود التنويه إلى أن ما سيتم عرضه يمثل حدود وإمكانات قراءتنا ومعلوماتنا التي توصلنا إليها، كما سنقوم بتناولها في صورة مختصرة وموجزة، وأنه رغم التعرض للنواحي السياسية، إلا أن الجانب التجاري هو المعني، لكون التجارة كانت هي أساس بناء تلك الممالك، وكانت هي عماد النهضة اليمنية القديمة.

ونحن في هذا الصدد لا يسعنا إلا التذكير والإشارة إلى أن عدداً من الكتب التي إطلعنا عليها في هذا الموضوع، ومنها على سبيل المثال ما كتبه الدكتور جواد علي، في كتابه القيم (المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام). وحتى ما جاء في الموسوعة اليمنية، وأنه رغم الجهود العلمية المبذولة في هذين السفرين العظيمين، إلا أن الجميع كانوا يشكون من الإهمال العربي الفاضح لتاريخ اليمن والجزيرة العربية عموما مما أدى إلى تغييب ذاكرة الشعب العربي وجهله بتاريخه التليد. لقد أوضح هؤلاء الأكاديميون والعلماء العرب وأبانوا، بعبارات يعصرها الألم والحزن، من أنه لا يزال تاريخ اليمن والجزيرة العربية كله، مدفوناً في الوديان وتحت الرمال والكثبان، وقد تبعثرت حجارة عليها كتابات وخطوط أثرية تاريخية، كانت تلك الحجارة، مع الأسف، قد ضمت إلى بنيان البيوت والقصور فضاعت معالمها القيمة. وما تبقى لنا من تاريخنا هو ما ننقله من بعض ما كانت قد زخرت به كتابات اليونانيين والرومان والبيزنطيين، وما تم العثور عليها من نقوش وكتابات لقدماء المصريين والآشوريين والبابليين، التي بينت نقوشها، وذكرت مخطوطاتها ما بلغته تلك الممالك اليمنية القديمة من قوة اقتصادية كبيرة ومن تجارة واسعة، كما أظهروا لنا بعضاً مما ذكرته كتابات المسند؛ السبئية والمعينية والحميرية وغيرها، عن مدى التقدم الذي أحرزته ووصلت إليه حضارات تلك الممالك.

لقد ذكر لنا أولئك العلماء من الجهابذة العرب الذين أشير إليهم، أن الكثير من تلك المعلومات القيمة عن تاريخنا قد بقيت في بطون الكتب الأجنبية وعلى أرفف مكتباتهم لم يتم ترجمتها، فحرم العربي مصدراً مهماً من مصادر تاريخه القديم. لقد بقي تاريخ اليمن مجهولاً حتى توافد المستشرقون في فترات متأخرة على أرض اليمن، سعياً وراء كشف الغطاء عن كنوز الآثار اليمنية؛ فعملوا على **شق بطن الأرض** لاستخراج ما بها من كنوز أثرية، لقد قاموا بعملهم ذلك، في ظروف بيئية وجغرافية وشعبية

وقبلية، صعبة محفوفة بالمخاطر، إلا أن إرادة وتصميم العلماء تهون أمامها المخاطر والمجازفة، لقد قاموا بالحفر والتنقيب ودراسة وفحص ما كتب على النقوش من كتابات يمنية قديمة (بخط المسند وغيره)، وكانت الجامعات والمؤسسات العلمية في بلادهم الأجنبية هي التي تقوم بتمويل تلك البعثات وترعاها، وكأن ليس لتاريخنا وآثارنا من راع لها بيننا؟

وفي حواراتنا مع الشباب العربي لنا أن نقف هنا متسائلين، أين هي جامعاتنا ومعاهدنا العلمية؟ أين هي المؤسسات العلمية والبحثية؟ أين هي شركات النفط وشركات المعادن المتواجدة في تلك الأماكن؟ لماذا لا تمول مثل هذه الأبحاث؟ أين هي المؤسسات العامة والخاصة؟ لماذا لم ترصد تلك المؤسسات الأموال للبحث والتنقيب عن آثارنا واستخراج علومنا حتى يقوم الرجال والنساء العرب بواجبهم القومي الحضاري؟ ثم أين هو دور الجامعات وأساتذتها وطلابها إذا لم يقوموا بجزء من هذا العمل الذي يقوم به الأجنبي؟ أين هم الشباب المتعطش إلى العلم والمعرفة؛ المغامر والباحث عن المجهول في أرضه؟ فلماذا لا يقوم شباب العرب بهذا الواجب؟ ولماذا يترك أمر **الثروة** الآثارية يستغلها الأجنبي الذي سيأخذ معه جل ما يحصل عليه من كنوز أثرية ومعلومات قيمة كان قد تركها الأجداد مخزونة ومّدخرة لتكون ثروة لأجيال الوطن؟ أليس في الحصول على تلك الكنوز الأثرية، ما يعني جمع ثروة ثقافية وعلمية عظيمة للوطن؟ بل أليست هذه الآثار هي مادة تنموية استثمارية؟ منها ما يمكنه أن يقدم مادة تاريخية مدهشة ومثيرة لصناعة السينما والمسرح والنحت والرسم، ومنها ما يمكن أن يقدم كتباً وقصصاً للأطفال، وللخيال العلمي والتاريخ التي يمكن أن يستنتج منها، ومن غيرها وغيرها الفنون المتنوعة؟ أليست مواقعها وآثارها المكتشفة تفسح المجال لاستثمارات سياحية وثقافية عظيمة؟ أليست في إقامة المتاحف والمعارض فيها شحذ الهمم للأفكار العلمية والفلسفية التي نحن في

أمس الحاجة إليها في عصرنا الحاضر؟. فالأسئلة في هذا الجانب كثيرة والأجوبة عليها قليلة والاستثمارات فيها نادرة بل معدومة.

* وتواصلاً مع موضوع الممالك اليمنية القديمة، فقد ذكر الباحثون، أنه لم تتوافر معلومات كافية حتى الآن عن تلك الكيانات السياسية تبين بداية لعهودها ونهاية لها، وكل ما يعرف عنها أنها **حكومات قبائل** قامت في المدن الواقعة على طريق قوافل تجارة اللبان، وتكونت تلك الكيانات السياسية عندما طغى نفوذ أمراء الإقطاعيات، أو ما يطلق عليهم (الأقيال)، فهذه المدن التجارية كانت تعتمد على قوة القبيلة وقوة التحالف الذي يجمعها عن طريق القرابة والمصاهرة. كما عرف عن تلك التكوينات السياسية أنها كانت تدور في فلك دولة سبأ، كانت ترتبط بها حيناً وتنفصل عنها حيناً آخر، وفي كل حالة من حالات الارتباط والانفصال، كانت تؤدي إلى نشوب الصراع والحروب فيما بين القبيلة الواحدة أو القبائل المختلفة، ثم لا تلبث هذه أن تهدأ تحت تهديد سلطة وقوة مركزية أقوى، وأن هذه القوة تعمل على توحيدهم في بعض الأحيان، ليس حباً وعقيدة في الوحدة وإنما خوفاً من القبائل لفقدانهم مصالحهم المشتركة التي اكتسبوها من وراء التجارة العابرة بأراضيهم.

فالتحالفات القبلية الإقطاعية تتغير وفقاً للظروف التي تمر بها كل قبيلة في مواجهة الأطراف المتنازعة، وهذا ما يؤكد لنا أن **الوحدة الوطنية** في الأرض والحكم لا تستقيم في ظل الأنظمة القبلية، وما كان قائما بين تلك القبائل هو تكامل اقتصادي لتحقيق مصالح قبيلة هي في أكثر الأحيان لظروف آنية لكل قبيلة على حدة، تنفك عراها لأي حادث قبلي، فردي أو شخصي طارئ، في حين أن الوحدة المطلوبة حالياً هي وحدة منبثقة من إرادة شعبية جماهيرية؛ من أهدافها وأغراضها تحقيق الديموقراطية والتنمية والقضاء على البطالة فتزيد بذلك الوحدة قوة سياسية واقتصادية تستطيع بها مواجهة المخاطر المحدقة بها.

فالنشاط التجاري وما كان يدره من أرباح كان دعامة للتكوين القبلي الذي اتخذ من الوضع الطبيعي للمنطقة عاملاً مساعداً لقيام دوله المستقلة، ومن هنا سنحاول جهدنا تقديم عرض لبعض من الممالك المستقلة نتناولها في صورة موجزة، محاولين أن نستخلص من أوضاعها ما أمكن من النتائج المرجوة ضمن هذا العرض.

* لقد كانت مملكة سبأ تمثل الكيان السياسي للإقليم العربي في اليمن القديمة، وأنه بنشوء الدول المستقلة أصبحت بداية **أربعة كيانات** لدول من بينها مملكة سبأ (مملكة أوسان كانت قد قسمت بين الكيانات الأربعة)، كانت تقتسم فيما بينها البلاد وهي: سبأ ومعين وقتبان وحضرموت. وكانت عواصم تلك الدول هي مدن نشأت فيها محطات على طريق تجارة البخور، كانت تلك الكيانات تتقاسم معاً خيرات التجارة التي تمر بأرضها - ضرائب وغيرها- عبر ذلك الشريان التجاري الدولي الكبير الذي سبقت الإشارة إليه، وكما سيظهر لنا كيف أن هذه الكيانات السياسية قد زالت الواحدة تلوالأخرى بفعل الكيانات نفسها في تقاتلها وتنازعها، ففي القرن الثاني **بعد** الميلاد تقريبا، أزالت حضرموت بالتعاون مع سبأ كلا من مملكة معين ومملكة قتبان، وبعدها في القرن الثالث بعد الميلاد أزيحت مملكة حضرموت من قبل قوة جديدة هي مملكة **حمير** التي أزاحت من طريقها هذه أيضاً مملكة سبأ.

وقد أتاحت صراعات الكيانات السياسية الفرصة للتدخلات الأجنبية الخارجية، وهو الوضع الطبيعي في كل زمان، فعندما يتم تمزيق الوطن إلى كيانات تنشب بينها الخلافات الداخلية، تتبعها الصراعات الدامية التي تمزق كياناتها، والكيانات السياسية الممزقة والمتصارعة ما هي في حقيقتها إلا تسهيل وتمهيد بل فيها دعوة لتدخل قوى أجنبية، تحتل فيها الأرض وتنهب الخيرات وتفقر البلد وتمزق الشعب فرقاً وطوائف ووحداناً، تحيل فيها حياة السكان إلى جحيم الصراعات والنزاعات والحروب، فيفر الأهل مهاجرين بعيداً عن أرضهم ووطنهم، وبيان ذلك سنتناوله عند حديثنا عن كل من

الممالك اليمنية القديمة، من نواحيها الجغرافية الطبيعية ومن جوانبها الإنتاجية، وآثارها السياسية القديمة، ونتيجة للأحداث التاريخية التي ذكرت جعلت الشعب اليمني يقوم بثورته ونضاله في الزمن الحاضر، من أجل تثبيت وحدته الوطنية والقومية التي هدرت لأجيال طويلة.

1 ـــ مملكة سبأ

سنبدأ حديثنا بمملكة سبأ التي أفردت لها سورة في القرآن الكريم، هذه الدولة كانت تمثل العمود الفقري للكيان السياسي اليمني عبر تاريخه الطويل. وحكومة سبأ ومملكتها تلك كانت تمثل ـــ في صورتها التقريبية ـــ كامل أرض جنوب الجزيرة العربية من الناحية السياسية والاقتصادية، واستمرت كذلك كياناً يمنياً كبيراً لعدة قرون، حتى جاءت فترة نهاية القرن الخامس قبل الميلاد تقريبا، حين خرجت عن سيطرتها مناطق عدة استطاعت أن تكوّن دولا مستقلة، لقد كان هذا الزمن هو الفترة التي زاد فيها الطلب على البضاعة العربية في شمال الجزيرة وما وراءها في الفترة البابلية ثم الفارسية، كما زاد الطلب بعد هزيمة الإمبراطورية الفارسية (الأخمينية) وتكوين الأسكندر الأكبر لإمبراطوريته الواسعة. ومن بين ما ذكر هو أن الإسكندر كان يشتري كميات كبيرة من الطيب ويرسلها هدايا إلى أثينا، ومن بين هذه الهدايا ما قام بإهدائه لمعلمه الفيلسوف أرسطو.

تحدثنا في فصول سابقة عن هذه المملكة ـــ مملكة سبأ ـــ التي قامت في مرتفعات ووديان مدينة مأرب، ونوجز بالقول بأن هذا الكيان السياسي يعبر عن **تجمع وتحالف واتحاد** لقبائل سبأ، تم من خلالها التقارب بين آلهتها – مثلها مثل الدول الأخرى في اليمن – فأقام هذا التجمع دولة مركزية انضوت تحت لوائها جميع أقاليم اليمن تقريبا.

استمرت مملكة سبأ تمثل الدولة اليمنية الكبيرة من الألفية الثانية قبل الميلاد حتى نهاية القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً، ففي الفترة الأخيرة المشار إليها كانت قد خرجت عن سيطرتها مناطق عدة فتكونت الدول المستقلة التي ذكرناها، ويرجح الباحثون السبب في ذلك إلى أن تلك هي الفترة التي ظهرت فيها مملكة (**أوسان**) وسيطرتها على التجارة البحرية – كما سيمر بنا– وتركت لسبأ تجارتها على الطريق البري، مما شجع مدن **الجوف**، المارة بها التجارة البرية – والتي منها مدينة معين – من أن تخرج من نفوذ مملكة سبأ.

فالمعينيون قد أقاموا دولتهم المستقلة، واتخذوا من قرنا و(معين) عاصمة لهم في **وادي الجوف**، وتمكنوا من بسط نفوذهم على طريق اللبان التجاري **بمساندة وتحالف** قبيلة (حضرموت)، التي كانت تملك أرض اللبان في ظفار، وبمساعدة ومساندة وعون و**تحالف** من قبيلة (قتبان) التي كانت قد اقتطعت من سبأ مناطقها الجنوبية. وهكذا نجد أن كل مدينة كانت قد تعاضدت مع الأخرى للانفصال عن سبأ، وكان يقود تلك الحركة الاستقلالية الانفصالية سادات القبائل في تلك المدن والأودية، وكانت هذه قد تزامنت مع الفترة التي شهدت ازدهار التجارة في المنطقة العربية في بابل، وفي مصر القديمة، وفي تجارة فينيقيا مع حوض الأبيض المتوسط.

لقد قامت تلك الدول المستقلة في المدن الواقعة على طريق اللبان التجاري والتي كانت أساس هذه المدن محطات للقوافل التجارية العابرة، فنمت وازدهرت وقويت شوكتها، مما مكنها من أن تتحول كل مدينة منها، من مدن القوافل، إلى دولة ذات كيان سياسي مستقل عن دولة المركز، فعملت على تعزيز استقلالها وتقاسم النفوذ والثروة الناجمة من مرور التجارة عبر أراضيها مع الدول الأخرى المستقلة.

إلا أنه **على الرغم من** الغزو الخارجي من قبل الرومان الذي حدث في نهاية القرن الأول قبل الميلاد، ووجود الدول المستقلة، إلا أن سبأ قد بقيت

أكبر تلك الدول وأهمها، من حيث كونها حاضنة لكل التراث اليمني، فتعايشت مع الدول المستقلة الأخرى زمناً طويلا، اشتركت معها في النفوذ السياسي والنشاط التجاري، حتى بذر الشقاق والصراع والتنافس الحاد بين كافة **سادات قبائل الممالك** اليمنية، عندما هدفت كل **قبيلة** في السيطرة على الأرض التابعة للقبيلة الأخرى، والسيطرة على منابع الثروة المارة بتلك القبيلة، وسعت كل واحدة منهم في الوصول إلى السلطة التقليدية في مأرب العاصمة، وعندما تحالفت كل مملكة/ قبيلة مع أخرى لتحتل أرض مملكة يمنية ثالثة، مما أجج الصراع، وأدى هذا الصراع المرير إلى التفرقة والتمزق، مما نتج عنه في نهاية المطاف القضاء على تلك الكيانات السياسية القبلية الصغيرة، التي سميت مستقلة، وهي لم تعد مستقلة عندما وطأت أقدام الدول الأجنبية أرضهم. فهذه الكيانات السياسية القبلية من الدول والممالك قد قضت على كياناتها بنفسها في صراعها مع بعضها البعض مما سهل التدخل الأجنبي الذي قضى على الجميع، واستفرد بالسلطة، ناهباً خيرات البلد ومتحكماً برقاب أهلها، وسنعود إلى النواحي السياسية التي أدت إلى القضاء على الممالك اليمنية التي من بينها مملكة سبأ.

وقد تبين للباحثين من النقوش التي اطلعوا عليها أن ملوك سبأ، وحتى قبل تكوين الدول المستقلة في القرن الخامس قبل الميلاد، لم يكونوا منفردين بالحكم وحدهم بصورة دائمة، وإنما كانت تظهر بين الحين والحين قبائل تنازعهم الملك، منها مملكة (أوسان)، كما سيجري الحديث عنها بإيجاز في السطور التالية :

2. مملكة أوسان :

إنها **قبيلة** كونت مملكة قديمة، تقع أراضيها على مصب **(وادي مرخة)**، إلى الجنوب الشرقي من مأرب، وكانت قد أضافت إليها في بعض الفترات مناطق عديدة مجاورة، كما هي عادة القبائل عندما يقوى ساعدها، نشير إلى

أنه لم يجر التعرف على هذه المملكة إلا في وقت متأخر عندما عثر منقبون أجانب على آثار تظهر تاريخ هذه المملكة.

وترجع أهمية هذه المملكة في أنها كانت تسيطر على الأجزاء الجنوبية لليمن وعلى الشريط الممتد من مضيق باب المندب حتى ما بعد عدن، فبالإضافة إلى سيطرتها على الأجزاء الجنوبية، إلا أنها كانت لها سيطرة على الساحل الإفريقي أيضاً الذي كانت لها تجارة واسعة فيه مع سكانه.

ويعتقد أنه في منتصف الألف الأول قبل الميلاد، استطاعت هذه المملكة منافسة مملكة سبأ، عندما احتكرت التجارة البحرية مع الموانئ الإفريقية بسيطرتها على الأجزاء الساحلية على الشاطئين اليمني والإفريقي، وهو ما دفع سبأ إلى الاكتفاء - في وقت ما - في نشاطها التجاري على القوافل البرية والتخلي للأوسانيين بالسيطرة على التجارة البحرية، إلا أن مملكة سبأ عندما توافرت لها القوة الكافية، قامت بإعادة سيطرتها الكاملة على الطرق التجارية، فاجتاحت معظم المدن الواقعة على البحر وضمتها للدولة المركزية.

ويذكر أنه عندما احتل السبئيون أرض (أوسان) وأراض أخرى في المنطقة، قاموا بهبتها لإله سبأ، كما أنعموا ببعض الأراضي التي **غنموها** إلى كل من **قبيلة** (قتبان) **وقبيلة** (حضرموت)، فتوافرت لهاتين القبيلتين عناصر قوة المدينة التجارية وموارد ثروتها المالية والتجارية فأمكنهما بالتالي، من تكوين مملكتيهما المستقلتين، وسيأتي حديثنا التالي عن هاتين المملكتين بعد أن نتناول الحديث عن مملكة معين، التي كان في نشاطها الانفصالي تشجيعاً لاستقلال الدول الأخرى.

إلا أن ما حدث لمملكة أوسان من احتلال وتمزيق وتقسيم لأراضيها من قبل الزعامات القبلية، قد ترك أثره الكبير على مستقبل وحدة الأراضي اليمنية، وحفز القبائل اليمنية في تكوينها لتحالفات قبلية صار يستولي كل تحالف على أكبر قطعة من الأرض من التحالف الآخر.

3 ـــ مملكة معين:

استكمالا لحديثنا عن هذه المملكة، فإنه في قرابة القرن الخامس قبل الميلاد بدأت منطقة الجوف تستقل تدريجياً عن دولة سبأ وكانت مدينة (براقش) من مدن الجوف هي التي قادت حملة الاستقلال وخروج الجوف عن دولة سبأ المركزية، فاتخذ سكان الجوف مدينة معين، وهي من مدن سهل الجوف، عاصمة للدولة المستقلة، وسميت الدولة الجديدة باسم العاصمة **(معين)** التي تعني نبع الماء، تقع في شمال مدينة مأرب عاصمة مملكة سبأ.

وكما مر بنا فإنه قد عاضد انفصال واستقلال دولة معين عن مملكة سبأ كل من: دولة حضرموت التي كانت تنتج أرضها اللبان، ودولة قتبان ذات المركز التجاري والزراعي في الجنوب وسبقت الإشارة إليه، فالجوف منطقة سهلية **بين نجران** وحضرموت وأرضها خصبة منبسطة، فمساعدة الدولتين في استقلال معين هو للاستفادة من موقعها على طريق اللبان التجارية، وهو الذي كان يربط معين بميناء (قنا) جنوبا، وبوادي نجران شمالا، ثم إلى فلسطين شمالا، فمعين دولة انفصلت عن مملكة سبأ، وأقامت في **الجوف دولة تجارية** مزدهرة.

فسهل الجوف يتكون من واد كبير تصب فيه عدة أودية تندفع فيها مياه السيول الموسمية المنحدرة من الجبال المحيطة بالوادي، فشيد شعبها نظاما للري تميز ببنائه للسدود التحويلية، التي تتحول منها المياه إلى قنوات الري العديدة، مما جعل أرضها خصبة أقيمت عليها الأشجار والمزروعات والمراعي الكثيرة، كما شيدت على **أرض**+ الوادي مدناً عديدة مشهورة، منها مدينة معين (قرناو) التي سميت الدولة باسمها، وقد اتخذت مكانتها الاقتصادية كونها إحدى المدن اليمنية التي أقيمت على طريق القوافل التجارية، فأصبحت حواضر مدن معين **مثالا** للعمران والفن، وقد عثر على

نقوش معينية في **المحطات التجارية** المعينية المختلفة تبين سير القوافل من الجوف إلى نجران ومنها إلى جنوب فلسطين.

فالنقوش المعينية التي عثر عليها كثيرة سواء في الجوف أو في أماكن عديدة أخرى، فمنها ما عثر عليها؛ في مستوطنة معينية في الطريق الممتد من الحجاز، وكتابات عثر عليها في مصر، وكتابات أخرى عثر عليها في جزر اليونان. وقد أكدت هذه النقوش على أن تاريخ الجوف لا يزال مطموراً في (جوف) الجوف، بين الخرائب العديدة التي لم تكشف أسرارها بعد، وأنه لا تزال صفحات تاريخها مدفونة تحت الرمال، ويذكر في هذا الصدد أن كتب اليونان قد زخرت بذكر ما بلغته هذه الدولة من قوة اقتصادية كبيرة.

فالآثار الكثيرة التي عثر عليها تركت انطباعاً لدى كثير من المؤرخين أن هذه المملكة هي من أقدم الممالك التي حكمت أرض اليمن، في حين أن سبأ أقدم منها.

إلا أن الثابت هو أن هذه الدولة قد جعلت جل اهتمامها للنفوذ التجاري على طريق اللبان، فالمعلومات التاريخية عن دولة معين، في النقوش الوفيرة التي عثر عليها في وادي الجوف في العصر الحديث، من خرائب وآثار مدن وحصون ومعابد وهي ما زالت ماثلة هناك حتى اليوم، كلها تدل على اهتمام هذه المملكة بالنشاط التجاري دون سواه، فهي مثال الدولة التي لم تسع للتوسع والحروب كما هو الشأن بالممالك الأخرى، ولذلك فإن الحملة الرومانية في عام 24 ق.م.، التي كان هدفها استعمار تجاري استراتيجي تحصل فيه على المنافع التجارية والاستراتيجية في جنوب الجزيرة العربية، بوصولها إلى المدن التجارية العامرة، وعلى أساس هذه الحملة كانت جيوش الرومان قد اجتاحت، وهي في طريقها إلى مدينة مأرب العاصمة، عدة مدن كانت من بينها مدن الجوف الذائعة الصيت مثل براقش وقرناو.

ومجمل القول أن معين عندما انفصلت عن سبأ كونت دولة تجارية، إلا أن الغزو الروماني، الذي احتلت جيوشه أراضي ومدن الجوف وهي في طريقها إلى مأرب، وعلى الرغم من عودتها فاشلة، إلا أنها تركت آثارها الخطيرة على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في اليمن بصورة عامة، ومنها مملكة معين التي دمرت مدنها فأضعفتها، مما جعل من الزعامات القبلية في كل من سبأ وحضرموت يعملون أكثر على إضعافها، وأسهم بالتالي إلى سيطرة مملكة حضرموت على أراضيها، وهي التي كانت من قبل قد تحالفت معها لمساعدتها في الانفصال عن سبأ، وعلى هذا النحو انتهت هذه المملكة، التي كان سبب زوالها الأطماع الأجنبية وحملتهم الحربية في اليمن، كما سيأتي الحديث عنها عندما نتعرض لهذا الموضوع.

4 ــ مملكة قتبان :

"قتبان" اسم **قبيلة** و**أرض** و**دولة**، وهي من القبائل التي يجمعها اتحاد يسمى (ولد عم) نسبة إلى معبودهم (عم). كانت هذه القبيلة مثاويها ومساكنها الأصلية في منطقة **وادي** بيحان، وهو واد مشهور في قاع فسيح يمتد من شمال جبال البيضاء إلى أطراف رملة السبعتين، والوادي من المناطق الزراعية الخصبة الغنية بالمياه التي تتدفق عليه من جبال البيضاء ومن مشارف الجبال الشمالية المحيطة بالوادي.

فهذه المجموعة القبلية كانت تقطن في الأقسام الغربية من العربية الجنوبية، في الجنوب الغربي لمملكة سبأ، الواقعة في الأجزاء الجنوبية والشريط الساحلي الممتد من مضيق (باب المندب) حتى ما بعد ميناء عدن:

كانت دولة (قتبان) إحدى الدول الأربع ــ بعد تقسيم أراضي مملكة أوسان ــ كما سبق ذكره، وقتبان كانت تتوسط الممالك اليمنية الأربع إذ تحدها حضرموت من الشرق ومعين من الشمال وسبأ من الغرب، وحيث **إن** قتبان كانت تسيطر على الأجزاء الجنوبية والساحل بما فيها ميناء عدن،

ومضيق باب المندب الذي هو بوابة البحر الأحمر والشواطئ الإفريقية، فموقعها في هذه الأجزاء من اليمن قد ساعدها على استثمار مكانتها على طريق اللبان المشترك، فموقعها جعلها تتحكم بطرق التجارة البحرية عن طريق موانئها من ناحية، وبطرق قوافل تجارة الترانزيت البرية من ناحية أخرى، مستفيدة من كونها في موقع وسط بين تلك الدول، وهي على هذا النحو، تكون هي تلك الدولة التي تلتقي فيها السفن والقوافل معاً. وساعدها هذا الموقع على تكوين سوق لتبادل السلع المجلوبة من داخل البلاد ومن خارجها.

وقد قامت عاصمتها (تمنع) الواقعة في وادي بيحان بنشاطها في هذا الجانب، كان الطريق التجاري يبدأ من ميناء (قنا) في حضرموت — الأرض التي تنتج البخور واللبان – فتنقل إنتاجها هذا إلى (شبوة) عاصمة حضرموت أولاً، ومنها إلى مدينة (تمنع)، التي تلتقي فيها القوافل القادمة من جهات أخرى، وتقيم بها جاليات مختلفة، تمارس فيها نشاطها بحرية.

ونتيجة للآثار الكثيرة التي عثر عليها مؤخراً في (تمنع) في أرض دولة قتبان، جعلت من منقبي الآثار يعتبرون أن هذه العاصمة ودولتها هي من أكبر المواقع الأثرية في اليمن. ومن الآثار التي عثروا عليها **مسلة** من الحجر نقش عليها **قانون** ينظم التجارة في سوق (تمنع)، ربما كان يسمى (سوق شمر)، نقشت على جهات المسلة الأربع قواعد تنظيم المعاملات التجارية والمالية في هذا السوق؛ من ضرائب وغيرها، مما يؤكد اهتمام شعبها بمعاملاتهم في التجارة الداخلية والخارجية. فوضع الأنظمة والقوانين في هذه الدولة يدل على التنظيم والرقي في التعامل التجاري. ذلك أنه **إصدار القوانين والتشريعات** من قبل المجتمعات فيه دلالة على الحضارة والتقدم الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع على مر العصور، لأنه بوجود التشريعات تتم المحافظة على المصالح المشتركة للمتعاملين، ويتم فيها

تثبيت وتوثيق لحقوقهم المالية والحسابية من ناحية، وتعزيز مكانة الدولة الاقتصادية وسمعتها التجارية من ناحية أخرى.

كما أن الدولة التي كانت على تلك المكانة الرفيعة من النشاط التجاري ــ مملكة قتبان ــ لم تعتمد في بناء مملكتها على التجارة وحدها، وإنما كان اعتمادها على الزراعة أيضاً، فقد أقام شعبها مشاريع ري في الوديان، فشقوا في الوديان قنوات الري الطويلة لتتحكم في مياه السيول لتقوم بتوزيع المياه في مجاريها الفرعية، وقد تشكلت من هذه شبكة زودت بمياهها الأراضي الواسعة، حتى أن آثار نظم الري القديمة لا تزال شاهداً على التقدم الذي حصل في هذه المملكة القديمة التي كانت مشهورة بخصوبة تربتها وبكثرة مياهها وببساتينها الغناء.

أما عن الظروف السياسية التي أحاطت بهذه الدولة، فقد عرفنا من قبل أن دولة (قتبان) كانت قد ورثت دولة (أوسان) القديمة كلها تقريباً بعد أن تجمعت في اتحادها القبلي (ولد عم) وبهذا الاتحاد أصبحت في القرن الثالث قبل الميلاد تقريبا دولة تضارع في اتساع رقعة أراضيها وقوة اتحادها القبلي كل من سبأ وحضرموت وبهذه القوة والاتساع اعتبرت واحدة من الدول الأربع التي كانت تقتسم بلاد اليمن فيما بينها.

إلا أن الحرب الرومانية في اليمن في الربع الأخير من القرن الأول قبل الميلاد قد هز الكيانات اليمنية ومنها مملكة قتبان التي بدأ الضعف يدب في أركانها تحت ضربات مملكة حضرموت، حتى انتهى الأمر بسقوطها وضمها إلى السيادة الحضرمية بجانب ما ضمتها لها من بقايا مملكة (معين)، وعندها أخذت حضرموت في بسط نفوذها السياسي والتجاري وفي توطيد دعائم مملكتها.

5. مملكة حضرموت :

حضرموت اسم **لقبيلة**، مثلها مثل **سبأ**،عرفت مملكتيهما باسم **الأرض**+ التي أقامتا عليها، وحضرموت قد توسعت بمد سلطانها على ما

حولها من قبائل كانت لها كياناتها السياسية فاتحدت معها، والتي منها أراضي قبيلة المهرة المعروفة والتي تقع ديارها إلى الشرق من حضرموت، فتداخلت هذه مع قبيلة حضرموت، لتتكون منهما مملكة حضرموت القديمة.

تقع حضرموت **في وادي حضرموت** الذي هو ثالث أكبر الأودية في الجزيرة العربية، موقعها هو في الجهة الجنوبية الغربية من جنوب الجزيرة العربية، تمتد شمالا حتى الربع الخالي، ووادي حضرموت يسير بموازاة الساحل متجها إلى الشرق على البحر العربي، ويضم العديد من الأودية المنحدرة من الهضبة.

فحاضرتها وعاصمتها الرئيسية هي مدينة (**شبوة**)، وهي كحواضر الممالك اليمنية الأخرى الكبرى، تقوم على مشارف (رملة السبعتين) على طريق تجارة اللبان، وهذه المدينة قريبة من مخرج أحد الأودية المنحدرة من الهضبة الحضرمية.

وتدل التنقيبات الآثارية على وجود ميناء (قنا) Kane (Qana) منذ الفترة ما قبل الميلاد، إذ كان هو الميناء الرئيسي لليمن في تجارة الترانزيت، لما يمتاز به هذا الميناء من موقع طبيعي – مثله مثل ميناء عدن – فالميناء واقع في أسفل جبل على خليج **قنا**، ومع هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، القادمة من المحيط الهندي في بداية فصل الصيف تحتمي السفن في ملجأ خليجه الجبلي، ويحدث الشيء نفسه عندما تهب الرياح الشمالية الشرقية في الشتاء فإن للسفن ملجأ لها أيضاً في هذا المرفأ وفي خليجه الذي تحميه الجبال.

لقد كان مرفأ (قنا) من أفضل موانئ الجزيرة العربية بعد ميناء عدن، وقد دلت التنقيبات الأثرية على أن هذا المرفأ كان هو الطريق البحري الذي كان قد أوصل المملكة المصرية القديمة، ومملكة الأنباط بحوض القارة الهند منذ فترة سابقة على مولد المسيح.

ومرفأ (قنا) ما هو إلا جزء من السواحل البحرية الطويلة التي تتمتع بها حضرموت، وهي التي تمتد من أطراف هضبة حضرموت في الغرب، إلى حدودها الشرقية ـــ التي من ضمنها أراضي "مهرة" – حتى تبلغ جبال عمان الغربية. وعلى هذا الأساس اعتبرت حضرموت بوابة اليمن، لتعدد موانئها عبر التاريخ، والتي كان من أهمها وأشهرها ميناء (قنا) الواقع في الشرق من ميناء عدن، كما اشتهر ميناء (سمهر) في إقليم ظفار بالقرب من صلالة الذي هو من موانئ اللبان الرئيسية لموقعه في حوض كتلة صخرية، ومن هذه البوابات البحرية الحضرمية، جعلت من الحضارمة بحارة وتجار مهرة ينتشرون في شواطئ الهند وإفريقيا منذ أزمنة بعيدة.

تلك هي السواحل البحرية لحضرموت، أما عن أراضيها وأوديتها وهضبتها، فتتحدر من جانبي هضبتها مياه الأمطار مكونة فيما يشبه الدلتا التي تتوزع مياهها في الأودية الفرعية الكثيرة على الجانبين، حاملة معها التربة الغرينية التي تجرفها المياه، جاعلة التربة صالحة للزراعة، فالأراضي الحضرمية تتميز بالخصوبة وباتساع واديها وبقرب مخزون المياه من السطح، فقامت بها نهضة زراعية كبيرة، مما جعلها تشتهر بزراعة وتصدير الزعفران العربي والعسل والبخور واللبان وغيرها من المنتجات الزراعية.

وتذكر الدراسات، أن مناطق إنتاج اللبان اليمني كانت تنحصر فيما بين أطراف (ظفار) المحاذية لجبال عمان الغربية، وبين جبال حضرموت وأوديتها شاملة إقليم (مهرة) التي ظلت تابعة لمملكة حضرموت، ومن هذه المزروعات اكتسبت حضرموت شهرتها بين الكتاب الإغريق والرومان، فجاءت تسميتها باسم (أرض اللبان).

لقد اتفقت آراء الباحثين على أن الموطن المثالي للجمال العربية هو في جنوب الربع الخالي في حضرموت وخاصة في بلاد (مهرة) التي تنتج

أجود وأشهر **الجمال**، وعلى هذا النحو تكون قد تهيأت لحضرموت كل الوسائل التي ساعدتها على التجارة في اللبان، فقد توافرت لها **الزراعة والموانئ والإبل** التي تنقل البضائع لمسافات طويلة، وهذا ما جعل بطون القبائل الحضرمية تنتشر ليس في أجزاء الجزيرة العربية اليمامة ونجد، بل في شمالها أيضاً من بادية الشام.

يضاف إلى ما سبق، أن حضرموت تتمتع بمركز تجاري خاص جعلها نقطة التقاء تجارة الشرق والغرب، فبجانب تصديرها لمحاصيلها الزراعية وتحكمها في طريق التجارة البرية التي كانت تنقل من خلالها ما تستورده من البضائع الآسيوية ثم تعيد تصديرها إلى مصر والعراق وغيرها من بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط، فعلاقاتها مع الموانئ الهندية والإفريقية قديمة غائرة في أعماق الزمن، مما جعل لهذه المدينة/ الميناء صبغة دولية يعيش فيها السكان بمختلف نحلهم وأديانهم؛ في وئام واتفاق، وبالتالي لم يجد الحضارمة صعوبة في الانتقال والعيش مع الشعوب الأخرى في الهند وإفريقيا، وفي مختلف بقاع الأرض، وهم اليوم يعيشون مع تلك الشعوب كما كانوا بالأمس، ينشطون في الأعمال التجارية والمالية والحرفية وغيرها في تنافس حضاري مع الآخرين.

في القرن الأول الميلادي استقرت أحوال بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط بسيطرة الرومان على المدن الهيلينية، مما ساعد هذا الوضع على ازدهار الحياة التجارية والاجتماعية في حواضر المدن الكبرى مثل روما والإسكندرية وهذا ما دعا الطبقة الأرستقراطية في تلك البلاد إلى التوجه في طلب البضائع العربية والشرقية النفيسة وعلى رأسها البخور واللبان (الذي هو أحد أسباب غزو اليمن)، وقد جاء ذلك بعد فترة مرت فيها هذه التجارة بفترة ركود طويلة، نتيجة للنزاع الذي كان قائما بين الجماعات اليونانية التي خلفت الإسكندر الأكبر في الشرق العربي وهما: السلوقيون في الشام والبطالسة في مصر.

لقد تركت تلك الأوضاع السياسية والتجارية في شمال الجزيرة العربية آثارها على أرض الجزيرة العربية عموماً وفي جنوبها بصورة خاصة. فذلك الازدهار في المدن الرومانية قد عمل على الانتعاش التجاري في المنطقة، إلا أن ذلك كان سبباً لخلق أزمات كبيرة في الجزيرة العربية، ذلك أنه بمجيء الرومان إلى الشام ومصر نشأت أطماعهم في الاستيلاء على الطرق والتجارة البرية في الجزيرة العربية الموصلة إلى الهند، فقام الرومان بحملتهم الفاشلة ضد اليمن، وعلى الرغم من فشل الحملة وتراجع الجيوش العسكرية، إلا أن آثارها السلبية التي تركتها على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في اليمن كانت كبيرة للغاية، إذ أنه نتيجة للضعف الذي أصاب السلطة المركزية في سبأ الذي سببه الغزو الروماني، قامت الزعامات القبلية الإقطاعية بتحركاتها لدى كل الدول المستقلة.

لقد نشأ فراغ أمني كبير في كل أنحاء اليمن نتيجة للغزو الروماني، مما دفع اتحاد قبلي ناشئ لقبيلة حمير إلى احتلال سبأ، واحتلال سبأ كان دائما هدف الطامعين على السلطة من قادة القبائل، فأطلق على الدولة الجديدة مسمى "مملكة سبأ وريدان"، ومن وقتها دارت الحروب الطاحنة بين القبائل اليمنية في صورة أعنف من ذي قبل للوصول إلى السلطة والحكم، كما سيأتي الحديث عنها في فصل آخر.

أما بالنسبة لمملكة حضرموت، فإنه كما كانت التجارة سبباً في صعود مملكة **قبائل** حضرموت، فإن الظروف التجارية الخارجية والظروف الداخلية كانت عاملاً في انتهاء هذه المملكة أيضاً، لقد كانت مساكن **قبائل حمير** إذ ذاك تجاور أراضي حضرموت، فصار الحميريون خطراً على حضرموت، وخاصة بعد أن ضعفت المملكة المركزية سبأ، نتيجة التدخل الحبشي، وضعف التجارة في القرنين الثالث والرابع الميلاديين بانتشار المسيحية، ونتيجة للظروف السياسية التي كانت قد مرت بها الإمبراطورية الرومانية بانقسامها إلى إمبراطورية رومانية غربية وإمبراطورية رومانية

شرقية (بيزنطية) مما أثر بالتالي على التجارة العربية مع الهند وإفريقيا. فتلك الأزمات السياسية والاقتصادية تركت أثرها الكبير على المجتمعات العربية التي كان عماد حياتها الاقتصادية قائماً على التجارة وطرقها التجارية البرية والبحرية وكان كل منهما يؤثر في الآخر.

لقد كانت الأوضاع السياسية والأمنية مضطربة للغاية نتيجة لتغير التحالفات القبلية، وخاصة وأنها قد استعانت بدول خارجية مجاورة للقضاء على خصومها من الدول اليمنية الأخرى. فالتحالفات القبلية واستعانتها بقوى خارجية، جاءت حيناً لمساعدة قبيلة على أخرى، وجاءت مرات بغطاء ديني، دخلت فيه حرباً مع أصحاب ديانة أخرى.

كل هذه الحروب والفتن جعلت أعداداً غفيرة من بطون قبائل اليمن، ومنها بطون قبائل الأزد، بالنزوح إلى غرب وشمال وشرق الجزيرة العربية. وأنه نتيجة لفقدان الأمن في الأراضي اليمنية، انتقل النشاط التجاري العربي إلى مدن في شمال اليمن كانت محطات للقوافل العابرة اليمنية وتكونت فيها ممالك مدن كونتها قبائل أخرى متحالفة، مثل مدينة الطائف ومكة المكرمة ويثرب (المدينة المنورة) وذلك اعتباراً من منتصف القرن الرابع الميلادي، الذي كان قد مثل عصر ضعف وانتهاء أكثر الممالك اليمنية.

في الفصل القادم سنتناول موضوع القبيلة العربية، وفي الفصل الذي يليه سنكمل حديثنا عن الممالك اليمنية في عصرها التالي للقرن الرابع الميلادي، والذي انفردت فيه المملكة الحميرية بالدور الذي دخلت في نهايته حروب دينية مع الأحباش المدعومين من الإمبراطورية البيزنطية ذات الأطماع السياسية والدينية في جنوب الجزيرة، واستدعاء الحميريين للفرس لمساعدتهم في إخراج الأحباش من الأراضي اليمنية، ثم صراعهم مع الفرس، واستمر هذا الصراع حتى فجر الدعوة المحمدية.

وما يثير الاستغراب هو أن الاستعمار البريطاني في جنوب اليمن كان قد عمل منذ القرن التاسع عشر الميلادي على إحياء القبلية، مستعينا بتاريخها القديم جدا، فأسست إمارات ومشيخات وسلطنات في كثير من وديان وأراضي الممالك اليمنية الجنوبية على أساس تلك الممالك و القبائل القديمة، سنشير إلى ذلك فيما بعد .

وننهي فقرات هذا الفصل، بحوارنا مع الشباب العربي، ذلك أن على الشباب العربي، في مشرقه ومغربه، وعلى وجه الخصوص شباب الجزيرة العربية، عليهم جميعا القيام بواجبهم في البناء والتنمية في **أرض** اليمن السعيد بإعادة إصلاح وبناء السدود القديمة، وبناء وإصلاح المواني القديمة، وإعادة تأهيل الموانئ التي كانت قائمة فيها أعمال بناء وإصلاح السفن، هذا النشاط الذي كان مزدهرا في هذه المنطقة، وعليهم استغلال الموارد الطبيعية المتوافرة من زراعة وتعدين ومناجم واستغلال الجزر العديدة سياحياً واقتصادياً وغيرها وغيرها، وذلك كله إحياء لما كان قد سبقنا إلى فعله الأجداد. ولا يستطيع الشباب العربي القيام بذلك إلا بالسعي والدعوة إلى توفير التمويل للمشروعات الكبيرة؛ مشاريع الطرق، ومشاريع المياه والري؛ فالنهضة في وطننا العربي مصاحبة إليها توفير قطرات المياه من المصادر الممكنة كافة، وأن هذا الجهد الشاق لن يقوم به سوى الشباب، ليعيدوا جريان الحياة للوديان التي كانت الممالك اليمنية قد بنت فيها حضارتها، ولكنها هذه المرة ستبنى بعلوم متطورة وتكنولوجيا حديثة، ولو بتحلية مياه البحر أو عن طريق إسقاط الأمطار الاصطناعية .

الفصل السادس

القبيلة العربية بين بدو وحضر

لا نكاد ننتهي من قراءة الفصل السابق، حتى تثور في أذهاننا تساؤلات عديدة عن الدور الذي قامت به الأنظمة القبلية في الممالك اليمنية القديمة؛ من حروب دارت بين فئاتها القبلية المختلفة، أدت إلى تمزيق كياناتها السياسية المتعددة القائمة على التحالفات القبلية المؤقتة، فضربت بذلك معاولها في هدم الحضارة التي بناها شعبها النشيط في عمله وعلمه ومعرفته، وهو الذي قام بواجبه الحضاري في تحديه واستفادته من الظروف القديمة المتاحة له؛ بيئياً وجغرافياً واقتصادياً وسياسياً.

* فموضوع **السلطة** العربية و**المجتمع** قائمة أزمتها منذ زمن قديم، فقيادات سلطات النظام القبلي قد أدت بنظامها إلى خلق الصراعات الدموية والحروب التي نشبت بين **القبائل/ الدول** اليمنية، فقضت على ما أنجزته القطاعات الاجتماعية.

فحكاية أنظمتنا قديمها مماثل في جوهرها لحالتنا الحديثة، أنظمة حكم قبلية أوصلتنا إلى هذه الحالة الحضارية المتأخرة والمتخلفة، فهذا هو الذي يدعونا إلى التساؤل عن الأسباب التي تجعل من المؤسسة القبلية القديمة والحديثة تفشل في عملية استمرار تحقيق الوحدة والتقدم الحضاري

لمجتمعاتنا العربية! ويبرز تساؤل آخر، حول الوسائل والأدوات التي تساعدنا على تحقيق أنظمة سياسية عربية تخرجنا مما نعانيه ؟!

ولنا في هذا الشأن أن نقتدي بما ساقه لنا العلامة والفيلسوف العربي عبد الرحمن بن خلدون من أفكار استخلصها من حوادث تاريخنا العربي، التي قدمها وشرحها في مؤلفه العظيم: "**كتاب** العبر **وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**" .

وما يدعونا إلى هذه الإشارة هو أن هذا العلامة الجليل الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي كان قد وضع هذا السفر القيّم "**كتاب العبر**.." ليوضح فيه خلاصة أبحاثه وعلومه التي هدف من وضعها ليصل من خلال أبحاثه إلى إجابة تختصر أزمة السلطات العربية الإسلامية ومجتمعاتها، فسؤاله الأساسي يكاد إيجازه في التالي: لماذا انهارت الحضارة العربية الإسلامية في الوقت الذي بلغت فيه تلك الحضارة أوج مجدها وعظمتها؟

لقد أرجعت دراسات وتأملات وأبحاث صاحب المقدمة، العلامة ابن خلدون، أسباب انهيار الحضارة العربية الإسلامية إلى: **العصبية** القبلية أي (مجتمعها بمعانيها المختلفة عنده)، وإلى **الفساد** في ممارسة الحكم، وإلى **العقيدة** سماها (اتفاق الأهواء) في العصبية القبلية، فتحليلات صاحب المقدمة وأبحاثه أوصلته إلى الأسباب التي أدت إلى انهيار الصرح الحضاري الذي بني خلال عقود طويلة من الجهد والعمل الشاق، الذي بذله العرب المسلمون أثناء تواجدهم في الأندلس، فالسلطات القبلية التي حكمت في الأندلس أو التي حكمت في المشرق العربي والمغرب العربي، كلها قد هدمت ما تم بناؤه من جهد حضاري، والمسئول عنه: المجتمع (المجتمع بمعانيه المختلفة عنده من بينها العصبية القبلية)، والفساد في الحكم، وإيديولوجيا؛ عقيدة وفكر إدارة الحكم (اتفاق الأهواء)، ذلك هو مصير النظام القبلي في الحكم؛ **فساد** في المجتمع، و**فساد** في الحكم، و**فساد** في عقيدة الحكم.

وأنه بهذا التصور والتحليل يكون العلامة بن خلدون قد كتب شهادته المبكرة عن أوضاعنا العربية منذ العصر الوسيط، وقدم لنا النصيحة والعظة والموعظة من خلال نظرة ثاقبة للمستقبل، مستعيناً فيها بدراسته للأحداث التي مرت بها الأنظمة العربية، فقد كان هدفه من دراساته الوصول إلى وحدة العرب وتضامنهم وعدم تفرقهم.

وعلى هذا الأساس فإن النصيحة والعبرة والعمل هو ما نحتاج إليه اليوم،لعلها تساعدنا في الوقوف على الأسباب التي أدت إلى تراجعنا الحضاري،وتساعد شباب الأمة لتسلمهم زمام المبادرة في قيامهم بواجبهم بتحديهم للظروف الحالية المحيطة وبنائهم للنهضة الحضارية العربية المرجوة.

وأنه في سبيل حصولنا على العبرة والموعظة مما حدث لمجتمعاتنا في الماضي، فقد أصبح حق وواجب علينا أن نتبيّن من العلوم التي تركها لنا الأقدمون، عن إيجابيات وسلبيات المؤسسة القبلية العربية الماضية وما خلفته من آثار، مع أن تلك الآثار السلبية لا تزال تركتها ثقيلة على شؤون حياتنا الحاضرة، فعلينا إذن أن نأخذ العبرة من تلك الأحداث لنتجنب الأخطاء الماضية التي ارتكبتها تلك الأنظمة.

فواجبنا الوطني والثقافي والعلمي يقتضي منا الدراسة المتأنية من كافة جوانبها عن القبلية، وبالذات التعرف على الأخطاء وما تركته من تأثيراتها علينا، في كل ما له صلة بشؤوننا الحاضرة، حتى يمكننا وضع قواعد سليمة للعلاقة بين **الأنظمة السياسية** العربية الحالية ذات الأفكار والعقيدة القبلية، بينها، وبين **المجتمع** الذي فرض عليه العيش في ظل تأثيرات حكمها القبلي، فعليه أن يناضل من أجل الخروج من ذلك إلى عالم الحداثة والتقدم الحضاري.

من أجل ذلك أصبح من واجبات تنظيمات قوى المجتمع المدني قيادة الكفاح للوصول إلى بناء مجتمع جديد قائم على الحداثة في الحكم تخرجه من أخطاء أنظمة حكمه ذات العقيدة الماضية (اتفاق أو اختلاف الأهواء)، لأنه عند تناول الإرث والتراث في شأن أزمة القبيلة العربية فإن هذا لا يعبر عن الماضي وحده،بل هو في حقيقته تعبير عن الحاضر بكل تفاصيله.

قوة وهيمنة القبيلة العربية اليوم :

فقيادة الكفاح من أجل الوصول إلى مجتمع الحداثة أمر واجب، على الرغم من إدراكنا لحقيقة القوة والهيمنة التي تتمتع بها القبيلة العربية اليوم، وذلك لأن القبيلة/ العشيرة/ العائلة/ المنطقة/ تضاف إليها كتل من طبقات رأسمالية برجوازية مستحدثة، هذه المجموعة المركبة، هي في يومنا هذا لديها زعامات، وأن هذه الزعامات تمتلك في يدها القوة والجبروت، لكونها؛ تمتلك قوى اقتصادية وسياسية وعسكرية واجتماعية، تتمثل في ما تملكه من أملاك عقارية ورأسمالية واستثمارية في مجالات واسعة داخل البلاد، كما أن لها امتدادات استثمارية مماثلة خارجية، قد تكون أكبر وأوسع مما عليه في داخل البلاد، وأن هذه منتشرة في أنحاء مختلفة من المعمورة.

هذه القوة والهيمنة الاقتصادية القبلية/ الطبقية المستحدثة المركبة، قد مكنتها في الداخل من أن تمتلك في الناحية السياسية تحالفات وولاءات تتبدل وتتغير وفقا لمصالحها الوقتية، تتحكم بها في مفاصل الدولة والحكم **كافة** بل في المجتمع أيضا، فهي في الواقع بمثابة قوة الحزب الواحد، في الوقت الذي ممنوع فيه قيام الأحزاب! فهذه القوى القبلية/ الرأسمالية المركبة في مجتمعاتنا إلى جانب ما ذكر من تملكها لقوة اقتصادية وسياسية، فهي أيضاً؛ تمتلك ثقافة تقليدية قبلية لا تعادلها أي ثقافة أخرى، عقيدة (اتفاق الأهواء) كما سماها ابن خلدون.

فالقبيلة/ العشيرة/ العائلة/ الفئة/ المنطقة/ الطبقة وهي في تلك الصورة المركبة دائما، هي إمبراطورية: عقارية/ مالية/ تجارية/ صناعية/ ثقافية/ دينية/ سياسية..الخ. وعلى هذا النحو، فإن القبيلة العربية بكافة صور مؤثراتها، تعيش بيننا، وكأننا لا نزال في عصر مملكة سبأ القديمة، مع أننا جميعا نعيش في العقد الأول من الألفية الثالثة لميلاد المسيح، العصر الذي خطت فيه البشرية خطوات هائلة في العلوم والتقدم الإنساني في كافة المجالات التي لم تشهد لها البشرية مثيلا من قبل.

وقد يسأل سائلنا، إذا كانت للقبيلة/ السلطة كل ذلك الجبروت والهيمنة والقوة والنفوذ، مع أنها تمثل فئة وطبقة واحدة من المجتمع، فما الذي بقي للمجتمع؟! وإذا أضفنا إلى ذلك أن القبيلة/ السلطة لا تمكن المرأة من حقوقها، أي أن نصف المجتمع مهمش ومعزول، فعندها نعرف أنه لم يبق في ساحة المجتمع سوى لاعب وحيد وقوة منفردة هي السلطة وحدها فقط، من هنا نفهم الخلل الناشئ بين السلطة العربية ومجتمعها.

وأنه على الرغم مما بيناه من القوة والهيمنة التي تتمتع بها مؤسسة القبلية/ السلطة/ الدولة بيننا، إلا أننا نعتقد أن الأنظمة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هي من صنع ووضع البشر، ومنها النظام القبلي، وبناء عليه نعتقد أيضاً، أن أي نظام مصنوع في حاجة مستمرة إلى ترميم وإلى تجديد، وأحيانا إلى هدم وإعادة بناء، وذلك وفقا لحكم التطور والارتقاء البشري الذي لاحظه ابن خلدون، فالتطور والتغيير هما سمة الطبيعة البشرية وأساس استمرارها، لأن الإصلاح والتغيير هدفه خدمة الإنسان والمجتمع للوصول إلى الحياة الأفضل من خلال المجتمع الحديث والسلطة الحاكمة الحديثة، ووفقا لهذا الواقع العلمي فإن على الأنظمة القبلية أن **تتغير** أيضاً.

نقول ذلك لأنه من واجبنا أن نستفيد من **العبر** للوصول إلى مستوى متقدم لمجتمعاتنا، إلا أنه لن نصل إلى التقدم إلا أن يبدأ التغيير أولا في ذهنية

وعقيدة السلطات الحاكمة المتخذة للنظام القبلي عقيدة ثابتة لها، ويبدأ الإقرار من جانبها أن النظام القبلي هو نظام متأخر لا يتمشى ولا يلبي متطلبات العصر الحديث .

وفي الوقت ذاته، فإنه من حق شبابنا أن يطرحوا تساؤلاتهم ويبحثوا عن الإجابات الصحيحة التي توصلهم لبناء مجتمع إنساني متقدم قائم على وحدة المواطنة في الحقوق والواجبات ووحدة النسيج الاجتماعي والسياسي الوطني، وليس بمجتمع القبيلة القائم على الولاءات القبيلية وعصبيتها وقوة غلبتها وشوكتها.

وعلى هذا الأساس أصبح من حق العربي أن يسأل: لماذا تعود القبيلة العربية إلينا اليوم بهذه القوة وبهذه الحدة؟ بل أن ما نلاحظه هو أن القبيلة تعود إلينا الآن في صورة غير معهودة من قبل حتى لسنوات مضت، فبروزها المدهش هذا على المسرح السياسي والثقافي قد ترك تأثيره ليس على نظام السلطة السياسية فقط وإنما امتد أثره إلى النواحي الاجتماعية بكل تفاصيلها، والنواحي الاقتصادية والثقافية والتعليمية والسياسية، حتى أن المواطن في هذه المجتمعات العربية بات يعيش في نظام ومجتمع القبيلة كأنه في البادية، وليس في نظام ومجتمع الحضارة والدولة والمدينة الحديثة، رغم المظاهر والبهرجة الفاقعة للدولة الحديثة.

فما الذي حدث؟ وما هي العوامل والأسباب الباعثة على حضور القبيلة واستمرارها حتى اليوم؟ مع أن نظام حكم القبيلة قد أثبت فشله منذ زمن بعيد، فهو غير مقبول حاليا لكونه نظام حكم عتيق يقوم على رابطة الدم وصلة الرحم، ويستثني باقي المواطنين من أفراد المجتمع الذين ليسوا من هذه الأصلاب العرقية والعائلية؟ في حين أن المجتمعات الإنسانية هي الآن في عصر الحقوق المتساوية للمواطنين بغض النظر عن قبيلتهم ومذهبهم الديني

أو السياسي! إن العرب اليوم هم في زمن تفاقمت فيه الحداثة التي تنفي كافة الأفكار القبلية الضيقة، التي تعطل بناء الوحدة بين أقطاره وتعطل الوحدة العربية؟

ثم كيف نفهم اليوم ما يحدث في أرض العرب؟ في العراق المحتل مثلاً، يدعي الإمبرياليون وهم الذين يقتلون ويدمرون وينتهكون أعراضاً وقوانين إنسانية ودولية يقومون بكل تلك الأفعال، بدعوى نشر الديموقراطية؟ إلا أن الحقيقة المؤلمة، قد ظهرت جلية، أنهم قد قاموا بتلك الأعمال المخالفة للأعراف الدولية بناء على خطط منهجية مبرمجة (**تكتيكياً** واستراتيجياً) ومدروسة بصورة مسبقة من جانب مؤسساتهم الإمبريالية التي تهدف إلى إعادة وإحياء النظام القبلي القديم المتخلف الذي هو امتداد للحماية الاستعمارية؟. ولنا أمثلة أخرى في السودان والصومال والمغرب العربي وفي كل بقعة في الوطن الكبير، فالدعوة الأجنبية إذن هي لعودة القبيلة الإثنية، وعودة الطائفية/ العشائرية البغيضة، والعائلية/ المناطقية المتخلفة. إنها لعودة إلى الوراء، إنها لعودة إلى النظام القبلي في صورته البشعة والمحزنة .

فتت الأرض، فتلاها تفتيت المجتمعات:

لهذا نجد أنه بعد ما يقرب من القرن من الزمن على نشوء الحكومة/ الدولة العربية في أقطارنا التي كانت قد جزئت، فإن خططاً استعمارية أخرى تعمل الآن على تجزئة ما تمت تجزئته من قبل، وذلك عن طريق بعث الروح القبلية والطائفية والعرقية...**إلخ**. فعملها الآن هو القيام بتفتيت **المجتمعات**، بعد أن فتت الارض منذ قرن، بحيث لا يصبح في المحصلة للعربي لا أرض ولا مجتمع يستطيع أن تتوكأ عليهما في بناء نهضته الموحدة؛ الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والثقافية، التي تمكنه من التحدي والوقوف في وجه المخططات الصهيونية والإمبريالية التوسعية.

فالأوضاع السيئة التي وصلت إليها حالتنا العربية لا يجب إلقاء اللوم فيها فقط على الغريب، إنما الأمر راجع في أساسه إلى أنظمتنا الحاكمة التي لا تزال تعيش على **أيديولوجيا** النظام القبلي القديم. وبما أن شبابنا الذي يعمل جاهداً على خلق تنمية إنسانية فكرية ثقافية تعمل على بناء وحدته، فقد **اهتم** بتلك الأحداث التي دعته على طرح السؤال تلو السؤال عن الأسس التي قامت عليها القبيلة؟ وكيف صار لمجتمع القبيلة كل هذا النفوذ؟ ولماذا لها كل هذا التأثير في مجتمعاتنا العربية حتى يومنا هذا؟ أو ليست أوضاع التمزق والتفرقة التي غرستها القبائل اليمنية القديمة في مجتمعاتها هي نفس الأوضاع السيئة التي تركتها وتتركها لنا القبائل الحاكمة الجديدة في الوطن العربي كله؟ وأنه بعد الحدود الدنيا التي وصلت إليها أحوالنا العربية من التدني الحضاري؛ العلمي والتقني، ومن التأخر الفكري والمعرفي، هل من الجائز أن يعيش بيننا النظام القبلي العشائري، ونحن نمر في ظل هذا التقدم التكنولوجي الهائل الذي غمر أجزاء كبيرة من المعمورة؟ وهل من المعقول أن تستمر أنظمتنا القبلية في إجبار مجتمعاتها على الأخذ بنظامها التقليدي القديم، في الوقت الذي نحن نعيش فيه التطور العظيم الذي صاحب بناء المجتمعات البشرية الحديثة وأنظمتها المبنية على الديموقراطية البرلمانية، وتداول السلطة الدستورية، وعلى حقوق المرأة وحقوق الإنسان؟

فالأسئلة لا حصر لها حول دور القبيلة العربية وتأثيرها على الفكر العربي والحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الحديثة، فموضوعنا ينصب في مجرى الحديث عن **الأنظمة والمجتمعات** القبلية العربية، متناولين بعضاً من قديمها وشيء عن حديثها.

وكما هو واضح فإن الموضوع الذي نحن بصدده، وهو القبيلة العربية وأثرها في حياتنا، هو موضوع متشعبة جوانبه، إلا أننا سنكتفي بعرض سريع لمشهد من مشاهد القبيلة، نقوم فيه بزيارة (لمتحف) القبيلة العربية

و(لمعرضها)، والهدف منه محاولة لتقريب الصورة واختصارها، في عرض للمشهد مكون من ثلاث صور، من مراحل تاريخنا العربي وهي: صورة القبيلة العربية القديمة، ثم صورتها في القرن الرابع عشر الميلادي، في العصر الوسيط الذي هو عصر ابن خلدون، أما الصورة الثالثة فهي عن القبيلة في عصر الاستعمار الغربي وعهد الدولة الوطنية، والمشهد الأخير سبق التطرق لكثير من جوانبه.

* أولا: صورة القبيلة العربية القديمة :

نحاول قدر المستطاع اختصار هذا الموضوع لكونه متشعب الجوانب فنختصره في البنود التالية:

1. مجتمع الحضر ومجتمع البدو:

أرض شبه الجزيرة العربية تمثل كائناً ضخماً في تكوينها **الطبيعي والجغرافي**، وقد مر بنا ذكر لبعض من نواحي ذلك التكوين الطبيعي الضخم من أراض شاسعة متنوعة التضاريس، فهذا التكوين الطبيعي قد ترك **آثاره** على حياة الإنسان فيها، وبالمثل فإن موقعها الجغرافي قد أدى دوره المهم أيضاً، في تشكيله لنوعية النشاط البشري الحياتي للمقيمين على أرضها، من هنا يمكننا القول أن طبيعة وجغرافية شبه الجزيرة العربية قد طبعتا الجوانب الحياتية القديمة لشعب الجزيرة **كافة** من نواحيها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتاريخية وخلافه.

ولقد وجدنا مما مر بنا أيضاً، أن الإنسان على هذه الأرض، عاش بداية على ما تنبته أرضه من خيرات بارزة من زراعة ومرعى، ومما ينتجه البحر على شواطئه، فمن اليابسة والبحر تكوّن اقتصاده القديم الذي أقام عليه أود حياته وشكل طبيعة مجتمعه الذي صار يتلاءم ويتكيف مع ضرورة ومتطلبات ظروفه البيئية.

فطبيعة التربة والمناخ كونت مجتمع شعب الجزيرة القديم، الذي **انقسم** نشاطه فيها **إلى** قسمين: سمي أحدهما **مجتمع الحضر** والآخر **مجتمع البدو،** ويسميان أيضاً: مجتمع المدر ومجتمع الوبر، أو غير تلك من المسميات المشتقة من طبيعة أرضه وظروفه الحياتية المرتبطة بكيانه الاقتصادي الذي هو مصدر عيشه على بساط هذه الأرض.

2. العشيرة/القبيلة:

فالترحال والتنقل هو ما جبل واعتاد عليه الإنسان في الجزيرة العربية منذ القدم، والذي تكوّن على أساسه مجتمعه الإنساني، وذلك بأن تقوم كل عائلة عربية بتملكها لخيمة أو أكثر، فتتكون من مجموعة هذه الخيام مضارب للعائلة، ومن مجموع ساكني المضارب والخيام، تتشكل المجموعة العائلية، التي منها **العشيرة** وهي بنو الأب وأقربائه. أما **القبيلة** فإن مجتمعها تكونه **مجموع** العشائر المتقاربة **نسباً** ومصاهرة، وليس بالضرورة تقاربها مسافة، وذلك لأن القبائل في البادية بطونها وعشيرتها لا تعيش في كتل مجتمعية بشرية، وإنما هي في الغالب تعيش متفرقة في مناطق واسعة متنقلة بحثاً عن الماء والرزق، وكما لاحظنا فإن رؤساء العشيرة والقبيلة يعيشون في المدن متى ما توافر لهم سبيل لذلك.

3. غنائم الغزو والحرب :

ولكن ما تحصل عليه القبيلة من غنى وثروة لا يجعلها في مأمن من المخاطر، لأن الغزو والحرب لدى بعض القبائل هي وسيلتهم في جمع الثروة ممن قد اغتنوا وأثروا وبالذات من ساكني الحضر، فالرعي أو الزراعة لا يحققان للقبائل الثروة والغنى وجمع المال، وإنما يتم الحصول على المال عن طريق التجارة والضرائب المفروضة على التجارة العابرة، وإذا لم تتوافر لأفراد القبيلة تلك الموارد تلجأ للغزو والسلب، فيحصل كل

فرد منهم على نصيبه من **غنائم الغزو** المسلوبة **من** الطرف المهزوم، رغم ما يصاحب الغزوات والحروب بين الجانبين من قتل ودمار.

وأنه بهذه المناسبة، ومن الناحية التاريخية، فإن مجتمعات الشواطئ المقابلة للجزيرة العربية في جهتيها الشرقية والغربية، هي أيضاً قائمة على النظام القبلي/ العشائري/ المناطقي. فالشواطئ الإيرانية المقابلة لشرق الجزيرة العربية، والشواطئ الإفريقية المواجهة لغربها لا تزال جميعها تعيش حياة الأنظمة التقليدية القبلية القديمة. فنظام القبيلة في الجزيرة العربية شمالها وجنوبها قد وجد له من يسنده ويشد في عضده من الشواطئ القريبة والبعيدة المجاورة لها، يمدها بالحياة والدعم البشري والمعنوي. وبما أن الجزيرة العربية هي القدوة التاريخية في هذا المجال، فإن العرب جميعا من المحيط إلى الخليج يتبعون النظام :القبلي/ العشائري/ المناطقي..الخ، الذي يشكلون منه أنظمة حكمهم، ويدفعون بمجتمعاتهم للتكيف مع هذه الأنظمة والقبول بها كقدر محتوم.

* 4. ثنائية الحضري و البدوي:

وعودة إلى الفقرة أعلاه، **فمجتمع الحضر** هم ساكنو المدن والقرى والأرياف، وهم عادة مقيمون في مساكنهم، قليلو السفر أو تغيير مساكنهم،أما كيانهم الاقتصادي فهو زراعي/ تجاري، بينما **مجتمع البدو** هم أهل **البادية** الذين يعيشون حيث ما **يتوافر من** الماء والمرعى، وكيانهم الاقتصادي عماده خصب التربة وتوافر العشب والماء، ويغلب على أهلها التنقل والترحال حتى يصلوا إلى الماء والكلأ. وعلى ذلك، فإن الحضر هم ساكنو البيوت **المبنية (المدر)** التي تعبر عن استقرارهم وإقامتهم في **المدن والأرياف**، أما البدو فهم الذين مساكنهم من خيام مصنوعة **من (وبر) الجمال**، ويدل ذلك على تنقل مساكنهم وحملها معهم أينما رحلوا وحلوا.

* ويفيدنا معجم اللغة العربية عن معاني **البادية** التي هي مؤنث البادي، أي الظاهر وأن البادية هي فضاء واسع فيه المرعى والماء، أما **البداوة** فهي **الحياة** في البادية، ويغلب عليها حط الرحال حيث يتوافر الكلأ والماء، و**البدو هم أهل البادية** أما الحضر فهم ساكنو المدن والقرى والأرياف.

إلا أن **ثنائية** البدوي والحضري ليست ثابتة وإنما هي متغيرة حسب الزمان والمكان، فالحضري عندما يأتي فصل الربيع ويخضر عشب الصحراء، وتنبت فيها بعض البقول والحبوب، نجد أن الحضري ينتقل إلى خيمته في الصحراء يرعى فيها ماشيته التي يعيش على لحمها وألبانها، والبدوي ينتقل إلى مراكز الحضر في فصول وظروف أخرى؛ كالتجارة وأحيانا للإغارة والغزو، أو الدخول في حرب إذا انتصر فيها تصبح **الغلبة** فيها للبدوي، ويصبح هو صاحب الشوكة والدولة والحكم.

وبذلك فإن العربي وهو منذ زمنه البعيد يعيش في مجتمعه هذه الثنائية والازدواجية؛ في حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وتظهر هذه الثنائية المزدوجة بوضوح في الممالك اليمنية القديمة التي تحدثنا عنها فهي ممالك قامت في المدن، من واقع **مجتمعات أساس تكوينها قبلي،** فكونت **أنظمة حكم** قبلية، وأصبحت القبيلة ذات ملك وسلطان وحكم وجاه، فغدا وضعها الطبقي الاجتماعي يعبر عن برجوازية ارستقراطية إقطاعية مالكة للأرض، هذا الوضع الاجتماعي المذكور الذي ظهر في المدن جعل من القبيلة الحاكمة ضمن أهل الحضر، مع أنها تمثل الشق الآخر من تكوين تلك القبائل المتحضرة، وهي البادية.

وبما أن النظام القبلي هو تعبير عن وحدة اجتماعية واحدة، لا يستقيم مفهومها إلا بالجانب الآخر من بقية النظام وهو (البداوة)، فالبادية هي أصل مكان القبيلة ــ منذ المشاعية ومنذ النظام العبودي القديم ــ والبدو هم أصل

السكان الذين يشكلون النسبة الغالبة من سكان الجزيرة العربية، فأصبح نظام الممالك اليمنية الحضرية **مكوناً** من عنصر مزدوج الحضارة مع البداوة، بل هما متلاحمان معها وليس لأحدهما حياة بدون الآخر، فما رأيناه من حضارة يمنية عمودها الفقري النظام القبلي، وعنصراها هما العيش في الحضر والعيش في البادية، وكل منهما يكمل الآخر في حياة السكان ونشاطهم المعيشي الاقتصادي، حتى أن مدنهم الرئيسية واقعة على أطراف الصحراء.

فكيان معيشة القبيلة في عنصريها الحضري والبدوي قائم على ما **تنتجه الأرض** وعلى الظروف **البيئية المحيطة**، فحياة القبيلة الاقتصادي يعتمد على ما تقدمه لهم الأرض من خيراتها، الحضري والبدوي عماد حياته ما تغله وتنتجه أرضه، ولهذا فإن صراع الحياة في الجزيرة العربية مصدره الأرض المعتمدة على الظروف الطبيعية، وما تنتجه لأهلها المقيمين عليها، سواء كانت القبيلة زارعة أم راعية.

ولا نعجب إذا رأينا أنظمتنا العربية الراهنة أن أساس نشأتها جاءت معبرة أصدق تعبير عن نظام القبيلة القديم الذي كان قد تشكل في المجتمع الحضري في المدن القديمة نتيجة للصراع على الأرض، إذ كانت القبيلة **بغلبتها بالحرب** على القبيلة المهزومة زارعة أو راعية، شكلت القبيلة الغالبة الدولة الحاكمة المسيطرة بمساندة ومعاضدة أعضاء قبيلتها، كما رأينا في ممالك اليمن.

ففي كلا الحالتين، القديم منها والحديث فإن مجتمع القبيلة مثله مثل أي مجتمع آخر يتكون من طبقات اجتماعية متفاوتة؛ برجوازية وفقراء في المدن، وإقطاعية وعبودية (قديماً) في الأرياف، أما طبقة البدو فهي تشكل الطبقة الشعبية التي تستخدم وقودا للحروب والغزو والعمل الشاق، فهم الطبقة المكافحة والمضطهدة، فهي تصارع دائماً من أجل حقوقها، وهذا سبب ثوراتها في كل الأزمان.

5. الوراثة:

كما أن مجتمع القبيلة ودولتها، قديمها وحديثها، هي مثل المجتمعات الأخرى؛ الأسرية الإثنية والدكتاتورية، التي قد يحالفها النجاح في فترة زمنية وفي ظروف معينة، من قبل وارث فرد حسن السيرة والسلوك، يقوم بتهيئة الظروف التي تساعد على تقدم وازدهار في المجتمع (أشغال عامة وخدمات، وثقافة وغيرها)، فتستجيب لذلك طبقات الشعب المختلفة التي تعمل على إنجاحه بمقدار ما تتوافر لها من حرية وعدالة واستقرار وأمان. لكن هذا التقدم الحضاري سرعان ما ينهار إذا توفى ذلك الحاكم أو قتل أو غير ذلك، فالمسألة كلها مرتبطة بشخص جاء بالوراثة، فقد يكون وريثاً حسناً يعمل على بناء المجتمع، أو قد يكون سيئاً أو صغير السن أو قليل الثقافة أو حتى مختلاً عقلياً، فعندها يتهدم ما سبق بناؤه.

فنظام الوراثة في النظام القبلي العربي (وفي غيرها من الشعوب أيضاً) قد خلف مشاكل بل مآس للمجتمعات العربية عبر تاريخها الطويل، وعلى وجه الخصوص خلال التاريخ العربي الإسلامي، عندما تحولت الخلافة الراشدة، إلى حكم "ملكية وراثية"، وهذا ما استدعى بعضاً من المذاهب الإسلامية بعدم الأخذ بالوراثية، إنما أقرت مبدأ انتخاب الإمام الصالح للحكم.

فالعلة في النظام القبلي القديم والحديث أنه قائم على الوراثية، وعلى الغلبة والقهر، وعدم العدالة والمساواة بين أفراد المجتمع، وعدم وجود نظام و**قانون** **(دستور)** يحكم العلاقة بين السلطة والمجتمع؛ عدم وجود دستور تعني الفوضى والفساد، تلك الأسباب هي العلة في التخلف الحضاري العربي.

6. المؤسسة القبلية:

وتواصلاً مع ما سبق ذكره عن الحضري والبدوي فإن تحرك إنسان الجزيرة الحضري والبدوي كان في بداياته الأولى من نشاطه قد اتخذ

الرعي والزراعة وسيلة لحياته واتخذ **العمل التجاري** أيضاً. فإذا أخذنا بالجانب التجاري ـــ الذي هو ضمن موضوع هذا الكتاب ـــ نجد التجارة في حقيقتها وساطة تجارية، أو تبادل لمحاصيل أو أعمال مقايضة، قد جعل هذا النشاط، من البدوي متنقلاً – وهذه متفقة مع طبيعة حياته– فتنقله جعله متواجداً في أماكن مختلفة على الطرق التجارية الصحراوية البعيدة. لقد كانت الأماكن التي يمر أو يقيم بها إقامة مؤقتة أو دائمة، واقعة في وديان معشوشبة، أو في بوادي تكثر فيها عيون الماء والآبار، وتكون في الغالب واحات في وسط الصحراء، تطفئ عطش رواحل القوافل المسافرة، وتغذي بطونهم الخاوية، وتريح أجسادهم المنهوكة تعباً وسهداً من وعثاء السفر الشاق الطويل.

إن تلك المواطن البعيدة في الصحراء الشاسعة، تحتاج رواحل التجار والمقيمين بها إلى من يحميهم من غائلة الغزو والسبي والنهب والقتل، لقد أصبح عرفاً لدى أهل الصحراء أن الذي يحميهم ويؤمن حياتهم، ليس سلاحهم أو قوتهم الجسدية وحدها، وإنما هناك ما هو أهم من ذلك، هو جواز سفر غير مكتوب على ورق وقرطاس، يعرّف به راكب الناقة أو الجمل عن اسمه واسم عائلته ومحل إقامته، لمن يتواجد معهم في الصحراء. فمن يتواجد في فيافي الصحراء في حاجة إلى **نسب عائلته** المقيمة في الحضر أو التي قد اتخذت من البادية مقراً لعيشها ورزقها، وبما أن هذا الإعرابي البدوي في باديته وصحرائه ومدنه ينتسب إلى عائلة من أب وجد وأبناء عمومة، وجماعة متفرعة عن الجد الأول وأقارب له في النسب والمصاهرة منهم الأقربون ومنهم الأبعدون، فسمي هذا التجمع العائلي الواحد بـــ (قبيلة). **فالقبيلة جماعة من الناس تنتسب إلى أولئك جميعاً.**

فجواز سفر العربي (الإعرابي) في الصحراء هو اسم قبيلته التي ينتسب إليها، فالقبيلة هي الانتساب العائلي المرتبط بقرابة الدم والعرق، وقد اتسع معناها إلى أبعد من ذلك بكثير، فأصبحت القبيلة هي التي يرتبط بعض

أفرادها ببعض بنسب القرابة أو بالزواج والمصاهرة، وأن من يتفرع عن نسب الأم من الأحفاد سمي بطون القبيلة، ومن يتفرع من نسب الأب سمي أفخاذ القبيلة، وهناك أبدان القبيلة أيضاً...**إلخ**. وربما تنتسب إلى القبيلة جماعات تدين لها بالولاء أو جماعات تشكل معها **حلفاً** يزيد من قوة القبيلة إلى قوتها قوة، فاسم القبيلة بالنسبة للإعرابي في الصحراء هو جوازه المتمثل فيه صورة قوة وسلطة الحكم والنفوذ والسطوة والسلطان الذي تحوزه قبيلته. كما يحدث اليوم، لمن بحوزتهم جوازات سفر الدول العظمى!

فالإعرابي الذي يقود رواحله المحملة بالبضائع في الصحراء البعيدة المقفرة لا يشعر في هذه الصحراء بأنه فرع مقطوع من شجرة يابسة في الفيافي البعيدة؛ وحيداً لا سند له ولا معين، وأن من يعتدي على ماله أو روحه لا يوجد من يعاقبه على عدوانه هذا، كلا، فإن القبيلة التي ينتمي إليها تحقق له كل الحماية والأمان، بما تملكه من قوة السلطان في رد المعتدي ومعاقبته وأفراد قبيلته أيضاً، فالقبيلة التي ينتمي إليها الإعرابي وهو وحيد في قفار الصحراء، قوية مهيبة بعدد أفرادها، وبقوة وهمة وعزيمة مقاتليها الذين يذودون عن حياض القبيلة بسيوفهم ورماحهم وبمهج أرواحهم. ومضارب خيام الإعرابي وما يعيش عليها من عيون وآبار وزروع ومراعي وما يملك من جمال ومواشي وأمتعة، تمثل هذه عماد حياته الاقتصادية يرد عنها المعتدين مستعينا بقبيلته. صحيح أن الماء والكلأ مشاعان في البوادي وقفار الصحراء إلا أن ذلك مسموح به فقط بحيث لا يؤثر على الحياة الاقتصادية لأفراد القبيلة، وأي مس من أي طرف **بالحياة الاقتصادية** مصير ذلك الصراع والحرب بين القبائل.

فالقبيلة بهذه الصورة تمثل أسرة كبيرة تعبر عن **حياة اجتماعية** قوامها النسب أو التحالف مع غيرها – سواء منهم الحضر أو البدو– تمتد منتشرة ومتكاثرة حتى تغطي منطقة بكاملها، فتغدو بذلك قوة **اجتماعية/ عسكرية/ اقتصادية** يحسب لها حسابها في استماتتها في الدفاع عن مصالحها والدفاع

عن أي من أفراد القبيلة متى ما دعاهم لمناصرته **سواءاً** كان ظالماً أم مظلوماً، **فالثأر** والقصاص لمن يمس فرداً من أفراد القبيلة أو حقوقها بسوء، وهذا ما يجعل كل فرد من القبيلة يحمل (جوازاً) وهوية بطاقة شخصية القبيلة تثبت **انتماءه** إلى قبيلته، لأنها تمثل حمايته وسنده عند الحاجة إليها، وعزته وفخره.

والقبيلة ضمن هذا التجمع الاجتماعي العائلي، تتمثل فيها مؤسسة **لحكومة عائلية عشائرية**، وسنأتي على الجانب السياسي للتجمع القبلي في الفقرة التالية، إلا أنه يتضح لنا من ذلك، أن لهذه المؤسسة القبلية قوة **الحكومة**، وعناصر القوة فيها **بشرية/ اجتماعية** وقوة **سياسية/ عسكرية**.

والمؤسسة القبلية لكي تقوم بتحقيق المهام الملقاة على عاتقها تجاه أفرادها: الاجتماعية والسياسية والعسكرية، لا بد وأن تكون لها إدارة تعنى بواجبات شئون حياة القبيلة المتشعبة تلك، فهي في حاجة **إلى** أجهزة تدير **وتحكم**، وفي حاجة لتحقيق المصالح والروابط بين أفراد القبيلة الواحدة والغير. ولهذا السبب يقوم مجتمع القبيلة، بتعيين من يقوم على إدارة **الحكم فيها وهو** شيخ القبيلة (الشيخ هو السيد والقائد) **الذي ينتخب** من بين أفراد مجتمع الأسرة الكبيرة، على أن تجتمع في هذا الشيخ، **عراقة نسبه** أولاً وقبل كل شيء، ثم **الشجاعة** والحكمة وأن يكون مشهوداً له **بالصدق والأمانة**، ويضاف إليها الرأي السديد ورجاحة العقل، كما لاحظنا ذلك في ملكة سبأ.

وحيث **إن** الأمر قد وصل إلى حدود السلطان والحكم (الدولة) فالمجتمع القبلي عليه أن يحدد أفراد مجتمعه (رعيته)، الذين هم عونه في الحرب والسلم، **فيقوم** بالتعرف على قوة عددهم وأماكن إقامتهم في مضارب خيامهم في الصحراء أو في أماكن إقامتهم في المدن، وبما أن المجتمع القبلي قائم أساساً على قوة **القرابة** الدموية الأسرية العائلية، فإن وضعاً كهذا يحتاج لمن

في مقدوره أن يثبت لمجتمع القبيلة والقبائل الأخرى (فيما يشبه السجل المدني) من هم أفراد ذلك المجتمع القبلي.

وبناء على ذلك يقتضي إثبات الانتساب أولا إلى العلاقة الأبوية الأولى **للجد الأول** وما خلّفه من أبناء، وما ترك هؤلاء من أحفاد، في سلسلة طويلة من أسماء الأجداد وأجداد الأجداد وأحفادهم، حتى يثبت للقبيلة ولغيرها عزتها ومكانتها على الأرض التي تنتسب إليها.

وإنه للقيام بهذه المهمة في إثبات صلات وعلاقات أنساب القبائل، جاء دور من يقوم بذلك العمل،الذين هم النسابون و**الإخباريون** والباحثون في أنساب العائلات القبلية، فقام هؤلاء بزرع "**شجرة نسب**" لكل قبيلة أو لمجموعة من القبائل **لتقوية لحمتهم** التي هم في أمس الحاجة إليها، فحقوقهم الإنسانية بل حتى حياتهم الشخصية قائمة على هذا النسب، فأصبحت لهؤلاء النسابين الأهمية الكبرى في المجتمع القبلي.

وعلى أساس ذلك قامت العديد من المرجعيات التقليدية (تزرع) أشجاراً لأنساب القبائل العربية المختلفة، حتى كونوا منها (غابات) كثيفة، فكونوا لأنساب كل قبيلة فروعاً وأطرافاً وجذوعاً لها حتى تصل كل قبيلة في نسبها إلى جذورها ثم تربط جذور نسبها بسيدنا آدم (ع).

وأنه وفقاً لهذا التصور، فقد (غرسوا) شجرة لأنساب القبائل التي عاشت في اليمن وعُمان، مثلا، وأرجعوا نسبها إلى **قحطان** على اعتبار كونه هو الجد الأعلى للقبائل اليمنية بتفرعاتها في جنوب الجزيرة العربية، وسموهم "العرب العاربة"، و(غرسوا) شجرة نسب أخرى مقابلة للأولى تخص الشعوب والقبائل المنحدرة من الحجاز في شمال الجزيرة العربية، ونسبوها إلى "**عدنان**" فسموهم "العرب المستعربة"، ثم جعلوا السلسلتين الرئيسيتين من أنساب القبائل العربية القحطانية والعدنانية تلتقيان عند شجرة نسب الجدود المشتركة لكل منهما، وذلك دون أخذهم للأقوام البائدة.

وكما سيمر بنا عن القبائل في مكة وعن بناء البيت العتيق، فإن أنساب القبائل العربية كانوا قد ردوها إلى إسماعيل بن إبراهيم (ع) الذي تكلم العربية في مكة، فربطوا ذرية "عدنان" بنسب إسماعيل (ع) ثم ربطوا أنساب العرب القحطانية والعدنانية بإسماعيل بن إبراهيم (ع) أيضاً، تعظيماً وتكريماً.

ولسنا هنا في وارد موضوع أنساب أو أسماء القبائل العربية مضرية ويمنية أو غيرها، وما شكلوا من طبقات للقبائل وأنسابها، فهذا الأمر ليس ضمن سياق موضوعنا من ناحية، وليست لنا دراية وإلمام بموضوعاتها المتفرعة من جهة أخرى، إلا أنه في حدود قراءتنا بهذا الخصوص فإن الاهتمام الأكبر لموضوع أشجار نسب القبائل العربية قد جاءت في فترات زمنية متفاوتة، وقد جاء بعض منها في زمن متأخر، فرضتها ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية خاصة، كما يحدث اليوم. أما الإخباريون والنسابون وشجراتهم العديدة التي غرسوها (في غابة) الأنساب القديمة التي اعتمد عليها المؤرخون في وقتنا الراهن فقد جاءت منقولة عمن سبقهم، ويقال: إن بعض مصادرها القديمة جاءت متأثرة بشروحات لروايات توراتية عن أنبياء بني إسرائيل وأبنائهم وأحفادهم الذين تشكلت من كل منهم قبائل كثيرة وعديدة، مثلا أولاد يعقوب(ع) وعددهم 12 سبطاً أصبحوا بدورهم آباء **لاثنتي عشرة قبيلة** ترث أرض فلسطين، حسب زعمهم.

وفي كل الأحوال، **سواءاً** كانت تلك الأنساب، مصادرها صحيحة أم أنها غير ذلك، فالعرب قد آمنوا بها واعتنقوها، وأسسوا عليها بناء نظامهم القبلي، بعيداً عن كون ذلك فيه خير لهم أم فيه ضرر عليهم.

وسنرى لاحقاً ما فعلته السير والأنساب القبلية بعد ظهور الإسلام تأجيجها نيران الفتن الكثيرة،وكيف أن هذه الروح القبلية وعصبيتها قد قضت على الخلافة الراشدة الإسلامية.

وعلى أي من تلك الأحوال والأقوال، فإن الاكتشافات الأثرية التي استخدمت فيها التكنولوجيا الحديثة المتطورة، التي جمعت من خلالها دراسات متنوعة كثيرة، قد أكدت هذه أن آثار الوجود الإنساني في (القارة العربية) أي المشرق العربي ومنها شبه الجزيرة العربية، هي آثار تعود إلى عصور موغلة في القدم. وهي ليست كما أرجعها الإخباريون لمجرد سنين، فالنسابون والإخباريون لم يستطيعوا حصر تلك السنين وعدها، مما استدعى عدم أخذ طرح شجرة أنساب الإخباريين على علاتها دون تمحيص لمحتوياتها ومضمونها بدقة وتمعن.

ولكن ما هو ثابت هو أن القبائل في جنوبي الجزيرة، اليمن وعسير، وعمان، والبحرين، ومناطق أخرى من شبه الجزيرة العربية، كانت قد توزعت مهاجرة إلى الشمال والشرق والغرب طلبًا للتجارة أو الغزو والتوسع، فأقاموا في غربي الجزيرة وشرقها وشمالها مستعمرات كثيرة كانت محطات للقوافل، أقاموا بها نقاط حراسة ومراقبة، على طول الطريق التجارية، فهذه المحطات قد تواجدت بها وما حولها قبائل عربية مختلفة.

ولنا أن نأخذ في الحسبان، أن طبوغرافية topographic الجزيرة العربية (السمات السطحية لإقليم الجزيرة العربية) في عصورها القديمة كانت مختلفة في مناخها عما هي عليها الآن، إذ كانت مياهها ونباتاتها ومزروعاتها أكثر منها في وقتنا الراهن، مما أدى إلى تكاثر سكانها، وعندما ساد جوها الجفاف والتصحر، قل عددهم، نتيجة لما مرت بهم من كوارث طبيعية وبشرية عملت على هجرتهم وتنقلهم، حتى أنه منذ قرون قليلة مضت فرغت كثير من أراضي الجزيرة من سكانها، إلى أن عاد إليها سكانها في الآونة الأخيرة بعد استخراج النفط.

فشبه الجزيرة العربية كانت قد مثلت القاعدة الرئيسة التي انطلقت منها معظم بطون القبائل العربية وفروعها خلال هجراتها المتعاقبة عبر الحقب

التاريخية المختلفة، وكانت الأسباب الكامنة وراء الهجرات تعود إلى عوامل مختلفة ذكرنا بعضها، إلا أن العوامل الطبيعية أهم تلك الأسباب وهي: المناخ وحالات الجفاف التي تعقبها الحروب والأوبئة الفتاكة والنزاعات بين القبائل، فهجرت القبائل الجائعة أو المهزومة الخائفة، مرابضها ونزحت بأعداد كبيرة باحثة عن ديار أخرى.

لقد اجتذبت بوادي العراق الغنية بالماء والكلأ الكثير من الهجرات العربية البدوية ولا سيّما في الفترات التاريخية التي ساد فيها الجفاف والجذب مناخ شبه الجزيرة العربية فضلاً عن النزاعات والغزوات التي حدثت بين الأعراب أنفسهم، أو بينهم وبين الحضر، للسيطرة على ضفتي دجلة والفرات، والمناطق الخصبة في الهلال الخصيب. وسنأتي على ذكر هذا الموضوع عند تناولنا لحضارة الرافدين وحضارة الهلال الخصيب.

وبناء على ما ذكر في الفقرات أعلاه حول المؤسسة القبلية نجد أن سؤالا هاما يطرح نفسه: هل أنظمتنا العربية الحالية تحكم بمنهج مؤسسة القبيلة، أم أن حكمها، منهجه مؤسسة القبيلة/ الدولة؟! مع أن أفراد مجتمعنا اليوم هم ليسوا على رواحلهم في الصحراء، وأن جواز سفرهم هو انتماؤهم لأرض ووطن و ليس لقبيلة ..إلخ ؟!

ولهذا نجد أن أسباب المطالبة المجتمعية بالتغيير تصبح مستغربة ومستهجنة من أنظمة حكم تقليدية قديمة لم تراع في تفكيرها التطور المديني الحاصل من تغير في وسائل الإنتاج التي حدثت نتيجة لصناعات الزيت ولغيرها من المصانع التي توافرت على أرض الجزيرة العربية، هذه الأنظمة القبلية لم تستوعب بعد الذي يجري حاليا من تغير في تفكير المجتمع بالمطالبة؛ بالديموقراطية البرلمانية وتداول للسلطة الدستورية وحقوق المرأة وغيرها، هي أمور بديهية ناجمة عن التغيير الناشئ في التركيبة الاجتماعية التي أدت بالتالي إلى تغيير في تفكيرها، وأن على

الأنظمة أن تتغير وفقاً لتلك المتطلبات الجديدة، وإلا فإن المواجهة الحتمية قائمة بضرورة التغيير والإصلاح. ومن هنا نفهم إصرار أنظمتنا على اتباعها **النظام الاستهلاكي** للمجتمع على الرغم من مخاطره، وتجنبها النظام الإنتاجي!

7. الثأر والغنائم :

لقد بدأنا الحديث عن الحضر والتجارة وفي الفقرات التالية سنتناول القبيلة **في البادية**. فالتجمع البشري الذي تمثله القبيلة يعيش بأرض تكون فيها القبيلة إما زارعة أو راعية، سكان البادية الذين يمثلون الأكثرية يعيشون على الرعي الذي هو الوسيلة الأولى لكسب **معيشتهم**، وإذا تواجدت القبيلة الراعية في ارض قاحلة، أو قليلة الخصب، فإنها تضطر إلى التنقل من مكان إلى آخر – أكثر من غيرها– طلباً للعشب والكلأ، مما يجعلها في الغالب تصطدم مع القبيلة (فرع لقبيلة، القبيلة جميعها لا توجد في مكان واحد) صاحبة الأرض الخصبة، فتنشأ المنافسة والنزاع على الأرض الخصبة، مما يؤدي في النهاية إلى الصدام المسلح بين القبيلتين، عندها تظهر كل قبيلة قوتها بما لديها من قوة عددية محاربة لهزيمة الأخرى، وتكون الإبادة الجماعية للطرف المهزوم، يقتل فيها رجالهم أو يؤخذون رهائن وأسرى وعبيداً، وتسبى النساء والأطفال، وتسلب الأموال والمواشي والأغنام، فينتقل هربا من بقي منهم حياً إلى أماكن أخرى. إلا أن القبيلة المهزومة وحلفاءها– لا تستسلم– لأن الذل والمهانة يلاحقانها في كل مكان إن لم تأخذ بثأرها ولو بعد حين، فتقوم مؤسسة القبيلة المهزومة بتجميع قواها العددية والمادية بالتحالف أو المصاهرة أو غيره، للانتقام و**الثأر** ممن هزموهم، لاسترجاع الأسلاب، بل ولجمع المزيد من **الغنائم**، وهكذا تستمر الحرب بين القبائل دائرة كالرحى تطحن من فيها، حتى يغدو الجميع طحيناً ما لم يوقف عجلتها عقلاء القوم أو قوة جديدة أوغريبة.

8. غنائم الغزو والحرب :

ولكن ما تحصل عليه القبيلة من غنى وثروة لا يجعلها في مأمن من المخاطر، لأن الغزو والحرب لدى بعض القبائل هي وسيلتهم في جمع الثروة ممن قد اغتنوا وأثروا وبالذات من ساكني الحضر، فالرعي أو الزراعة لا يحققان للقبائل الثروة والغنى وجمع المال، وإنما يتم الحصول على المال عن طريق التجارة والضرائب المفروضة على التجارة العابرة، وإذا لم تتوافر لأفراد القبيلة تلك الموارد تلجأ للغزو والسلب، فيحصل كل فرد منهم على نصيبه من **غنائم الغزو**، فالغزو حرب، والحرب دمار وقتل للجانبين.

9 . أفكار وعقائد قبلية قديمة:

فوضع القبائل التي كونت الممالك اليمنية القديمة، من ساكني الحضر أوالبادية، لا تخرج في **أفكارها ومفاهيمها**، أي أيدلوجيتها، عما تؤمن به القبائل في عصرنا المتأخر، إذ لا تختلف أيدلوجيتها في الاستحواذ على ملكية الأرض والموارد جميعها، عن مثيلاتها في عصرنا العربي القديم، فكل قبيلة تعمل على زيادة عددها وقوتها، استعداداً منها لحرب بينها وبين الأعداء من القبائل الأخرى، فتبقى الحرب سجالا بينهما بسبب اختلافهم على موقع بئر ماء، أو على قطعة أرض خصبة، والخلاف حول مثل تلك الأمور لا يعد ولا يحصى، فمن في عقيدته الحرب والنزال يختلق الأسباب حتى ولو أنها واهية.

ويستمر العداء بين القبائل عادة لآجال طويلة، فلا نعجب إذا عرفنا أن ثارات وعداوات قديمة لا تزال قائمة بين قبائلنا العربية الحالية التي لها فروع في أشجار تلك القبائل، وعلى هذا تمتد العداوات والضغائن لآماد بعيدة حتى أنها لا تزال مغروسة في جذور أجيالنا الحالية.

10. حضري وبدوي وضرورة التغيير:

وتستمر ثنائية حياة العربي في الجزيرة العربية وفي كثير من الأقطار العربية بين حضري وبدوي حتى يومنا هذا إلى أن تتغير وسائل **ملكية الأرض** وقوة العمل والمواد ووسائل الإنتاج. وتتغير نوعية المنتج المستخلصة من موارد الطيعة، بتصنيعها والاستفادة من مكوناتها وتركيباتها الكيميائية والفيزيائية، فيزداد إنتاجها ونوعيتها، أي أن يتم استبدال الوسائل البدائية التقليدية من استخدام الموارد المحصلة من الطبيعة، بتحويلها في المصانع والمعامل وبواسطة الآلات إلى مواد **مصنعة** أخرى أكثر فائدة وربحاً، فهذا يؤدي إلى تغيير في ذهنية وفكر المجتمع.

فالتصنيع يكوّن فكراً جديداً قائماً على خلق علاقات إنتاجية واجتماعية جديدة، الشخص في وطنه يصبح عاملاً وصانعاً ومهندساً ومبدعاً ومبتكراً ومخترعاً، مخططاً ومبرمجاً، ومتطلعاً إلى مستقبل زاهر في إنتاجيته وفي مستقبل مجتمعه، متطلعاً لحياة ومجتمع أفضل مما هو قائم عليه حالياً، وخاصة وأن منتجات التصنيع في حاجة إلى سوق مكملة ومتغيرة، وتلك السوق هي السوق العربية المشتركة التي بدونها لن يتحقق الاستقلال والتقدم.

فهذا التفكير في **التغيير** وفي النظرة المستقبلية في **كافة** أمور حياة المواطن ومجتمعه، هو عكس الفكر القبلي التقليدي الجامد الذي لا يفكر ولا ينتج إلا في حدود فردية وشخصية، مقتدياً بما فعله الأجداد من نظام اقتصادي واجتماعي وسياسي، وكأن العالم قد توقف عند تلك الحدود من الأنظمة السياسية القبلية الوراثية التي لا تخلق متغيرات بنيوية، فما هو مترسب في قاع تفكيرها وحياتها هي صورة القبيلة المتمثلة في الغلبة وإصابة الغنيمة والاستحواذ على المال العام.

ولهذا نجد أن أسباب المطالبة المجتمعية بالتغيير تصبح مستغربة ومستهجنة من أنظمة حكم تقليدية قديمة لم تراع في تفكيرها التطور المديني

الحاصل من تغير في وسائل الإنتاج التي حدثت نتيجة لصناعات الزيت ولغيرها من المصانع التي **توفرت** على أرض الجزيرة العربية، هذه الأنظمة القبلية لم تستوعب بعد أن الذي يجري حاليا من **تغير** في تفكير المجتمع بالمطالبة؛ بالديموقراطية البرلمانية وتداول للسلطة الدستورية وحقوق المرأة وغيرها، هي أمور بديهية ناجمة عن التغيير الناشئ في التركيبة الاجتماعية التي أدت بالتالي إلى تغير في تفكيرها، وأن على الأنظمة أن تتغير وفقاً لتلك المتطلبات الجديدة، وإلا فإن المواجهة الحتمية قائمة بضرورة التغيير والإصلاح. ومن هنا نفهم إصرار أنظمتنا على اتباعها **النظام الاستهلاكي** للمجتمع رغم مخاطره، وتجنبها النظام الإنتاجي!

* إن الحالة التي ذكرناها عن المؤسسة القبلية في تركيبتها الاجتماعية وأفكارها وعقائدها المجتمعية، ليس في مقدورها في عصرنا الحاضر القيام بالواجبات الضرورية لبناء مجتمعات متقدمة تعتمد العلوم والتكنولوجيا المتطورة، وعلوم الاجتماع والسياسة الحديثة.

ثانياً: صورة القبيلة العربية في القرن الرابع عشر للميلاد، **في عصر عبد الرحمن ابن خلدون :**

تحدثنا فيما سبق عن عصر القبيلة في نظامها القديم، إلا أن هذا القديم بقي مستمراً متواصلاً في حلقاته التاريخية، حيث نجد في القرن الرابع عشر الميلادي، أن عالم التاريخ والاجتماع العربي، صاحب المقدمة المشهور عبد الرحمن بن خلدون، يقدم لنا ما توصل إليه في دراساته العلمية عن الآثار التي تركتها القبيلة في السلطات الحاكمة وفي المجتمع العربي في تلك الفترة التي عاصرها.

لقد كتب ابن خلدون مقدمته المشهورة مستنداً في موضوعاتها على الوضع العربي التاريخي بصورة عامة، وعلى أوضاع المغرب العربي

الكبير بصورة خاصة وذلك بعد أن عاش – وهو في مركز الوزارة – الأحداث العربية التي جرت قبل وأثناء وبعد خروج العرب من الأندلس (الغرب الإسلامي)! وقد أرجع سقوط الأندلس إلى النظام القبلي، وإلى الفوضى التي أحدثها الصراع بين الطوائف والقبائل.

* لقد تناول العديد من المفكرين والكتاب والأساتذة العرب فكر ابن خلدون من كافة جوانبه، إلا أننا سنتناول جانباً منه بصورة موجزة، ناتجة عن قراءة سريعة اقتطفت من **كتاب** مركز دراسات الوحدة العربية عن "**العصبية والدولة**" في فكر ابن خلدون (معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي).

إن عنوان الكتاب يظهر لنا الحداثة في طرح موضوع القبيلة العربية، إذ تناول فيه **المجتمع القبلي** "العصبية" و**الدولة**، فالمجتمع سابق على تأسيس سلطة الدولة (الملك)، بل إن المجتمع القبلي "العصبية" مشتقة من عصب اللحم، ومن المدافعة والمحاماة، وهي **الجماعة** التي تؤسس الدولة.

وقد تحدث صاحب المقدمة عن العصبية القبلية منذ بداياتها، معتبراً أن الأصل الأول للبشر هي البداوة فكل البشر أصلهم بدوي وعلى هذا الأساس فإنه **لا يعيب العربي أن يكون أصله بدوياً**، وقد تحدث عن تطور البداوة التي ارتبط تطورها بأنماط معيشتها، فمراعي الإبل هي التطور الأول نحو البداوة، أما مراعي الخصب فقد أتت في المرحلة التالية، فتبعها استقرار وتكاثر في الإنتاج وعدد السكان، الذي أدى إلى اتخاذ مظهر الحضر.

فهذا التطور قد كون العصبية (العصبة) من الجماعة، فالعصبية الأولى **طبيعية** تتمثل فيها صلة الرحم والنسب، والعصبية الثانية **اجتماعية** جاءت بالمصاهرة والزواج، أما الثالثة فهي **سياسية** تعتمد على الانتماء لجماعة إنسانية تؤسس نظاماً سياسياً.

فالعصبية إذن هي الجماعة التي تكونت منها القبيلة، التي اتخذت من مرعاها ومكان عيشها مقراً لها، واتخذت اسمها من مكانها أو من اسم زعيمها، فهذه الجماعة تسعى لزيادة عددها وقوتها، لتحمي حقوقها الحياتية والمالية، فليس في البوادي والصحارى والمدن الممثلة للقبائل **قانون يحميها** من الاعتداء وحفظ حقوقها، فتسعى هذه العصبية في الحصول على الدولة (الملك)، وأنه لا يتم الحصول على الدولة والحكم إلا لصاحب **الشوكة**. فغاية العصبية (الطائفة، الجماعة أو المجتمع) هي في وصولها إلى الحكم. لكن هذه الغاية لا تتحقق إلا **بالغلبة** أي بالحرب. وفي نظر صاحب المقدمة، لكي تنجح العصبية في غلبتها ووصولها إلى سدة الحكم، لا بد لها من (اتفاق الأهواء) أي لا بد لها من دعوة أو عقيدة، تتمثل في دعوة دينية، لأن هذه تزيد من قوة العصبية وتزيد اللحمة السياسية قوة على قوة.

ويلاحظ ابن خلدون أن هذه العصبية تضعف و"تتكسر سورتها" بمجرد بلوغ غايتها من الملك والشروع في جني ثمراته، وذلك عندما تتجه الطبقة الحاكمة إلى تبذير أموال المجتمع، فينشأ **الترف والنعيم** التي بها يكثر **الفساد**، الذي ينخر في جسم العصبية حتى يقضي عليها.

فعند صاحب المقدمة أن **الفساد** المستشري في العصبية هو الذي **يسقط (الملك) الدولة** القائمة مما يفسح المجال لقيام عصبية جديدة تقوم بتأسيس دولة أخرى جديدة.

تلك إذن هي الدورة في النظام القبلي عن وصول عصبة قبلية إلى سدة الحكم بالشوكة والغلبة، إلا أنها تنتهي بالفساد، وفي الحقيقة أن عنصر الفساد كامن بداية في مفهوم الحكم والدولة (الملك)، إذ إنه وفقاً لهذا النظام فإن العصبية وشوكتها غرضها من إقامة الدولة هو حماية عصبتها من اعتداء الآخرين عليها، فالمفهوم منذ بدايته حماية العصبة (الطائفة) والدفاع عنها، أي أنه مطلوب تأسيس دولة بوليسية عسكرية مهمتها الأولى

المحافظة على حماية تلك الجماعة حتى تستطيع الحصول على ما تعتبره امتيازات في المجتمع وحقا لها لأنها أخذت الحكم بالغلبة، فالدولة/ الملك بهذا المفهوم ليست لها أهداف اقتصادية واجتماعية..إلخ، سوى أن هذه العصبة غايتها في وصولها لسدة الحكم كغنيمة يجب عليها الإسراع في جني مصالح الغنيمة ومنافعها من قبل هذه المجموعة الغالبة قبل أن تدور الدائرة القبلية عليهم أيضاً.

وذكر الكتاب: أن كل شيء خلال القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، يشير إلى أن شمس الحضارة العربية كانت آخذة في الأفول، نتيجة للفلسفة القبلية القائمة على حكم المجتمعات العربية عن طريق **الحرب الدائمة**، ولهذا فإن الناظر في الأوضاع العربية في تلك الآونة، أينما جال ببصره إلى الحياة **السياسية** أو **الاجتماعية** أو **الفكرية** يجد أن البريق والنور الذي كان ساطعاً قد خبا.

وعلى ذلك فإن الواجب الحضاري يقتضي من العرب اليوم القيام بنهضة؛ فكرية واجتماعية ومن ثم سياسية لبناء مجتمع حديث قائم على الديموقراطية والعدالة الاجتماعية والمساواة، بعيدا عن العقيدة القبلية القائمة على العداوة والحرب، هذه العقيدة التي تسبب التأخر والتخلف، وتهدم كل بنيان حضاري، وأنه لكي يستمر أي مجتمع في تقدمه الحضاري لا بد له من القضاء على الفساد في الحكم، كما عبر عن ذلك ابن خلدون.

وبهذه المناسبة نشير إلى أن فكر العلامة أرنولد توينبي – جاء ذكره في بداية هذا الكتاب – قائم على اعتبار أن الحرب هي سبب رئيسي في انهيار الحضارات والمجتمعات، وأن مصير **المعتدي** الفناء، وقد التقى بذلك مع ابن خلدون عندما عرض للأحداث التي مرت على النظام القبلي العربي الذي أشار إليه .

وبناء على ذلك فإن الحكم الصالح هو الذي يحقق النصر على المعتدين ويلحق بهم الهزيمة الماحقة، فبتحدينا في وحدتنا الحضارية العلمية سيتحقق النصر لمجتمعنا عندما نقيمه على أسس القانون والدستور والعدالة والديموقراطية.

ثالثا : الحضري والبدوي، ما بعد خروج الاستعمار:

كان العالم كله يتميز قبل العصر الحديث باختلاف مجتمع المدينة عن مجتمع البادية، إلا أنه أمكن مد الجسور بين البادية والمدينة وأمكن التقليص من الاختلافات بينهما بفضل التصنيع، **فالتصنيع** أساس التحديث، وأبو الحداثة، إلا أن الاستعمار لم ينقل إلى مجتمعاتنا الصناعة والتصنيع بل على العكس من ذلك نهب منا المواد الأولية الضرورية للصناعة وفرض على مجتمعاتنا أنماطا من **الاستهلاك** مما حرمنا من التطور والتغيير، وحرمنا من تكوين سوق عربية مشتركة.

وأنه في سبيل القضاء على النظام القبلي والروح والأفكار الاجتماعية القبلية، فإن على شبابنا إحداث تنمية فكرية بالتوجه إلى التصنيع والصناعة بمعناها الواسع، ذلك لأن التصنيع ليس هو العمل في التعدين فحسب، وإنما يجب أن تتحول الزراعة ضمن مجال التصنيع؛ بالتوجه نحو بحوث التربة والبذور والسقي والحرث وغيرها، بوسائل تكنولوجية متطورة حديثة.

كما وأنه من الضرورة بمكان حصر مصادر المياه لاستخدامها بصورة علمية، مع ملاحظة أن توفير مياه الشرب في عالمنا اليوم لا تتم إلا عن طرق تكنولوجيا متقدمة، فما دامت مياه شربنا تتطلب من العرب والجزيرة العربية بصورة خاصة، ضرورة تملك التكنولوجيا الحديثة للمياه والطاقة، فأصبح التوجه إليها يمثل البقاء والحياة، وأنه بالتأخير في التوجه نحو تكنولوجية المياه فيه هلاك للبشر وإنهاء لكل ما بني.

فواجب الشباب العربي عليه أن يعي هذه الحقيقة وهي أن تملك التقدم العلمي التكنولوجي هي الوسيلة لحياة أفضل لجيل الشباب الصاعد، لكون الصناعة والتصنيع أصبحت عاملاً مساعداً على طرد الفقر والبطالة والأمية، ولا يتم الوصول إلى ذلك المجتمع الصناعي المتقدم إلا من خلال أنظمة حكم متقدمة عمادها العدالة الاجتماعية والديموقراطية، ووفقاً لهذه الشروط والمتطلبات اللازمة لقيام حكم صالح عصري حديث، فإنه من العبث التوقع من النظام القبلي أن يكون في مقدوره الوصول بمجتمع الجزيرة العربية، والعربي كذلك، إلى التقدم المنشود.

وفي نهاية هذا الفصل نعود ونوصل ما بدأنا به عن السدود التي شيدتها الحضارة اليمنية القديمة، إذ إن الدور المطلوب من الشباب العربي في وقتنا الراهن، أن يقوموا بثورتهم العلمية التكنولوجية في إعادة إصلاح وبناء السدود القديمة، ما أمكن ذلك، بل وعليهم بناء سدود جديدة، لتوفير قطرات الماء. لا شك أن ذلك يتطلب جهداً ومالاً، ولا يتأتى ذلك إلا بوصول الشباب إلى المراكز القيادية الحزبية/ السياسية التي من خلالها يمكنهم فرض بناء المؤسسات التي تحقق الاستثمارات الكبيرة لتنفيذ مشاريع مياه الشرب والري، فالنهضة في وطننا العربي مصاحب إليها **توفير قطرات** المياه من **كافة** المصادر الممكنة، وأن هذا الجهد الشاق لن يقوم به سوى الشباب من خلال أنظمة حكمهم العادلة، لكي يعيدوا جريان الحياة للوديان التي كانت الممالك اليمنية قد بنت فيها حضارتها وطرقها التجارية، ولكنها هذه المرة بعلوم متطورة وتكنولوجيا حديثة.

الفصل السابع

قبائل وديانات وحروب

تحدثنا عن القبيلة العربية وقبلها عن الممالك اليمنية القديمة، حتى وصلنا في حديثنا عنها إلى ما انتهت إليه مملكة حضرموت، والآن جاء الدور لنكمل حديثنا عن مملكة **حمير** التي قامت على أنقاض الممالك اليمنية القديمة التي سبقتها، وسيتضح من سياق الحديث عنها، إن هذه المملكة قد قامت بواجبها في مواجهتها للغزو الحبشي المدعوم من البيزنطيين واستمرت المواجهة مع هذه القوى حتى تم إنهاء هذه المملكة، واحتلت أرض اليمن من قبل قوى أجنبية حبشية وفارسية حتى مجيء الإسلام.

لقد عملت حركة الممالك اليمنية القديمة على جعل الاتحاد التجاري العربي واقعاً ملموساً، فقام الإنسان العربي بواجبه خير قيام في بناء الوحدة التجارية/ الاقتصادية والوحدة الاجتماعية والثقافية.

سبق أن ذكرنا أن الإنسان العربي كان قد عمل جاهداً على الاستفادة القصوى مما أتاحته له طبيعة أرضه الشاسعة، بتكوينها الجغرافي الذي جعل أرض الجزيرة العربية كتلة واحدة، جنوبها مماثلة لشمالها ولشرقها وغربها، مما سهل وحدة العرب التجارية والاقتصادية والثقافية، في أقاليمه الأربعة. فطبيعة أرض الجزيرة فرضت على شعبها أن يكون شعباً واحداً منذ القدم حتى في جوانبه السياسية أيضاً، فما كان يجري في شمال الجزيرة العربية

من أحداث سياسية واقتصادية ولغوية ودينية..إلخ تترك آثارها على جنوبها بصورة مماثلة.

لقد كانت السيادة الإقليمية القديمة– ولقرون مديدة – في الجهتين الشرقية والغربية من شمال الجزيرة العربية كانت لحضارات عربية؛ ففي الجهة الشرقية منها كانت لحضارات ما بين النهرين: السومرية والآكادية والبابلية والآشورية والبابلية الثانية، وفي الجهة الغربية كانت السيادة للحضارة الفرعونية العريقة، وفي الوسط فيما بينهما كانت للحضارة الفينيقية.

كانت الحضارات العربية الشمالية في تلك الفترة هي التي كانت تسود المنطقة الواسعة من العراق إلى الشام إلى مصر حينا، أو أنها ترجع منطلقة من مصر إلى العراق حينا آخر، عابرة الأراضي السورية، أراضي الهلال الخصيب التي هي المعبر والطريق الذي عبرت عليه الحضارات الإنسانية القديمة والذي سلكت طريقه القوافل التجارية ومرت منه الهجرات والجيوش، لكونه الشريان الذي تكثر به الأنهر العديدة بالإضافة إلى مجرى نهر الفرات العظيم، فهذه العوامل سهلت عبور الجماعات الإنسانية في هذه المنطقة العريقة.

وإذا قمنا بزيارة إلى (متحف) و(معرض) تاريخنا العربي في فترة ما بعد زيارة ملكة سبأ لفلسطين **بخمسة** قرون قبل مولد المسيح، لرأينا عدداً من الصور التي تبرز فيها قوى سياسية تحكمت في شمال الجزيرة العربية؛ فبعد الآشوريين والبابليين في عصرهم الثاني، جاء الفرس **الأخمينيون** الذين قضوا على الحضارة البابلية واستحوذوا على الأراضي التي كانت تحت حكمهم، بما فيها سورية ومصر، فتوسع الفرس من هذه الأراضي إلى أصقاع آسيا الصغرى، ومنها اندفعوا إلى العوالم المقدونية واليونانية، ولكنهم هزموا فيما بعد، في المواجهات البحرية التي جرت بينهم وبين اليونان (الإغريق) الذين حطموا الأسطول الفارسي، هذه الهزيمة البحرية أضعفت

الإمبراطورية الفارسية الأخمينية، مما أدى بالتالي إلى انتهائها على يد الإسكندر الأكبر المقدوني الذي احتلت جيوشه **كافة** الأراضي التي كانت تحت سيطرة الإمبراطورية الفارسية، بدءاً من سورية (شمال الجزيرة العربية) وفلسطين ومصر الى بلاد ما بين النهرين ثم فارس نفسها. وخلف اليونان (الإغريق) من بعدهم الرومان في احتلالهم للأراضي العربية، وذلك في النصف الأول من القرن الأول قبل مولد المسيح.

وفي نهاية القرن الثاني قبل الميلاد جاء البارثيون الفرس الذين استعادوا سيادة فارس من الحكام الإغريق، ثم جاء من بعدهم العهد الساساني الفارسي في بداية القرن الثاني الميلادي، وكانت القوة الرومانية البيزنطية الغربية متواجدة ايضا في هذه الفترة، فعاد التاريخ نفسه ليحكم منطقتنا العربية؛ قوة فارسية (ساسانية) شرقية، وقوة رومانية (بيزنطية) غربية حلت محل اليونانية التي سبقتها.

واستمر الصراع بين القوتين الشرقية والغربية، إلا أنه في هذه المرة تمثل الصراع بينهما في جانبين؛ جانب اقتصادي سياسي، والجانب الآخر رغم أنه ديني إلا أنه مرتبط بصراع القوتين في التحكم في الطرق التجارية والمصالح الاقتصادية والإستراتيجية.

ولاستكمال موضوع الممالك اليمنية القديمة التي كانت حروبها وصراعها تجاري في أساسه، وبدخول القوتين الشرقية الفارسية والغربية اليونانية/ الرومانية القديمتين في المنافسة التجارية، أصبح الصراع سياسياً، تجارياً، ثم أضيف إليه بعد زمن الصراع الديني، على الأقل في الجزيرة العربية. وبناء على تلك التطورات التي كانت قد استجدت، ولم يتم تطرقنا إليها ضمن الممالك اليمنية الأربعة السابقة، وجدنا من المناسب الدخول إلى (متاحف) و(معارض) هاتين القوتين، لنستعرض صوراً عنهما تساعدنا في تقديم تمهيد موجز عن **هاتين القوتين** القديمتين اللتين ارتبطت بهما الظروف

العربية لفترة طويلة من الزمن، **وتركتا** تأثيرهما في مجرى الحياة العربية؛ سياسياً وعسكرياً وتجارياً وثقافياً، حتى ظهور الإسلام.

فدخولنا (لمتحفهما) هو ما يتفق وهدفنا من خلق تنمية إنسانية بضرورة الوحدة العربية، التي منها التعرف على الكيفية التي واجه بها العرب ذلك الصراع الدولي في ذلك الوقت، بأن جعلوا وسيلتهم في تحدي القوتين مزيداً من تعزيز روابط الوحدة التجارية العربية، وتبعتها بوحدة لغوية وثقافية، ثم أكملتها بوحدة دينية بمجيء الإسلام.

شيء عن الإمبراطورية الفارسية القديمة:

وفقاً لمعلوماتنا فإن **الأخمينيين** هم **قبيلة** آرية من منطقة بالقرب من **بحيرة** "أرمينيا" شمال إيران،عرفت باسم بارسوا Parsua فحرفت الكلمة إلى فارس. هاجرت هذه القبيلة إلى الأراضي الإيرانية واستقرت في جنوب غرب إيران، فعرفت منطقة فارس باسمها.

وفي حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد تولى العرش قورش الثاني الذي حول دولته إلى إمبراطورية فارسية، توسعت في عهود خلفائه في الحكم حتى شملت مصر واليونان. ولكن المعارك البحرية مع اليونانيين أدت إلى هزيمتهم، وبالتالي إضعاف الدولة الأخمينية مما سهل سقوطها على يد الإسكندر المقدوني عام 330 ق. م. ولم تعاود الإمبراطورية الفارسية قوتها إلا بعد وفاة الإسكندر بفترة ليست بالقصيرة.

وبعد وفاة الإسكندر الأكبر في 323 ق.م. تقاسم أربعة من قادة جيشه، الإمبراطورية المقدونية اليونانية (الهيلينية) الواسعة، فأصبحت مصر وفلسطين وسورية والساحل الفينيقي وقبرص وغيرها، من نصيب القائد بطليموس، **فأتخذ البطالسة** مدينة الإسكندرية عاصمة لهم. أما شمال غرب الهند (وادي السند) وبلاد فارس وشمال سورية وآسيا الصغرى فقد أصبحت

من نصيب القائد سلوقس، **فأتخذ السلوقيون** مدينة "سلوقس" على نهر دجلة بالقرب من بابل عاصمة لهم، ثم سرعان ما نقلوها إلى مدينة **أنطاكية** الحالية على الساحل السوري.

لم يرتض السلوقيون هذه القسمة، فاستمرت الحروب بين الطرفين اليونانيين طوال القرن الثالث، **وفي** القرن الثاني السابقين للميلاد، حاول السلوقيون الاستيلاء على المناطق الواقعة في شمال الجزيرة العربية التي كانت تحت سيطرة البطالسة.

إلا أن هجوم **القبائل** الآسيوية على آسيا الصغرى، وظهور مدينة روما كقوة عسكرية وسياسية في الغرب كانت تطمح في مد نفوذها نحو المشرق، جعل السلوقيون يدخلون في حرب مع الطرفين، مما أضعفت من قوتهم، وزاد الأمر سوءاً أنهم لم يستطيعوا وقف هجوم الرومان إلا بعد تنازلهم عن ممتلكاتهم في آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين، وبناء على ذلك فإن منطقتنا العربية كانت قد شهدت في تلك الفترة صراعاً أوروبياً بين مملكتين يونانيتين، ثم بينهما وبين الرومان، القوة الصاعدة.

و شيء عن الإمبراطورية الرومانية القديمة:

إنه بعد أن تنازل السلوقيون للرومان عن أجزاء من أراضي مملكتهم، أرادوا تعويض ما فقدوه في الشمال والشرق، فتوسعوا جنوباً في سورية الجنوبية. فقاموا بهجوم شامل على مواقع البطالمة من حكام الإسكندرية وفينيقيا، حتى أصبحت هذه المناطق خاضعة لحكم السلوقيين في مطلع القرن الأول قبل الميلاد. لكن السلوقيين في هذه الفترة كانوا محملين بالتزامات دفعهم تعويضات حربهم مع الرومان، فقاموا بالاستيلاء على الموجودات الثمينة في القدس، مما نتج عنه اصطدامهم بسكانها.

أما بالنسبة لمملكة الأنباط العربية، المملكة التجارية، فقد دارت الحرب بينهم وبين السلوقيين الذين لم يستطيعوا إخضاع حصونهم الجبلية واحتلال أرض واديهم المنيع، وبالتالي لم يستطيعوا السيطرة على تجارتهم. وأنه بصد الأنباط العرب للقوة السلوقية اليونانية، شجع الرومان على الدخول في حرب مع السلوقيين في شمال سورية لتحقيق هدفهم القديم من مجيئهم إلى الشرق.

وبعد هزيمة السلوقيين احتل الرومان سورية بقيادة القائد الروماني بومبي في نهاية النصف الأول من القرن الأخير قبل الميلاد، وبناء على طلب القيادة الرومانية ترك الأنباط مواقعهم حول القدس فدخلها القائد بومبي.

وكان هذا القائد المنتصر قد تنافس مع الإمبراطور يوليوس قيصر على حكم روما، فتطور الصراع بينهما إلى مواجهة عسكرية، وصل فيها جيش قيصر إلى سورية لمحاربة القائد بومبي، وبعد انتصاره وصل يوليوس قيصر إلى الإسكندرية، وبذلك كانت منطقتنا العربية قد أصبحت هي المكان الذي كان يتحدد فيها أسماء الأباطرة الذين يحكمون روما.

أما عن بلاد ما بين النهرين Mesopotamia في هذه الفترة فكانت قد خضعت لسيطرة الفرس.

* قدمنا في سبق صورة سريعة من (متحف) التاريخ العربي القديم، لفترة تاريخية عن الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، والذي نهدف منه أن يشكل مدخلاً لموضوعاتنا القادمة التي سنكمل فيها الحديث عن الفترة التالية على مولد السيد المسيح.

ففي الفقرات اللاحقة سيتضح لنا الارتباط الوثيق بين الأحداث العسكرية والسياسية وغيرها في شمال الجزيرة العربية وعلاقتها بالأوضاع في

جنوبها، من حيث محاولة السيطرة البحرية والبرية على الطرق التجارية وما تبعه من تحرك سكاني قبلي وتجاري.

لقد كان البحر الأحمر يعتبر بحراً مغلقاً تستخدمه التجارة اليمنية منذ أيام الفراعنة في مصر، وربما قبل رحلة الملكة بلقيس إلى فلسطين، لقد جاء من فراعنة مصر من كانت لهم اهتمامات بالتجارة في البحر الأحمر، فقاموا فيها برحلات بحرية إلى شواطئه، مما عزز روابطهم التجارية مع شعوبها.

وبعد قدوم البطالسة، في حكم مصر، توجهت أنظارهم إلى التجارة شطر شبه القارة الهندية، فتمكنوا في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد من معرفة الملاحة في البحر الأحمر (المليء حوضه بالصخور والشعب المرجانية التي تعيق الملاحة ورسو السفن) كما تعرفوا على مواقيت حركة الرياح الموسمية واتجاهها في المحيط الهندي، وكانت هذه جميعها من الأسرار التي احتفظ بها عرب الجنوب، فتمكن البطالسة من الإبحار إلى الهند عن طريق البحر الأحمر والبحر العربي، وشرعوا يتاجرون بحراً دون وساطة العرب الجنوبيين الذين كانوا يسيطرون عليها. لم يستمر زخم النشاط البحري للبطالسة لفترة طويلة، فقد أثر فيه الصراع السياسي الذي كان جارياً بين البطالسة والسلوقيين، كما مر بنا، فقلل من نشاطهم التجاري البحري.

* إلا أن التدخل الخارجي من قبل البطالسة في التجارة البحرية مع الهند والساحل الإفريقي، قد شجع العرب على التعامل البحري مع مصر بحراً أكثر من ذي قبل، وخاصة بعد التسهيلات البحرية التي قام بتنفيذها البطالسة في الأراضي المصرية وبقية الشواطئ على البحر الأحمر، مما أدى إلى تقليل الاعتماد على الطرق البرية.

هذا التوجه التجاري البحري ترك أثره الاقتصادي والسياسي على التجار من رجالات القبائل في الدول اليمنية المستقلة الأربعة، الواقعة على

مشارف الصحراء. لقد كان تأثير هذا الحدث عظيماً على أهل البادية الذين كان عماد رزقهم على الطرق البرية التي كانوا يعملون فيها كجمالة وحماة للقوافل ومرشدين لطرق الصحراء المتشعبة، فقلة القوافل التجارية أصابتهم بالبطالة، وكما يحدث للعاطلين الجائعين في كل زمان ومكان، فهؤلاء البدو، من أهل البادية، الذين شحت موارد رزقهم ومسهم الجوع، قاموا بتحركهم العنيف فهاجموا فيه المحطات والمستعمرات التجارية التي أنشئت على طول الطرق التجارية في الصحراء، كما هاجموا المدن/ العواصم التي هي ثغور للتجارة البرية المارة للدول المستقلة، وإزاء هذا الوضع المضطرب الناتج عن توقف حركة القوافل التجارية وبطالة عمالها، فقد اضطر فيه كثير من سكان الوديان على أطراف الصحراء إلى هجر ديارهم والاحتماء بالمرتفعات في داخل البلاد خوفا من الهجمات التي يشنها البدو.

لقد تضررت رجالات القبائل الحاكمة في الدول المستقلة الأربعة من النشاط البحري الجديد، أما قبيلة حمير ــ وهي التي ستكون دولة يمنية خامسة ــ كانت هي المستفيدة من هذا الوضع التجاري الذي عززته بإصلاحها لموانئ الشواطئ وبنائها للسفن للاستفادة ما أمكن من حركة التجارة البحرية بين مصر والهند المارة بطريق الموانئ اليمنية والبحر الأحمر.

نرى من ذلك أن حدثاً مؤقتاً تمثل في تدخل قوى أخرى في التجارة البحرية اليمنية، قد أحدث كل هذه المشكلات لمجتمع وسلطة الدول الأربع اليمنية المستقلة، لقد أظهرت هذه المشكلات مدى الخطأ الكبير الذي ارتكبته الإقطاعيات اليمنية في تمزيقهم لوحدة اليمن وجعلها تعيش في كيانات قبلية مستقلة، متفرقة القوى، اعتمدت أساساً على الطرق البرية التي ضعفت أمام حدث وحيد بدخول منافسين جدد على طريق التجارة، فأحدثت هذه هزتها العنيفة في المجتمع من بطالة وفقر تبعته الحروب.

لقد تصورت سلطات الزعامات القبلية الحاكمة أن الطرق والتجارة البرية باقية فلم تعد لها أي خطة مستقبلية لتطوير الطرق البرية والموانئ البحرية ولم تطور صناعة السفن، كما فعلت قبيلة حمير، فكل ما فعلته القبائل الحاكمة في الدول المتفرقة، أنها قامت بالفرار أمام متطلبات التغيير والإصلاح، وأمام مطالب الحاجات الشعبية الضرورية للعيش الكريم، فالفرار أمام هذه المشكلة سببه النظام القبلي التجزيئي الذي أضعف المجتمع وفتت قواه، ولم يضع له خططاً مستقبلية، وهو ما نسميه اليوم خططا تنموية مستقبلية ترتبط بوحدة الكيانات العربية، إنه الوضع نفسه لحكامنا اليوم الذين يقفون عاجزين عن مواجهة البطالة والفقر نتيجة عدم وحدة أنظمتهم في كيانات قوية التخطيط والتنفيذ.

وبعد انتهاء قرن على ذلك الحدث القديم جاء حدث آخر أخطر من الذي سبقه، ترك تأثيره الكبير على الأوضاع في اليمن القديمة لقرون طويلة، وإذا كان الحدث السابق قد تمثل في منافسة تجارية بحرية، فإن الهجمة الجديدة قد جاءت في صورة حرب اجتاحت مدناً واحتلت دولاً.

* وكما سبقت الإشارة إليه، فإنه في منتصف القرن الأول قبل ميلاد السيد المسيح حلت القوة الرومانية في شمال الجزيرة العربية ومصر محل حكم البطالمة (البطالسة) اليونانيين. وكان الرومان قد وجدوا بلداً– الذي هو اليمن– لا يزال كما هو، ظل يحتفظ بالكثير من الخيرات والثروات ويسيطر على الخطوط البرية والبحرية ويتحكم في كثير من المنتجات الغالية الثمن، فطمع الرومان في الاستيلاء على التجارة وطرقها في جنوب الجزيرة، كما فعل من قبلهم اليونان، لكنهم هذه المرة أرادوها حرباً وغزواً واحتلالاً، لكي تكون الموارد جميعها من نصيبهم لا يشترك معهم فيها أحد، وتكون الأرض وطرقها تحت سيطرتهم أيضاً، إنها أفكار المستعمرين.

لقد أعدوا لتحقيق هدفهم حملة عسكرية وصلت في حوالي سنة 24 قبل ميلاد المسيح إلى نجران واجتاحت وادي الجوف ومدنه في مملكة معين حتى وصلت إلى مأرب عاصمة مملكة سبأ. وأنه على الرغم من تراجع تلك القوات الغازية عن احتلالها للأراضي اليمنية، وعودتها من حيث أتت، إلا أنها مثل أي غزو وأي حرب لا تخلف سوى الدمار والخراب للمجتمع، وبالذات تلك الغزوات التي يأتي بها الأجنبي الهادف إلى تحقيق أطماعه التوسعية الإستراتيجية في السيطرة والتحكم، ولهذا فإن الآثار السيئة لهذا الغزو بقيت وخيمة على المجتمع اليمني وسلطاته لفترات طويلة.

لقد ترك هذا الغزو فراغاً أمنياً، كانت نتيجته أن تأثرت هيبة رجالات الحكم، فأتاحت بذلك مجالاً لأن تقوم الزعامات القبلية البدوية والحضرية بتحركاتها لتحقيق أغراضها في الحكم والسيطرة والنفوذ لصالح كل قبيلة في منطقتها، فضعفت الممالك الأربع كلها، وكانت الجهة التي استفادت من هذا الوضع – في هذه المرة أيضاً – هي قبيلة حمير التي وجدت في كل ما حدث تقوية لمركزها.

* فالحدثان الخارجيان؛ وهما المنافسة الأجنبية البحرية (اليونان) على طريق التجارة، والحملة العسكرية الرومانية، قد استفادت منهما قبيلة حمير، هذه القبيلة التي تأجل الحديث عنها حتى الآن لكونها آخر الممالك اليمنية من جهة، ولأنها قد عاصرت الأحداث الكبيرة للصراعات السياسية/ الحربية/ الدينية التي حدثت في شمال وجنوب الجزيرة العربية من جهة أخرى، والتي امتدت حتى القرن السادس الميلادي.

ففترة حكم قبيلة حمير طويلة، مرت فيها بعصرين؛ العصر الأول كان مصاحباً للدول الأربع المستقلة في صراعها على المكانة التجارية والحكم، والعصر الثاني لحمير هو الذي ورثت فيه ما بنته الممالك السابقة من حضارة ونشاط قام به شعبها المنتج، ومن بينهم مملكة حضرموت التي هي

آخر من ضمت أراضيها لمملكة حمير، فالعصر الثاني لحمير هو الذي وحدت فيه اليمن تحت رايتها، هذه القبيلة كانت في العصرين هي من اللاعبين الرئيسيين في الأحداث التي مرت بها اليمن بعد ميلاد المسيح، فبنهاية حكمها في القرن السادس الميلادي كانت فيها الخاتمة للممالك اليمنية جميعها التي استمرت لأكثر من ألف وخمسمائة عام، إلا أن حديثنا عن هذه القبيلة ومملكتها في الفقرات التالية سيكون موجزاً ومختصراً يكمل ما سبق أن ذكر عنها من قبل.

مملكة حمير:

حمير اسم **لقبيلة** شغلت الركن الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية بين مأرب والبحر الأحمر، ومنازلها كانت تؤلف جزءاً من أرض قتبان. لقد كان لها حصن في مملكة قتبان **اسمه** (ريدان) ويقع هذا الحصن في جنوب مدينة (تمنع) عاصمة مملكة قتبان، وسنجد فيما بعد أن قبيلة حمير قد تسمّت بهذا الاسم (ريدان)، كما أقامت فيما بعد حصناً في منطقة ظفار سمته (ريدان) أيضاً تيمناً بحصنها القديم.

إذن فقبيلة حمير كانت في البداية تحت حكم مملكة قتبان. ولكون قبيلة حمير تضم مجموعة **اتحاد** القبائل الحميرية، فوضعها الجغرافي هذا جعلها منتشرة على رقعة أرض واسعة، خولها موقعها الجغرافي أن تمد صلاتها إلى ساحل البحْر الأحمر وساحل البحر العربي حتى حضرموت.

سبقت الإشارة إلى أن هذه القبيلة قد استفادت من المنافسة الأجنبية للنشاط التجاري البحري، فقامت بتأسيس موانئ وبناء أسطول لها على البحر الأحمر، فأعطى هذه القبيلة قوة في السواحل اليمنية وفي مرتفعاتها نافست بها سبأ والممالك الأخرى، كما أنها استغلت ضعف حكومة سبأ بعد الغزوالروماني فاستولت على الهضبة والمناطق الجنوبية من اليمن الممتدة

على ساحل البحر الأحمر، فزاد هذا من نفوذ القبيلة في حواضر المدن، مما جعلها تبرز على الساحة السياسية اليمنية.

لقد أضعف الغزو الروماني الممالك اليمنية المستقلة وعلى الخصوص مملكة سبأ، التي شهدت موجة من عدم الاستقرار، مما أدى إلى تراجع هيبة ملوك سبأ وغيرها من هذه الدول أمام رجال الإقطاع أو ما كان يطلق عليهم (الأقيال) من سادات القبائل وزعماء المدن.

لقد ساعدت الأوضاع المضطربة تلك، قبيلة حمير في بناء قوة تحالفها القبلي أثناء وبعد الغزو الروماني، مستفيدة من كون أراضيها مجاورة لأراضي مملكة قتبان والممالك الأخرى، فعملت الزعامات القبلية الحميرية، ذو ريدان (اتحاد القبائل الحميرية)، على التحرك للوصول إلى مركز الحكم في مأرب عاصمة سبأ.

فأحدث تحرك الحميريين هذا صراعاً على السلطة؛ كانت بدايته بين حضرموت وسبأ، ولم يلبث أن تطور إلى صراع ثلاثي الأطراف بين **سبأ** في الشمال و**حمير** بقيادة بني ريدان في الجنوب، أما **حضرموت** فقد كانت طرفاً على رأس **تحالف** شرقي ضم قتبان وقبائل أخرى في الغرب- يلاحظ أن مملكة معين قد اختفت بعد احتلالها من قبل حضرموت- وهكذا تكون قد اشتعلت نيران العداء بين الأطراف اليمنية وشملت اليمن كلها من جميع جهاتها الأربع.

لقد استفادت قبيلة بني ريدان من الوضع المتأزم بين القبائل جميعها فقامت بتحقيق هدفها، فحاربت حتى وصلت إلى المركز في عاصمة سبأ، فسموا دولتهم باسم "سبأ وذي ريدان". أما الطرف الثالث في الصراع على السلطة والأرض وهي دولة حضرموت، فقد انتهزت فرصة انفلات الأوضاع وتأزمها بين القبائل فاستولت على مملكة قتبان- وهي التي كانت حليفتها – وذلك لتعزز بهذا الغزو نفوذها أمام القوى المتصارعة.

إلا أن الموقع الجغرافي الذي كانت تحتله مملكة قتبان بين الممالك اليمنية المستقلة الأربع، قد أجج لهيب الخلافات والنزاعات، فهذا الوضع قد فتح أبواب الصراعات الدامية بين كافة الفئات في المنطقة، وعلى الخصوص بين السلطة التقليدية في مأرب وبين القوى القبلية والإقطاعية الطامحة للوصول إلى السلطة عن طريق القتال والحرب والغزو، وأنه باستمرار هذا النزاع الطويل، تحولت فيه مملكة سبأ العظيمة المترامية الأطراف إلى ما يشبه الدولة الداخلية المحصورة، بل والمحتلة والمجزأة السلطة أحيانا أخرى.

وإزاء تلك الأوضاع التي مرت بالوطن اليمني، فإن النظام القبلي والعقلية القبلية لا تفكر بحلول وإصلاح ووحدة مجتمعية، في مواجهتها للمشاكل الاجتماعية الخطيرة، فتفكيرها هو دائماً قبلياً، كما يحدث لنا اليوم تماماً، فتلك العقلية القبلية لم تفكر في بناء الوحدة اليمنية كما كانت من قبل وتبني المجتمع وقوته من خلال هذه الوحدة، وإنما لجأت إلى تحالفات قبلية لتقوية مركزها للانقضاض على القبيلة والدولة الأخرى، وبما أن **التحالفات** القبلية الإقطاعية تتغير وفقا للظروف التي تمر بها مصالح كل قبيلة، لذا نجد أنه في مواجهة الأطراف المتنازعة لوقف المد الحميري الصاعد **تحالفت** سبأ مع حضرموت وفي نفس الوقت **تحالفت سبأ** أيضاً مع **اكسوم (الحبشة)** وشن التحالف الأخير؛ سبأ والحبشة حرباً على قبيلة حمير، مع العلم أن مثل هذا التحالف لم يكن معروفاً من قبل ضمن التحالفات اليمنية القبلية، بشموله التحالفات **مع قوى خارجية**.

لقد أدى تحالف سبأ مع الحبشة إلى إضعاف كل من سبأ وحضرموت معاً، وقوى جانب الحميريين الذين رفضوا التدخل الحبشي الخارجي. لقد ارتكبت الزعامات القبلية السبئية خطأً استراتيجياً جسيماً بتحالفها مع الحبشة الذي أدى إلى إضعاف جانب مملكة سبأ من ناحيتها المادية والمعنوية والأدبية، فكانت من نتيجته أن استطاع الأحباش توطيد أقدامهم في أجزاء

من الساحل اليمني على البحر الأحمر، وعملوا على مهاجمة الأطراف الشمالية الغربية لمملكة سبأ.

ومنذ ذلك التاريخ شهدت أركان المملكة القديمة سبأ موجة من الاضطرابات والقلاقل خاصة مع تراجع هيبة ملوكها أمام طغيان نفوذ أمراء الإقطاعيات، فنشبت الصراعات الدامية، مما أفسح المجال للقوة الحميرية من احتلالها مدينة مأرب عدة مرات، قضت فيها على الأسرة التقليدية في مأرب. فدخلت اليمن في صراع على اللقب الملكي في سبأ، فازدادت سلطة الأقيال في صراعها للوصول إلى الحكم في سبأ بعد أن أخرجت الحميريين منها إلى حين، **على الرغم من** أنها ظلت تحت اسم (سبأ وذو ريدان).

وفي فترة تدخل الأحباش وتفكك الدول المستقلة، كان الحميريون قد سيطروا على القسم الجنوبي الغربي من جنوب الجزيرة ولا سيما مدينة ظفار، حيث أسسوا عاصمتهم في جبال ظفار، بجبل ريدان، المشرف على قاع حقل فسيح في قلب المرتفعات الوسطى، هذه الجبال تؤلف دلتا تخترق الوادي من الشمال إلى الجنوب قبل وصوله إلى السهل. هذه العاصمة هي في موقع استراتيجي، ليست كعواصم الممالك الأخرى ذات الموقع التجاري المشرف على الصحراء والتي تكون هي بذلك أشبه ما تكون **بدول مدن القوافل** التي يخضع ازدهارها وسقوطها للأوضاع التجارية والأطماع السياسية. فعاصمة الحميريين، ظفار، ذات موقع جغرافي وتجاري وبعيدة عن الصحراء وعن هجمات البدو وغارات الأعداء.

ونظراً للضعف الذي انتاب المجتمع اليمني وحكوماته، جعل اكسوم الحبشة تستغل الوضع لتتواجد على الأراضي اليمنية، كانت على سواحلها ثم تابعت تغلغلها داخل اليمن، وقامت بسيطرتها على موانئ البحر الأحمر ومحاصرة الأراضي الحميرية حتى وصلوا إلى مشارف مدينة ظفار عاصمة حمير.

* الغزو الأجنبي هو بصورة دائمة قديمه وحديثه، هو عمل مدمر للوطن. ودليلنا على ذلك هي النقوش اليمنية القديمة التي ذكرت الفتن والحروب والأوبئة والغزوات والغارات التي اجتاحت الأراضي اليمنية كافة في هذه الفترة، إذ نجد ملوك إقطاعيون يحاربون بعضهم بعضاً في حروب طويلة وشرسة، قضت فيها على كثير من السكان وجعلت الآخرين يفرون هاربين خارج بلادهم، فالغزو الأجنبي كان قد قضى على الحكومة المركزية فعمت الفوضى البلاد، كما هو حادث لنا اليوم في العراق والصومال. ويرجع البعض السبب في شراسة القتال إلى إدخال الخيل في الحروب وحلولها محل الجمل، فأدى إلى إحداث تطور خطير في أسلوب القتال، باستخدام البدو للخيل مما جعلهم يمعنون في الغزو والإغارة،ثم الفرار. وكان سهل عليهم الفرار والالتجاء إلى أعماق الصحراء.

ففي هذا العصر الأول للحميريين، كانت دولة معين قد انتهت وضمت أراضيها بعد الغزو الروماني إلى حضرموت، ونتيجة لهذا الغزو أيضاً دب الضعف في مملكة قتبان متأثرة بما وجهت إليها من ضربات من دولة حضرموت التي ضمت ما تبقى من أراضي قتبان إلى مملكتها، فأصبحت حضرموت بذلك جارة إلى كل من سبأ وحمير، كما ذكر من قبل، فمملكة حضرموت قامت بتجميع لبعض الكيانات السياسية، عن طريق القوة والغزو وضم الأراضي والناس المقيمين عليها، مما أعطاها قوة اقتصادية وسياسية التي عرفت بها حضرموت، كما أشرنا إلى ذلك في فصل سابق. إن مثل هذه الوحدة ليست هي الوحدة التي ننشدها اليوم، والتي يجب أن تقوم على الديمقراطية والإرادة الشعبية الحرة، ومن هنا يظهر لنا الفرق بين النظرة القبلية للوحدة القائمة على الغلبة، وبين الوحدة الشعبية التي مبادئها الحداثة والتقدم الحضاري الاجتماعي والاقتصادي، والتي أساسها ديموقراطي دستوري شعبي وليس طائفيا أو قبليا، فإن مصيره الضعف ثم الزوال كما حدث لمملكة حضرموت.

لقد كانت الحروب تجري بين القبائل اليمنية سواء بين تلك التي قد أنهي حكمها **أو** بين القبائل المستمرة في الحكم، في الوقت الذي كان فيه الأحباش **متواجدين** في كل مكان على الأراضي اليمنية، مستغلين الضعف الذي انتاب المجتمع اليمني وحكوماته.

يمكن الاستنتاج من الآلام التي مرت بالشعب اليمني، أن سببها الوحيد هو تفكيك الوحدة، (كما حدث في زمننا عندما قسمت إلى يمن شمالي ويمن جنوبي مستعمر) لقد كانوا في دولة سبئية واحدة (بلدة طيبة)، انقسموا إلى كيانات مستقلة، فضعفوا في مواجهة المشكلات الداخلية والخارجية، وفي مواجهة تلك الأخطار ارتفعت أصوات تنادي بالوحدة، لكن صداها قد ضاع سدى، بعد أن تم تمزيق الأرض والشعب وأصبح من الصعوبة بمكان رتق ما تمزق وإعادة اللحمة وخاصة بعد تدخل القوى الخارجية الطامعة، فبدلا من أن يلتئم شمل الشعب الواحد بسهولة ويسر لمواجهة التحدي الخارجي، دخل الجميع في حروب دامية، فهذا هو ثمن تفتيت الشعب الواحد، وهذا ما هو حادث لنا اليوم بعد التمزيق الاستعماري لوطننا ؟!

لقد أدى الاقتتال بين الممالك اليمنية إلى هجرة أعداد كبيرة من بطون القبائل والعشائر بنزوحها نحو شمال الجزيرة العربية، إلى الحجاز ونجد، وإلى بادية الشام. وسنلاحظ أن هذه القبائل التي تحركت في اتجاه الشمال كانت قد كونت الممالك التي سنتحدث عنها فيما بعد.

هذا الوضع المعقد من الاحتلال الحبشي والصراع بين الممالك ساعد على ظهور قوة جديدة، هي القوة الحميرية. أشرنا إلى أنه سبق أن تحالفت سبأ والحبشة في محاربة قبيلة حمير، وبما أن هذه القبيلة استطاعت الوصول إلى حكم مأرب وكونت حكومة (سبأ وريدان) فساعدها هذا على مد نفوذها إلى كثير من بقاع اليمن، ولم يتبق أمامها سوى إخراج القوة الحبشية من الأراضي اليمنية، فعملت على بناء قوتها؛ بتحصين موانئها

المتواجدة فيها وبناء أسطول قوي ساعدها في القضاء على الوجود الحبشي، وقد تحقق ذلك عندما قام الحميريون المتحالفون مع سبأ بحملات عسكرية ضد الأحباش وضد من كان يساندهم من الزعامات القبلية، مما نتج عنه وقف انتشار الأحباش في داخل اليمن، وقد أمكن إجبارهم على الرحيل فيما بعد، وكان ذلك في منتصف القرن الثالث الميلادي تقريباً، وبذلك انتهى ما سمي بالغزو الحبشي الأول.

إنه منذ أن كون الحميريون مملكة (سبأ وذي ريدان) واحتلوا العاصمة سبأ، فإنهم قد عدوا حضرموت منذ ذلك العهد أرضًا تابعة لمملكتهم وخاضعة لحكمهم، ليس لها استقلال ولا ملوك، ومعنى هذا أنهم قد خططوا لتوسيع رقعة أرض (سبأ وذي ريدان) لتشمل أراضي حضرموت ومنها القسم الجنوبي الغربي من جزيرة العرب من باب المندب حتى حضرموت، مشمولة بموانئ عدن وقنا.

وقد استفاد الحميريون من تحالفهم مع سبأ الذي ساعد على إخراج الأحباش، فوجد الحميريون أنه لم تتبق من الدول المستقلة سوى حضرموت، فقامت الدولة الحميرية بالتحرش بطرق تجارة حضرموت ولا سيما طريق (شبوة- قنا) المؤدي إلى المدن الجنوبية والساحل. ثم غزت أراضي حضرموت واحتل ملك حمير شبوة العاصمة، فأضاف إلى لقب أسلافه في مملكة (سبأ وذي ريدان) أضاف إليها (حضرموت ويمنت) في القرن الرابع، وعليه فقد توحدت الأراضي اليمنية كلها تحت سيطرتهم، حيث "يمنت أو يمنات" تعني الجنوب، ولذلك سمى العرب جنوب الجزيرة "اليمن"، وهي عكس ما تعني كلمة "شامت" التي تعني الشمال (وقد تكون كلمة (الشام) التي تعني الشمال، وهي بالنسبة لليمن في شمالها، قد تسمت بهذا الاسم)، وأغلب الظن أن كلمة يمنت (الجنوب) في تسمية تلك المملكة، تشير إلى الأجزاء الساحلية الجنوبية.

وبتلك الصورة وعلى ذلك النحو تكون الأراضي اليمنية قد توحدت في الدولة الجديدة التي جعلتها تحت سيطرتها **بغلبة** اتحاد قبيلة حمير على بقية القبائل في الممالك السابقة. وتجدر بنا الإشارة هنا أيضاً، إلى أن الوحدة القبلية تلك هي ليست الوحدة العربية التي نسعى إليها في وقتنا الحالي، كما سبق توضيح أسبابها عندما جرى الحديث في فصل سابق عن مملكة حضرموت، فالوحدة العربية المرجوة يتم بناؤها على أساس ديموقراطي شعبي، وعلى أساس دستوري برلماني، وليس على أساس غلبة قبيلة على أخرى، فالتجارب السابقة والحالية للوحدة العربية قد ثبت فشلها لأنها لم تبن على قواعد دستورية/ برلمانية/ ديموقراطية، نابعة من إرادة شعبية خالصة.

وعلى أية حال فإن تلك الدولة الحميرية الجديدة تكون قد جمعت الكيانين سبأ وحمير ضمن سلطة واحدة عاصمتها واحدة في ظفار، وانتهت سبأ كعاصمة عندما انتقل مركز الثقل السبئي فيها من مأرب إلى ظفار.

وبهذه الصورة أصبحت دولة حمير، وقد دخلت عصرها الثاني، هي الوارث **لدولة سبأ** التي كانت الكيان السياسي الموحد لأجزاء اليمن في الألف الأول **قبل الميلاد** وعاصمتها مدينة سبأ، التي يحمل ملوكها لقب المكربين ("مكرب" مفرد).

وبذلك تكون الدولة الحميرية في هذا العصر هي الكيان السياسي الأكبر لليمن **بعد الميلاد** منذ نهاية القرن الثالث الميلادي، وعاصمة ملكها مدينة ظفار، ويحمل ملوكها لقب التبايعة و"تبع" مفرد. كانت إدارتها تتألف من مخالف عديدة (جمع مخلاف هي مقاطعة أو إقليم) يحكمها أقيال وأذواء (رؤساء ومحافظو المقاطعات) مالكو الأراضي وزعماء القبائل، وهؤلاء إدارياً مستقلون بشؤونهم، لكنهم يعترفون بسيادة **ظفار** عليهم. وإنه على الرغم من هذا التقسيم الإداري إلا أنه لم يعد النشاط التجاري إلى ما كان عليه قبل نشوب الصراعات بين الدول المستقلة، ولا نعجب إذا وجدنا أن

قسماً من النشاط التجاري اليمني قد انتقل إلى مدن الحجاز وموانئها، وإلى مناطق أخرى في الجزيرة العربية، التي كانت محطات للتجارة اليمنية، كما سيمر بنا فيما بعد.

وهكذا نرى أنه بإخراج الأحباش من الأراضي اليمنية في منتصف القرن الثالث، تم ضم الأراضي الحضرمية، وتم توحيد اليمن تحت قيادة واحدة، تدار بحكم مركزي، فقبل نهاية القرن الثالث الميلادي، كانت الدولة في اليمن قد اتخذت اسماً طويلاً، ازداد في القرنين الخامس والسادس الميلاديين ليصبح " **ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمانة وأعرابهم طودا وتهامة**". كلمة "طود" تعني الجبل العظيم، ولكنه يقصد بها عسير في نقوش المسند، فهي أرض عسير والسراة ذات الجبال العالية. يبدو أن الغرض من ازدياد اللقب ما هو إلا لإرضاء القبائل في مختلف المناطق، ومعضلة ذكر الأسماء تظهر في أي تجمع عربي وهي لا تزال قائمة حتى الآن، فأي اتحاد أو تعاون عربي فإن كل أسرة وكل قبيلة تريد ذكر اسمها، كما حدث لمملكة حضرموت القديمة تماما.

* إلا أنه منذ بداية القرن الرابع الميلادي دخل إلى الجزيرة العربية وجنوبها، وإلى الحبشة، حدث جديد؛ هو **صراع الديانات**، وبرز ذلك في الوقت الذي قام فيه صراع بين الديانات التوحيدية السماوية والمعبودات الوثنية. الديانتان التوحيديتان هما اليهودية والمسيحية، والمعبودات الأخرى هي الوثنية المتعددة الآلهة لمعتنقيها.

وقد برزت تلك الصراعات بوضوح عندما اعتنقت الإمبراطورية الرومانية الديانة المسيحية، ونشبت الخلافات في داخل روما بين الديانة المسيحية التوحيدية والوثنية، ثم انفصلت إلى إمبراطورية رومانية شرقية وغربية.

لكن الإمبراطورية الرومانية التي اتخذت المسيحية عقيدة لها لم تسلم من الخلافات المذهبية الطائفية بين المسيحيين أنفسهم، فأثرت الخلافات المذهبية المسيحية في كل المناطق التي هي تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية أو خارجها.

إلا أن الصراع الرئيسي الذي اتخذ طابعاً سياسياً/ دينياً هو الذي جرى بين الإمبراطورية الرومانية المسيحية وبين الإمبراطورية الفارسية التي تعتنق الوثنية الزرداشتية، وقد ظهر ذلك بوضوح في الجزيرة العربية، وذلك لأن الصراع بين القوتين الرومانية والفارسية الديني/ السياسي كان قد اتخذ أبعادا مختلفة تركت آثارها على الوضع في الجزيرة العربية خلال الفترة منذ القرن الرابع الميلادي حتى فترة ظهور الإسلام، وهذا ما سيتم تناول جانب منه في الفقرات التالية :

شيء عن الإمبراطورية الرومانية الشرقية-البيزنطية (الروم)

كنا قد توقفنا بحديثنا الموجز عن بداية الإمبراطورية الرومانية في المشرق العربي، عندما غزا الرومان الأراضي اليمنية متعاونين مع الأنباط العرب المتحالفين معهم وذلك في الربع الأخير من القرن الأول قبل ميلاد السيد المسيح (ع).

وإنه عند مولد السيد المسيح كان الرومان في القدس، يحكمون شمال الجزيرة العربية؛ الشام ومصر. وبظهور دعوة السيد المسيح التي ورثت الكثير من المعتقد اليهودي، المنادية بعبادة بإله واحد الذي هو الرب الروحي للبشرية، وكان أول من اصطدم معهم هو السيد المسيح (ع) في بداية دعوته في فلسطين، ذلك لأن اليهود كانوا ينتظرون مسيحاً يهودياً (محارباً) يخلصهم من ظلم الرومان، لا أن يبشرهم بدين جديد، وهم الذين يعتقدون بأن دينهم وشعبهم هو "شعب الله المختار" .

وأنه لدواعي سياسية واستراتيجية، في حوالي عام 70 ميلادية خرب الرومان بيت المقدس، وفي 105 ميلادية استولى الرومان على البترا عاصمة الأنباط، وكونوا المقاطعة العربية (الكورة العربية) فضمت البتراء وغيرها من مدن الصحراء ضمن هذه المقاطعة، وجعلوا عاصمتها **مدينة بصرى** في جنوب سورية.

استمرت روما وثنية في ديانتها ومعبوداتها، حتى مجيء الإمبراطور قسطنطين في مطلع القرن الرابع الميلادي، الذي اعترف بالمسيحية ديانة شرعية في الإمبراطورية الرومانية، واتخذ **مدينة بيزنطا** عاصمة ثانية للإمبراطورية الرومانية وأصبح اسمها "مدينة القسطنطينية" .

كانت روما قد تأسست في القرن **الثامن قبل الميلاد** وكانت قد **استوطنتها القبائل اللاتينية**، ولم تظهر قوة روما في الغرب إلا بعد أن تم إخراج القرطاجيين من روما (القرطاجيون هم الفينيقيون الذين انتقلوا من السواحل السورية في لبنان إلى قرطاجة في تونس والذين كانوا يسيطرون على شمال إفريقيا وإسبانيا). كانت قرطاج دولة تجارية وكانت تملك مناجم الفضة والقصدير في إسبانيا، وكانوا قد عبروا جبال الألب من شمال إسبانيا واستولى القرطاجيون على روما، وكان نفوذهم قوياً في إسبانيا والجزر الرومانية، إلا أنه بتجميع الرومان لقوتهم أمكنهم هزيمة الفينيقيين القرطاج، بعد حروب ثلاث سميت "بالحروب البونية". بعدها تمكن الرومان من احتلال مدينة مملكة قرطاجة فهدموها انتقاما لما لاقوه من مقاومة شعبية لم يستطع فيها الرومان احتلال الأراضي القرطاجية إلا بعد جولات من الحروب بين الطرفين .

تكونت الإمبراطورية الرومانية وتوسعت في أنحاء أوروبا الغربية، وكانت الإمبراطورية الرومانية قد اتخذت النظام الجمهوري نظاماً سياسياً لها، إلا أن هذا النظام قد أنهاه العسكر في ثلث القرن الأخير قبل الميلاد،

عندما نشب صراع بين الديموقراطيين الجمهوريين، مع القادة العسكريين، انتهى بانتصار القادة العسكريين الذين أصبحوا قياصرة روما، واستمر القياصرة يحكمون الرومان إلى أن تم تقسيمها الى إمبراطورية غربية وأخرى شرقية في نهاية القرن الرابع الميلادي .

لكن الحكم الروماني قد انتهى في الغرب (في روما) في الربع الأخير من القرن الخامس الميلادي بعد زحف **القبائل الجرمانية** على روما التي أسقطت الإمبراطور الروماني واستولت على السلطة، فبسقوط روما التي كان عمرها أكثر من ألف عام، انتهت الإمبراطورية الرومانية الغربية، وقد اعتبر كثير من كتاب الغرب أن فترة سقوط روما هو بداية التاريخ الوسيط للغرب، كما عزا بعضهم سبب سقوط روما إلى تحولها من الوثنية إلى المسيحية.

وبعد سقوط روما اقتصرت الإمبراطورية الرومانية على الجانب الشرقي منها في بيزنطة (مدينة إغريقية يونانية على ضفة البسفور)، التي نجت من هجمات القبائل الجرمانية وقبائل أخرى، وهذه الإمبراطورية الشرقية هي التي عرفت بعد انتقالها إلى القسطنطينية، بالإمبراطورية البيزنطية (آسيا الصغرى). فالإمبراطورية الرومانية الشرقية التي تعرف بالبيزنطية، كانت تحكم دول اليونان والبلقان وآسيا الصغرى وكل إفريقيا الشمالية بما فيها مصر، وكذلك العراق والشام بما فيها فلسطين، وقد حاولت هذه الإمبراطورية استعادة مجدها في روما بعد احتلال القبائل لها، إلا أنها فشلت بعد نجاحها المحدود، فبقيت في الجانب الشرقي منها.

كانت بيزنطة الأناضول (آسيا الصغرى) جزءا من الإمبراطورية الرومانية عندما اتخذت المسيحية ديناً رسمياً لها في القرن الرابع الميلادي في عهد الإمبراطور قسطنطين، الذي سمى العاصمة الثانية للإمبراطورية الرومانية باسمه، كما مر بنا، مما ساعد على انتشار المسيحية في

الإمبراطورية، إلا أنه قد صاحب ذلك انتشار الفرق والطوائف المسيحية بين معتنقيها مما استدعى من هذه الطوائف عقد العديد من المؤتمرات والمجامع الكنسية لحل الخلافات الناشبة، وبالذات الخلاف بين طوائف مسيحية شرقية وطوائف أخرى غربية، وقد تمحور بعضها حول الأقانيم الثلاثة للمسيحية؛ الأب والابن والروح القدس، التي هي خلافات كهنوتية هدف كل منها زيادة الإيمان وتثبيت التوحيد والإصلاح.

وقد عرفنا بعضاً منها بقراءتنا للكتاب القيم: "المسيحية والعرب" لمؤلفه الاستاذ الكبير نقولا زيادة، مع قراءة غيره من الكتب؛ فالخلاف حول وصف السيد المسيح (ع) هل هو ذو طبيعة واحدة أم طبيعتين؛ بشرية إلهية؟ وقد عقد في ذلك الوقت مجمع مسيحي في القسطنطينية إلا أنه لم يقض على الخلاف بألوهية المسيح وانه ابنه، وأمور أخرى حيث انقسمت على **اثرها** المذاهب المسيحية .

نشير إلى أن هذا كله ليس هو ضمن مجال معرفتنا، وأن الهدف من عرضنا له هو للوصول إلى كلمة (الروم)، ونعتقد أن كلمة الروم لها علاقة بكلمة (الهيلينية) التي كانت تعني الفترة السياسية والثقافية الممتدة منذ وفاة الإسكندر الأكبر في 323 ق.م. حتى فتح الرومان للأناضول (بيزنطة) في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد. في هذه الفترة أخذت روما من الثقافة الإغريقية، فاختلطت فيها الثقافات الرومانية بالإغريقية، وظهر ذلك جلياً في الأناضول (الشرق)، حيث تم تطبيق الأنظمة القانونية والإدارية والثقافية الأغريقية والرومانية فيها، فأنتجت ثقافة جديدة سميت بالهيلينية وتسميتها تعود إلى اليونان/ الإغريق، فالإمبراطورية الرومانية التي كانت مترامية الأطراف في ذلك العهد، كانت قد انقسمت – كما مر بنا ــ إلى إمبراطورية غربية وأخرى شرقية، وحيث إن الجزء الشرقي منها كان في الأصل يونانيا إغريقياً، فقد **أثر** هذا على النواحي الثقافية في الجزئين الرومانيين؛ فما كان إلا أن أخذت الإمبراطورية الغربية بالثقافة اللاتينية، و أخذت

الشرقية بالهيلينية. وبعد انهيار العاصمة الرومانية الغربية في نهاية القرن الخامس، بدل المسيحيون الشرقيون لغتهم من اللآتينية إلى اليونانية .

من ذلك يتضح أن الهيلينية فيما تعنيه هما شعبا **اليونان، والإيطاليين،** الذين خلفوهم، وتعني لغتهم وثقافتهم، وهذا المزيج ترك اثره على المنطقة العربية التي (تهيلنت)، أي أصبحت ذات طابع يوناني هيليني، فالرومان قد حلوا سياسياً مكان اليونان الإغريق في المنطقة، إلا أن الطليان **اللآتين** لم يلغوا اللغة اليونانية، فصارت اللغتان معاً ضمن منظومة اللغات الحية في المنطقة العربية. وهذا يدلنا على مدى الثراء والغنى الثقافي واللغوي التي كانت متمتعة به حضارتنا العربية، فمن هذه اللغات تمت نهضة الترجمة من اليونانية إلى العربية في العصر العباسي، مثلا، و التي هذه عادت أيضا للغرب عن طريق العرب، و هكذا يتضح ان الثقافات الإنسانية مثل الأواني المستطرقة ينتقل كل منهما إلى الآخر عبر النشاط البشري.

لقد كان العرب في الجزيرة العربية والشام ومصر وشمال إفريقيا يعرفون أربع طوائف مسيحية؛ من بينها الطائفة الأرثوذكسية (تعني الاستقامة والرشد) الذين كان العرب يسمونهم (**الروم**) ويسمون اليوم (**الروم** الأرثوذكس)، (وقد تم تداول هذا الموضوع في الآونة الأخيرة لعلاقته ببيع أوقاف مسيحية إلى صهاينة في القدس المحتلة)، فالروم الأرثوذكس هم الذين غلبت الثقافة الهيلينية عليهم، فاتخذوا اللغة اليونانية في قداس صلواتهم وكتابتهم ولم يتخذوا لغة (الروم)، التي هي اللغة اللآتينية اليونانية، كما يظهره مذهب الروم الأرثوذكس، على الرغم من الارتباط الثقافي باللغتين. أما من ناحية الأقباط المسيحيين المصريين فقد اتخذوا لغتهم القبطية في صلواتهم، وباقي العرب الشماليين المسيحيين (الغساسنة وغيرهم) فصلواتها بلغتهم وكتابتهم التي هي اللغة الآرامية، التي كانت في زمن المسيحية عرفت بالسريانية، وتعتبر هذه اللغة وكتابتها وحروفها من مكونات اللغة

العربية، مع العلم أن السريانية لا تزال موجودة حتى اليوم في سورية، ويقال أنها اللغة التي تحدث بها السيد المسيح (ع).

* في الفقرات السابقة تحدثنا بإيجاز شديد عن الإمبراطورية البيزنطية الشرقية، التي ارتبط اسمها عند العرب بكلمة (الروم) وهي التي تعني طائفة مسيحية، جذورها رومانية يونانية، إن حديثنا في هذا الموضوع ما هو إلا تمهيد لما سيأتي ذكره عن العصر الثاني للمملكة الحميرية وتأثرها بالصراع الديني/ السياسي الذي نشأ في جنوب الجزيرة اعتباراً من القرن الخامس الميلادي.

فالصراع الديني الذي نشأ في الجزيرة العربية كان أمراً جديداً على أبنائها، ذلك لأن البدوي الإعرابي بطبيعته متديناً. لقد حملته سعة أرضه وفقدان معالم العمران فيها وتطوافه وحيداً في البراري والقفار، جعلته يرهب خالقاً يتعبد إليه، ويكفي الإشارة إلى أن الديانات التوحيدية السماوية مصدرها فلسطين وأرض الجزيرة العربية.

لقد كانت الديانة عند العرب، بصورة عامة، محددة معالمها في الوثنية، إذ كان أغلب العرب في الجزيرة العربية يؤمنون بثالوث مقدس: الشمس والقمر والزهرة. فقد اتخذ العرب هذه الظواهر الطبيعية معبودات لهم، لمعرفتهم بمواقع النجوم وحركاتها وتقديرهم للفائدة التي تعود عليهم منها، فهم يعرفون حركتي الشمس والقمر، وحركة الكواكب والنجوم، التي ينتفعون بها في حسابهم للأيام والشهور ومواسم الفصول. فالكواكب والنجوم والأقمار هي هاديهم ومرشدهم في غسق ليل الصحراء البهيم، وهي رفيقهم ودليلهم في أسفارهم الطويلة.

هذه المعبودات كانت منتشرة بين سكان المنطقة العربية وما حولها، الذين أطلق عليهم التوراتيون تسمية (الساميون) نسبة إلى سام بن نوح –

سواء صحت كلمة الساميين أم لا- فإن هؤلاء هم قوم النبي نوح (ع)، الذين جاء من بعدهم قوم النبي إبراهيم (ع) الذي حثهم على عبادة الله وحده، إلهاً واحداً، وطلب منهم ألا يتخذوا من هذه الظواهر الطبيعية معبودات لهم، وأن تقتصر عبادتهم لله خالق الشمس والقمر والنجوم وجميع المخلوقات.

لقد وجد أهل هذه المنطقة، ومنهم المنطقة العربية؛ أسماء لمعبوداتهم تتناسب مع مجتمعاتهم سواء كانت زراعية أم صحراوية، رعوية أو تجارية، و تتناسب مع حاجات قبائلهم، فإلى جانب الكواكب والنجوم، عبدوا الحجر والأشجار وغيرها، فاختلاف مسميات المعبودات لهم لا يغير من مدلولها، وهي **عبادتهم للأوثان**.

فعندما نشب الصراع الديني في القرن الرابع الميلادي في الجزيرة العربية، كان لكل قبيلة عربية صنمها ومعبوداتها الوثنية التي لها أماكن عبادتهم وتجمعهم حيث تقدم للمعبودات الأوقاف والنذور والأضاحي وتحرق في مباخرها البخور والطيب، وإلى جانب تلك كانت توجد معبودات أخرى منها:

المجوسية: تعتنقها بعض القبائل العربية في حضرموت وفي شرقي الجزيرة العربية في مناطق تواجد وكلاء الأكاسرة الفرس، ومعابدهم هي بيوت النار، وهم يعتنقون الزرداشتية.

الزندقة: ديانة مصطلحها تعني النور والظلام وتعني أيضاً مفهوم الدهرية، يقفون موقفاً رافضاً لفكرة البعث والنشور، وهناك بعض القبائل أو أفرادها كانوا يعتنقون هذه الديانة حتى مجيء الإسلام.

الأحناف: ديانة على مذهب إبراهيم الخليل (ع)، تؤمن بالإله الواحد، وبالبعث والحساب يوم القيامة، ومنهم أفراد من قبيلة قريش، وهؤلاء كانوا أول المؤمنين بالدعوة المحمدية.

في العرض السابق تمت فيه الإشارة إلى بعض المعبودات والديانات التي كانت سائدة لدى العرب لآماد طويلة، إلا أنه عندما تم خلط الجانب الديني بالجانب السياسي في القرن الرابع الميلادي، عمل هذا على (خلط) الأوضاع جميعها في بلاد اليمن والجزيرة العربية. فالروم والأحباش اتخذوا المسيحية سلاحا ضد الفرس المعتنقة للوثنية ــ مع أن خلافهم السياسي قديم منذ ما قبل حروب الإسكندر ــ كما اتخذوها أيضاً مبدأً وعقيدة في حربهم مع الحميريين الذين كانوا قد اعتنقوا اليهودية، وفي الفقرات التالية سنتناول شيئًا عن الديانتين التوحيديتين اليهودية والمسيحية وذلك في حدود معرفتنا والغرض الذي يفي بحاجة موضوعنا في هذا المقام.

شيء عن اليهودية له علاقة بموضوع حديثنا :

نحاول في فقرات قليلة تالية أن نعرض لشبابنا شيئا عن اليهودية، مستخلصة من عدة كتب، منها قراءتنا للكتاب القيم: "التوراة جاءت من جزيرة العرب" لمؤلفه الأستاذ: كمال صليبي.

القبائل العبرية جاءت من الجزيرة العربية، مثل كل **الملل السامية**، حيث السامية هي تعبير وتقسيم لشعوب وضعها التوراتيون (أصل التسمية هو **سام** بن نوح أحد أبناء نوح (ع) الثلاثة، المرتبطة بقصة سفينة نوح). يعتقد أن هذه القبائل بعد ترحالها من الجزيرة العربية وصلت إلى بلاد ما بين النهرين وأقامت أولاً في مدينة (أور) السومرية على نهر الفرات،وكانت ترعى قطعان الماشية، وبعد ذلك بزمن قام النبي إبراهيم (ع) بقيادة قافلة العبرانيين الذين ساروا بمحاذاة نهر الفرات في سورية، وواصلوا السير حتى تمكنوا من بلوغ ضفتي نهر الأردن.

وحوض الأردن في ذلك الوقت يتواجد فيه الكنعانيون الذين تربطهم أواصر بالفينيقيين الساحليين، لكن العبرانيين الرعاة وجدوا الأرض التي

وصلوا إليها أرضاً فقيرة في مرعاها فتوجهوا إلى مصر الغنية بأرضها الخصبة ومزروعاتها، إنه نهر النيل العظيم، وأنه بتواجد العبرانيين في مصر تكاثر عددهم فخرجوا من مصر متوجهين مرة أخرى إلى حوض نهر الأردن "الأرض الموعودة" وقاد هجرة الخروج النبي موسى (ع)، فضلوا الطريق وتاهوا طويلا عبر المناطق الصحراوية في سيناء، وفي هذه الفترة أعطى النبي موسى (ع) "ألواح الشريعة"، الوصايا العشر، إلى **القبائل اليهودية** عند طور سيناء (جبل سيناء)، وبعد تجوال وتيه في الصحراء أوصلهم موسى(ع) إلى تخوم أرض فلسطين. ويقص سفر يشوع، كيف تم الاستيلاء على أرض كنعان (المرتفعات الشمالية لفلسطين) بعد خمس سنوات من القتال معهم؛ جرى فيها إفناء معظم الكنعانيين من قبل العبرانيين وتحويل من تبقى منهم إلى عبيد. ويقص هذا السفر من التوراة كيف تمت قسمة أرض فلسطين بين أولاد يعقوب (إسرائيل) الإثني عشر، الذين غدوا بدورهم آباء **لاثنتي عشر قبيلة،** استوطنت عشر قبائل منها الهضاب الشمالية (السامرة) وقبيلتان الهضاب الجنوبية (يهودا). وكانت هذه القبائل تعتنق الديانة التي كتبت في ألواح موسى في سيناء، هذه القبائل أصبحت في دولة واحدة في زمن كل من: شاؤول وداود وسليمان، وآخر من حكم الدولة الواحدة هو النبي سليمان (ع) الذي جاء ذكره في سورة سبأ.

* لقد قمنا بمرور عاجل وسريع على تاريخ وأحداث العبرانيين، حسبما توافرت لدينا من معلومات لندخل بها إلى "متحف" تاريخ فلسطين، لنلتقط منها صورا تمهد لحديثنا ضمن الفقرات التالية.

في بداية هذا الكتاب ذكرنا نبذة عن زيارة ملكة سبأ إلى فلسطين وكان ذلك تقريباً في القرن العاشر قبل ميلاد المسيح (حسب التوراتيين) إلا أنه خلال تلك الفترة وبعدها حكمت بلاد ما بين النهرين، ووادي النيل، عدة سلالات، احتلوا فيها فلسطين في فترات مختلفة، إلى أن جاء الفرس

الأخمينيون، وبعد هزيمتهم جاء الإسكندر الأكبر، وبعد وفاة الأخير جاءت الإمبراطوريات الإغريقية السلوقية والبلطمية، ومن بعدهم حلت الإمبراطورية الرومانية محل من سبقها من القوى المذكورة.

وفيما يتعلق بالقبائل اليهودية، فإنه بعد النبي سليمان (ع)، الذي يفترض أنه قد جاء في القرن العاشر قبل الميلاد حسب الروايات التوراتية، أو القرن الثامن ق.م. حسب تقدير الآثاريين، فإنه في نهاية القرن الثامن ق.م. احتلت الإمبراطورية الآشورية فلسطين **فأجلوا** عائلات يهودية من الهضاب الشمالية في (السامرة)، وفي القرن السادس قبل الميلاد احتلت الإمبراطورية البابلية فلسطين أيضاً وأخرجوا اليهود من الهضاب الجنوبية (يهودا) ونقلوهم إلى بابل في بلاد ما بين النهرين.

يلاحظ أن تهجير الشعوب من أماكن إقامتها إلى مناطق أخرى، كان نظاما متبعا من قبل القوى الغازية القديمة والحديثة أيضاً، حيث ينقل السكان إلى أماكن تكون للقوة الغازية السيطرة المباشرة فيها عليهم، كما حدث ويحدث في فلسطين، فبعد الغزو الإسرائيلي في عام 1948، واغتصابهم للأرض الفلسطينية، تم السبي والتهجير للفلسطينيين العرب، هؤلاء لا علاقة لهم بما حدث للعبرانيين قبل ألفين وخمسمائة سنة؟! لقد اتخذوا من الفلسطينيين فدية وتضحية لهوس تاريخي توراتي تقوده الصهيونية العالمية، المرتبطة بالإمبريالية الدولية.

وإنه بعد مضي ما يقرب من خمسين عاما على إبعاد وتهجير أو سبي العائلات اليهودية في القرن السادس ق.م.، أعادهم الفرس إلى فلسطين فعادوا إلى وضعهم الديني والسياسي، وبمجيء الرومان إلى المنطقة اصطدموا مع ساكني مدينة القدس فسكن اليهود بعد تشتتهم على أيدي الرومان مواقع جديدة ما بين فلسطين ويثرب، وفي الحجاز واليمن وفي اليمامة وغيرها في الجزيرة العربية.

وهكذا فإن القبائل اليهودية في فلسطين، كانت في كل مرة تتعرض فيها للصراع على السلطة بين قبائلها، أو تدخل في نزاع أو حروب على أرض فلسطين مع الغير أو من الخارج، كان الملجأ إلى تلك القبائل هي مدن وأراضي الجزيرة العربية من شمالها إلى جنوبها. فبعد تصفية مملكتهم "السامرة" من قبل الآشوريين، في الربع الأخير من القرن الثامن ق.م. و في مطلع القرن السادس ق.م. عندما قضى البابليون على مملكة "يهودا"، وبعد حروبهم مع السلوقيين، ثم مع الرومان في القرن الأول وبداية القرن الثاني بعد ميلاد المسيح، كان ملجأهم الساحة العربية وشعبها.

ففي كل هذه المرات كان ملجأ القبائل العبرانية هي الأراضي العربية؛ فعاشت قبائلهم في اليمن ويثرب ضمن تكوين النسيج الاجتماعي القبلي العربي، واحتفظوا فيها بمعتقداتهم الدينية، وممارستهم لنشاطهم الاقتصادي والاجتماعي العربي، حتى أن مؤرخاً كبيراً وهو ارنولد توينبي، اعتبر اليهودية فرع من الحضارة السريانية العربية في سورية.

كل هذه العلاقة اليهودية ستظهر لنا–على سبيل المثال– عند حديثنا عن الفترة الأخيرة لحكم مملكة حمير في اليمن، ودخولها في حرب مع قوى خارجية بسبب اعتناقها للديانة اليهودية.

شيء قليل عن المسيحية له علاقة بموضوع حديثنا:

ولد السيد المسيح عيسى بن مريم (ع) في بيت لحم في فلسطين، وسكن الناصرة، ولذلك أطلق العرب على المسيحية (النصرانية) نسبة إلى الناصري، كما فهمنا، وكان أول من آمن بالمسيحية هم أهل فلسطين والشام ومصر. وانتشرت المسيحية بين الأنباط والمناذرة والغساسنة العرب، وعلى الرغم من وصول المسيحية إلى روما عن طريق حواري المسيح (ع) العرب، في القرن الأول الميلادي، إلا أن الإمبراطورية الرومانية لم تعترف

بها ديانة رسمية إلا في القرن الرابع الميلادي، أما المسيحية في الجزيرة العربية فقد انتشرت عبر طرق التجارة وعن طريق التبشير حيث رافق المبشرون المسيحيون الأعراب، وعاشوا عيشتهم وسكنوا مساكنهم، حتى سموا بأساقفة أهل الوبر، فانتشرت المسيحية في اليمن ونجران والحجاز وشرق الجزيرة العربية.

وباعتناق الإمبراطورية البيزنطية للديانة المسيحية قامت بصورة رسمية بمهمة التبشير بالمسيحية وبناء الكنائس فاتخذت بذلك العقيدة المسيحية مظهراً رسمياً، وكان الأحباش في تلك الفترة قد اتخذوا المسيحية ديانة لهم للعلاقة التي كانت تربطهم بالأقباط المصريين، فأصبحت الديانة المسيحية ديانة رسمية لمملكة اكسوم.

فعلى أساس الرباط الديني أصبح الأحباش على علاقة وطيدة ببيزنطة وأخذوا ينفذون سياساتها في جنوب الجزيرة العربية، فبيزنطة التي هي الفرع الروماني القديم الذي سبق له مهاجمة اليمن، فإن سياستها لم تختلف عن الرومان الذين ورثت منهم الملك والسلطان، والتي كانت تلك السياسة تهدف إلى احتلال الجزيرة العربية والسيطرة على طرقها التجارية. فالتقت هنا أهداف مملكة أكسوم (الحبشة) مع أهداف الإمبراطورية البيزنطية في الغايات الإستراتيجية السياسية والدينية في جنوب الجزيرة العربية، ولهذا نجد هذين الحليفين، قد توجها بكل ثقلهما وتعاونهما في بناء الكنائس في الجزيرة العربية والإشراف عليها، والتبشير بالمسيحية، ومحاربة ما عداها من العقائد.

* وقبل مواصلة حديثنا، نشير إلى أن شعب الجزيرة العربية ولزمن بعيد قبل القرن الرابع الميلادي قد عرف وتعايش مع معبودات، ذكرنا بعضها وهي: الوثنية والزرداشتية والزندقة، وديانات الأحناف واليهودية

والمسيحية،فذلك الخضم من المعبودات والديانات موجودة ومتعايشة بين القبائل وضمن نسيج المجتمع العربي، فلم تكن سبباً في خلق صراعات دينية، إذ كان المجتمع العربي يتقبلها لكونها تمثل أحد عناصر التأثر والتأثير بعوامل التجارة وعوامل الحركة والتنقل بين القبائل والشعوب على طرقها المنتشرة داخلياً وخارجياً، وبراً وبحراً. فالتجارة ينتقل معها كل شيء يخص الحياة، المادي والروحي، وعلى هذا النحو كانت الجزيرة العربية مجالا رحبا لكل هذا المزيج من الديانات والعبادات.

لكن الجزيرة العربية عندما دخلت ضمن موازين الصراع بين القوى الكبرى المتمثلة وقتها في بيزنطة والمتحالفة معها الحبشة، التي كانت أهدافهما إلى جانب نشر الدين المسيحي، هدفهم التوسع التجاري،الذي سبق لكل منهما أن عبرتا عنه بغزوهما للأراضي العربية، فإن هذه المصالح التوسعية التجارية والإستراتيجية، كانت تلاقيها منافسة مماثلة في الأهداف من قبل الإمبراطورية الفارسية التي ديانتها المجوسية.

هذه المنافسة وهذا الصراع ليس جديداً على القوتين، إذ إن جذورها عميقة في تاريخ الصراع الاستراتيجي بينهما، فالرومان وهم خلفاء الإغريق قد ورثوا عداءهم التقليدي للفرس التي سبقت الإشارة إليه، وأنه بدخول العنصر الديني في الصراع، فإن هذا قد أضاف بعداً جديداً للصراع بينهما. فأصبح الصراع بين القوتين الشرقية والغربية، هو صراع مصالح اقتصادية تجارية سياسية، مصبوغة بصبغة دينية.

يعتقد أنه في الوقت الذي وصلت فيه الديانة المسيحية إلى جنوب الجزيرة العربية، من ناحيتها السياسية، في القرن الرابع الميلادي، كانت الديانة اليهودية التجارية والسياسية قد سبقتها ضمن قبائل يهودية منتشرة في مدن الحجاز ومنها مدينة يثرب، والفرق بين الديانتين هو أن ملوك مملكة حمير قد اعتنقوا الديانة اليهودية وأصبحت ديانة رسمية لهذه المملكة العربية، على

الرغم من أنه لا يعرف الوقت ولا الملوك ولا كيفية اعتناقهم لها، وما عرف عنها هو أنه في القرن السادس الميلادي كان ملك مملكة حمير معتنقاً للديانة اليهودية، وهو ما نتجت عنه الأحداث اللاحقة في جنوب الجزيرة.

* استغلت الحبشة المعتنقة للمسيحية مراكز الكنائس المسيحية التي شيدها لهم الروم في أراضي جنوب الجزيرة العربية، فتحركوا تجاه المملكة الحميرية اليهودية.

فملوك أكسوم في هضبة التجري في الحبشة لم ينسوا الفترة التي سيطروا فيها على سواحل اليمن في القرن الثالث الميلادي، فاستغلوا الأحداث الجديدة الداخلية والخارجية التي كانت تمر بها المملكة الحميرية، فرجعوا ثانية في الربع الأول من القرن الميلادي السادس، مستغلين النزاعات الناشبة بين بيزنطة والفرس التي كانت في قمة حدتها في شمال الجزيرة العربية، ومستفيدين من الدعم الذي يلقونه من الإمبراطورية البيزنطية. فتحرك الأحباش كانت تدفعهم غايات عدة؛ التجارة والتبشير والمسيحية وموازين الصراع بين القوى الكبرى.

فشن الأحباش في بداية القرن السادس أكثر من حملة على المناطق الساحلية اليمنية، واستولوا على موانئها الرئيسة، بل أنهم استولوا على ظفار عاصمة المملكة الحميرية في حضرموت، وقاموا بتدعيم حامية لهم في نجران، التي اتخذها المسيحيون معقلاً لهم، يضاهي المركز الذي لليهود في مدينة يثرب في الحجاز.

فمدينة نجران لم تعد للأحباش مركزاً دينياً مسيحياً في جنوب الجزيرة العربية فقط، وإنما كانت لهم نجران مركزاً تجارياً احتلوه لوقوعه على طريق القوافل العالمية، ويعني ذلك أن احتلال الأحباش للمراكز التجارية اليمنية قد سبب أضرارا فادحة للحضارمة الحميريين، وخاصة في نجران. فالتجارة هي عماد حياة المنطقة وحرمان اليمنيين منها معناه الحرب، فجاء تحرك

الحميريين مرتبطاً بنواحي اقتصادية تجارية وبنواحي سياسية متمثلة في الاحتلال، وبنواحي دينية.

* لقد تحرك الحميريون بقيادة ملكهم يوسف أسار أو يثار (يوسف ذو نواس) الذي قام بحملات مضادة، اشتبك فيها مع الأحباش في معارك طاحنة على كافة المواقع المحتلة من السواحل اليمنية حتى نجران، فألحق بالأحباش هزائم متلاحقة، كانت الغلبة فيها أول الأمر لذي نواس، الذي أحرق كنائس الأحباش في ظفار، وفي الأماكن التي تعقبهم فيها.

ولما كان أهل نجران لم يرتضوا ترك دينهم المسيحي، اعتبرهم الحميريون أنهم متعاونون مع المحتلين الأحباش، فما كان من ذي نواس إلا أن قام بهدم وتدمير كنائسهم، كما قام بإحراق وقتل المؤمنين بالمسيحية سواء منهم الأحباش أو غيرهم، بعد أن حاصرهم في أخدود نجران (الأخدود هو الشق المستطيل من الأرض، ويقع عادة بين الجبال). فجاءت تلك المعارك الشرسة والعنيفة المشبعة بالانتقام السياسي/ الديني لتعجل بانسحاب الأحباش من الأراضي اليمنية.

لقد وصلت أخبار تلك الأحداث الأليمة إلى بيزنطة، التي يعتبر إمبراطورها أنه حامي المسيحية، فطلب الإمبراطور البيزنطي من ملك الحبشة التدخل العسكري، فأرسل نجاشي الحبشة حملة عسكرية ضخمة مدعومة بسفن بيزنطية، عبرت البحر الأحمر واكتسحت أراضي مملكة حمير، وبذلك عاد الأحباش مرة أخرى لغزو واحتلال الأراضي اليمنية بعد فترة من طردهم منها وجاءت هذه المرة بمساندة بيزنطية.

وإنه بهزيمة وموت الملك الحميري يوسف ذي نواس في نهاية الربع الأول من القرن السادس الميلادي، انتهت المملكة الحميرية وانتهت معها الممالك اليمنية التي استمرت لقرون عديدة، وأصبحت اليمن تحت حكم الحبشة التي عينت عليها والياً حبشياً، وأصبحت الديانة الرسمية لها هي المسيحية.

امتدت أطماع والي الحبشة "أبرهة" إلى منطقة الحجاز، وهي المنطقة التي بدأت تنمو فيها التجارة أكثر من غيرها، فأعد حملة عسكرية استخدم فيها الفيلة، وكان هدفه مكة المكرمة التي فيها الكعبة التي يحج إليها العرب، وتنتشر فيها الأسواق وذلك في حوالي عام 570 ميلادية (تاريخ مولد النبي محمد (ص)، لقد كانت مكة تزخر بالنشاط التجاري والديني فطمع الأحباش في الاستيلاء عليهما معا، إلا أنه قد رد على أعقابه، كما جاء في سورة الفيل : "ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل؟ " الآيتان: 1 و 2 .

كان لفشل حملة أبرهة على الحجاز (مكة المكرمة) دافعاً لقيام سيف بن ذي يزن الحميري **بالثورة** على الأحباش، فتوجه إلى الفرس أعداء البيزنطيين، للحصول منهم على المساعدة والدعم لإخراج الأحباش من اليمن. وبما أن القوة الفارسية كانت متواجدة في الخليج العربي وفي خليج عمان، استطاع سيف بن ذي يزن بمساعدة دولة الفرس الساسانية وحلفائها من عرب بادية العراق من المناذرة، أن يحقق أهل اليمن انتصارهم على الأحباش بعد خمس سنوات من فشل حملة أبرهة على مكة المكرمة.

لقد وجد الفرس في احتلالهم لليمن فرصة لمنعِ الروم من السيطرة عليها من جهة، كما أنهم وجدوا في هذا الاحتلال تحقيقاً لأطماعهم في الاستيلاء على خيرات اليمن، وعلى الطرق التجارية البرية والبحرية، كما فعلت الدول الأجنبية الأخرى، فدبّر الفرس قتل سيف بن ذي يزن، وحكموا اليمن حكماً مباشراً، وعلى الرغم من الثورات اليمنية التي قامت ضد الاحتلال الفارسي، وما نجم عنها من تقليص سيطرتهم حتى **أصبحت** لا تتعدى مدينة صنعاء في بعض الفترات، إلا أنهم استمروا في حكم اليمن حتى مجيء الإسلام.

* ويمكننا أن نستخلص العبر والدروس من الأحداث التي ذكرت من مضامين الفقرات التالية :

1. في القرن الثالث الميلادي خاض الحميريون معارك مع الأحباش فأخرجوهم من اليمن، وكان هذا النصر من العوامل التي ساعدت على قيام المملكة الحميرية. وإن عودة الأحباش في بداية القرن السادس الميلادي إلى الشواطئ والأراضي اليمنية، واحتلالهم إلى العاصمة الحميرية ظفار، شكل إهانة إلى قيادة المملكة الحميرية وإلى القبائل المتحالفة معها.

2. أن احتلال الأحباش للموانئ اليمنية، واحتلالهم لمدينة نجران، ذات المركز التجاري، سلب الأحباش التجارة اليمنية البحرية والبرية من أيدي الحميريين. فالحصار الاقتصادي الذي فرضه الأحباش هو في معناه خنق المجتمع، وأصبح مثل هذا الحصار، في مجتمع كاليمن قائم على التجارة، بمثابة دعوة لحرب طاحنة قوامها الدفاع عن النفس والبقاء على الحياة.

3. لقد جاء الاحتلال الحبشي في ظروف دولية معقدة؛ حروب في شمال الجزيرة بين الفرس والروم، كل منهما يحتل أراضي الطرف الآخر، مثل لعبة الكراسي المتحركة، وكان وقودها عرب الشمال في دولتي المناذرة والغساسنة.

4. لقد جاء الاحتلال الحبشي في ذروة الصراع الديني بين المسيحيين أنفسهم من جهة، وبينهم وبين الغير من جهة ثانية، وكانت القيادة الحميرية المعتنقة للديانة اليهودية قد وجدت أن التبشير المسيحي وبناء الكنائس المسيحية في بلادها، فيه تحد لمعتقدها.

5. لقد تشابكت في تلك الأحداث الجوانب السياسية الدولية بالجوانب العسكرية الحربية والحروب التجارية، مع الإيديولوجيا والعقائد الدينية، فجاء الرد الحميري على غزو واحتلال مملكة أكسوم للأراضي اليمنية، في ذلك الوقت، متضمناً ومشبعاً بكل تلك العناصر والعوامل مجتمعة، جاء عنيفاً وسريعاً، بتدمير الكنائس المسيحية، ومحاصرة وحرق الأحباش ومن يواليهم.

6. صحيح أن تلك الأساليب العنيفة قد طردت الأحباش من أرض اليمن، إلا أنها تركت استنكاراً واسعاً في العالم المسيحي، ولم تكن الظروف الدولية

والدينية تسمح لبلد مستهدفاً ومحتلاً أن يقوم بأفعال حرق المعادين له في الأخدود، حتى ولو نظر إلى من قاموا بتلك الأعمال على أنهم محقون في طردهم الغزاة من أراضيه، حسب مفاهيم تلك الأيام.

7. لقد جاء رد فعل القوى الكبرى عنيفاً وسريعاً أيضاً، فالإمبراطور الروماني البيزنطي الذي يعتبر نفسه حامي حمى المسيحية والمسيحيين، تبنى هذا الرد بنفسه، حسب نقوش آثار المسند التي عثر عليها. فالدعم المادي والمعنوي واللوجستي الذي حصلت عليه مملكة أكسوم الحبشة قد أعادها لاحتلال الأراضي اليمنية مرة أخرى، وتم فيه القضاء على من حاربهم الحامل للعقيدة اليهودية. فأعاد الأحباش المسيحية إلى اليمن، وتولوا حكمها المباشر.

8. فإذا كانت أحداث "أصحاب الأخدود" تركت آثارها على القوى المسيحية، إلا أن الرد العسكري الجارف من قبل الأحباش المتحالفين مع الروم في إسقاط، بل إنهاء، المملكة الحميرية التي هي آخر الممالك اليمنية، فإن الحملة العسكرية الحبشية الأخيرة في احتلال اليمن، تركت دوياً كبيراً لدى العرب في كل مكان تردد صداه لقرون عديدة في أرجاء الجزيرة العربية وبين قبائلها التي لا ترضى ولا تصبر على ضيم الاحتلال.

9. ومما زاد الأحداث سوءاً هي الحملة العسكرية التي قام بها الوالي الحبشي "أبرهة" لاحتلال مكة وهدم الكعبة، وهي المركز الديني لكل القبائل العربية، ومدينة مكة هي مثابة للناس وأمناً ومركزاً تجارياً هاماً للعرب بعد اضمحلال تجارة الممالك اليمنية، فما قام به أبرهة لقي معارضة قوية من قبل العرب جميعا أيضا.

10. تلك الأحداث مجتمعة جعلت من الزعيم القبلي الحميري سيف بن ذي يزن، يتوجه إلى القوة الفارسية الساسانية، المنافسة لقوة الروم البيزنطية، فحصل على مساعدتهم، وتحرر اليمنيون من الاحتلال الحبشي، فتنفس العرب الصعداء بإزاحة هم الاحتلال من على صدورهم، فصار ذو يزن يلتقي الوفود

العربية القادمة له من أنحاء الجزيرة العربية التي كانت تقدم له التهاني على إنهاء الاحتلال الحبشي.

11. لقد اعتبر العرب عموماً واليمنيون بوجه خاص، أنهم قد حققوا نصراً نتيجة تحالفهم مع الفرس، إلا أنه خاب ظنهم عندما انقلب عليهم الحليف إلى محتل؛ فقد قتل الفرس سيف بن ذي يزن واستولوا على اليمن.

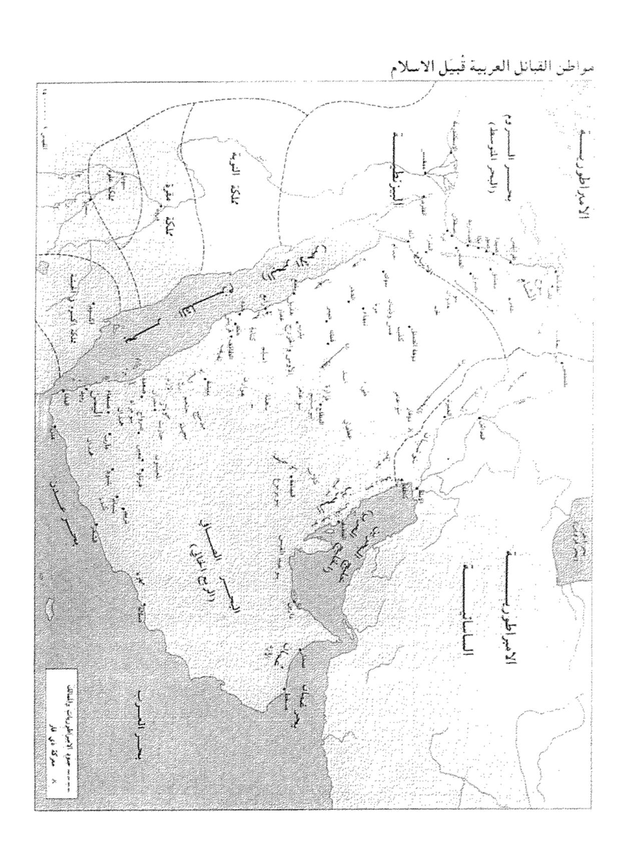
12. فالحكاية اليمنية القديمة تعود إلينا اليوم في العراق في أزهى صورتها، إذ اعتقد بعض العرب أن في دعوتهم للإمبراطورية الأميركية وحلفائها لاحتلال أرض العراق اليوم سيجلب لهم المنّ والعسل والديموقراطية، إلا أن تلك الأحلام الوردية الكاذبة ـ التي تدل على الجهل بحوادث التاريخ- قد ضاعت أمام حقيقة أن الاحتلال الأميركي البريطاني وغيره هدفه تدمير العراق وتمزيق أهله، وتهديد أمن المنطقة واستغلالها اقتصادياً واستراتيجياً خدمة للأهداف الصهيونية بالقضاء على الانتفاضة الفلسطينية المظفرة وإخضاعها لأمر الصهيونية.

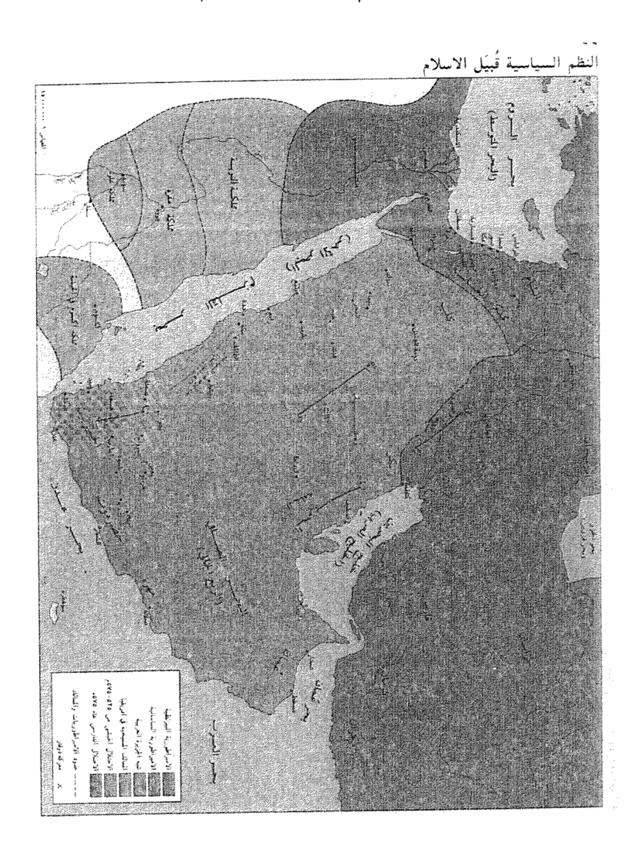
* وما هو عالق في الذاكرة الجمعية الشعبية العربية هو تواتر أخبار قصة حملة أبرهة الفاشلة على مكة، وما قام به سيف بن ذي يزن من تحريره لليمن. كما أنه عالق بالذاكرة الشعبية العربية ما قامت به القيادات الحضرمية والحميرية التي حققت كثيرا من الإنجازات الحضارية والوحدوية، تلك الأحداث لا تزال عالقة في الذاكرة الشعبية العربية (الحكواتية) التي تبالغ في رواية أبطالها وانتصاراتهم، فهذه هي عادة الشعوب تذكر وتؤرخ للانتصارات الكبيرة لشعوبها.

* سيتضح للقارئ من الشباب العربي لفقرات من هذا الفصل مدى قرب القارة الأوروبية من (القارة) العربية، وبالتالي قرب الشعب العربي من الشعوب الأوروبية ماضياً وحاضراً، فالتقارب الجغرافي أوجد تقارباً تاريخياً خلق في نهاية المطاف تلاقحاً فكرياً وثقافياً ولغوياً وحتى دينياً، منذ أقدم العصور، ولا ننسى بالطبع أن هذا الجوار قد خلق أيضاً في فترات كثيرة،

قديمة وحديثة، نزاعات وصراعات بين كلا الضفتين، وهو أمر طبيعي بين المتجاورين، إلا أنه من خلال كل تلك التفاعلات الكثيرة والطويلة المدة، قد أوجدت حقيقة فريدة وهي أن كلا الطرفين بحاجة للآخر؛ إقتصادياً وتجارياً وثقافيا وغيرها، لقد كانت تلك العلاقات في سابق الأزمان مبنية على أساس الندية وليس الخضوع والقهر والاحتلال؛ كانت الحضارة العربية الشرقية القديمة هي البادئة في تقديم عطائها الفكري، ثم تبعتها الحضارة الغربية الحديثة، وأن علينا الآن أن نقتبس من حضارتهم كما أخذوا من حضاراتنا؛ من المصرية والفينيقية، ومن السومرية والأكادية والآشورية والبابلية، ومن **اليمنية** وغيرها، فسقيانا الآن من روافد الحضارة الغربية لبعض حقول أرضنا الجافة، هو واجب إنساني وهو ما يقتضيه التطور البشري في كل زمان ومكان. وعلى هذا النسق، ليست في دعوات التغريب، الداعية إلى توجهنا نحو الغرب، كما ليست في الدعوات التي تقابلها من دعوات التشريق، وهي ألمطالبة بفصم العلاقة مع الغرب والإبقاء على ما نحو نحن عليه من ماض تليد، كلا الدعوتين ليستا على درجة من الصواب بل مجانبة للواقع، وفيهما إهانة وخيانة لأمانة حضاراتنا العربية التي كانت تأخذ وتعطي. إن حقيقة مشكلتنا مع الغرب هو باحتلاله واستعماره **لأرضنا** واستغلاله لمواردنا، وهو لا يزال كذلك، إلا أن ما يقوم به الغرب تجاه أوطاننا وشعوبنا، لن يمنع شبابنا العربي، بل أن ذلك يزيده إصرارا، في توجهه بقيامه بواجبه الملقى على عاتقه في التحدي الحضاري المطلوب منه ليقف بالندية العلمية والتكنولوجية أمام الضفة الغربية، ولن يصبح في مقدور مجتمع ومؤسساته الشبابية تحقيق ذلك إلا ببنائه لمجتمع الديمقراطية العربي، المحقق لمطالب العدالة وحقوق الإنسان وفي مقدمتها حقوق المرأة العربية.

مواطن القبائل العربية قبيل الاسلام




النظم السياسية قُبيل الاسلام

الفصل الثامن

مكة القديمة؛ مدينة تجارية ودينية.

سبقت الإشارة إلى أن سقوط مملكة حمير وقبائلها في اليمن، الذي جاء نتيجة غزو واحتلال أجنبي، قد أحدث هزة كبيرة في كل أرجاء الجزيرة العربية بصفتها آخر الممالك القبلية التي ورثت الممالك الأربع الكبرى التي سبقتها. إلا أن ذلك الحدث لم يفت في عضد العربي ويمنعه من تقدمه التجاري والحضاري، ذلك لأن العربي يعرف أن حضارات متقدمة وقوية في الشمال لها أطماع في موارد جزيرته، وكان يدرك (ولا يزال) أن منطقته تعتبر هدفاً لأطماع القوى الكبرى الخارجية التي تهدف للسيطرة على مواردها الطبيعية وطرقها التجارية والتحكم في مقدراتها، إلا أنه يدرك في الوقت ذاته، أن غزوات المعتدين على شعب وأراضي الجزيرة العربية مصيرها الفشل الذريع، فالعوامل والأسباب التي تمنع المحتلين من الاستمرار في مخططاتهم؛ الرومان والأحباش والفرس، تعود إلى الموانع **الطبيعية** الجغرافية والبشرية الاجتماعية المتمثلة في موطن الجزيرة العربية والتي منها على سبيل المثال:

ـ إن العرب (الأعراب) يعرفون طبيعة جزيرتهم الصحراوية. فأمواج (محيطات) رمال الصحارى العربية، وطرقها وممرات جبالها ووديانها وبواديها، تعتبر مستحيلة وعصية على غير العربي اختراقها والتحكم بها.

ـ ويعرف العرب طبيعة البحر الأحمر، بمرتفعات سواحله الصخرية التي تنحدر إلى البحر انحداراً شديداً وقصيراً من ناحية (جبال السراة)، كما وأن هناك مناطق واسعة من ساحل الجزيرة العربية على البحر الأحمر، تحصنها صخور مرجانية تفتك بالسفن التي تتجاسر وتقترب منها، فكأن تلك الصخور قد وضعت في تلك المواضع **موانع** لتحمي الساحل من وصول الأجانب إليه. فلا يعرف التحرك والإبحار في هذا البحر سوى أهله العرب.

ـ ويعرف العرب (الأعراب) أهمية **الطرق البرية** التي تمر ببوادي بلادهم، هذه الطرق كانت هي شرايين الحياة التجارية العالمية بالنسبة لتلك الأزمنة البعيدة، فعمل العرب على التحكم في مسالكها، كما استغلوا **أهمية المياه**- مصادرها وينابيعها وآبارها- بالنسبة للقوافل والجيوش، إذ إنه ليس في وسع أي جيش أو قافلة تجارية قطع البادية من غير ماء.

ـ بل إن العرب كانوا قد عرفوا كيفية الاستفادة من الفرص المواتية، الناشئة من النزاع المستمر بين الرومان والفرس، فقاموا بتحركهم التجاري والسكاني القبلي إلى مناطق الخصب في شمال الجزيرة العربية.

ـ والعرب يعرفون أن نهايات الطرق البحرية الآسيوية والإفريقية هي بوصولها إلى جنوب الجزيرة و الخليج العربي، وأن نهاياتها على الطرق البرية العربية هي بوصولها إلى الشواطئ الفينيقية على البحر المتوسط، فأبقوا التجارة العالمية في أيديهم وهيمنوا عليها، فأحسنوا تهيئة القوافل التجارية وتسهيل طرقها البحرية والبرية وإقامة المستوطنات الصحراوية.

فمعرفة العرب بتلك العوامل الطبيعية والبشرية مجتمعة، جعلتهم أكثر إدراكا ووعياً بحقيقة أن وحدتهم تحقق لهم المصلحة المشتركة في اقتسامهم المنافع التجارية، وأن وحدتهم هي وسيلتهم في حماية تجارتهم من اعتداء المعتدين، وبالذات من قبل القوى الكبرى.

* فما جاء ذكره أعلاه، ما هو إلا إشارة إلى أن الإنسان العربي القديم هو على دراية ومعرفة بكافة الإمكانات الطبيعية المادية لبيئته، وإمكاناته وقدراته البشرية. وهو على هذا الأساس قد عمل بنظرية "التحدي والاستجابة" في ظهور وبناء وإنشاء حضارته التجارية.

ولهذا عندما سقطت مملكة حمير على يد الغزاة اعتبر العربي أن الذي سقط هو النظام ولم يسقط المجتمع، كما اعتبر أن سقوط هذا النظام من قبل محتل قد جاء في ظروف معينة محلية وخارجية، والعرب نظروا إلى ذلك الاحتلال على أنه قد وقع في طرف وقسم جغرافي عزيز من أرض الجزيرة وليس في أرض الجزيرة كلها، وأن على النشاط التجاري أن يستمر في أقاليم أخرى من الأرض العربية الواسعة؛ إقليم شواطئ الخليج العربي، وإقليم اليمن، فانتقل نشاطه إلى إقليم الحجاز.

كان العربي القديم في الجزيرة العربية لا يعتمد على أنظمة الحكم لديه، وإنما كان يعتمد على وحدة أرضه، ووحدته التجارية، ووحدة أو تحالف قبائله الاجتماعية، هذه الوحدة كانت عونه على حل كافة مشاكله التي يتعرض لها من غزوات خارجية؛ رومانية، حبشية، فارسية، بل نجد أن تلك الغزوات الأجنبية كانت تزيده حرصاً وتصميماً في زيادة الحماية لطرقه ومستوطناته.

فأساليب الغزو والعدوان الأجنبي جعلت من أبناء عرب الجزيرة أكثر صلابة وإيماناً بحريتهم ووحدتهم التجارية والثقافية واللغوية، لقد كانت الغزوات الأجنبية على الرغم من مرارتها إلا أنها جعلتهم ينتقلون ويتحركون في فضاء أرضهم الواسعة، منتشرين على طول خطوط الطرق لحماية قوافلهم التجارية، وحماية الطرق البرية التجارية، وحماية المستوطنات الصحراوية التي نشأت وتكونت كالعصب الحساس في الجسم، أي حدث خارجي يحدث فيها وأي حدث ينشأ في أي من المستوطنات

العربية، كان يعتبر جرس إنذار لهم من احتمال وقوع الخطر عليهم جميعا، هذه المعرفة والعلم وهذا النشاط هو الذي أسس المدن التجارية، هو موضوع حديثنا في هذا الفصل.

ولهذا نجد أنه أثناء وبعد الحروب الأجنبية الأخيرة في اليمن، تحرك سكانها وكونوا تجمعات تجارية كبرى في إقليمي **الحجاز ونجد** وفي مدن أخرى، عملت هذه التجمعات على قيام أسواق عامة كبيرة في العديد من مدنها؛ التي ازدهرت ونما نشاطها التجاري والاجتماعي مما أدى بالتالي إلى قيام حكومات مدن بها.

وبما أن وسائل الاتصال كانت هي الطرق البرية التي مر بنا شرحها، فإن كل من إقليمي الحجاز ونجد قد نشأت **مدنهما** وإماراتهما على هذه الطرق البرية التجارية. وحيث أن أساس موضوعنا في هذا الفصل هو الحديث عن مدن في هذين الإقليمين، وبالذات عن مدينة مكة التي كانت أنشط تلك المدن التجارية حتى القرن السابع الميلادي عند ظهور الإسلام، فإنه للتعرف على أهمية الإقليمين للطرق التجارية، سنبدأ فيه بمرور سريع وعاجل على موقعهما وطبيعتهما، وسيتم الحديث عن مدنهما في فقرات لاحقة.

إقليم الحجاز:

يذكر العرب أنها سميت الحجاز لأن **جبالها** تشكل **حاجزاً** بين الأرض العالية في شرقهِ وهي نجد، وبين الساحل الواطئ في غربه وهو **تهامة** التي تمثل السهول الممتدة بين جبال السراة والبحر الأحمر، فالحجاز إذاً: هي تلك الجبال الممتدة من خليج العقبة إلى عسير جنوبا، واقعة في غرب منطقة شبه الجزيرة العربية التي تتكون منها منطقة الحجاز واليمن.

فتحرك السكان ورأس المال والتجارة والأعمال الحرفية والصناعية الخفيفة، من مدن اليمن إلى مدن الحجاز، بعد الظروف التي مرت باليمن

من عدم الاستقرار؛ على الأرواح والأموال، جاءت جميعها كوضع اعتيادي لمجتمع قائم على التجارة والمال، وخاصة وأن أرض اليمن والحجاز تمثلان كل منهما للأخرى امتداداً طبيعياً كما مر بنا أعلاه؛ جغرافياً وسكانياً وتجارياً. فالحجاز ومدنه وناسه هم جزء لا يتجزأ من جنوب الجزيرة، وأن كلا منهما كان يلعب دوره التاريخي مكملاً ومتناغماً في إيقاعه مع الدور الذي يقوم به القسم الآخر.

أما إقليم نجد:

فنجد هي الأرض المرتفعة، ومنطقة نجد بعضها بادية وبعضها صحراء وأراضيها تصل إلى **اليمامة** على الخليج العربي وتتصل بأرض الجنوب تجارياً وبشرياً. فالأحوال السياسية التي جرت في جنوب اليمن، قد دفعت بفروع بعض القبائل إلى هذا الإقليم الواقع في وسط الجزيرة العربية، والتي تمثل أرضه وطرقه منطقة تواصل بين كافة جهات الجزيرة العربية؛ ففي شماله الشرقي يقع حوض نهري دجلة والفرات، وفي شماله بادية الشام والأراضي السورية، وفي غربه أراضي الحجاز ومدنه الرئيسية، والجهة الأهم بالنسبة لهذا الإقليم هي الواقعة في شرقه، لأنها أراضي شواطئ الخليج العربي المتصلة به عضوياً؛ بشرياً/ سكانياً، ومائياً، بمعنى أن هذا الإقليم الأخير هو الذي يروي ينابيع شواطئ الخليج العربي بالماء العذب، هذا الموقع الجغرافي المميز لإقليم نجد هو موقع متميز أيضاً للنشاط التجاري والبشري الذي استفاد منه التحرك السكاني القبلي اليمني في تلك الفترة الزمنية، كما سبق أن مر بنا.

* فالموقع الجغرافي لكل من إقليمي الحجاز ونجد كانا من العوامل الهامة في قيام **المدن التجارية** التي تحولت إلى ممالك مدن تجارية والتي سنتحدث عنها لاحقاً بعد حديثنا المقتضب عن **المدن التجارية الشمالية** للجزيرة العربية التي كان يطلق عليها (سورية الجنوبية)، ويلاحظ من الآثار

التي تركتها لنا حتى اليوم، أن تطور تلك المدن السياسي والاجتماعي قد صاحبه قيام مؤسسات إغريقية مثل مجلس العموم ومجلس الشيوخ والمجمع العام، إضافة إلى أبنية ذات وظيفة ثقافية مثل المسارح الكبيرة والصغيرة، إن مثل هذه المؤسسات قد لا نجدها في كثير من المدن التي قامت داخل الجزيرة العربية.

فتناولنا الحديث عن ممالك المدن الشمالية العربية، يكمل حركة **الدورة التجارية** في الجزيرة العربية المرتبطة عضوياً بحركة التجارة في جنوبها التي سبق تناولها. فالممالك العربية الشمالية في حقيقتها قد **نمت** بفعل التجارة العربية في **جنوبها** من أراضي؛ عمان واليمن والحجاز ونجد، ومن شرق الجزيرة العربية أيضاً.

وبهذه الكيفية تكون المدن العربية **الشمالية** قد نشأت ونمت ثم تحولت إلى ممالك، كل ذلك كان سببه التجارة العربية التي أتتها من **كافة** أرجاء الجزيرة العربية.

* وكما سبق أن ذكرنا، أن أرض الجزيرة العربية هي منذ القدم تمثل **نهايات الطرق البحرية** التجارية من الشرق البعيد؛ الهند والصين، ومن إفريقيا، التي تصل سفنها محملة بالبضائع إلى ثغور وموانئ الجزيرة العربية المنتشرة على شواطئها الطويلة الجنوبية، فتنقل قوافل الجمال بضائع تلك الشعوب عبر أراضيها إلى أن تنتهي بها في فلسطين وموانئها القريبة من مصر، وكذلك في الساحل الفينيقي الشامي الذي يؤدي بدوره إلى موانئ ومدن عالم البحر الأبيض المتوسط وأوروبا. فالنهايات البحرية التجارية القادمة من الشرق الأقصى، تنتهي في جنوبها، ثم يعاد نقلها براً إلى **بدايات بحرية جديدة** طريقها هي المدن الأوروبية في حوض البحر الأبيض المتوسط، وكان يقوم بهذا النشاط التجاري البحارة الفينيقيون العرب أيضاً.

فهذه النهايات للطرق البحرية في جنوب وشرق الجزيرة في الخليج العربي، ثم النهايات للطرق البرية عبر الجزيرة العربية إلى أوروبا، هي

بداية ضرورية ولازمة للتجارة العالمية، لم تكن وليدة الصدفة الطارئة، وإنما مثّلت كياناً حياتياً لشعوب القارات القديمة الثلاث ليس في تعاملها التجاري؛ في البيع والشراء والمبادلة والوساطة التجارية فحسب، وإنما في الزراعة والصناعات اليدوية والمهنية كذلك، وكل ما يدر مورداً ورزقاً لهذه الشعوب أيضاً، لقد كان هذا التبادل التجاري مصحوباً بالتبادل الثقافي والمعرفي واللغوي والديني، وأن التجارة العربية القديمة في معانيها تعني ذلك كله، كيف لا تكون التجارة كذلك، وهي التي قامت عليها حضارات العالم القديم، وأن الأرض العربية كانت تمثّل أحد محاور نشاطها وحركتها.

وأنه بقدوم الإسكندر الأكبر إلى الشرق وتكوين إمبراطوريته الواسعة، اتخذ التجار العرب هذا الحدث فرصة مواتية لاتساع وزيادة تجارتهم وتحركهم السكاني. كما أنه بعد وفاة الإسكندر الأكبر وتصاعد الحروب بين البطالمة والسلوقيين، فقد مثّلت تلك الحروب فرصة سانحة انتهزتها القبائل العربية لزحفها من الجنوب نحو الشمال. فالتوسع التجاري والزحف السكاني العربي جاء أيضاً بعد أن تفتت مملكة السلوقيين وتقلص سلطانها.

ولقد كان الزمن الذي أصاب فيه الضعف سلطان السلوقيين في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، كانت اليمن قد شهدت فيها أحداثاً كبيرة، كما مر بنا، أدت إلى نزوح جموع سكانية قبلية اتجهت إلى الشمال، فتلك الظروف السياسية في جنوب الجزيرة وفي شمالها، هي التي شجعت الجموع العربية إلى النزوح نحو مواطن الخصب والكلأ في مناطق مختلفة في الجزيرة العربية وبالذات في شمالها.

في فصول سابقة تناولنا الحراك التجاري القديم في جنوب الجزيرة العربية، وفي كتاب سابق تناولنا النشاط التجاري القديم في الإقليم الشرقي من الجزيرة العربية. فهذا **الحجم الهائل** من العلاقات التجارية المحلية والعالمية، في الشرق والغرب، هو الذي كون حضارات مدن تجارية، تحدثنا عن بعضها في الجنوب، ولكن مدناً كثيرة أخرى ممتدة على طول

الطريق التجاري مارة بالحجاز ونجد، ومدن أخرى على أطراف شمال الجزيرة العربية، كلها لم نتطرق إليها بعد، مع أنها مهمة لإكمال حديثنا عن ممالك المدن التجارية العربية، وحضارتها في الجزيرة العربية.

لقد تطلب قيام المدن والقرى في تلك الأزمنة البعيدة، توافر عناصر العيش فيها، التي هي بشكل عام، تقوم عادة في الواحات الخصبة، وفي الأودية الغنية بمراعيها، وبنخلها وزرعها ومياه عيونها الجارية، ذلك لأن طرق القوافل القديمة هي شريان الحركة التجارية، التي تغذي بنشاطها الحياة الحضرية في المجتمعات. فهذه القرى والمدن التي اتخذها رجال القوافل التجارية محطات لهم، إذا توافرت فيها عناصر الحماية والمعيشة فإن رجال التجارة يتخذونها منازل إقامة لهم، مؤقتة أو دائمة، فتنمو هذه المحطات؛ مالياً واقتصادياً وسكانياً وعمرانياً واجتماعياً وثقافياً، وتستمر كذلك حتى تغدو تلك المدن التي عرفت ونعرفها اليوم. وسنتناول بعضها في فقرات تالية.

وإذا كانت مدن البدايات التجارية، ومدن النهائيات؛ ونعني بها مدن جنوب الجزيرة العربية ومدنها الشمالية، هي الأسرع تطوراً والأقدم نشأة، من مدن وسط الجزيرة العربية تقريباً، إلا أن المدن الأخيرة قد لعبت أدواراً كبيرة سياسية واقتصادية ودينية في فترات زمنية متفاوتة، وخاصة في فترة ما قبل ظهور الإسلام. وإذا كانت **المدن الشمالية** (سورية الجنوبية) ليست هي بموضوعنا في هذا الكتاب، إلا أنه للمساعدة في ربط حديثنا عن مدن الحجاز ونجد، وجدنا من المفيد أن نمر على نشأة المدن العربية الشمالية، في صورة سريعة، لتكتمل الصورة والرؤية الواضحة عما نتحدث عنه عن المدن والممالك التجارية في كل من نجد والحجاز اللتين كانتا هما الصلة والحلقة الوسطى التي شكلت الدورة الكاملة للتجارة العربية القديمة، ولهذا ندعو الشباب العربي أن يدخل معنا "متحف" و"معرض" هذه المدن العربية التي سنتحدث عنها في عرض مختصر، وفقا لما يلي :

1. شيء عن مملكة الأنباط:

النبط هو الوادي، والأنباط هم مجموعة من **القبائل العربية** تكتلت في أعالي الحجاز في منطقة شرق الأردن، فنزحت في القرن السادس **قبل** الميلاد واحتلت وادياً كان سكنا لقبائل في المنطقة، وكان استقرارهم في البتراء التي اتخذوها عاصمة لهم. (العاصمة هي التي تعصم وتحمي سكانها من الأعداء).

والبتراء، وبموجب آثارها القائمة حتى اليوم، هي بقعة من قطعة واسعة من الحجر الصلد يبلغ ارتفاعها حوالي ثلاثة آلاف قدم، محاطة بشواهق عالية من الصخور، بحيث يستحيل التوغل إليها إلا من شق أخدود، هو ممر ضيق متعرج. كانت فيها عيون غزيرة. ومعنى البتراء باليونانية هي الصخر، بطرا، وأن اسم بطرس قد اشتق من هذه الكلمة. أما اسمها الحديث فوادي موسى.

والبتراء في وضعها الطبيعي هذا، تمثل موقعاً استراتيجياً، كانت محطة مهمة للقوافل القادمة من جنوب بلاد العرب صوب فلسطين والشام ومصر وصولاً إلى البحر الأبيض المتوسط من جهة، ومن جهة أخرى هي محطة ترانزيت قديمة للتجارة مع العراق وفارس وشرق الجزيرة العربية على الخليج العربي.

كانت رواحل القوافل تحط في البتراء لتتزود بالماء والطعام وحيوانات النقل، ولينالوا بها قسطاً من الراحة من سفرهم البري الصحراوي الطويل. فهذه المدينة، على الرغم من أن نشاطها البارز هو التجارة والاقتصاد، إلا أن شعبها قد خلق منها مدينة متحضرة بأنشطتها الاجتماعية والدينية. فبنوا فيها المسارح والمعابد والقصور، التي كانوا قد حفروها جميعا في تلك الكتل الصخرية الضخمة.

كانت مملكة الأنباط قد حافظت على استقلالها لزمن طويل في وجه الآشوريين والفرس والإغريق، إلا أنه بعد مناورات طويلة، من كر وفر مع

الرومان، أدت في مطلع القرن الثاني الميلادي إلى إنهاء الرومان لهذه المملكة وعاصمتها البتراء، فأعاد الرومان على أثرها التنظيم الإداري للمنطقة، حيث أصبحت جنوب سورية ولاية عربية عاصمتها بصرى، وهي التي كانت سوق نبطية. ولأهمية البتراء ومملكتها السابقة من الناحية التجارية، فقد حلت في المنطقة دولة عربية أخرى لتقوم بجانب من النشاط التجاري والسياسي الذي تميزت به دولة الأنباط، وتلك الدولة هي التي ارتبطت علاقاتها بالروم، التي هي دولة الغساسنة.

2. شيء عن مملكة الغساسنة:

هي فرع من قبيلة الأزد اليمنية ويعتقد أن اسم فرع القبيلة هذا مأخوذ من عين ماء سقوا منها في بداية رحيلهم من اليمن كان اسمها غسان، في تهامة. وتنقلت هذه القبيلة في بداية ترحالها في داخل أراضي الجزيرة العربية، إلى أن ألقت برحالها في الجنوب الشرقي لمدينة دمشق على مقربة من الطرف **الشمالي لطريق التجارة**، وكونوا دولتهم مع القبائل العربية المقيمة في المنطقة، واتخذت من مدينة بصرى في حوران عاصمة لهم، والتي جعلها الرومان عاصمة للكورة العربية (مجموعة مدن عربية في المنطقة).

اشتغل الغساسنة بالزراعة فاستغلوا مياه حوران التي تتدفق من أعالي الجبال في الزراعة، فعمرت القرى والضياع، كما عمروا البوادي وأقاموا فيها القصور.

وفي القرن الثاني الميلادي وعلى إثر زوال مملكة الأنباط، قامت هذه الدولة **بدور الوسيط** التجاري بين هذه المنطقة والمناطق المتاخمة في اتجاه الجنوب؛ من شمال الجزيرة العربية إلى جنوبها وعلى الأخص المناطق الحجازية ومنها يثرب، التي تجمعت بها قبائل يمنية وقبائل يهودية.

استفاد الرومان من وجود هذه المملكة من نواحي تجارية، وعسكرية ودينية، إذ جعلوا منها مركزاً للبعثات التبشيرية العربية، كما جعلوها الدرع الذي يحمي الرومان في المنطقة من هجمات المناذرة المدعومين من الفرس.

3. شيء عن مملكة المناذرة :

لقد مر بنا أنه منذ بداية القرن الميلادي الأول وحتى أوائل القرن الثالث الميلادي، كانت الأوضاع السياسية والاقتصادية في جنوب الجزيرة مضطربة، فنزحت قبائل **من الأزد** (أيضاً) من اليمن وعمان مع قبائل أخرى تواجدت في البحرين، وانتهزت هذه القبائل فرصة الصراع على السلطة في فارس في الربع الأول من القرن الثالث الميلادي (بين البرثيين والساسانيين الذين أخذوا منهم حكم فارس)، فانتقلت إلى أطراف العراق الأوسط، حيث كونت هذه مع القبائل العربية المتواجدة تحالف "تنوخ"، سكنت جنوبي الكوفة قريبة من الصحراء، بالقرب من مجرى نهر الفرات الذي تتفرع منه عدة فروع في المنطقة منها الفرع الذي كان يمر بعاصمتهم الحيرة، في موقعٍ يسيطر على **الطريق التجاري** الذي يربط الخليج العربي وبلاد فارس شرقاً، بالبحر الأبيض غرباً. فكون هذا التجمع نواة لدولة المناذرة.

لقد كانت الصحراء الشامية وباديتها، طوال التاريخ، مفتوحة إلى أطراف نهر الفرات العظيم، من شماله ووسطه وجنوبه، تتنقل وتتحرك فيها القبائل العربية بحرية تامة باعتبارها جزءًا من أراضي الجزيرة العربية.

ولهذا عندما جاء التجمع القبلي الجديد "آل تنوخ" وكونوا إمارتهم على أطراف الصحراء، أطلق على الإمارة اسم "**الحيرة**"، التي تعني بالسريانية المخيم، وهي دلالة على نمط الإقامة الأولى لتلك القبائل المهاجرة. كما أطلق عليهم إمارة **اللخميين**، نسبة إلى قبيلة لخم اليمنية التي يتشكل منها هذا التحالف، والاسم الذي شاع بعد ذلك هو اسم "إمارة المناذرة"، لكثرة اسم المنذر بين حكامها.

تلك الأسماء الكثيرة تعطي دلالتها على أهمية هذه الإمارة؛ من ناحية القبائل المتحالفة معها، ومن ناحية أهمية موقعها التجاري والسياسي، فهي واقعة على الضفة الغربية لنهر الفرات، على فرع من الفرات كان يعرف بنهر (الحيرة)، فاشتهرت بالزراعة والرعي والأهم من ذلك شهرتها التجارية، كانت سفنها التجارية تبحر في نهر الفرات جنوبا إلى الخليج العربي لتوصلها بتجارة الهند، كما كانت تجارتها البرية مع الحجاز وجنوب الجزيرة، فهذه الإمارة غنية تاجرت مع الحجاز، وقوافلها ذهبت إلى سوق عكاظ في مكة، كانت إمارة غنية تجارياً، وثقافياً وبهما تغنى الشعراء.

فموقع الإمارة هو الذي دفع الساسانيين عندما تولوا حكم العراق، للاعتراف بها، لتقوم بحماية القوافل التجارية المارة من فارس إلى ما بين العراق والشام، ولكي تحافظ لهم على الحدود الغربية للعراق. فشكلت هذه الإمارة ثغراً متقدماً لإمبراطورية الفرس تصد عنها غارات القبائل الآتية من داخل الجزيرة، ومن غزوات إمارة الغساسنة التي كانت تقوم بالدور نفسه لحماية مصالح الروم على حدود الشام.

* لقد أدخل الفرس والروم هاتين الدولتين العربيتين (الغساسنة والمناذرة) ضمن صراعهما الاستراتيجي في المنطقة. وذلك لأن حدود العراق الغربية مفتوحة للصحراء، وكان الروم يعتبرون حدود الفرات حدودهم الشرقية، بينما الفرس يعتبرون أن الأراضي الغربية لما بعد نهر الفرات وحتى البحر الأبيض المتوسط هي مجالهم الحيوي في التجارة وفي الحرب والسلم. من هنا جاء اهتمام الإمبراطوريتين بصحراء الشام وباديتها ومدنها. ومن هنا جاء الاهتمام الإستراتيجي للقوتين بهذه المنطقة.

فالفرس والروم قد جعلوا من المملكتين العربيتين الغساسنة والمناذرة تدخلان في حروب مستمرة لصالح كل من القوتين الشرقية والغربية؛ معسكر غساني ومعسكر لخمي، كما يحصل في حالتنا العربية الراهنة! واستمرت هذه الحروب بين المناذرة والغساسنة حتى بداية القرن السادس الميلادي.

في مطلع القرن السابع الميلادي ظهرت لدى آخر ملوك المناذرة اتجاهات لمحاولة الاستقلال عن السيطرة الفارسية، رغبة منه في تشكيل منطقة نفوذ عربية تضم قبائل شرق شبه الجزيرة ووسطها، إلا أن ملكها نعمان الثالث سجن ومن ثم قتل من قبل الفرس، لتنتهي هذه الدولة، ويحكمها الفرس الساسانيون بصورة مباشرة، حتى أخرجوا منها في صدر الإسلام.

نستنتج من ذلك أن الوحدة العربية ممنوعة في هذه المنطقة من قبل القوى الكبرى منذ ذلك الزمن البعيد، فالموارد الاقتصادية والتجارية والموقع الاستراتيجي هو مصدر صراع القوى الكبرى في منطقتنا، قديمها وحديثها، وموقف الدول الكبرى هو المعرقل والممانع والمحارب لأي نوع من الوحدة العربية.

4 ــ شيء عن إمارة تدمر:

تدمر، التي اسمها بالرومانية Palmyra التي تعني النخيل، واحة نشأت في وسط الصحراء فيها عدد من الآبار والينابيع منذ أزمنة قديمة، وتعتمد على مياه الوديان والأمطار، فأقاموا فيها القنوات لجلب المياه، مما جعل الزراعة والرعي يكثران فيها، وهي كذلك حتى الآن، وتقع في شمالي بادية الشام، في وسط المسافة التي بين الفرات من جهة وبين دمشق وحمص من جهة أخرى.

كانت التجارة هي مصدر غنى وثروة تدمر، التي تمر بها طرق القوافل الممتدة من سواحل البحر المتوسط إلى الخليج العربي، في مكان استراتيجي وسط بين نهر الفرات، وساحل البحر الأبيض. وهذا الموقع جعل من تدمر مكاناً مهماً لالتقاء الطرق التجارية العالمية بين الشرق والغرب، وكمحطة لتوزيع السلع والبضائع، وكمركز لحماية القوافل.

خضعت تدمر للإسكندر المقدوني، كما كانت هدفاً للرومان منذ أن ثبتوا أقدامهم في سورية، وازدادت أهميتها في القرن الأول الميلادي عندما تحسنت العلاقة بين الرومان والفرثيين الذين كانوا يحكمون إيران، فساد السلم ونشطت

التجارة، وكانت محطة مهمة للقوافل التي تحمل تجارة الهند والصين (طريق الحرير) فتصل إلى العراق ثم تسلك وادي الفرات وتمر بعد ذلك بتدمر ومنها إلى مدن وموانئ البحر المتوسط، وبذلك تمر بتدمر تجارة الشرق، وتجارة الجزيرة العربية. وفي القرن الثاني الميلادي اتجهت التجارة إلى كل من تدمر ومصر بعدما كانت تصب في البتراء.

وقد استطاع ملوك تدمر توسيع حكمهم، وسيطروا على البلاد المجاورة، وقاموا بحماية القوافل، وأسسوا نظاماً سياسياً مستقراً، وكان من حكامها الأميرة العربية الزباء.

وعندما ظهرت الدولة الساسانية في بداية القرن الثالث الميلادي (226 ميلادية تقريبا)، حاولت السيطرة على موانئ البحر المتوسط واشتبكت بسلسلة حروب مع الروم مما أدى إلى اضطراب الأمن، فتعرقلت التجارة وزالت أهمية تدمر.

* يتضح من الفقرات أعلاه أهمية نهر **الفرات** في الجانب السوري — العراقي، من حيث كونه مصدر حياة للقسم الذي يمر في بادية الشام، وباعتباره **ممراً صالحاً للتنقل والملاحة**، وكان يستخدم دائماً من قبل العابرين من الهلال الخصيب إلى بلاد ما بين النهرين في العصور العراقية القديمة وغيرها؛ واستخدمه الرومان في تحركاتهم العسكرية ضد الفرس فاحتلوا بلاد الرافدين، ودخلوا فارس، وواصلوا طريقهم جنوباً حتى رأس الخليج العربي، ذلك أن الوصول إلى المياه الدافئة في الخليج العربي هي هدف القوى الغازية التي تصل إلى بلاد حوض الرافدين منذ ذلك الزمن.

5 ـ شيء عن إمارة حمص:

يشبه تاريخها من أوجه عديدة تاريخ مدينة **تدمر** فقد حكمتها أسرة عربية، وازدهر تاريخها في الزمن الذي ازدهرت فيه حكومات المدن

الأخرى التي ظهرت أثر الضعف الذي حل بالسلوقيين، وتقع في السهل الذي **يرويه نـهر العاصي**.

* عرضنا في الفقرات أعلاه في صورة سريعة ومختصرة لخمس من الممالك العربية التي تكونت على الأطراف الشمالية للجزيرة العربية والتي كونها التحرك السكاني وفيض المد التجاري القادم من القوافل التجارية العربية الجنوبية كما سبقت الإشارة في الفصول الأولى، وأن الذي ثبّت وقوى أركان ممالك المدن التجارية هذه هي معرفة القبائل العربية بكيفية الاستفادة القصوى من أوضاع السياسة الدولية التي كانت سائدة بين قوى متنافسة ومتنازعة في ذلك الوقت.

* وبعد الذي ذكر، حان لنا الآن العودة إلى موضوع حكومات المدن التجارية العربية في داخل الجزيرة العربية، وبالذات في كل من إقليمي الحجاز ونجد، أما الحديث عن الحجاز ومدنها الرئيسية وهي؛ **مكة والطائف ويثرب** (المدينة المنورة)، فسيأتي بعد الحديث عن إمارة كندة في **إقليم** نجد.

- شيء عن إمارة كندة :

باستيلاء قبائل حمير على حضرموت في نهاية القرن الثالث الميلادي، نزحت بعض قبائل حضرموت، التي منها **قبيلة كندة**، حتى وصلت إلى نجد، فأسست فيها دولة في الطرف الغربي المرتفع من هضبة نجد، وهي منطقة تكثر فيها الأودية والمياه والواحات.

ويقدر أنه في نفس تلك الفترة كانت قد تحركت قبائل عدنانية من شمال الجزيرة باحثة عن مواطن القطر والكلأ، فبلغت اليمامة التي استقروا فيها، فتجمعت قبائل عربية على أرض نجد وفي منطقة اليمامة، وهي المنطقة الواقعة على **طريق التجارة** المتجهة إلى بلاد الرافدين وصوب الخليج العربي. وحيث توافرت في هذه المنطقة الواحات التي تمر عبرها الطرق

التجارية المتشعبة، فساعد هذا على ازدهار هذه المملكة تجارياً وثقافياً، فباتت أسواقها عامرة بالنشاط التجاري، كما كانت عامرة أيضاً بالأدب والشعر، ومن أشهر شعرائها امرؤ القيس بن حجر الكندي، ابن ملك مملكة كندة، التي حكمت اليمامة ونجد.

وفي بداية القرن السادس الميلادي حدثت اضطرابات في الإمبراطورية الفارسية، فضعفت بمعيتها دولة المناذرة المتحالفة مع الفرس، فانتهزت إمارة كندة هذه الظروف المحيطة، فمدت سلطتها السياسية إلى مملكة الحيرة في العراق وإلى أجزاء من بادية الشام.

لقد اعتقد زعماء إمارة كندة أن تلك الظروف مواتية لتوحيد الإمارات الشمالية العربية تحت قيادة **سياسية** عربية واحدة، إلا أن الفرس سرعان ما وجهوا ضربتهم القاضية إلى هذه الإمارة لإفشال دعوة الوحدة التي بدرت منها، وساعدهم في ذلك ملوك المناذرة العرب.!

من البديهي أن السياسة الفارسية لا تسمح بقيام وحدة للإمارات الشمالية، تكون مرتبطة بعرب الإمارات الجنوبية في اليمن، في تلك المنطقة الحساسة لكلا القوتين الشرقية والغربية. فالحديث القديم يشير الى وضعنا العربي الحالي، القوى الكبرى تمنع وحدة العرب، وإحدى وسائلها هو خلق نزاعات بين العرب أنفسهم لإضعاف وحدتهم، فالماضي هو كالحاضر، إذ ينظرون إلى وحدة العرب اليوم قوة لهم، وهذه القوة تهدد المخططات الصهيونية وتقضي على المصالح البترولية والإستراتيجية للقوى الإمبريالية.

وأنه من واقع الحال الذي كانت عليه تلك الإمارة العربية القديمة ومعها الإمارات العربية الشمالية يتساءل الشباب العربي، لماذا لم تنجح دعوة **الوحدة السياسية** الماضية تلك وما هي الأسباب؟ نحاول الإجابة عن ذلك السؤال فيما يلي:

– لم تنجح دعوة الوحدة تلك لأن القبائل المتحالفة في إمارة كندة نفسها غير متحدة بل أن كل قبيلة في التحالف هي في نزاع مع أهلها، فلا يوجد تآزر بين أفخاذ وبطون عشائر ربيعة، الذين كانوا يغزون ويسبون على الطريق من أطراف الشام ومن كندة إلى حدود اليمن، كانوا يتنازعون ويقتتلون على اقتسام **الغنائم** قتالاً شديداً، تلك القبائل وأنظمتها القبلية، من المستبعد أن تكوّن وحدة عربية في صورة قليلة أو كثيرة.

ـــ كما أن موقع هذه الإمارة في أوقات تاريخية كثيرة هو موقع الغزو والسبي قبل الإسلام وبعده منذ القرامطة وإلى ما بعدهم،ذلك لأنه موقع يمثل طريق **التجارة والحج**، فالطرق في هذه المنطقة واقعة في أواسط الصحراء، التي تكثر فيها مرتفعات ووديان، وبالتالي ينعدم فيها الأمن والأمان، والأمن لا يمكن إقراره إلا من قبل نظام منتخب يشعر فيه الجميع بالعدالة والمساواة.

ـــ كما ويلاحظ مما سبق أن **الوحدة العربية التجارية** والاقتصادية، كانت قائمة بين الشعب العربي، في الجزيرة العربية من جنوبه إلى شماله، إلا أن **الوحدة السياسية** كانت هي الصعبة والمستحيلة منذ تلك الأزمان، في السابق لم تتشكل وحدة سياسية، إنما كان هناك على الأقل تفاهم في حدود مختلفة على الوحدة التجارية، أما في وضعنا الراهن فلا توجد فيه بين العرب أي نوع من الوحدة التجارية أو سواها.

ـــ إن النظام القبلي قائم على مبدأ الثأر والأخذ بالدم. فلو أخذنا الشاعر الكبير امرؤ القيس، على سبيل المثال، وهو قائل المثل المشهور: "اليوم خمر وغدًا أمر"، نجده بهذا القول كان قد أعد نفسه منذ اليوم التالي للثأر من قتلة أبيه من قبيلة بني أسد، وآزرته في ذلك جموع قبيلته حتى من هم الذين في حضرموت في جنوب الجزيرة، فسالت على إثرها دماء. ثم جاء من بني

أسد وغيرهم من القبائل الذين سبق أن قاتلهم هذا الشاعر، ليثأروا منه، فطاردوه حتى مات طريدا، إنه النظام القبلي.

النظام القبلي في الحكم قائم على أخذ الحكم بالشوكة والغلبة وليس بالاتفاق والمشاركة، القبيلة التي يؤخذ منها الحكم بالقوة تعمل على الثأر ممن أخذ منها الحكم عن طريق القوة المسلحة، مما يجعل عدم الاستقرار في المجتمع القبلي أمراً واقعاً، فكل قبيلة طوال حياتها وأيامها ولياليها في حالة حرب وحالة طوارئ دائمة، مستنفرة رجالها ونسائها وخاصة شبابها، للحرب والنزال، خوفاً من الغزو والثأر، من قبائل أو تحالف قبلي آخر.

ـ والنظام القبلي **لا يعرف** الوحدة السياسية وما يعرفه هو **التحالف** القبلي الذي ينفك عراه لأي سبب قد يكون تافهاً، شخصياً لا مجتمعياً، ولهذا ليس بمستغرباً إذا نشأت نزاعات أدت إلى حروب بينهم، رغم عقدهم لتلك التحالفات.

ـ ونعود بالقول إلى شبابنا أن الوحدة العربية المطلوبة لا تكونها القبائل أو أنظمتها القبلية/ العائلية التي يعتور أنظمتها الفساد، ويسود مفاهيمها وإيديولوجيتها التقليد والتخلف، إن الوحدة على أهميتها وضرورتها- أي شكل من الوحدة العربية- يجب أن تنبثق من إرادة وحاجة شعبية، وعلى أن يتم بناؤها على أسس وقواعد دستورية برلمانية ديموقراطية عصرية، حتى يمكن استمرارها ومن ثم يكون في مقدورها مواجهة التحدي الحضاري الحديث.

حكومات مدن إقليم الحجاز التجارية:

* وأنه بعد تلك الرحلة التي قمنا بها إلى مدن في شمال الجزيرة ونجد، فإنه قد حان لرحالنا أن تحط في مدن الحجاز، التي هي لا تمثل تجمعا

سكانيا تجاريا فحسب، بل هي مركز ديني رئيسي للجزيرة العربية منذ وقت بعيد، وهي كذلك اليوم.

يقول المؤرخ العربي الشهير الأستاذ جورجي زيدان :"إن قوماً من الأنباط جعلوا مكة والمدينة والطائف مسكن هجرة بعد استبداد الروم لهم"

لقد استمرت طرق الحجاز ممراً رئيسياً لعبور القوافل العربية من الجنوب إلى الشمال وبالعكس، ولهذا السبب فإن **مدناً** تجارية عربية بدأت تبرز في الجنوب، واتصلت بمدن تجارية عربية في الشمال، ولم تكن مدن الحجاز في بداية الأمر سوى محطات هامة للقوافل العابرة. إلا أن الأزمات السياسية التي حدثت في الشمال، وتلك التي حدثت في الجنوب، أجبرت عرب الشمال، على الهجرة إلى أرض الحجاز، وكذلك فعل عرب الجنوب، ويمكن القول بأن بلاد الحجاز قد **ورثت** عرب المحطات والمدن التجارية الشمالية والجنوبية معاً اعتباراً من القرن الثاني الميلادي تقريباً.

وأنه فيما يتعلق بعرب الشمال، فقد وجدنا أن مدنهم قد كونتها مجموعات أفخاذ وبطون قبائل عربية، ومنها قبائل جنوبية أيضاً. لقد كانت مملكة الأنباط في الشمال وعاصمتها البتراء، التي عمرت وبقيت طويلاً؛ عاصرت إمبراطوريات عديدة كانت في المشرق العربي إلى أن قضى عليها الرومان في مطلع القرن الثاني الميلادي، والتي على أثرها جاءت هجرة العرب المعاكسة إلى "مكة والمدينة والطائف" حيث جعلوا منها لهم "مسكن هجرة".

لقد كان عرب الجزيرة يقصدون حاضرة الأنباط في البتراء بغرض زيارة أوثان الأنباط: "اللات والعزى ومناة" وغيرها، وهذه الأوثان نقلها الأنباط معهم إلى الحجاز.

فالهجرة النبطية إلى الحجاز، كانت قد أكسبت الحجازيين مهارة تجارية مضافة إلى خبراتهم، كما أورثتهم طقوس معبوداتهم. لقد كون المجتمع

الحجازي مجتمعاً تجارياً، كانت فيه الكتابة والخط عامين مهمين لانجاز المعاملات، ولهذا فإن الأنباط قد نقلوا معهم الخط النبطي المأخوذ من الآرامية الفينيقية، فالخط النبطي قد جاء إلى جانب خط المسند اليمني الذي كان موجوداً في الحجاز، وأنه بتواجد الأنباط في مدن الحجاز شاعت لهجتهم النبطية أيضاً، ولا يخفى ما لهذه العوامل من أهمية في تطوير اللغة وتوحيدها، وأثرها في نمو التجارة التي ازدادت في الحجاز، بعد هجرة النبطيين إليها.

* فحديثنا السابق كان عن النشاط التجاري الذي انتقل من مدن شمال الجزيرة التي قضى عليها الرومان إلى المدن الحجازية، وقد جاء دور الحديث في الفقرات التالية عن انتقال النشاط التجاري إلى المدن الحجازية من مدن جنوب الجزيرة التي تأثرت بالغزووالحروب.

كانت أنظار العرب قد اتجهت إلى الحجاز بعد أن انتقل جزء كبير من التجارة العربية إلى أيدي الحجازيين؛ بعد الصراعات التي نشبت بين الممالك اليمنية الأربع، والتي سقطت آخرها حضرموت في نهاية القرن الثالث الميلادي، وتبوأت المكانة المملكة الحميرية كقوة جديدة اتخذت عاصمتها في حضرموت، وما تبع ذلك من غزوات وحروب أجنبية. كل تلك العوامل أدت إلى انتقال التجارة إلى أراضي ومدن الحجاز، وعلى الخصوص بعد سقوط المملكة الحميرية في اليمن.

صحيح أن النشاط التجاري قد انتقل من الشمال إلى ارض الحجاز، إلا أن انتقال النشاط التجاري الجنوبي إلى مدن الحجاز هو في حقيقته سابق على تلك الفترة، ذلك لأن الحجاز بالنسبة لليمنيين كانت تمثل جسر عبور وترانزيت إلى بلدات ومدن الشمال.

كما أن الحديث عن مدن الحجاز يقتضي أن ينظر إلى مدنها من حيث أهميتها التاريخية العربية والإسلامية، وبالذات كل من مدينتي مكة المكرمة

والمدينة المنورة. إلا أن حديثنا في هذا الفصل هو عن جانب من النشاط التجاري والاجتماعي للفترة السابقة على ظهور الإسلام، وبالذات ما سيتكون منه مجتمع وحكومة مكة القديمة وما مثلته قبيلة قريش من نشاط اقتصادي واجتماعي لهذه المدينة/ الحكومة، وكيفية استفادة قريش من إدارتها للكعبة المشرفة.

وأنه لكي يكتمل الحديث عن مدن إقليم الحجاز، المدن القريبة من ساحل البحر الأحمر، سنبدأ الحديث بأرض عسير، ثم ننتقل بعده إلى المدن الرئيسة في الحجاز وهي: الطائف ويثرب (المدينة المنورة) وآخرها مدينة مكة التي هي موضوع هذا الفصل، والتي سيأخذ الحديث عنها مجالا أوسع من غيرها، لما ورثته من نشاط تجاري وديني، ولكونها أيضاً المكان الذي ظهر فيه الإسلام موحد العرب.

أرض عسير:

يطلق اسم عسير على المرتفعات المحيطة بمدينة أبها، وهي موطن القبائل اليمنية والعربية في (أرض طود)، ويرمز المكان إلى مرتفعات غرب شبه الجزيرة، وامتدادها من الشرق إلى الغرب؛ من أطراف صحراء وسط شبه الجزيرة إلى ساحل البحر الأحمر.

كانت عسير القديمة بلاداً **تجارية** مزدهرة لوقوعها عند نقطة التقاء الطرق الرئيسية للتجارة البرية من جنوب الجزيرة، والطرق البحرية من **موانئ** عسير على البحر الأحمر المواجه للساحل الإفريقي، ولموانئها صلات بالحبشة وبلاد النوبة ومصر. فموقعها الجغرافي قد جعل منها محطة للقوافل التجارية التي تنطلق منها شرقا إلى نجد والخليج العربي، وشمالا إلى الأراضي الحجازية، عبر الممرات الجبلية المتعرجة والضيقة،

وعبر الأخاديد، في جرف جبال السراة، وهذه الأرض كانت في الوقت ذاته، أرضاً غنية بزراعتها ومراعيها وإنتاجها من الأخشاب والمعادن.

فمدن عسير بما لديها من موارد وإمكانيات جغرافية وطبيعية وبشرية، ساعدت المدن الحجازية في نهضتها وازدهارها التجاري خاصة بعد سقوط مملكة حمير في اليمن.

مدينتي الطائف ويثرب:

سيكون الحديث عنهما موجزاً وقصيراً. ففيما يخص موضوعنا فإن هاتين المدينتين كانتا محطتين هامتين من مدن القوافل التجارية، وسوقين تجاريتين هامتين، فكانتا موئلاً ومسكناً لكثير من التجار والصناعيين والحرفيين العرب الذين هاجروا من مدن الشمال وكذلك من مدن الجنوب، لحسن هوائهما وتوفر الزراعة بهما، ولوقوعهما على طريق القوافل التجارية.

مدينة الطائف

تقع مدينة الطائف على ظهر جبل غزوان ربوعها عالية يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر بحوالي ألف وخمسمائة متراً، تبعد عن مكة المكرمة بما يقرب من 75 ميلا.

كانت الطائف في يد **قبيلة** ثقيف وهي إحدى قبائل قيس، اتخذتها مجموعة من القبائل سكناً لها أقامت في سهولها وجبالها، وكان معظمها قبائل غير مستقرة لأنها كانت ترتاد المدن الحجازية للتجارة وتبادل السلع، وكان لأغنياء مكة بساتين وزرع بالطائف، كما كان لكثير من رجال الطائف مصالح تجارية مشتركة ومنافع متبادلة مع بطون قبيلة قريش في مكة، فالارتباط كان قائماً بين المدينتين، لكن التجار من القبيلتين كثيراً ما يدخلون في تنافس تجاري تؤدي إلى حروب بينهما إلا أن وحدة مصالحهما التجارية وروابطهما العائلية كانت تحول دون اتساع تلك الخلافات بينهما.

مدينة يثرب

تبعد حوالي ثلاثمائة ميل في شمال مكة، تقع في واحة كانت تكثر بها المياه، تقع بين مرتفعين مكونة من أحجار بركانية تعرفان بالحرتين (الحرة أرض ذات حجارة سوداء كأنها أحرقت بالنار) واحدة في الشرق والأخرى في الغرب، وتتوفر فيها المياه من الأمطار والينابيع، فكثرت في بساتينها أشجار الفاكهة والنخيل، لذلك كانت قديما تعتمد حياة السكان في هذه المدينة على تملك الأراضي واستثمارها.

وكانت سكناً **لقبائل** الأوس والخزرج وهم فرع من قبائل **الأزد** اليمنية وعشائر عربية أخرى.

يثرب هي (المدينة المنورة)، مدينة الهجرة النبوية وعاصمة الخلافة الإسلامية. وجاء الحديث الآن عن مكة التي انبثق من أرضها الإسلام.

* مدينة مكة المكرمة، قبل الإسلام:

ـ تقوم مدينة مكة **في واد قفر صخري** يعرف ببطن مكة، تشرف عليها الجبال من جميع النواحي دائرة حول الكعبة، هذه الجبال تكونت فيها شعب منحنية حفرتها السيول في حواف تلك الجبال، وأن هذه الشعب لا تتصل فيما بينها إلا عن طريق ممر ضيق أشبه بأخدود كانت تتدفق فيه سيول الأمطار، وقد احتفظت كثير من هذه الشعب بأسماء القبائل والعائلات التي أقامت بها، ومن بينها شعبة بني هاشم، التي سيرد ذكرها عند الحديث عن البعثة النبوية.

ومن مجموع تلك "الشعب"، ومن مجاميعها العمرانية التي كانت تحتويها، تألفت مدينة مكة التي لا يراها قاصدها حتى يصل إليها. ولهذا قيل: " أهل مكة أدرى بشعابها".

فموقع الكعبة المشرفة في مدينة مكة المكرمة هي في بقعة محاطة بالجبال، ومدينة مكة نفسها ليست كالمدن التجارية في الممالك اليمنية الأربع

التي سبق الحديث عنها، والتي هي قائمة على مشارف الصحراء على الطرق البرية التجارية، التي كان موقعها سبباً في إنهائها. فمدينة مكة هي في موقع حصين، في واد من أودية جبال السراة التابع لتهامة الحجاز، واقعة في وسط طريق القوافل التجارية المتجهة من جنوب الجزيرة إلى شمالها وبالعكس، في منطقة تلتقي فيها تجارة شواطئ البحر الأحمر والشواطئ الإفريقية الشرقية. بالنسبة لمدينة مكة الأمر لا يقتصر على كونها مركزاً تجارياً هاماً فقط، وإنما لكونها مركزاً دينياً له قدسيته لدى القبائل العربية أيضاً، والأهمية الدينية لها تطغى على أهميتها التجارية، وأنه مما لا شك فيه أن الأهمية الدينية والتجارية التي تتمتع بها هذه المدينة قد زادت من رفعة وتقدم أهلها تجارياً وثقافياً وحضارياً.

لقد وجدنا في أحاديث سابقة عن منشأ المدن التجارية، أن تأسيس المدن يعود إلى موقعها على الطرق التجارية، ويعود إلى القبائل التي استقرت فيها وأنشأت فيها مجتمعها الذي كون دولته التجارية.

* وفيما يتعلق بمدينة مكة المكرمة فقد شرح الأخباريون العرب ما جاء في القرآن الكريم من أن النبي إبراهيم عليه السلام كان قد أسكن ولده إسماعيل (ع) في مكة مع أمه هاجر، وأن النبي إبراهيم (ع) قام ببناء البيت العتيق وعاونه في بنائه ابنه إسماعيل، فرفعا معا بناء البيت الحرام. كما ذكر الأخباريون أن إسماعيل(ع) تزوج امرأة من قبيلة جرهم اليمنية (من القبائل البائدة). استمر إسماعيل (ع) في قيامه بأمر البيت العتيق، وخلفه من بعده آل جرهم في سدنة الكعبة المشرفة.

وبعد هجرة قبيلة خزاعة القحطانية من اليمن أيضاً، سكنت بالقرب من مكة، فدارت معارك بين القبيلتين، انتهت بزوال سيطرة جرهم من مكة وانتقال **سدانة الكعبة وحكم مكة** إلى قبيلة خزاعة الذين انتزعوا مفاتيح

الكعبة من بني إسماعيل، وقامت هذه القبيلة بتغيير دين إبراهيم وبدلته بعبادة الأوثان.

وظل الأمر كذلك حتى سكن مكة قصي بن كلاب بن مرة، الذي ينتهي نسبه إلى عدنان (من قبائل الحجاز شمال الجزيرة)، فاختلف قصي مع خزاعة حول سدانة الكعبة (مفاتيح الكعبة)، وبعد قتال شديد بين الطرفين انتقلت السدانة وحكم مكة إلى قريش بزعامة قصي.

وقصي، ينتسب إلى قبائل متفرقة من بني كنانة ومضر وغيرهم، سكن في رؤوس جبال مكة، وأن قصي هو الذي جمعهم، فسميّ هذا الزعيم **مجمعًا، أي قرشيًا**، وذلك لأن **التقرش تعني التجمع**، وبالتالي فإن قبيلة قريش تعني تجمع قبائل بني كنانة وغيرهم، كما تفعل القبائل الأخرى في تحالفها وتجمعها.

قسم قصي ما حول البيت الحرام خططاً أنزل فيها عشيرته الأقربين وهم (قريش البطاح)، فسكن قصي وبنوه البطحاء، مجتمعين حول الحرم وكانت الدور محدقة بالمسجد الحرام من كل جانب، أما (قريش الظواهر) فقد سكنوا في خارج مكة.

والبطحاء هو ما انخفض نسبيا من ساحة الكعبة، وما نزل عن الحرم يسمونه المسفلة، وما ارتفع عنه يسمونه المعلاة.

هذا التجمع القرشي هو الذي كون **مجتمعاً** وكياناً مكياً حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي، وذلك لأن سيد قريش قصي بني كلاب بن مرة، كان قد شاهد تنظيمات المدن في بلاد الشام في الممالك الشمالية، فعرف أهمية تكوين **السلطة المدنية** في المجتمع المكي التجاري الديني، فاستفاد من ذلك في إنشاء المؤسسات المدنية في مجتمع قريش.

لقد مر بنا أن الصراع في مكة الذي كان يحدث بين القبائل سواء بين جرهم وخزاعة، أو بين خزاعة وقريش، كله كان يدور حول أمرين: سدانة

الكعبة وحكم مكة، وفي الحقيقة فإن الصراع كان محصوراً في أمر واحد وهو أن القبيلة لكي تحكم مكة عليها أن تحصل على مفاتيح الكعبة ؛ الذي يعني أنها قوامة على سدانة الكعبة، إذ كانت للكعبة مكانة كبيرة مقدسة لدى العرب لكون نشأتها مقترنة بالنبي إبراهيم (ع) الذي جاء بدعوة التوحيد لله تعالى، كما ارتبطت الكعبة لدى العرب أيضاً بابنه إسماعيل (ع) الذي يعتبره العرب جدهم الأعلى الذي تحدث بالعربية، إذن فمكة هي ذلك المركز الديني الذي يحج إليه العرب، وهي ذلك المكان الذي جعلوا فيه من الحج أعظم سوق تجاري وأدبي في الجزيرة العربية تشهده القبائل العربية من شتى أصقاعها، تبيع فيه ما تجلبه من أنحائها وتشتري منها ما تحتاجه.

وعلى هذا الأساس فإن وجود الكعبة وحج العرب إليها قد ساعد قريش في الحصول على المكانة الاجتماعية بين العرب، إلى جانب كون الحج مصدر رزق آخر يضاف إلى مكاسبهم التجارية، وإلى ما يجنونه من رسوم وضرائب التجارة العابرة، وهذه الموارد الاقتصادية التي تجمعت لدى مجتمع مكة، قد عززت مكانة قريش ومتنت من علاقاتها بين القبائل العربية في داخل الجزيرة وخارجها.

من هنا ظهرت مدى الأهمية الإدارية الملقاة على عاتق مجتمع قريش الذي كان عليه أن يحتفظ بمكانته الاجتماعية بين المدن الأخرى وعليه أن يزيد من جنيه للمنافع الاقتصادية أيضاً، فعمل هذا المجتمع، على توفير كل ما يساعد التجار والحجيج عند قدومهم إلى مكة. أدرك المجتمع القرشي أنه لا بد له من إجراء أشكال من التنظيمات الإدارية المتطورة (بالقياس إلى ذلك الزمن) ضمن السلطة المدنية ذلك لأن الثروة والمال لا يأتيان إلا بالجهد والعمل والتنظيم الإداري الفعال، وهذا ما قام به قصي وورثته وخلفاؤه من بعده، الذين عملوا على بناء المجتمع المدني وفقاً لتنظيمات إدارية ومدنية جعلت من مدينة مكة موطناً للاستقرار الذي ساعد على جذب رؤوس الأموال والاستثمارات التجارية الخارجية لمدينة هي في واد غير

ذي زرع تنحصر مواردها في الخدمات المقدمة للحجيج، والخدمات التجارية الأخرى.

ومن التنظيمات المجتمعية التي أسسها قصي كانت "الندوة" أو "دار الندوة" الذي هو مجلس يتشكل من شيوخ القبائل وأشرافها وذوي المكانة فيها، وسميت الندوة لأنهم كانوا ينتدون فيها ويتشاورون في أمور تسهيل الخدمات وفي أمور الأمن والحرب، فالمجتمع التجاري في حاجة إلى الأمن والحرب معا؛ لتأمين المحافظة على البضائع والأموال، ويحتاجون للحرب إذا تطورت المنافسة التجارية إلى الحد الذي يشعر فيه أصحاب الأموال بالخطر على مصالحهم، فدار الندوة تمثل منبراً يقدم المشورة لحكومة يديرها مجلس شيوخها، وأنه مما لا شك فيه أن ذلك كان يعتبر نظاماً متقدماً في اتخاذ القرارات المجتمعية لمدينة/ حكومة مكة. ويلاحظ أن تنظيم "دار الندوة" ليس بعيداً عن تنظيمات مؤسسات المجتمع المدني التي كانت موجودة في مدن الشمال والتي آثارها لا تزال باقية في مثل؛ البتراء وتدمر وبصرى وغيرها، والتي كانت توجد فيها مجالس شعبية منها: مجلس العموم ومجلس الشيوخ والمجمع العام، التي فيها ملامح ديموقراطية قائمة على مبدأ الانتخاب، وعلى كل الأحوال، فإن "دار الندوة" تمثل جانباً من ذلك التنظيم الخاص بقبيلة قريش وحلفائها، هدف منه إلى إدارة شئون المجتمع المكي داخليا وخارجيا.

فإدارة شئون الوافدين الزائرين من تجار وحجاج هي من الأمور التي أولتها قبيلة قريش اهتماماً كبيراً، فقد عمل قصي ومن بعده أبناؤه وأحفاده على تسهيل أمور الوافدين، ومن تلك التسهيلات الإدارية؛ الحجابة والرفادة والسقاية :

ـ الحجابة من مهامها؛ حيازة مفاتيح الكعبة، والسهر على أمنها؛ فمفاتيح الكعبة تدل على المكانة الدينية والاجتماعية الكبرى ممن بحوزته

مفاتيحها، ومن مهام الحجابة توفير الأمن حول الكعبة وداخلها، وهذه من الأمور الهامة التي تساعد على التعبد في داخل الكعبة بحرية واطمئنان.

ـ أما الرفادة: فهي توفير الطعام والزاد والمأوى للحجيج، ومساعدة الحجاج الذين ليست لهم سعة من مال ولا زاد. كانت تجمع موارد الرفادة كضرائب بعضها يجبى عين من المجتمع القرشي، (مثال ذلك، أن يؤخذ من قريش فخذ كل ذبيحة، ويشترى بها دقيقاً)، وأنه على الرغم مما ينفقه الحجاج من أموال أثناء الحج، إلا أن الطعام كان توافره ضئيلاً في مكة وأن بعض الأعراب القادمين من البادية ومن أهل القرى البعيدة كانوا هم في حاجة لتوفير الزاد لهم.

ـ والسقاية: هي التكفل بسقاية الحجاج، عن طريق أحواض من أدم كانت توضع بفناء الكعبة ومنى وعرفات، فقلة الماء وشحها في أرض مكة تجعلها من الخدمات الضرورية الحيوية للحجاج، وكان قصي وأحفاده قد تكفلوا بحفر الآبار في مختلف نواحي مكة، ومن أشهرها بئر زمزم الذي حفره عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.

إن مثل تلك التسهيلات الضرورية الحياتية التي كان يقدمها المجتمع المكي لزائريه، كانت تشعرهم بروح التكافل من قبل المجتمع المكي.

* تلك هي التنظيمات المجتمعية التي بدأها قصي، أما من ناحية **السلطة السياسية** فقد تأثر قصي بتنظيمات ممالك الشمال أيضاً، إذ جعل الحكم **وراثياً في ذريته**، ووزع سلطات سدانة الكعبة وحكم مكة بين أبنائه، وأعطاهم سلطات وأعمالاً كلفوا بها أثناء حياته، واستمرت على ذلك المنوال بعد مماته.

كان لقصي أربعة أبناء منهم غبد الدار وعبد مناف؛ وبعد أن أصابه الكبر – حسب الاخباريين– أوكل إلى عبد الدار سدانة الكعبة والندوة، وإلى

عبد مناف السقاية والرفادة، وهكذا بقيت إدارة مكة في أبناء قصي وأحفادهم من بعدهم.

وكان عبد مناف قد ترك أربعة أبناء منهم هاشم وعبد شمس؛ ومن عبد شمس، أمية. ومن هاشم، عبد المطلب، الذي خلف 12 ولداً؛ من هم عبد الله بن عبد المطلب: أبو النبي محمد (ص)، ومنهم العباس الذي من ولده أبي العباس السفاح مؤسس دولة (العباسيين). ويقابل سلالة بني هاشم بن عبد مناف، أبناء عمهم سلالة عبد شمس بن عبد مناف، الذين منهم بنو أمية (الأمويون)، فهاتان السلسلتان من أبناء عبد مناف بن قصي، وخاصة أبناء كل من هاشم وعبد شمس، قد تركتا أثرهما في التاريخ العربي الحافل حتى يومنا هذا.

يذكر الإخباريون أن عبد مناف وأولاده ؛ هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل، كانوا في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي هم سادة قريش وأكثرهم مالا وتجارة، وكان أبناء عبد مناف أحفاد قصي يملكون من السلطة في عقد المعاهدات مع ملوك ذلك العصر.

* أشرنا من قبل إلى الصراع الذي كان ناشباً بين القوتين الشرقية والغربية في شمال الجزيرة العربية اللتين استخدمتا كيانات الدول العربية الشمالية لتدور في فلك صراعهما. لقد كانت نجد ومدن الحجاز عموما وقيادة مكة خصوصاً؛ أي قبيلة قريش، كانوا **يراقبون الصراع** بين الفرس الساسانيين والروم البيزنطيين من ناحية، وكل من دولتي الحيرة والغساسنة من ناحية أخرى. فنأت قيادة مكة بنفسها عن الدخول في تلك الصراعات السياسية والعسكرية، متبعة سياسة البقاء **على الحياد**، لتحمي تجارتها، وكان موقفها الحيادي قد ساعدها في تسيير قوافلها إلى البلدان المتنازعة وإلى كافة أجزاء الجزيرة العربية دون عوائق، وخاصة وأن النزاع بين هاتين القوتين-

في ذلك الوقت – قد عطل الملاحة في البحر الأحمر، فأصبح اعتماد التجارة الدولية على الطرق البرية العربية، مما عزز مكانة مدن الحجاز.

لهذا فقد ركز قصي وأحفاده من بعده هدفهم وسياستهم على تطوير علاقاتهم التجارية مع السلطات المختلفة التي حولهم من دون أن يربطوا علاقاتهم التجارية بالجوانب السياسية، كما وأن قيادة قريش قد وجدت أن أفضل السبل لتسهيل سير تجارتها يكمن في عقدها الاتفاقيات مع السلطات المحيطة بالجزيرة العربية للاعتراف بهم **كوسيط تجاري**، مما استدعى إرسال وفود من أبناء عبد مناف، فتحركت وفودهم متجهة إلى مختلف المناطق لتعقد المعاهدات والاتفاقيات التجارية مع ملوك وأمراء القوى المحيطة بالجزيرة العربية؛ فتوجهت وفودهم من أبناء عبد مناف، وهم :

ــ هاشم بن عبد مناف بن قصي، عقد معاهدة تجارية مع ملوك الروم والغساسنة، مما ساعد قوافل قريش في وصولها إلى بلاد الشام وفلسطين دون عوائق.

ــ وعبد شمس بن عبد مناف بن قصي، عقد اتفاقية تجارية مع نجاشي الحبشة، لتسهيل التبادل التجاري بين الطرفين.

ــ ونوفل بن عبد مناف بن قصي، عقد اتفاقيات تجارية مع كسرى فارس وحكام العراق العرب الذين هم تحت الحكم الفارسي.

ــ والمطلب بن عبد مناف بن قصي عقد اتفاقيات تجارية مع حكام اليمن.

تلك العقود أو الاتفاقيات التي كانت تسمى "إيلاف"، كانت قريش قد أبرمت "إيلافاً" مع مختلف المناطق لكي تصل إليها قوافلها آمنة؛ لتسهيل أعمال الوساطة والإتجار مع بلدان العالم الخارجي. كما أن هذه الاتفاقيات استفادت منها القوى الكبرى في فارس والعراق ومصر والحبشة إذ جعلت طرقهم البرية آمنة أيضا (الندية في التعامل)!، فانتعشت التجارة، وتجمعت الأموال في مكة، ووفد إليها خليط من الأجناس.

كما عقدت قريش مثل تلك "الإيلاف" والاتفاقيات مع زعماء مختلف القبائل العربية أيضاً، ليتحقق أمن القوافل من ناحية، ولإنجاح مواسم الحج من ناحية ثانية.

كان العرب ينظرون إلى الكعبة المشرفة على أنها بيت الله،فـ"إلإيلاف قريش"، الأحلاف القرشية، كان أحد أهدافها اجتذاب العرب للوصول إلى مكة والتعبد فيها، مما شجع القبائل على جلب معبوداتها إلى داخل الكعبة، وحدث الرواة أن عددها بلغ 360 صنماً، فأصبحت الكعبة مشتملة على معظم الآلهة في نظر العرب، وغدت الكعبة محجاً "ومثابة (بيتاً وملجأ ومجتمعاً) للناس جميعا"، يفد إليها الناس على اختلاف نحلهم يطوفون حول الكعبة ويتعبدون فيها.

كما كان من أهداف "الإيلاف قريش" الاتفاق مع القبائل العربية على أشهر يحرم فيها القتال وتقام فيها الأسواق التجارية والأدبية، فكانت تلك الأشهر الحرم، أشهر "هدنة" بين مختلف القبائل العربية يحرم فيها الحرب وسفك الدماء.

وتوافقت العرب أن تكون فترة "الهدنة" أربعة أشهر يحرم فيها القتال؛ منها ثلاثة أشهر متصلة وهي: ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم، وهذه الأشهر الثلاثة هي أشهر فترة الحج، وهناك شهر مفرد هو شهر رجب، وكان خاصاً بقبائل مضر، ما لبث أن صار جزءاً من الأشهر الحرم الأربعة.

وبهذه الأشهر الحرم الأربعة تكون قريش قد توصلت إلى إقرار أمر هام، تم فيه توفير الأمن لبيئة قبلية قائمة على الحرب وطلب الثأر، وتأتي أهمية هذا الاتفاق من كونه قد ثبّت؛ حرمة ساحة الكعبة، وحرمة المنطقة المحيطة بالبيت الحرام، بل حرمة مدينة مكة التي امتدت الحرمة فيها لتشمل خارج مكة، التي أصبحت محرمة كحرمة المدينة نفسها، وبذلك فإن الحرمة في مكة وحرمها قد تحولت شاملة لكل شيء: يحرم فيها سفك دماء الناس وصيد

الحيوان وقطع الأشجار طوال أيام العام، فأصبح الأمن في هذه البقعة من الأرض، أمناً كاملاً شاملاً.

زعماء قريش هم أولئك الأثرياء العاملون في مجال الوساطة التجارية والإتجار مع العالم الخارجي. وبعد أن حققوا الأمن لمكة وتم تنظيم مواسم الحج، عملوا على الاستفادة من ذلك التجمع الديني، في ربطه بمواسم تجارية.

المواسم التجارية وأسواقها، قديمة في الجزيرة العربية، فقد كان لكل منطقة ولكل قبيلة مواسم أسواقها التجارية، فالأسواق التجارية تعتبر ضرورة يقتضيها تنامي الإنتاج الزراعي والحيواني والحرفي في كل منطقة من الجزيرة العربية.

إلا أن أسواق قريش في مكة، قد اختلفت عما سواها من كونها مرتبطة بموسم ديني، ولكونها أكثر تنظيماً من غيرها، مما أتاح لها إشراك العديد من القبائل والمناطق في داخل الجزيرة وخارجها.

وحيث أن موسم الحج عند العرب يبدأ من أول شهر ذي القعدة، وهو الذي يخرج فيه الناس إلى الحج، فإن قريشاً قد نظمت تلك الأسواق الموسمية بحيث تبدأ في نفس التاريخ ونفس المكان الذي يبدأ فيه الحج، وهو أول شهر ذو القعدة عندما يفد الناس إلى سوق عكاظ.

ـ **سوق عكاظ** هي إحدى الأسواق التي تقام في مكة وهي أشهرهم جميعا لما تشتمل عليه من نشاطات مختلفة وبرامج متنوعة منها؛ التجارية والأدبية والشعرية والاجتماعية وغيرها.

فهذا السوق كان يقام في أرض منبسطة بين مكة والطائف، تنزل بها قريش وسائر العرب وأكثرهم من قبيلة مضر، إذ يصبحون بعكاظ يوم هلال شهر ذي القعدة، يجتمعون في بطن السوق، ويدخل بعضهم في بعض بالبيع والشراء والمبادلة والوساطة وغيرها، ويستمرون فيه حتى العشرين منه مقيمين بأرضه عشرين ليلة.

سنأتي على ذكر بقية الأنشطة الأدبية والشعرية وغيرها، التي كانت تقام في هذا السوق.

ـ وبعد سوق عكاظ ينصرف الناس إلى **سوق مجنة** بأسفل مكة، تعرض فيها بضائع قبيلة بني كنانة، ويقيم فيها المتعاملون عشر ليال، تستمر أسواقهم قائمة حتى نهاية شهر ذي القعدة.

ـ فإذا أهل شهر ذوالحجة قصد الناس إلى **سوق ذي المجاز** بالقرب من عرفة، وهي لقبيلة هذيل، يقيمون فيها أسواقهم ثمان ليال ويبقون فيها حتى يوم التروية، حيث يبدأ الحج.

ـ ويخرجون يوم التروية من ذي المجاز إلى عرفة يرتون من الماء.

ـ كما كانت هناك سوق حباشة لقبيلة الأزد، وغيرها من الأسواق.

لقد كان الحج شاملاً العرب على اختلاف عقائدهم وعباداتهم وبيئاتهم، كان الحج يوحدهم جميعاً، ومكة هي مثابة للناس جميعاً وأمناً، لا يمنع أحد من زيارتها والتعبد فيها؛ الوثنيون على اختلاف قبائلهم ومشاربهم يزورونها لأن أصنامهم جميعها منصوبة في الكعبة، ويزورها اليهود والنصارى والصابئون وغيرهم.

وموسم الحج إلى جانبه الديني فهو أعظم سوق تجاري في الجزيرة العربية أيضاً، تشهده القبائل العربية من شتى أصقاعها، كان عرب الصحراء يأتون بماشيتهم وبضائعهم وما يفيض عن حاجتهم من منتجاتهم الغذائية والحيوانية، فيبيعون ويشترون، فهي ليست سوق واحدة، إنما هي أسواق متعددة، **شاملة**، تحقق أغراض القبائل جميعها.

كما أنه كان يقدم إلى هذه المحطة التجارية؛ تجار العراق والشام وما جاورها، كانوا يجلبون سلعهم وبضائعهم، وكانوا يحملون معهم أثناء عودتهم حاصلات آسيا وأفريقيا الشرقية التي كانت تصل إلى موانئ الجزيرة العربية.

فانتعشت التجارة في مكة وتجمعت الأموال، وتكون في المجتمع المكي التجار والأثرياء الذين كان منهم؛ بنو عبد مناف وبنو عبد الدار ابنا قصي بن كلاب بن مرة، وبنو زهرة بن كلاب بن مرة، وبنو مخزوم بن مرة وغيرهم الأسرة القرشية، مما جعل **أسياد** مكة يصلون إلى مستوى من **الغنى والترف** يضاهي مستوى الملوك.

فعملت الارستقراطية المكية على توسيع أعمالها التجارية وزيادة وتشعب نشاطها الاقتصادي؛ فقاموا بتوظيف جزء من أموالهم في استثمار الأراضي الزراعية وتربية الماشية في منطقة الطائف وغيرها، فجلب تجار مكة أعداداً كبيرة من العبيد للخدمة في تلك المزارع، وكان العبيد هم إحدى السلع التجارية التي كانت رائجة في ذلك الزمان والمكان !

وبانتشار ظاهرة الأغنياء مالكي الثروة والعبيد ومالكي زمام موارد تجارة القوافل والحاصلات، فتكونت طبقات اجتماعية؛ من الفقراء والأغنياء وتم التمايز بينهم، حتى وصل التمييز الطبقي إلى مستوى العائلة الواحدة، فتميزت (قريش البطاح) عن (قريش الظواهر)، ذلك أن قريش البطاح هم قريش البطون التي تسكن مكة نفسها وكان منهم التجار والأثرياء من بني عبد مناف وبني عبد الدار والأقربين منهم، أما قريش الظواهر فهم الذين سكنوا خارج مكة، وهم أقل ثراء وأقل سلطة.

ومع نمو الحركة التجارية ازدادت الحاجة إلى القروض التي قدمها الأثرياء لطالبيها بفوائد فاحشة عالية النسبة تقتطع سلفا من المبلغ المقرض، وأغلب المقترضين كانوا من الفلاحين الفقراء ومن قطاعات أهل البادية الذين يعتمدون على مواسم الرعي والزراعة، فاستفحل أمر الربا، وكانت تظهر فواحش الربا واضحة عندما ينحبس المطر، وييبس الزرع، ويجف ضرع الماشية وتنفق، عندها يتحول المقترضون/ المدانون إلى موالي وخدم وعبيد للدائنين تنفذ فيهم أعمال السخرة والعبودية.

في الفصل القادم سنتناول هذا الموضوع الهام، لما له من علاقة بنظام السوق الذي كان قائما في مكة، و يشار إلى أن نظام السوق والفوائد التي كانت تفرض على القروض لها ما يماثلها في المدن التجارية القديمة مثل مدينة أثينا القديمة.

إن مواسم الحج عند العرب بفتراتها دورية سنوية، صاحبتها المواسم التجارية في مكة، فكونت دورات تجارية على مستوى الجزيرة العربية كلها، فتطورت المواسم الدينية والتجارية مما أدى إلى نمو هذه المواسم وخروجها عن مفهوم نشاط السوق من بيع وشراء، إلى اشتمالها على أنشطة أخرى أدبية وفكرية واجتماعية ورياضية؛ حوت الأنشطة الإنسانية المختلفة.

وبتنوع الأنشطة هذه جعلت العرب يفدون إلى منطقة البلد الحرام من كل حدب وصوب: لا للشراء والبيع والمبادلة فقط، وإنما للمفاخرات العائلية والقبلية، وللمشاورات وحل المشكلات فيما بينهم، وكانت مكاناً ومنبراً يعرض فيه كل صاحب دعوة أفكاره، وكما سنلاحظ أن النبي محمد (ص) قد استفاد من هذه الأسواق ومنابرها أيضاً، في بداية الجهر بالدعوة لنشره الدين الإسلامي، والتي نتجت عنها مبايعة قبيلتي الخزرج والأوس ودخولهم في الدين القويم، وقد تم ذلك في العقبة الأولى والعقبة الثانية في منى.

كانت سوق عكاظ وأسواق مكة، هي أشبه ما تكون بمعرض عربي عام يقام سنوياً، فهي تعتبر أكبر أسواق العرب التجارية الموسمية العامة، تقصدها القبائل من العراق والشام والبحرين واليمامة وعمان وسائر أطراف الجزيرة، وهي أسواق للعرب ولغير العرب، كان يجتمع فيها الشعراء والخطباء، فتزخر مكة بالنشاط الديني والتجاري والاقتصادي والاجتماعي.

كما كانت ساحات الأسواق حلقات تمارس فيها الرياضات البدنية المختلفة ومنها رياضة السباق والفروسية.

وقد اشتهرت سوق عكاظ بمواسم إنشاد الشعر في أسواقها، ولكون الشعر له مكانة خاصة لدى العرب، فإن القصائد التي كانت تحظى بالفوز والنجاح

لدى جمهور مستمعيها في هذه الأسواق، فإنها تعلق في جوف الكعبة تعظيما لشأنها. كان العرب يعلقون الوثائق الهامة على الكعبة، لإعطائها الفعالية وقوة النفاذ، وأنهم بتعليقهم للقصائد الشعرية على الكعبة أيضاً، يجعلها وثيقة هامة لدى المجتمع العربي كله، وما علينا إلا أن نتصور مدى تعظيم وإجلال العرب للأعمال الأدبية والشعر منها في صورة خاصة، فالكعبة وهي محل عبادة العرب يكنون له القدسية والاحترام، قد ربطوا قصائد المعلقات الشعرية بهذا المكان.

ولم لا تكون تلك المكانة للحياة الأدبية عند قريش في مكة! ومكة هي التي طبعت اللغة العربية بطابع الوحدة التي ساعدت على استقرار اللسان العربي في لهجة يفهمها الجميع، فتوحيد اللغة وتطويرها وتعميمها ساعد على تبادل الأفكار بين العرب، فارتبط بعضهم ببعض، وأن لهجة قريش وكتابة الحروف النبطية، التي نقلها الأنباط إلى الحجاز، خلدها القرآن الكريم، في سوره وآياته، فكانت هادياً ومرشداً لنشر الدين الإسلامي بين كافة القبائل العربية في داخل الجزيرة العربية وعلى أطرافها.

هذا التعظيم وهذه المكانة التي كانت للشعر، جعلت من الشعراء يتبارون في نظم قصائد أشعارهم. ولم لا يكونون كذلك؟! والشعراء أصبحت لهم المكانة العالية في الحياة العربية لأن قصائدهم تلك كانت تعبر أصدق تعبير عن كافة جوانب حياة المجتمع العربي بكافة تفاصيلها، فقصائد الشعر كانت في واقعها تعتبر سجلاً لتاريخ القبائل وأفعالها، مما يجعل الناس يتغنون بها في أنديتهم وأحيائهم ويحفظها الكبير والصغير.

على ضوء ما سبق تصبح وحدة الثقافة العربية اليوم هي واجب حضاري، كان قد حقق من ورائها الأقدمون العرب وحدتهم الكبرى، وعلى شبابنا أن يهتدوا بهذا الطريق المؤدي إلى الوحدة .

الفصل التاسع

الإسلام يوحد العرب

لاحظنا في نهاية الفصل السابق الأثر الذي تركه التقدم الاقتصادي للمجتمع المكي، وما تلاه من تقدم أدبي ولغوي وفكري، أدى إلى استقرار اللغة العربية التي ساعدت على التفاهم وتبادل الأفكار بين العرب.

كانت الأسواق المكية في ازدهارها وتنوع أنشطتها قد أعطت نموذجاً مشجعاً للأسواق العربية الأخرى التي سبقتها، والتي كانت تقام بصورة شهرية موزعة على المناطق المختلفة، مثل: سوق حضرموت وسوق عدن وسوق صنعاء، سوق عمان، وسوق هجر، وغيرها من الأسواق العديدة التي اشتهرت في طول الجزيرة وعرضها، فحذت تلك الأسواق حذو أسواق مكة في توسيع نشاطها بأخذها شكل المهرجانات الأدبية والثقافية، وفي صلبها النشاط التجاري.

وشكلت تلك المواسم التجارية دورة اقتصادية لمنتجات الجزيرة العربية تبدأ من مدن شمالية، ثم تشرق، وبعدها تنزل إلى الجنوب، فتدخل مرة أخرى في داخل الجزيرة العربية، لقد كان أهل الجزيرة يتجرون ويتبادلون فيما تغله أراضي كل منطقة وما تنتجه من ثمار وتمور ومنتجات حيوانية، ومصنوعات يدوية وحرفية. أما على أطراف الجزيرة وفي موانئها العديدة –

كما سبق شرح ذلك من قبل ــ فكانت السفن تنزل بضائعها قادمة من الهند والصين، ومن شرق إفريقيا.

هذا هو عالم التجارة والاقتصاد في الجزيرة العربية في ذلك الزمان. صحيح أن عالم التجارة هو عالم الامتلاك الشخصي المدفوع بالمصلحة الفردية، إلا أن ذلك الإعرابي وهو في وسط هذه الأسواق، تاجراً أو متعاملاً، هو في حاجة إلى مختلف الجوانب من النشاط الإنساني؛ الفكري والأدبي والرياضي، فذلك الحراك البشري كانت نتيجته توحيد اللغة، ومن بين تلك العوامل كان الشعر العربي.

وكان من المتعارف عليه في الأسواق القديمة تبادل البضائع بنظام المقايضة إلا أن الجزيرة العربية ومنذ ذلك الوقت المبكر وبحكم وضعها التجاري كانت قد استخدمت العملات النقدية في تعاملها.

استخدم العرب نقود الروم والفرس في معاملاتهم، من الدينار، وهو عملة يونانية لاتينية اسمها باليونانية "ديناريوس" وكانت مسكوكة ذهبية، والدرهم وهو مشتق من "الدراخمة" اليونانية التي استمرت على نفس تسميتها حتى دخول اليونان الوحدة النقدية الأوروبية "اليورو"، وكان الدرهم مسكوكة فضية.

كان العرب بموقعهم الجغرافي بين الدولتين الكبيرتين في ذلك الوقت، كان نشاطهم التجاري قائم على الوساطة التجارية بين هاتين الدولتين أيضاً، لهذا السبب جاء استخدام العرب في معاملاتهم النقدية لكل من دينار الدولة الغربية، ودرهم الدولة الشرقية.

ولكون العرب يشتغلون بالتجارة، فقد اقتضى منهم معرفة بالكتابة (كما مر بنا عن مملكة سبأ)، والحساب، والمكاييل والموازين والمقاييس. وقد عرف تجار الجزيرة نظام الأمانات والودائع ونظام الصكوك، وغير ذلك مما يتطلبه نشاط معاملات السوق التجارية. وفوق ذلك فإنهم قد تعاملوا في نظام تبديل العملات (الصرافة)، وفي منح القروض، والرهونات، وفرضوا عليها

نسباً ربوية عالية. كما احتكر أصحاب الثروة والمال: مواسم الغلال ومواسم التمور ومواد معيشية أخرى. وهكذا فقد كان النظام التجاري المركنتيلي واضحاً في أجلى صوره في الأسواق التجارية العربية القديمة.

لقد مر بنا في الفصل السابق أن **المجتمع المكي** قائم كيانه على النشاط التجاري، وحتى الموسم الديني وهو الحج، قد ارتبطت به مواسم تجارية، وذلك لأن مدينة مكة المكرمة كانت واقعة في واد غير ذي زرع، وبحكم موقعها على طريق التجارة، أصبح عماد أهلها على النشاط التجاري. وقد ذكر الرواة عن حملة أبوسفيان التي هزم فيها في موقعة بدر، أنه ليس من بيت في قريش إلا وله فيها نصيب، مما يدل على أن البضائع والأموال التي كانت تحملها القوافل المكية كلها قائمة على **الشراكة** بين أكثر من بيت من البيوتات المكية الثرية، والقول الشائع لديهم هو أن تسعة أعشار الرزق في التجارة، وهذا يعكس واقع الحالة الاقتصادية في الحجاز عموماً، ومكة على وجه الخصوص.

فتفاصيل النشاط الاقتصادي في مدينة مكة، وما كان يدره من أرباح على طبقة الأثرياء، يدل على أنه قد خلق رخاءً ضارباً في الغلو ضمن تلك المساحة الصغيرة من الأرض، وانحصر الثراء بين أفراد من عائلات الأغنياء، فتكونت طبقات اجتماعية متفاوتة: طبقة عقارية وأخرى تجارية من جهة، وطبقة معدمين من جهة ثانية، جلهم جاءوا للعمل من البوادي والأرياف، أو أرقاء حملوا على ظهور السفن إلى الأسواق التجارية.

لقد خلق هذا التفاوت الطبقي مآسي اجتماعية واضحة وجلية وعلى الخصوص عندما تنتشر الأوبئة بين الفقراء عقب مواسم السيول، وعقب مواسم الحج، حيث يكثر الذباب، ومع الأتربة وشدة الحرارة، تنتشر الأمراض ومنها مرض العيون، الذي يخلف عدداً من العميان في مكة.

و في مواسم الجذب والقحط تنتشر الأوبئة والأمراض والفقر، عندما لا تجد الماشية العشب، فلا تدر لبنا، فيضطر القوم إلى النزوح إلى المدن، ويقيمون في الأحياء الفقيرة.

إن تلك الفروق الطبقية كانت قد نشرت الفواحش في مكة؛ من مجالس ليلية للأثرياء، وملاهي تضم الإماء، وانتشار أسواق النخاسة.

لقد كانت مدن الحجاز عموماً، ومنها مكة أيضاً على تلك الشاكلة عندما ولد في مكة، النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي (ص)، عام 570 ميلادية، الذي صادف عام الفيل، حيث فشل هجوم أبرهة على مكة.

كانت تلك هي الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في المدن التجارية العربية عموما وفي مكة بوجه خاص عندما ولد النبي محمد (ص)، أما عن الأوضاع السياسية العربية في هذه الفترة، فحدث عنها ولا حرج.

كان العرب في أقاليم العرب في وضع سياسي سيء؛ عرب تحت الحكم الساساني الفارسي في العراق والخليج، وآخرون منهم في بلاد الشام تحت حكم الروم البيزنطيين، أما العرب في اليمن فكانوا تحت الاحتلال الحبشي، ثم طلبوا من فارس مساعدتهم على إخراج الأحباش فانقلب عليهم الحليف إلى محتل، فأصبحت اليمن تحت الاحتلال الجديد، احتلال فارس، وباحتلالها اليمن أكملت فارس حلقة سيطرتها على الجزيرة العربية.

فالعرب في نهاية القرن السادس الميلادي عند مولد النبي محمد (ص)، كانوا يرزحون تحت السيطرة الأجنبية من قبل القوتين الأعظم في ذلك الحين، الفرس والروم، وقوى أخرى كما مر بنا.

كانت السيطرة الفارسية واقعة على العراق وفي معيتها دولة المناذرة في الشمال الشرقي للجزيرة، وكانت سيطرتها ممتدة إلى طرق الخليج وبابه الجنوبي في خليج عمان. أما على الطرقات البرية فقد كانت السيطرة الفارسية ممتدة بين مسقط وعمان شرقا إلى اليمن غرباً، مع سيطرتهم على طريق

الإحساء-الجوف، وعسير، التي تمر جميعها عبر نجد، فسيطرة القوة الفارسية تكاد تكون شبه كاملة على الجزيرة العربية، وأنهم في احتلالهم لليمن يكونون قد أكملوا شبه الحلقة الدائرة حول الجزيرة العربية، وربطوا طرق الجزيرة العربية التجارية بمصالحهم الإستراتيجية.

أما الروم فكانت سيطرتهم على بلاد الشام، وطريق دمشق – بصرى والأردن وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا.

فسيطرة الروم والفرس على المنطقة العربية ودخول كل من القوتين في نزاعات مستمرة فيما بينهما، قد أثر على العرب. كان الفرس في منتصف الربع الأول من القرن السابع الميلادي قبل هجرة الرسول (ص) إلى المدينة، يملكون قوة يمتد مداها من أواسط آسيا إلى الجزيرة العربية، فهذه القوة التي كانت بحوزتهم جعلتهم يقررون في ذلك الوقت إنهاء الوجود الرومي في المشرق ليصلوا إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، وفي غضون ست سنوات كان الفرس قد احتلوا الشام بما فيها القدس.

إلا أنه في عام 622 م، وهي السنة التي هاجر فيها الرسول (ص) إلى يثرب، قام إمبراطور الروم هرقل بهجوم رد فيه على كسرى الفرس، واستمر هرقل في زحف جيشه مجتاحاً مواقع الفرس وحلفائهم في الشام والعراق إلى أن وصل إلى المدائن على الحدود العراقية الإيرانية، وظلت الحرب دائرة بين الطرفين إلى سنة 628 م، عندما بدأت الفتواحات الاسلامية وأخرجوا الفرس والروم من المنطقة العربية.

ولا يفوتنا الإشارة إلى أن الأنظمة والقبائل العربية التي كانت مرتبطة بالمعسكرين في ذلك الوقت، كانوا قد استخدموا وقوداً لحروب القوتين المستمرة، وكان تأثير تلك الحروب على كل من دولتي المناذرة والغساسنة أكثر من غيرهما.

فمنذ نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع الميلادي كانت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية العربية تمر بمنعطف كبير، نتيجة لما آلت

إليه الأوضاع في جنوب الجزيرة العربية وفي الأرض العربية عموما، من تدني في المستوى الاقتصادي والاجتماعي، ومن الفتن والنزاعات والحروب بين قبائلها وعشائرها المتعددة. تضاف إلى ذلك مآسي الحروب التي كانت ناشبة بين القوتين في شمالها، لقد انعكست تلك الأوضاع جميعها على عرب الجزيرة، مما ساعد على التهيئة لمولد فكر جديد لدى العرب، ربطوا فيه وحدتهم الدينية الإسلامية بوحدتهم السياسية. ومنذ الربع الأول من القرن السابع الميلادي فإن العرب كانوا قد أصبحوا في وضع جديد لم يكن لهم عهد به من قبل، لقد جاءت الدعوة المحمدية التي دعتهم إلى التوحيد في الإيمان والوحدة في العمل الصالح، ونبذ التفرقة بينهم، فقامت وحدتهم الكبرى، متمثلة في الدين الإسلامي، ووحدة لغة القرآن الكريم، ووحدتهم الوطنية الجغرافية.

*** السيرة النبوية الشريفة:**

ننوه بداية إلى أن شبابنا العربي لديهم علم بالسيرة النبوية الإسلامية أكثر من المعلومات التالية التي سنقدمها، ولهذا سنقدم مقتطفات قليلة من هذه السيرة العطرة فيما له صلة بموضوعنا، نعرض لها مختصرة بما يلي:

ـــ من مكة بيتها الحرام وأسواقها وقوافلها التجارية، ومن الأسرة القرشية الهاشمية، ظهر النبي **محمد بن عبد الله (ص)، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي** .

ـــ أمه: آمنة بنت وهب بن عبد مناف (ر)، توفي أبوه بعد أن حملت به أمه، ودفن بالمدينة عند أخواله بني النجار. كان أبوه ذاهبا بتجارة إلى الشام، فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع إلى مكة.

ـــ ولدته أمه في دار أبي طالب **بشعب بني هاشم** في مكة، وكفله جده عبد المطلب، وتوفي عبد المطلب وهو في الثامنة من عمره، فكفله عمه أبو طالب، الذي حن عليه ورعاه.

ـ وأمه آمنة (ر) قدمت به إلى أخواله من بني النجار في المدينة (أم عبد المطلب بن هاشم، من بني النجار من يثرب)، وماتت آمنة (ر) وهي راجعة إلى مكة أيضاً، وكان محمد بن عبد الله (ص) في سن السادسة من عمره.

ـ عمل النبي محمد (ص) و هو في سن الصبا، في الرعي، كما خرج مع عمه أبي طالب متاجراً إلى الشام، أي أن النبي محمد (ص) اشتغل في مهنة الرعي، وعمل في التجارة.

ـ كانت السيدة خديجة (ع) أرملة ورثت من زوجها وأهلها مالاً، فكانت تستأجر الرجال ليتجروا بمالها. خرج النبي محمد (ص) متاجراً في مال خديجة إلى الشام ومعه غلامها ميسرة، باع النبي بضاعته واشترى أخرى، فتضاعف مالها. ولأمانته وصدقه تزوجته السيدة خديجة، أم المؤمنين (ع).

يلاحظ من الفقرات أعلاه، مدى العلاقة الأسرية التي كانت تربط مكة بالمدينة، كما تلاحظ صلة مكة والمدينة بالتجارة مع الشام، إلا أن الأهم من ذلك هي المكانة التي كانت تحتلها المرأة من حيث كونها تاجرة شهيرة تتعامل في مالها مع رجال كثيرين، فهذه السيدة القرشية الذكية المتاجرة في مالها هي التي أصبحت زوجة للرسول محمد (ص)، و هي أول من آمن به نبياً. وهذا ما يدل على مكانة المرأة العربية في فترة الإسلام، إيماناً وعملاً.

ـ بعث النبي محمد (ص) نبيا ورسولا في سنة 610 م فآمنت به السيدة خديجة (ع) وعلي بن أبي طالب (ع)، وصاحبه ابو بكر، وهؤلاء هم المؤمنون السابقون إلى الإسلام.

ـ استمرت دعوة الرسول (ص) في صورة سرية، يتلو فيها على الناس آيات القرآن الكريم ويدعوهم إلى: الإقرار بوحدانية الخالق (الشهادة) وتركهم لعبادة الأصنام، كما دعاهم لترك الفواحش والتوقف عن أخذ أموال الربا، وإلغاء أسواق النخاسة والقضاء على نظام العبودية، هذه الدعوة الإنسانية الأخلاقية جوبهت بمعارضة شديدة من قبل الزعامات القرشية

لكونها تمثل ثورة على العادات والتقاليد القبلية التي كانت سائدة، والتي اعتبروها مؤثرة على منافعهم التجارية، فحاولت قريش إبعاد عمه أبي طالب عن مناصرته وحمايته.

ـ دعا الرسول (ص) أصحابه للاستفادة من العرف القبلي، بتمتعهم في حماية العشيرة لهم، ليساعدهم ذلك على نشر الدين الإسلامي بينهم، فكانوا في مواسم الحج يتفرقون في الأسواق، يلتقي كل منهم بعشيرته، فيدعونهم للدخول في الدين الحنيف.

* **الحصار الاقتصادي** والاجتماعي في آخر العام السابع من البعثة النبوية :

ـ وجدت الأرستقراطية القرشية أن الدعوة الإسلامية آخذة في الانتشار، وأدركت أن هذه الدعوة تمثل ثورة على أوضاعهم القبلية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت سائدة في مكة وبقية مجتمع الجزيرة العربية، لقد وجدت في الدعوة الإسلامية بما تحمله من مبادئ في دعوتها؛ حثها الناس على ترك عبادة الأصنام، والتوجه لعبادة الله الخالق الصمد الذي لم يلد ولم يولد، زعزعة لمكانتها القبلية القرشية التي كانت تعتبر نفسها هي الراعي الديني للكعبة التي فيها أصنام القبائل العربية التي يحجون إليها، ووجد تجار قريش أنهم سيخسرون الأسواق التي كان أهل مكة يجنون منها الأرباح في فترات الحج، بناء عليه رأت القيادات القرشية أن خطراً يحدق بها من جراء استمرار هذه الدعوة، مما جعلها تقوم بمحاولاتها للقضاء على صاحب الدعوة، إلا أنهم لم يفلحوا في هذا الأمر.

ولما ازداد الأذى على الرسول، وعرف أبو طالب ما يخططه له القوم، جمع **بني المطلب** وأمرهم أن يدخلوا الرسول في **شعبهم** لحمايته.

ـ فما كان من زعماء قريش إلا أن حرروا صحيفة علقوها في جوف الكعبة، متضمنة عهوداً ومواثيق تشدد الحصار الاقتصادي والاجتماعي على بني هاشم ؛ أجمعوا فيها ألا يبايعوا بني هاشم، ولا يدخلون بيوتهم، ولا يتقبلون منهم صلحا.. إلخ حتى يسلموا الرسول للقتل.

ـ فلبثت بنوهاشم في شعبهم ثلاث سنين، حتى اشتد الأمر على الصحابة وبني هاشم وبني المطلب.

ـ وفي محاولة من أبي طالب لفك الحصار، قام بنظم قصائده التي ذم فيها موقف عشيرته الأقربين من حصارهم الشديد الذي فرضوه على أبناء عمومتهم لمدة طويلة حتى وصل الحال بهم إلى الفاقة والجوع.

ـ فانفك الحصار الذي دام ثلاث سنوات، على أساس العرف القبلي في التعاون والتعاضد مع الأهل والأقرباء في وقت الشدة.

* علينا أن نتوقف هنا قليلا لنتعرف على الأثر الذي تركه هذا الحصار في **الفقه الإسلامي**، حسبما جاء في كتب السيرة النبوية وما كتب من توضيح لأبن كثير في تفسيره للآية 41 من سورة الأنفال:

"وأعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير" (سورة الأنفال، الآية 41).

يقول ابن كثير: (وأما سهم ذوي القربى فإنه يصرف إلى **بني هاشم** وبني **المطلب**، لأن **بني المطلب** آزروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول (ص) وحماية لهم، مسلمهم طاعة لله وكافرهم **حمية للعشيرة** وأنفة وطاعة لأبي طالب. وأما بنو شمس وبنو نوفل وإن كانوا بني عمهم فلم يوافقوهم على ذلك بل حاربوهم ونابذوهم ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول).

سبقت الإشارة إلى أن عبد مناف بن قصي له أربعة أبناء هم: **هاشم**، الذي ابنه عبد المطلب، والذي له من الولد 12 ولداً، منهم عبد الله والد الرسول محمد (ص)، والابن الثاني لعبد مناف هو **المطلب**.

أما ابنا عبد مناف؛ الثالث والرابع فهما: **عبد شمس ونوفل**.

وبعلاقة النسب هذه يصبح بنو شمس وبنو نوفل، هم أبناء عم، لبني هاشم وبني المطلب.

وبناء على ما سبق فإن واقعة فرض الحصار على (شعب) بني هاشم في السنة السابعة من البعثة المحمدية، كانت قد أوجدت الخصام وفرقت بين أبناء الجد الواحد الذي هو" عبد مناف"، فأصبح بنوهاشم وبنوالمطلب في ناحية الإسلام، وبنوعبد شمس وبنونوفل في ناحية الجاهلية مع بطون قريش. بل إن التاريخ الإسلامي بعد حادثة الحصار، أصبح يطلق على **(قريش)** كل من مالئ وآزر بطون قريش في حربهم على الرسول (ص)، مع أنهم ينتسبون إلى الرسول وهم أبناء عمومة لبني هاشم، وهم جميعهم ينتسبون إلى قصي، المؤسس القرشي لذلك التجمع المكي، إلا أن الإيمان وعدم الإيمان بالله والرسول، هو الذي فرق بين أبناء العائلة الواحدة.

سورة الأنفال (وهي الآية 8 في القرآن الكريم) نزلت بعد غزوة بدر، بعد الهجرة إلى المدينة، وقد شرح الفقه الإسلامي الآية 41 عن حكم الخمس من الغنائم :

"وأعلموا **أنما** غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول **ولذي** القربى..." إلى آخر الآية، التي شرحها الفقهاء على أنه: يقسم خمس منها لله وللرسول، وآخر لقرابة النبي، ثم لليتامى وهم أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم عنهم وهم فقراء، والخمس الرابع للمساكين الذين هم ذوو الحاجة من المسلمين، أما الخمس الأخير فهو لابن السبيل، وهو المنقطع في سفره.

كان لموضوع توزيع غنائم الحرب؛ وهو اقتصادي واجتماعي، له حساسيته لدى مجتمع الجزيرة قبل الإسلام وبعده، حيث نشأ صراع حول

توزيع الغنائم، بين المفاهيم الإسلامية والمفاهيم القبلية في الحياة العامة. لقد أثارت الفتوح الإسلامية وما رافقتها من غنائم صراعاً حول توزيعها، وعلى الخصوص عندما نشأت مجالات أخرى عديدة؛ من مجالات النشاط الاقتصادي، والتجاري وامتلاك الأراضي. لقد تباينت الآراء حول تفسير وتطبيق توزيع الغنائم، وأدت تباين الآراء هذه إلى انفجار الفتنة العارمة بين المسلمين.

* **بينا** في فقرات أعلاه جانبا من أثر الفقه الإسلامي في الحصار الذي فرضته بطون قريش على الرسول (ص) وبني هاشم، ونواصل حديثنا بأخذ مقتطفات من السيرة المحمدية الشريفة بعد فك الحصار عن شعبة بني هاشم.

ـــ في آخر السنة العاشرة من البعثة (620 م)، وبعد مغادرة الرسول لشعب بني هاشم، توفى أبوطالب، وهو الذي كان موضع احترام من قريش. كما وتوفيت خديجة أم المؤمنين في نفس العام، فحزن عليهما الرسول لفقدانه أهم مناصريه، فسمي بعام الحزن.

ـــ كان الرسول (ص) بعد فك حصار قريش لشعبة بني هاشم، خرج بدعوته للعلن؛ تحرك في المواسم التجارية ومواسم الحج، كان في هذه الفترة يجتمع فيها مع زعماء القبائل ويدعوهم للالتحاق بدعوته ومساندته ومناصرته في عبادة الله الواحد الأحد، ونبذ العادات السيئة في مجتمعاتهم.

وأنه على الرغم مما كان يردده أبناء عمومته؛ ومنهم أبوجهل وأبولهب داعين القبائل لتكذيبه، إلا أن الرسول استمر يدعو في الأسواق وفي كل المواسم، ومكث يدعو الناس في أسواق عكاظ ومجنة، وفي مواسم الحج في (منى).

* **في** "منى" التقى بجماعة من قبيلتي الخزرج والأوس من المدينة المنورة، وفي موسمين متتاليين للحج تم الاتفاق معهم على نشر الإسلام، ومناصرة النبي محمد (ص) ومساعدته عند هجرته إلى يثرب:

ـ كانت البداية المثمرة مع وفد من الخزرج في موسم الحج عند **عقبة منى** (الوسيط: العقبة، المرقى الصعب من الجبال) وتمت فيها بيعة العقبة الأولى بين الرسول(ص) واثني عشر من يثرب، من قبيلتي الخزرج والأوس.

ـ أما بيعة العقبة الثانية: فهي بعد عام من البيعة الأولى، عند شعب العقبة في منى أيضاً، بايع الرسول (ص)، عددا أكبر من الأنصار من يثرب، بايعوه في عدم الشرك بالله والنصرة في نشر الدين الإسلامي.

*** الهجرة :**

ـ في السنة الثالثة عشرة من الدعوة هاجر النبي محمد (ص) مع نفر من أهله وأصحابه إلى مدينة يثرب، وبقدوم النبي إليها سميت (بالمدينة المنورة) لإنارتها بالإسلام، وجاءت هجرة النبي بعد اشتداد الاضطهاد عليه في مكة، فكانت هجرته شمالا إلى المدينة (يثرب) في سنة 622 ميلادية.

ـ كانت قريش قد منيت بالفشل في عدم استطاعتها منع الرسول (ص) وصحابته من الهجرة، فالقيادة القرشية أدركت خطورة الموقف داخل مكة عندما يخرج منها أهلها ويهاجرون عنها، فالهجرة تترك تأثيرها السلبي على مصالح أهل مكة الاقتصادية، وتؤثر في كيانهم الاجتماعي والسياسي التي عملت قيادتها على تثبيت قواعده بين العرب خلال فترة طويلة من الزمن.

ـ كان الأنصار في المدينة المنورة هم من الأوس والخزرج، يمنيون من قحطان، وأما المهاجرون ممن سبقوهم إلى الإسلام في مكة وما حولها فقد كانوا من عدنان، من شمال الحجاز. ولما هاجر الرسول إلى المدينة وقام الأنصار بنصرته، اجتمعت بذلك عدنان وقحطان تحت لواء الإسلام.

ـ المهاجرون والأنصار في المدينة المنورة يعرفون أن القبائل العربية تدين بولائها لقريش في مكة لما لهم من مصالح تجارية متبادلة، وأن تعاونهم

مع قريش قائم على ما بينهم من أحلاف تاريخية، كانوا قد عملوا بموجبها على تأمين طرق تجارتهم إلى الشام واليمن. لقد وجد المسلمون أنه للتأثير على هذا التحالف وفك هذه العرى بينهم، هو في التعرض لقوافلهم التجارية، فقام المسلمون بعدة غزوات، بدأت تقريباً بـــ(غزوة بدر) حيث اعترض المسلمون لقافلة قريش القادمة من مكة والمتجهة إلى الشام عن طريق المدينة، وحصلوا على غنائم من بضائع وأموال كثيرة، فكانت هزيمة قريش في هذه الغزوة شديدة على سادة أشراف قريش، ليست في خسارة أموالهم وقتلاهم فحسب، وإنما لما أشعرتهم به من مذلة وهزيمة، زعزعت مركزهم بين القبائل العربية وهي التي تعتبرها زعيمة لهم.

ــ لقد أثرت هذه الغزوة، وغزوات أخرى تالية على قبائل أخرى، كانت متحالفة مع قريش، هذه الغزوات عملت على فرض حصار اقتصادي على مكة، مما سهل عقد (صلح الحديبية) بين المسلمين والمشركين في السنة السادسة للهجرة.

* و في السنة الثامنة هجرية في شهر رمضان تم فتح مكة، أعلن فيها الرسول (ص) العفوالعام، وأبقى النبي (ص) مفاتيح الكعبة والسقاية في يد أحفاد عبد الدار بن قصي، ولم يشأ أن يضعها في أحد من بني هاشم، كما حطمت بعد الفتح الأصنام المنصوبة في الكعبة، وهدمت بيوت الأوثان التي كانت بعيدة عن مكة وواقعة في أماكن متفرقة في الجزيرة كانت قبائل تتعبد لها.

ــ بعد فتح مكة وبعد غزوات أخرى، منها غزوة (تبوك) في شمال الحجاز، تأكد النصر للدين الإسلامي في أنحاء الجزيرة العربية، وصار الرسول (ص) يبعث بسفرائه إلى ملوك وزعماء الدول المجاورة للجزيرة يدعوهم فيها للتوحيد وإبطال الشرك بالله، والتمييز بين الخالق والمخلوق، وطلب منهم الدخول في الإسلام.

ـ ذكرنا أن قريشاً كانت في بداية تجمعها ونشاطها التجاري عقدت أحلافاً تجارية مع تلك الدول إلا أن الرسائل التي حملها السفراء في هذه المرة كانت تبشيراً ودعوة لدخولهم في دين الله الواحد الأحد، ولهذا فإن سفراء النبي محمد (ص) إلى ملوك وأباطرة الدول المجاورة، في ذلك الوقت، لم يطلب منهم مصلحة مادية، وإنما طلب منهم اتباع طريق الحق، لقد كانت في تلك الخطوة قوة إيمانية كبيرة وتصميم على نشر الدين الإسلامي بين الأمم كافة.

* في **السنة العاشرة** للهجرة توجه الرسول (ص) إلى مكة المكرمة للحج، وكان معه آلاف المسلمين من قبائل ومناطق مختلفة من الجزيرة العربية، للتدليل على وحدتهم في الإسلام، كانت هذه هي الحجة الأولى والأخيرة للنبي (ص)، ولذلك سميت بحجة الوداع، فشعائر الحج التي يتبعها المسلمون الآن، مبنية سننها على ما فعله وقام به الرسول في هذه الحجة، حجة الوداع.

- وبعد حجة الوداع وعودة الرسول إلى المدينة مرض النبي محمد (ص) وتوفي في ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة، في حوالي 632 م، وله من العمر 63 سنة بعد أن بلغ رسالته إلى الناس أجمعين.

* وبإلقاء نظرة عاجلة على ما تم عرضه أعلاه، نجد أن الإسلام بعد الهجرة وبعد انتشاره بداية في إقليم الحجاز، جاء بمبدأ الأمة القائمة على الوحدة والتضامن، تضم المسلمين جميعهم من مهاجرين وأنصاراً، ومن تبعهم، ومن لحق بهم، وجاهد معهم، فهم جميعا أمة واحدة لا فرق فيها بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى، هذه الدعوة كان هدفها نقل العرب من النزعة والفكرة والعقيدة القبلية، إلى مبدأ الأمة التي تضم كل من اعتنق الدين الجديد، وأن من آمن بهذا الدين يكون قد انضم إلى أمة إسلامية واحدة، فجاءت هذه النقلة بعد أن نجحت الحركة الإسلامية منذ بداياتها في جمعها البدو والحضر تحت راية واحدة وهدف مشترك واحد يتجاوز المفاهيم القبلية إلى المفهوم الأوسع وهو الأمة الواحدة.

إلا أنه بعد وفاة الرسول الكريم وجدت كثير من القبائل الفرصة للتمرد على المبادئ الإسلامية والعودة إلى الأعراف القبلية، فكان تمرداً على رفض إيتاء الزكاة، التي هي ركن من أركان الإسلام الخمسة، هدف الممتنعين عن أداء الزكاة التفريق بين الصلاة والزكاة، مع أن كلاً منهما فريضة واجبة على المسلمين.

لقد أظهرت موقف المرتدين أنها ردة على تعاليم الإسلام بعد وفاة الرسول (ص)، كما بينت أنه لم يثبت على إسلامه سوى أهل المدينة ومكة والطائف وبعض القبائل بين مكة والمدينة وفي مناطق وأفراد متفرقين من كل قبيلة.

ـ لقد كانت الأعراب تستخدم قوتها ونفوذها في فرضها الإتاوات على القوافل التجارية المارة في أراضيها قبل الإسلام، فانتهزت هذه فرصة إعلان الردة من قبل بعض القبائل مانعي الزكاة، فقاموا بالإغارة على المدينة المنورة ليلا، كما كانوا يفعلون قبل هجرة الرسول إليها وقبل استقرار الأمن فيها وتوحيد مجتمعها، عندها قرر سكان مدن الحجاز، من المهاجرين والأنصار وعلى رأسها قيادتهم في المدينة المنورة العمل على القضاء على الردة. فنشبت حرب الردة بين المسلمين من العرب المرتدين عن الإسلام. وبهزيمة المرتدين عادت الجزيرة العربية لوحدتها.

* إن تلك الردة لم تدم طويلاً ولم تعطل الحركة الإسلامية، بل أن تلك الأحداث جعلت من الخلافة الرشيدة في المدينة المنورة تعمل على تجاوز المفاهيم القبلية، وتقوم بتأسيس دولة الأمة الواحدة، لأن الإسلام قد جاء بفكرة الأمة لتكوّن الوحدة الكبرى، وقد تمثلت الوحدة لأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية بين القبائل العربية اليمنية والحجازية والنجدية وغيرها سياسياً ودينياً، كما أن الإسلام جاء بمفاهيم أساسية مجتمعية؛ كالمساواة والعدالة والشورى، تلك التي كانت تطالب بها عامة الناس وكانوا في أمس الحاجة إليها.

*** مؤسسة الخلافة**

بعد وفاة الرسول (ص) جاء الخلفاء الراشدون ليكونوا خلفاء للرسول وكان عليهم تنفيذ التشريعات الإسلامية المبنية على القرآن الكريم والسنة النبوية، فنشأت مؤسسة الخلافة في المدينة المنورة ضمن **حكومة دولة** بدلاً من **حكومة مدينة** لاتساع رقعتها، ولم تعد تمثل مدينة واحدة، بل أرض الجزيرة بأكملها، فعملت هذه الدولة الإسلامية على توحيد شعبها وانطلقت به في الفتوح الإسلامية، التي انتشر على أثرها العرب المسلمون في البلاد المفتوحة، فتحولت الحكومة الإسلامية إلى دولة مترامية الأطراف كان الحجاز، وبالذات المدينة المنورة، هي القلب النابض بحيوية قادتها الذين كانوا يضعون خطط الفتوح، فيرسل قادة الفتوح إليهم الأموال الوفيرة من غنائم الحرب، التي كانت تودع في بيت مال المسلمين لإنفاقها في أوجه الصالح العام.

بدأت الفتوحات بالبلاد التي فيها مجموعات عربية واسعة؛ العراق والشام، وصحراء مصر الشرقية، هؤلاء تمعنوا في آيات القرآن الكريم وآمنوا بالدين الإسلامي، فانضموا إلى القوات الفاتحة، وانطلق بهم الدين الإسلامي منتشرا إلى أماكن بعيدة عن الجزيرة العربية.

وفي فترة تقرب من عشرين عاما بعد وفاة الرسول، كان المسلمون قد أنهوا الدولة الساسانية في العراق وإيران، وأرمينيا. وانتهى نفوذ الروم البيزنطيين في بلاد الشام ومصر.

* إلا أنه قد نتج عن الفتوح وما تم الحصول عليها من مغانم، أن هيأت لكثير من القادة المسلمين الفاتحين مجالات اقتصادية شملت كافة نواحي الأنشطة الاقتصادية؛ من أموال، وتجارة، وامتلاك للأراضي وغيرها، هذه المغانم المادية قد حرفت عددا من الزعامات القبلية السابقة وأرجعتها إلى نظام القبيلة، بدلا من أن تأخذ بتعاليم الدين الحنيف. لقد أثرت التطورات المادية الاقتصادية الجديدة في حياة المجموعات القبلية، مما نشأ عنها تباين في الآراء

بين المسلمين، أدى إلى صراع بين الحركة الإسلامية ومبادئها، وبين المفاهيم والأعراف القبلية الطاغية.

* الخلاف بين فكرة الأمة /الدولة وبين المفاهيم القبلية

كانت القبائل ترى أنه وفقا للمفهوم القبلي فإن المناطق التي تفتحها تعود لها **بحق الفتح**، فتعتبر أن **الأرض المفتوحة غنيمة، توزع** على المقاتلين بعد إخراج الخمس منها لله ورسوله، بينما اعتبرت القيادات الإسلامية أن الأرض المفتوحة هي فيء للامة حاضراً ومستقبلاً، فهي تعتبر **وقفاً** للدولة التي تقوم بتحصيل الأموال للمقاتلة وللنفقات العامة، أي أنها تعود لبيت مال المسلمين.

ولقد وجدت الزعامات القبلية فرصتها في القرار الاقتصادي، الذي كان يقضي **بانتقال ملكية الأرض** للمسلمين إلى حيث إقامتهم، أي بمعنى أنه يمكن أن يستبدل المسلمون أملاكهم في أرض العراق أو غيرها من الأقاليم المفتوحة، أرضا في الحجاز أو غيرها حيث يقيم المالك.

ـ لقد أدى هذا القرار إلى نتائج اجتماعية واقتصادية وسياسية خطيرة. استبشر به أهل الحجاز، **حيث** أتاح لأهل المدينة استبدال أملاكهم التي حصلوا عليها بالعراق مثلا، بأراض لهم في ديارهم بالحجاز، فنشطت الاستبدالات بين رجال القبائل، وجاءتهم مع الأراضي أموال الغنائم والسبايا وغيرها، فبرزت على أهل المدينة مظاهر الثراء والغنى.

ـ أما رجالات قريش في مكة، بالإضافة إلى استبدالاتهم الأراضي التي قاموا بها، فقد أقبلوا على شراء الأراضي في الأقاليم، ولا يفوتنا ذكر ما للزعامات القرشية من خبرة وباع طويل في الاستثمارات المالية والعقارية التي كانت لهم في الطائف قبل الإسلام، فهؤلاء استثمروا أموال الغنائم في الأراضي الخصبة والتجارة، فعادت عليهم أرباحها بالأموال الطائلة.

ـ وهكذا تكون قد نشأت في الإسلام طبقة جديدة من الناس تميزت بضخامة الثراء وكثرة الأتباع، بالإضافة إلى تمكينها السياسي والاجتماعي .

ـ من هنا جاء سخط القبائل على قريش وبطونها في الحجاز، وبالذات المتنفذين منهم الذين استأثروا بالزعامة وبالأموال. بينما بقية القبائل كانت ترى أنها دخلت الإسلام كما دخلت قريش وهاجروا كما هاجرت واشتركوا في الفتوح مثلهم. كان يعتقد أنه في قرار استبدال الأراضي عامل تخفيف من هذا التذمر، إلا أنه مع مر الوقت جاء بنتائج عكسية، وذلك عندما استفادت منه زعامات قبلية قرشية معينة، زادت غناها غنى وازداد الفقير فقراً، وقد تضرر من ذلك الأعراب والفلاحين في الجزيرة والأمصار المفتوحة.

* هذه الأوضاع الاجتماعية وغيرها أدت إلى انقسام قريش، مما أتاح لجماعات قبلية وافدة من الأمصار أن تنتهك حرمة المدينة المنورة، قامت بقتل الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان (ر)، مما أفضى إلى قيام **الفتنة** في الإسلام، فقميص الخليفة عثمان (ر) الملطخ بدمه استخدم من قبل أطراف إسلامية مختلفة،مطالبة بالانتقام من القتلة، وصار كل يتهم الآخر بالتآمر والقتل .

* في هذه الأجواء الملبدة بغيوم الثأر، بويع الإمام علي بن أبي طالب (ع) في المدينة المنورة، خليفة للمسلمين، فرفض بنو أمية مبايعته، وعلى رأسهم معاوية بن ابي سفيان الذي كان والياً على الشام.

* وفي ظل تلك الأجواء المشحونة بهذا الحدث الكبير في المدن الإسلامية وعلى الخصوص في مدن الحجاز ومنها المدينة المنورة، ونظراً لاتساع رقعة الدولة الإسلامية انتقلت سلطة الخلافة الإسلامية الراشدة الرابعة من الجزيرة العربية إلى اطرافها لتصبح وسط الأقاليم الإسلامية آنذاك.

وعلى الرغم من هذا الانتقال المكاني، فإن آثار الفتنة تلك ظلت تلاحق الخليفة الراشد الرابع حيث جاءت موقعة الجمل، وبعدها جاء تمرد أهل الشام بقيادة معاوية، وتواجه الطرفان في معركة صفين، التي انتصر فيها الإمام

علي (ع) ولكن جيش معاوية طلب وقف القتال برفع المصاحف على أسنة الرماح مطالبين باللجوء إلى التحكيم بين الطرفين، ووافق علي(ع) تحت ضغط مجموعة من جيشه، ولكن، وبالرغم من وقف هذه الحرب عن طريق التحكيم، إلا أنها ولدت نتائج كبيرة، منها أن عمرو بن العاص نصب معاوية خليفة للمسلمين، فأصبح لأول مرة في التاريخ الإسلامي خليفتان بين المسلمين.

وبعدها اغتيل الخليفة الراشد الرابع الإمام علي بن أبي طالب (ع)، على يد الجماعة الخارجة على التحكيم، وتولى الحكم معاوية بن أبي سفيان **الخليفة** الأموي الأول، بعد أن تم انقلاب الخلافة القائمة على بيعة المسلمين، إلى خلافة تم أخذها بالحرب والغلبة والشوكة وفق النظام القبلي العائلي، ثم بنى معاوية على أساسها حكماً ملكياً وراثياً، قائم على **توريث الخلافة**.

فمعاوية بن أبي سفيان بن حرب بن **أمية** بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، الذي أسس "الخلافة الأموية" حوالي سنة 661 م، يظهر من تسمية الخلافة أنها تنتسب إلى اسم أحد أجداد معاوية، الذي هو أمية الأكبر وأسرته التي هي فرع وبطن من قبيلة قريش الذين جدهم الأعلى قصي بن كلاب، وعلى هذا النحو يصبح نظام "الخلافة الأموية" معبراً عن قبلية ملكية وراثية.

وأنه بعد أن تمكن معاوية من الحكم أخذ البيعة لإبنه يزيد الذي **ورّثه خلافة** المسلمين، فبرزت المعارضة السياسية بأجلى صورها في الكوفة والبصرة والمدينة ومكة للتوريث الأول في الإسلام، مما أدى إلى موقعة كربلاء الشهيرة في التاريخ الإسلامي التي استشهد فيها الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب (ع)، وإلى ما تركته من آثار لاحقة على هذا التوريث سنأتي على ذكرها لاحقا.

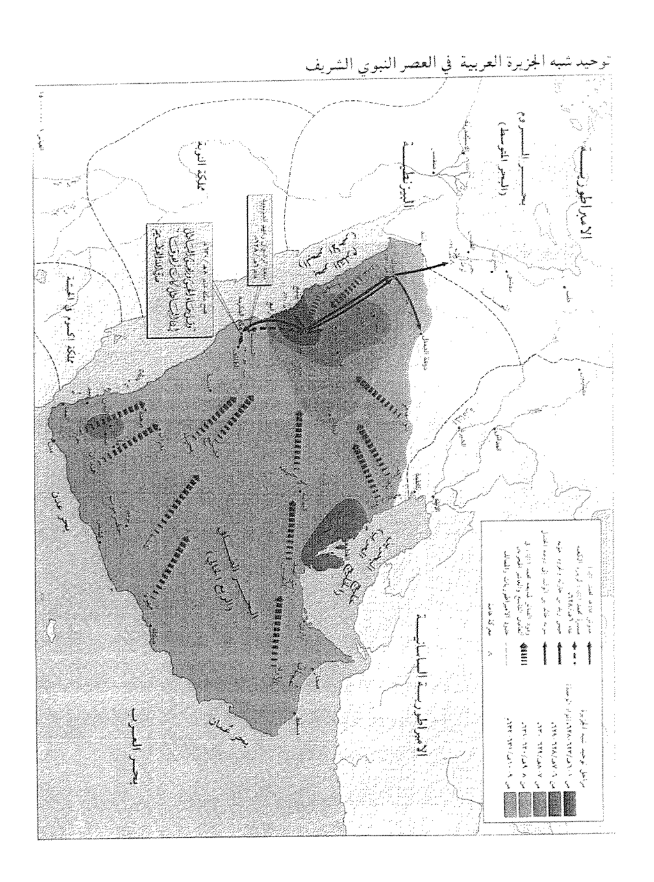
* ولا يفوتنا التنويه هنا إلى أنه في الوقت الذي كانت فيه الزعامات القرشية القبلية منشغلة بالغنائم والاستثمارات وجمع الأموال وأخذ الخلافة الإسلامية بالحرب والقوة والغلبة بدون مشورة أو انتخاب، وبتوريث الأسر

الحاكمة، فإن الأعداد الكبيرة من المسلمين قد أخذت على عاتقها نشر الدين الإسلامي في أقطار عديدة، آسيوية وإفريقية، قريبة وبعيدة، وهكذا يتضح لنا مرة أخرى انفصال أنظمة الحكم العربية عن شعوبها؛ أنظمة حاكمة متسلطة غارقة في الفساد، وقواعد شعبية واسعة تعمل على نشر المبادئ الإنسانية.

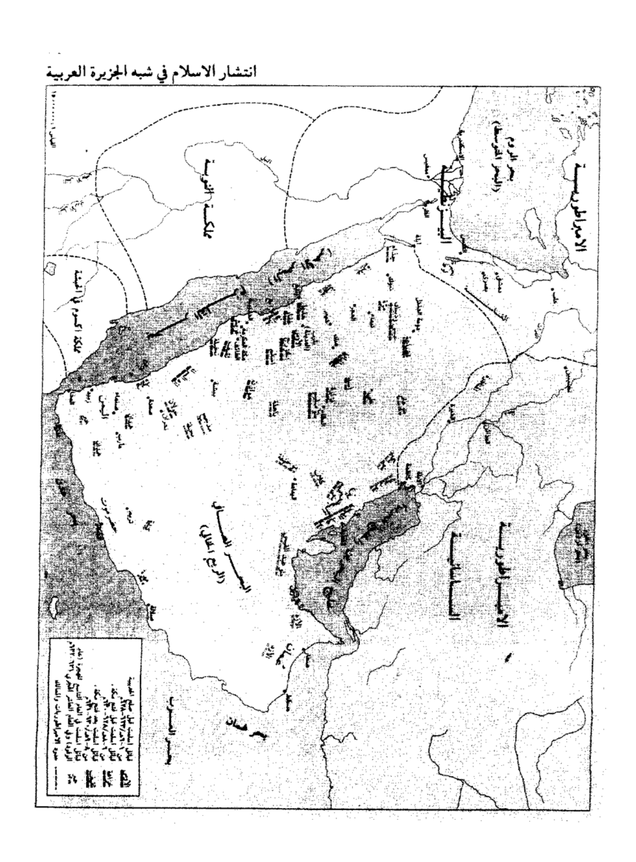
لقد خلق الإسلام من المجتمع العربي أفراداً وجماعات ومن أقصاه إلى أقصاه، مجتمعاً شديد الحركة والتغير في بنيويته واتساع مداه الفكري بأخذه من المآثر العلمية والفلسفية التي جاءت بها الحضارات القديمة وإضافتها إلى العلوم الإسلامية، فنشب الصراع الفكري والسياسي بين الجماعات التي ترى في القديم وسيلتها في الحكم، وبين الجماعات الساعية إلى تغيير البنى القديمة القائمة عليها السلطة الإسلامية العربية، هذا ما سنلاحظه في الفصل القادم.

توحيد الجزيرة العربية في العصر النبوي الشريف

توحيد شبه الجزيرة العربية في العصر النبوي الشريف



انتشار الاسلام في شبه الجزيرة العربية



الفصل العاشر

الجزيرة العربية وقرون من الثورات الفكرية والاجتماعية

بعد أن توحد العرب حول العقيدة الإسلامية، تولدت لديهم ثورة شملت كافة مناحي حياتهم العربية: الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية وغيرها، بصورة لم يعهد لها العرب مثيلا من قبل، مما أوجد وعياً واهتماماً بيناً بعلاقة الفرد بالمجتمع، وعلاقة المجتمع بالسلطة، وقد شمل هذا الاهتمام كل فرد عربي بعد أن لاحظ أن السلطات الحاكمة قد خالفت المبادئ التي قام عليها الإسلام، فتكونت على أثرها قوى اجتماعية عربية إسلامية معارضة تطالب بتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة السياسية، وقد جاءت مطالبها تحت عناوين كثيرة منها :

"العدالة والمساواة" التي هي "العدالة والديمقراطية"، فمطلبهم بتحقيق (العدالة) ناتج عما لمسوه من ظلم وجور كان قد وقع على كاهل الطبقات الاجتماعية عموماً والطبقات الفقيرة المستضعفة بصورة خاصة، ومطلبهم (بالمساواة) والديمقراطية أساسه معايشتهم اليومية؛ للاستبداد في الحكم الفردي المطلق، وللفساد في السلطة الحاكمة العائلية القبلية الطائفية.

وإلى جانب ذلك طالبوا بانتخاب "إمام عادل" يعتمد انتخابه على منزلة الشخص العلمية وخدماته المجتمعية بغض النظر عن نسبه العائلي أو القبلي،

وكانوا يهدفون من وراء هذا المطلب وصول قيادات المجتمع إلى الحكم الصالح الذي تشيد فيه مؤسسات الحكم القائمة على العدالة والمساواة .

كما أن المعارضة كانت قد نعت على السلطات الحاكمة استبدادها وخروجها على "ما توجبه الأوامر الشرعية من كتاب الله وسنة نبيه"، أي أن الأنظمة الحاكمة في عدم تطبيقها للعدالة والمساواة تكون قد خالفت القواعد والمبادئ الشرعية (الدستورية)، ورأت أنه عندئذ يصبح من حق قوى المجتمع عدم إطاعة السلطات والخروج عليها حتى يستقيم أمر المسلمين.

لقد كان المجتمع العربي الإسلامي يمور بالأفكار وبالنظريات الاجتماعية والدينية (المذاهب) المختلفة مشاربها ومواردها، مدفوعة بالأحداث المتسارعة التي كان يمر بها المجتمع العربي المسلم، فتولدت من مجموعها أفكار تبنتها قوى المعارضة السياسية ونادت بتنفيذها وتطبيقها للوصول إلى مجتمع العدالة والمساواة، فتشكلت من تلك المجاميع فئات اجتماعية متعددة ركزت جل اهتمامها على؛ مراقبة، ونقد، ومحاربة السلطات الحاكمة، مما جعل من تلك القوى تؤسس لها أحزابا وتجمعات فكرية وفلسفية (فرق) يميز كل حزب (فرقة أو مذهب) منها نفسه عن الآخر بالعقائد والأفكار التي يطرحها ليكسب من خلالها المزيد من المناصرين والمؤيدين، وفق نظرته الفكرية الاجتماعية، وبرامجه السياسية.

لقد نشأت تلك المعارضة في أقطار عربية إسلامية مختلفة، ومن بينها أرض الجزيرة العربية، وكانت هذه المعارضة جزء من تيار عارم، كان للجزيرة قسطها الوافر، بل إن قوى معارضة وجدت في أرض الجزيرة مكانها المناسب لتجسد على أرضها أفكارها ومذاهبها، فبنت عليها دولاً وأنظمة بعضها زال من أرض الجزيرة والبعض الآخر بقي مغروساً في جبالها وأوديتها وواحاتها حتى وقتنا الراهن، وبناء على ذلك سيتناول الفصل القادم ما آلت إليه بعض من أفكار تلك الجماعات عندما تسلمت زمام السلطات السياسية، ومن بينها تلك المبنية على عدم الفصل بين الدين والدولة، فهل

طبقت ما نادت به وهي في صفوف المعارضة، وهل غدت أفضل أو أسوأ من مثيلاتها في الأنظمة المعترض عليها؟ وهل حافظت على وحدة الأمة أم مزقتها مذهبياً وقبلياً؟ أما فصلنا هذا فعلاقته بجوانب فكرية وثقافية كانت قد طرحتها بعض المعارضة الإسلامية منذ العصر الأول للإسلام، سنتناولها بإيجاز شديد.

* في الفصل السابق وجدنا كيف أن الدين الإسلامي حقق **وحدة** مجتمع الجزيرة العربية، فبعد أن كانت وحدتهم قائمة على المصالح التجارية ضمن التحالفات القبلية التي ساعدتهم على توسيع تجارتهم وحملها إلى أماكن مختلفة بعيدة، فإنهم بالدين الإسلامي أصبحوا في وحدة **دينية/سياسية** جمعتهم لأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية، فكونت منهم **أمة** تحمل دعوة **واحدة**، تحت قيادة **واحدة**، أعطتهم قوة استطاعوا بها نقل معتقدهم الديني إلى أصقاع بعيدة خارج الجزيرة، فأولئك الذين كانوا يحملون التجارة ويملكون زمامها صارت بيدهم دعوة جديدة **يحملونها**، فانصرف العرب بما فيهم القرشيون **للسياسة والحكم** بدلاً من دورهم التجاري السابق فقط.

إلا أن متطلبات السياسة والحكم، هي أمور مختلفة عن النشاط التجاري القائم على المصالح الشخصية، إذ ان متطلبات وأهداف إدارة حكم المجتمع هي عكس نظرة التاجر المقتصرة على منافعه ومصالحه الشخصية، ومنافع ومصالح قبيلته (وهذا مع الأسف ما هو حاصل لحكوماتنا اليوم!)، ذلك لأن على من يتولى إدارة حكم المجتمع أن يتخلى عن مصالحه الفردية والعائلية والقبلية، ويعمل فقط لمصلحة المجتمع الذي أنتخبه لإدارة الحكم فيه وفقا للمبادئ و الأسس التي يرسمها دستور المجتمع، والتي هي في حالة العرب تلك هما القرآن والسنة ووحدة الأمة، فعدم تطبيق السلطات الحاكمة للمبادئ التي قام عليها المجتمع العربي الإسلامي، قد أوجد الخلل والصدام العظيم بين مجتمع الجزيرة وسلطته الحاكمة بعد فترة الخلافة الراشدة، فحكايتنا إذن قديمة في هذا الخصوص !

إنه مما لا شك فيه أن العقيدة الإسلامية تركت دويا في الحياة الفكرية والثقافية في مجتمع الجزيرة العربية، فهي قد مكنت العربي (الإعرابي) من تملكه لعلوم جديدة؛ دينية فقهية وأخلاقية اجتماعية وفلسفية فكرية، وكلها ذات علاقة بحياة الناس المعيشية الاقتصادية. وجد فيها العربي نقلة نوعية لكيانه القبلي، فاستوعب تلك المبادئ وصار يعمل من أجلها؛ في تحقيق انتخاب المجتمع لإمام عادل يحكمه (سلطة حكم عادلة) يعمل على تطبيق العدالة والمساواة بين فئات المجتمع من ناحية، وقيامه بتوحيد الأمة لمساعدته في نشره العقيدة الإسلامية بدعوة الناس إليها، من ناحية أخرى.

* بعد وفاة الرسول الكريم (ص) جاء أربعة من الخلفاء الراشدين، كانوا **خلفاء** للرسول (ص) وكان المبدأ الأساسي لتسلم كل منهم سلطاته، هو مبدأ الانتخاب العام من أهل الحل والعقد من المسلمين، فجاء رأس السلطة الحاكمة (الخليفة) في العهد الراشدي محتلاً موقعه السياسي وفق قاعدة صلبة قائمة على مبدأ التوافق من قبل قادة المجتمع، وبناء عليه فأن مؤسسة الخلافة التي كانت تابعة له قد استرشدت في إدارة حكمها للمجتمع العربي الإسلامي بالمبادئ والتشريعات الواردة في الكتاب والسنة، وبالتالي فإن حقوق المواطنين السياسية والاجتماعية والاقتصادية كانت تعتبر مكفولة وفقا لذلك التشريع، فالخليفة الراشد إذن كان يربطه بالمجتمع عقد اجتماعي إسلامي؛ من بينها العدالة والمساواة (كأسنان المشط) ووحدة الأمة، وكانت تدعمه المؤسسات الاجتماعية الشعبية التي كان من بينها المسجد وقتئذ .

وفي نفس الوقت فإن الخلفاء الراشدين في إدارتهم لشئون المجتمع الإسلامي كانوا يطبقون المبادئ التشريعية الإسلامية التي تحثهم على نشر هذا الدين والدعوة له بين الناس جميعا، وكانت **وحدة** مجتمع الجزيرة ووحدة عقيدته وقيادته دافعا لهم في القيام بنشرهم لمبادئهم: الدينية والاجتماعية والسياسية، مما جعلهم منذ البداية في صدام مع إمبراطوريتي الفرس والروم :

– فمنذ منتصف القرن السادس الميلادي وحتى مجيء الإسلام كانت الإمبراطوريتان الفارسية الساسانية، والرومانية البيزنطية، في خلافات وحروب فيما بينهما تركت آثارها على العرب في العراق والشام ومصر؛ وكانت الدولة الفارسية قد استولت على الحكم العربي الذي للمناذرة في الحيرة وحكمت المنطقة بصورة مباشرة، وكذلك الروم وخلافاتهم مع مملكة الغساسنة ومع قبائل عربية أخرى، إلى جانب عوامل كثيرة كانت قد استجدت في ذلك الحين تركت أثرها على العلاقات بين الحكومات العربية في جنوب الشام وكل من الإمبراطوريتين، على الرغم من التوافق أو الاختلاف الديني المذهبي بين الحكومات العربية والإمبراطوريتين.

– ولهذا وجدت القيادة الراشدة أن الصراع الذي كان ناشباً بين القوتين المذكورتين له تأثيره على أراضي الجزيرة العربية لكون أراضي العراق والشام الدائرة فوقها صراعهما هي أراض عربية في البادية الشامية العراقية ومتاخمة للجزيرة العربية، والأوضاع غير المستقرة فيها تعتبر مصدر تهديد للجزيرة العربية.

– فالعرب الأقدمون كانوا يدركون أن شمال الجزيرة العربية يعتبر مجالهم الطبيعي الحيوي الذي لا تستطيع الجزيرة الاطمئنان على أمنها وتقدمها إذا تحكمت فيها قوى أجنبية، وبناء عليه نسأل، متى يدرك عرب اليوم هذه الحقيقة التاريخية التي كان قد أدركها وعرفها وعمل على ضوئها الأجداد ؟!

– أما الإمبراطوريتان من جانبهما فقد شعرتا أن **وحدة الجزيرة** ووحدة مجتمعها الداعي **للجهاد** في نشره الدين الإسلامي، فيه تحد لهما، لما ستتركه هذه الدعوة من تأثيرها على المجاميع العربية الواسعة الواقعة تحت سيطرتهما في الشام والعراق، هؤلاء العرب هم المدعوون من قبل أهلهم في الجزيرة لدخولهم في الإسلام قبل غيرهم، وكانت تلك المجاميع العربية لها حكومات مدن تساندها قبائل عربية منتشرة في الجزيرة الفراتية–(ما بين دجلة والفرات

من جهة الشام تسمى بالجزيرة) لها مذاهبها الدينية المسيحية المختلفة) – وعلى ضفاف مشارف الفرات الأسفل وفي منطقة الفرات الأوسط، علاوة على قبائل عربية منتشرة في سيناء وعلى أطراف مصر الشرقية، هذه الحكومات والتجمعات العربية سبق أن ملأت أراضيها قبائل عربية قديمة وحديثة ضمن موجات من الهجرة ـ التي لم تتقطع ـ مصدرها الجزيرة العربية، وقد أشرنا إلى بعض من نشاطها التجاري القديم الذي عمل على بناء تلك التجمعات، فالقوتان الأعظم في الشمال كانتا تخشيان من وحدة تلك المجاميع العربية في أرضها الواسعة.

– من ناحيتها كانت قيادة الجزيرة العربية تخشى أيضاً من القوتين بعد أن تم تجميع قوى مجتمع الجزيرة في **دولة واحدة** كبيرة، ذلك أن القيادة العربية في الجزيرة، وهي التي لها تجاربها السابقة معهما، كانت تدرك أن القوتين المتواجدتين في شمالها لن تتركا لها الاستمرار **في وحدتها** وتحقيق أهداف دعوتها الجديدة، فاتخذت قرارها بالمبادرة في غزواتها لشمال الجزيرة، وهي التي كانت قد بدأت منذ عهد الرسول (ص)، فتحركها هذا حقق لها غرضين؛ حماية وحدة مجتمعها من جهة، وتطبيقها لفريضة الجهاد في نشر الدين الإسلامي من جهة أخرى، وكانت قادرة على تحقيق أهدافها هذه وفقا لما يلي:

كانت الطريق القديمة المعروفة لتجارة الجزيرة العربية، هي طريق الحيرة– مكة، فجاء توجه المسلمين إلى البصرة عن طريق الكاظمة في الكويت، وذلك لكون البصرة تمثل بوابة العراق من جنوبها، وهي بوابة تجارية بحرية هامة معروفة للعرب الذين يعرفون أهمية المراكز الاقتصادية في الحرب والسلم، كما أن توجه القيادة الراشدة لهذه المنطقة نابع من معرفتهم أن التجمع العربي في جنوب العراق الذين يرتبطون معهم بوشائج القربى وبالذات أولئك الذين هم على ضفتي نهر الفرات (حوض نهر الفرات)، هم عونهم لتحقيق أهدافهم. لقد كان هؤلاء هم بالفعل هم عون العرب المسلمين

في الوصول إلى مدن شمال العراق في نهريه (كانت موجودة شعوب أخرى إلى جانب العرب)، وبعد أن تم احتواؤهم لأرض الحيرة أصبحت طريق العرب المسلمين سالكة إلى الحجاز لتغذية هذا الاندفاع الحربي بالرجال، ولتسليم الغنائم التي كانت تغذي بيت المال.

ونتيجة لتلك التطورات جرى الصدام بين العرب المسلمين والفرس في الحيرة وبابل، يساندهم العرب الآخرون، وانتقلت الحرب إلى القادسية في المدائن على شاطئ دجلة الغربي، فحصل المسلمون على غنائم من إيوان كسرى، أما من ناحية تخوم الشام فقد كان هرقل في ذلك الوقت نازلا بحمص، وعلى هذا النحو جرى تصادم العرب بمختلف مذاهبهم مع كل من الفرس والروم في عدة مواقع .

لقد عزز العرب المسلمون قواهم في كل من البصرة والكوفة (التي حلت محل الحيرة وكانت قبلها بابل بالقرب منها) لتكون منطلقا لفتوحاتهم في الجناح الشرقي من الدولة الإسلامية، كان طريق **الحيرة- مكة** الذي أصبح هو طريق **الكوفة- مكة**، هذا الطريق الهام كانوا يسمونه جادة العراق أو طريق الحج، وكان يربط مدينة البصرة بمدن الحجاز، فكانت له أهميته الكبيرة للحكومات العربية الإسلامية المتعاقبة .

* في فقرات مضت مررنا بصورة عاجلة على ما قامت به الحكومة الإسلامية في المدينة المنورة من توسيعها لمجال الدعوة الإسلامية وفتوحاتها في أراض و شعوب جديدة أصبحت تحت قيادة عاصمة المسلمين في المدينة المنورة ويدلنا هذا على التطور الذي طرأ على أنظمة القبائل العربية عندما اتخذت طريقها للسياسة و الحكم في صدر الإسلام.

لاحظنا في إشارة سريعة لجانب من السياسة والحكم في عهد الخلفاء الراشدين، إلا أن عائلات قرشية قضت على العهد الراشدي، عندما وصلت إلى سدة حكم العرب والمسلمين بالغلبة والقوة، وتسموا بالخلفاء؛ حاكمين في المسلمين بأسماء قبائلهم وأسرهم وبيوتاتهم العائلية القرشية التي كانوا ينتمون

إليها منذ فترة ما قبل الإسلام، فتلك الخلافة العائلية الجديدة لم تكن بالخلافة المنتخبة من قبل المسلمين، وفي هذا مخالفة لمبدأ أساسي كان يقوم عليه الحكم الإسلامي، ألا وهو أن يتم تولي الحكم في الإسلام بالانتخاب والشورى والمبايعة، فعدم إجراء الانتخاب التي يتم بموجبها للمسئولين فيها تسلم مناصبهم العربية القيادية، نشأ عنه ذلك الصراع العربي الإسلامي المستحكم، بين المجتمع من جهة وبين السلطات الحاكمة من جهة ثانية، مما أدى إلى استدامة هذا الصراع طوال القرون التي مضت من تاريخنا الطويل حتى عصرنا الحاضر.

* وتجنبا للاسترسال، نستطيع القول أن شبابنا العربي هم على دراية تامة عما تظهره لنا المشاهد العديدة المعروضة في كل من (متحف) و(معرض) تاريخنا العربي الإسلامي الطويل المبني على الصراع بين السلطات الحاكمة المتسلطة، وبين المجتمع المطالب بحقوقه في العدالة والمساواة، الذي أنتج ثورات سياسية واجتماعية انبثقت عنها أفكار ومذاهب شتى قادتها قوى المعارضة السياسية للأنظمة القائمة، فانتشرت تلك الأفكار والمذاهب والفرق في الأقطار العربية الإسلامية انتشار النار في هشيم الأنظمة التي كانت متحكمة في رقاب العباد.

* يجدر بنا أن نذكر لشبابنا، أن تلك الأفكار والمبادئ التي كان قد توصل إليها الأجداد، كانت قد جاءت **معبرة أصدق تعبير عن عصرهم** وزمانهم ومكانهم، وكانت تستقي من روافد عديدة لا تخلو منها النزعات القبلية والعشائرية، فأفكارهم تلك كانت تمثل وضعهم في ذلك الزمان والمكان، وأنه مما لاشك فيه ولا ريب ولا جدال في أن زمانهم وعصرهم مختلف اختلافاً شاسعاً عن ظروف عصرنا وزماننا الحالي، مما يستدعي من الجميع، إما تطوير ما وصلتنا من أفكار قديمة لجعلها تتماشى مع منطلقات ومتطلبات العصر الحالي، وإما الإتيان بشيء جديد ومفيد للمجتمع من خلال ما يطلق عليه "الاجتهاد"، والاجتهاد هنا هو ذلك الجهاد في القول الناتج عن الجهد

والتعب الذي يبذل للوصول للحقيقة العلمية العملية الواقعية المفيدة للمجتمع التي تساعده في خدمة أهدافه وتحقيق تقدمه ووحدته، وأن ذلك الاجتهاد يجب ألا يكون مقتصراً على العلوم الدينية دون سواها، فالعلوم الدينية ما هي إلا فرع واحد من فروع متشابكة تقوم عليها حياة الناس في المجتمع، ونفهم مما كتب عنه وعمل من أجله العلماء المجاهدون الأوائل، أن علومهم كانت شاملة الجوانب المختلفة للعلوم، وأنهم لو كانوا في زماننا هذا لكانوا هم السباقون إلى "الجهاد" و"الاجتهاد" من أجل الأخذ بالعلوم التكنولوجية المتطورة، ولكانوا سباقين في الكفاح من أجل تطبيق علوم الاقتصاد الحديث والعلوم الاجتماعية والسياسية الحديثة القائمة على الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية وتداول السلطة، وحقوق الإنسان وحقوق المرأة، والوحدة العربية. هذا الكفاح المستمر الواحد الذي يؤدي إلى تحرير الأرض العربية من المحتلين الأجانب و المغتصبين الصهاينة.

وبناء عليه فإن على شبابنا العربي وهم يعرفون الصور والمشاهد والأفكار التاريخية التي لا تزال حية بيننا حتى اليوم، من واجبهم أن يبتكروا علوماً ومناهج اجتماعية جديدة تتناسب والعصر المتقدم الذي نعيشه، لا أن نستمر في (استنساخ) فكر الأقدمين محاولين إنزاله بالقوة والقسر على أرضية واقعنا اليوم. إننا إذا قمنا بذلك (الاستنساخ) وطبقناه ونفذناه بالقوة والقهر والجور على المجتمع نكون في هذه الحالة قد ظلمنا الأجداد، وظلمنا أنفسنا ظلماً لا يغفره لنا التاريخ ولا تغفره الأجيال القادمة، فالمطلوب من الشباب العربي التقدم إلى الإمام في ابتكار النظريات والأفكار الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الحديثة التي تحقق تقدمنا العربي الجديد؛ العلمي والتكنولوجي، والعلوم الدينية والاجتماعية والاقتصادية التي تتلاؤم ومتطلبات وواجبات العصر الحديث، والتي تنبثق منها حقوق المرأة، والحقوق الديمقراطية الدستورية، والعدالة الاجتماعية، والوحدة العربية، التي تساعدنا وتؤدي بنا إلى تحرير الأوطان، وهذا ما تفعله الشعوب المتقدمة الساعية إلى النهضة الحديثة.

* أشرنا في بداية حديثنا إلى توجه زعامات قرشية إلى الحكم بعد الإسلام، وهؤلاء هم الذين كانوا يملكون المال والاقتصاد ويتولون إدارة شئون مدنهم، هؤلاء القرشيون كانوا هم الطبقة الأرستقراطية-الرأسمالية/ البرجوازية في مجتمع المدينة المنورة ومكة، (حسب مسميات اليوم)، فقد كانت هذه الطبقة تسيطر اقتصادياً وتحكم سياسياً على مدن متفرقة. إلا أنه بعد أن امتدت الخلافة الراشدة في حكمها الإسلامي إلى أقطار عديدة خارج الجزيرة العربية، أصبح الأمر يتعدى كونه حكم مدينة هنا ومدينة هناك من المدن التجارية السابقة، وأصبح يشمل أراضي وشعوبا تمتد على رقعة؛ كامل الجزيرة العربية، وفارس وأرمينيا والعراق والشام ومصر وغيرها، فالحكم أصبح **لأمة** واقعة على مساحة أراض شاسعة تعيش عليها شعوب مختلفة ضمن مجتمعاتها المتعددة، ووفقاً لهذا الواقع فإن الحكم **لم يعد حكم عشيرة**، وإنما أصبح حكم دولة (يطلق عليها اليوم إمبراطورية) مترامية الأطراف و الأبعاد .

ولهذا عندما جاء الانقلاب في قيادة الحكم الإسلامي من قبل الذين حولوا الخلافة الراشدة إلى خلافة أموية ثم عباسية، فإن هاتين الخلافتين ما كانتا إلا تعبيراً عن فرعين لأسرتين من الشجرة القرشية المتعددة الفروع والأغصان، هذان الفرعان القبليان عندما حكما بعد الخلافة الراشدة فإنهما قد حكمتا شعب الجزيرة العربية كله إلى جانب شعوب مختلفة كانت تمتلك معيناً غزيراً من الثقافات والعلوم والعادات المنبثقة عن حضاراتهم العريقة، فعندها، وفي الحالة هذه، كان الأولى بهاتين الخلافتين أن تأخذا بعين الاعتبار التطورات والتغيرات الهائلة التي طرأت على الحياة البدوية والقبلية التي أحدثها الدين الإسلامي في التشريعات والقوانين المجتمعية الجديدة والتي على أساسها دخلت تلك الشعوب في الإسلام، الذي جعل الحكم مبني على الانتخاب والشورى بين قوى المجتمع.

إذ إنه كان واجباً على الخلافتين أن تستوعبا أنظمة الحكم وقوانينها التي تركها الرومان وعمل بها الأنباط العرب في البترا، وعمل بها الغساسنة العرب في بصرى، وعمل بها العرب في تدمر، الذين أخذوا جميعهم بنظام المجالس الشعبية، وأن آثار هذه المجالس الشعبية العربية التاريخية لا تزال ماثلة أمام أعيننا في أماكن متعددة؛ مجالس النواب ومجالس الشيوخ وقاعاتها، كما لا تزال قوانينهم محفورة على الصخور في أسواق تلك المدن وساحاتها .

إلا أن تلك الأنظمة الأموية والعباسية وغيرها، لم يأخذوا من ذلك التاريخ العربي السابق شيئاً عن أنظمة الحكم الشعبية، بل استمروا في تطبيق نظامهم القبلي العائلي الوراثي القديم دون مشاركة شعبية نيابية، مما أدى ذلك إلى نتائج خطيرة على الوضع العربي الإسلامي تركت آثارها السيئة حتى وقتنا الراهن.

وفي صورة موجزة يمكن القول أن النظامين الأموي والعباسي لم يأخذا بالتطورات الاجتماعية والثقافية في فلسفة الحكم وإدارة الشعوب ومجتمعاتها، وإنما استمرا بنظاميهما القبلي السابق الذي كانوا يديرون به حكم المدينة التجارية الصغيرة، والتي كانوا يصلون فيها إلى الحكم بالحرب والسيف، ثم يجعلون من حكمها إرثا عائليا يتم التوارث فيه قبليا.

ومن نافلة القول أن مثل ذلك النظام القبلي في الحكم و إدارة الشعوب لم يعد مقبولا في ظل الوضع الجديد الذي أضحت عليه الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، إذ كان من المفروض أن يصبح الحكم وإدارة السلطة للمجتمعات بطرق و أساليب جديدة مختلفة تماما عن النمط القبلي العائلي، وخاصة وأن المجتمع الإسلامي الجديد أصبح يتشكل من أقوام؛ مختلفة ثقافاتها ولغاتها وحضاراتها، فالنظامين المذكورين، الأموي والعباسي، منذ انقلابهما بتحويلهما حكم المسلمين إلى حكم عائلي قبلي وراثي (توريث الخلافة)، فإن هاذين النظامين كانا قد أخفقا منذ البداية في إدارة الدولة الإسلامية من نواحيها السياسية/ الاجتماعية للدولة الإسلامية (إن قوى مجتمع الإسلام الشعبية

المؤمنة بعقيدتها كانت هي المساهم الفعلي في الوحدة العربية الإسلامية، وفي انتشار الإسلام شعبيا بين الشعوب لأنها هي التي كانت تعطى المثل الأعلى للإسلام في عقيدته ووحدته، فجاءت دعوتهم صادرة من جماعات شعبية مؤمنة إلى جماعات شعبية متلقية، والدليل على ذلك وصول الدعوة إلى جنوب شرق آسيا والصين دون حرب)، ومع الأسف فإن بقية أنظمة الحكم الإسلامية التي تلتهما قد سارت على منوالهما وفي ركبهما في أخذ الحكم بالغلبة والشوكة، مما أدى إلى تمزيق وحدة الأمة، مخالفين بذلك المبادئ الأساسية التي قام عليها الحكم في الإسلام، مما ترك انطباعاً خاطئاً لدى قارئ تاريخنا العربي الإسلامي أن صور تلك الحكومات أو (الخلافات) تمثل حقيقة فكر وآمال الإنسان العربي ومجتمعه، وهي ليست كذلك، كما هو في وضعنا الحالي اليوم؟!

وعلى ضوء ما مر ذكره فإنه كان مطلوب من تلك الدولة الإسلامية في الخلافتين الأموية والعباسية وكل (الخلافات) الأخرى التي اتبعت نهجهما في الحكم، أن يعملوا على تحقيق العدالة والمساواة (العدالة والديمقراطية) بين كافة الشعوب والقوميات الإسلامية، ورص صفوف وحدتهم الإسلامية، فهذا ما كان ينادي به الإسلام، إلا أن الأنظمة القبلية الاستبدادية الطائفية كانت قد خالفت تلك المبادئ، بل صارت **تفرق** حتى بين القبيلة الواحدة، والمذهب الواحد، مما أضرم النار في صدور المجتمعات المظلومة و المقهورة تجاه الأنظمة الحاكمة الفردية المستبدة، فجعل حتمية الصدام قائمة بين الطرفين؛ المجتمعات بكافة طبقاتها ومستوياتها من جهة، والسلطات الحاكمة التي أخذت الحكم فيها بالسيف والغلبة والوراثة على حساب المقهورين من جهة ثانية. مما دعا القوى المقهورة أن تتكتل في جبهات معارضة للحكم في مختلف الأقطار الإسلامية، فسالت الدماء الغزيرة بين أطراف الحكم والأطراف المعارضة، وأنه على الرغم مما جرى فإن الصراع بين الطرفين قد ولد عقائد وأفكاراً ومذاهب وفرقاً عديدة، خلقت ثورات في كافة مناحي الحياة

العربية الإسلامية، ولكون أرض الجزيرة العربية، هي الأرض التي انبثقت منها الثورة الإسلامية الأولى، فكانت هي الحاضنة للثورات العقائدية، والفكرية، والمذهبية، والسياسية اللاحقة، القديمة والحديثة .

* بناء على ما سبق سندخل أولاً (لمتحف) و (معرض) الخلافتين: الأموية والعباسية، و**بعدها** سندخل (لمتحف) و(معرض) بعضاً من المذاهب الفكرية المعارضة التي تمكنت من الوصول إلى الحكم في أجزاء من الجزيرة العربية، والهدف من زيارتنا هذه هي التقاط صور سريعة لها علاقة بموضوعنا الذي هو؛ المجتمع العربي وسلطته الحاكمة، وتأثيرهما في بناء حضارتنا العربية الجديدة المبنية على الحكم الديمقراطي الصالح والعدالة الاجتماعية البناءة، والوحدة العربية.

إنه فيما يتعلق بالخلافتين؛ الأموية والعباسية، ما نود بداية الإشارة إليه بشأنهما هو أن تطرقنا بالحديث عن هاتين الأسرتين ليس الغرض منه تناول فصول تاريخية عنهما أو سواه، إنما قصدنا المرور عليهما لكونهما نظامين عربيين استمر حكمهما لقرون عديدة، فتكونت لهما جوانب إيجابية مختلفة وأخرى سلبية كثيرة تركت آثارها على مجتمعاتنا الحالية، والذي يعنينا من كل ما سنتناوله ونتحدث عنه، هو أخذ العبرة مما مضى، في إطار موضوعنا المتعلق بالسلطة والمجتمع العربي، والوحدة العربية .

لقد كان الحكم في هاتين الأسرتين قاسياً مستبداً، فرق الأمة ومزق وحدتها، وكانت أعمالهم تلك لم تدع مجالا لقوى المجتمع إلا أن تسلك طريق المعارضة العنيفة غير السلمية للدفاع عن نفسها من جهة، ولرفع صوتها عاليا مطالبة بتحقيق الأهداف الاجتماعية التي يتم بموجبها تغيير تلك السلطات الحاكمة من جهة أخرى، إن تلك المعارضة التي نادت بالتغيير كانت تملك فكراً وثقافة مقنعة للمجتمع، فهي لم تتصد بمعارضتها لحكم الأمويين ثم لحكم العباسيين إلا وهي مستوعبة لثقافات مختلفة، ودارسة وعالمة بعلوم فقهية وشرعية، وعارفة بعلوم الفلك والطب والفلسفة وغيرها

اقتبستها من شعوب ومجتمعات مختلفة، فتكونت لها أفكار دينية واجتماعية وفلسفية توصلت فيها إلى عدم قبولها بما هو حاصل في مجتمعاتها التقليدية، فنادت **بالتغيير**.

ولا بد من الإشارة إلى أن المعارضين عندما سدت أمامهم أبواب التغيير في هيكلية وبنية النظام، وعندما حوربوا في أفكارهم ومبادئهم وعقائدهم، وعندما واجهتهم السلطة بسيفها لوقف صوتهم المدوي، لجأوا إلى السيف أيضاً، فتقابل السيفان في حرب ضروس، كان ثمنها فادحاً للطرفين. ونشير إلى أنه كما يحدث في كل زمان ومكان، فإن المعارضة السياسية وهي تحمل أفكارها ونضالها، كثيراً ما يرتد سيف المعارضة الموجه إلى السلطة فينقلب إلى سيف يحارب قوى معارضة أخرى كانت معها من قبل، وخاصة إذا كانت معارضة متفرقة ومبعثرة أفكارها وأهواءها، فصار كل منهم يحارب الآخر، المعارضون يحاربون بعضهم بعضاً، والسلطة تحارب الجميع، مما أدى إلى تشتت القوى الحية بفرقها ومذاهبها، وتمزق وحدة الأمة، وتفاقم الوضع عندما لجأت المعارضة نفسها إلى إقامة أنظمة حكم أيضا، أخفقت هي نفسها في أكثرها، وذلك لأن النظرية في كثير من الأحيان لا تماثل التطبيق، فتلك الأوضاع السيئة وغير المستقرة التي خلقتها السلطة والمعارضة تركت آثارها السلبية على مجتمعاتنا العربية في قرونها الطويلة حتى أنها ألقت بكل ثقلها على عصرنا الحاضر.

* وآن لنا الآن من المرور سريعاً على ذكر الخلافتين الأموية والعباسية التي نشأت فيهما المعارضة السياسية السابقة:

*الخلافة الأموية؛ أسرة وبيت بني أمية (لمحة سريعة عنها)

في نهاية الفصل السابق أشرنا للخلافة الأموية، حيث لاحظنا الأثر الذي تركه توريث معاوية لابنه يزيد بجعله خليفة على المسلمين بالغلبة والشوكة،

مما أدى إلى حرب قتل فيها الإمام الحسين (ع)، وقد جر هذا التوريث لمآس لا يزال العرب والمسلمون يعانون من **آثارها** حتى يومنا هذا .

لقد أخذ الخليفة معاوية الحكم بالغلبة ونفذ مبدأ التوريث الذي فيه عدم احترام لرأي الأمة التي لها الحق في أن تختار خليفتها وأن تنتخبه وفقا لنظام الشورى بين المسلمين، فإن الخليفة معاوية بهذا الفعل كان قد قام بمخالفته لمبدأ إسلامي في الحكم قوامه الانتخاب والشورى والمبايعة وليس الحكم بالقوة والقهر، فرأت القوى المجتمعية المعارضة للحكم الأموي في أن ما قام به معاوية من توريث فيه مخالفة وانقلاب على مبادئ الحكم الإسلامي، كما رأت أنه قد سن سنة أنظمة الحكم الملكي الوراثي التي هي مخالفة لأحكام ومبادئ خلافة المسلمين، وبذلك رأوا أن خليفة المسلمين بتلك الكيفية قد تحول إلى ملك، وقام بحصر أمر المسلمين في أسرة معينة واحدة تحكمهم، يقوم رئيسها بتوريث أحد أبنائه وأصلابه وأقاربه في حكمه لأرض المسلمين ومجتمعهم دون أن يكون لأي من التكوينات والتنظيمات والفئات الاجتماعية في الأرض العربية الإسلامية رأي في تنصيب من سيتولى أمر خلافة المسلمين كافة، وبذلك اعتبرت القوى المعارضة في المجتمع الإسلامي أنه بتوريث الخلافة من قبل معاوية يكون بفعله هذا أنه قد تم تسليم رقاب العباد لهذا الوارث، وهم الذين لم يمكنوه ولم يملكوه من؛ رقابهم وأموالهم ودينهم!

وازدادت المعارضة في قوة موقفها، عندما صار معاوية وخلفاؤه يأخذون بمظاهر الملوك التي لم يعتد عليها العرب المسلمون في زمن الخلفاء الراشدين وهو زمن ليس ببعيد عن فترة أخذ الأمويون حكمهم بالغلبة والشوكة، إذ إنه في زمن الخلافة الراشدة كان عامة الناس في المجتمع العربي الإسلامي لا يمنعهم عن الخليفة الحجّاب ولا توصد في وجوههم الأبواب، ولا توضع مقاصير للخلفاء في المساجد، هذه التصرفات والمظاهر جعلت من بني أمية يترفعون فيها على سائر الناس، وهو أمر لا يتماشى والعادات القبلية العربية، ما جعل من السلطات الحاكمة تبتعد عن أفراد المجتمع، وبالتالي اتسعت بين

السلطة والمجتمع من نواحيها السياسية والاجتماعية والاقتصادية كافة، وهكذا يصبح قديم السلطة العربية مثل حديثها ؟!

وعلاوة على ذلك لاحظت المعارضة انغماس الأسر الحاكمة في الترف والملذات والشهوات ــ (وهذا هو سلوك الطبقات الإقطاعية الحاكمة الأوتوقراطية والأرستقراطية المتخلفة في كل زمان، التي تسرف في الإنفاق مما تنهبه من قوت وأموال الشعب)- ورأت المعارضة في ذلك مخالفة للتعاليم الإسلامية أيضا، ذلك أن الخلفاء الراشدين كانوا أبعد ما يكونون عن تلك الأفعال والمظاهر غير الإسلامية، وهم الذين كانوا يعملون ويدعون للتقوى والصلاح، وأن هذا هو من أسباب انتشار الدين الإسلامي بين القبائل العربية عندما لاحظوا ما وصلت إليه الفواحش في المجتمعات التجارية قبل الإسلام، وإلى جانب ذلك كله رأى المعارضون أن مثل ذلك الترف وذلك التبذير فيه نهب لأموال المسلمين، ساعد على تفشي الفساد في أخلاق المجتمع وعاداته، كما رأت فيها المعارضة أن القيام بتلك الأفعال فيها إحياء وعودة بالمجتمع الإسلامي إلى مجتمع الجاهلية الذي كانوا قد تمردوا عليه ونبذوه.

* إن موضوع الانقلاب على **نظام** الحكم الإسلامي القائم على الانتخاب والشورى، وموضوع توريث الخلافة، هما موضوعان كانا قد تركا **آثارهما** الجسمية على الفكر العربي الإسلامي وعلى قواه المجتمعية فهما حقيقتان واقعتان تركتا أثرهما في تاريخنا الطويل ولا تزالان ماثلتين حتى يومنا هذا، وهذا ما سنلاحظه فيما بعد.

كان الأمويون يعرفون أن ما تثيره المعارضة من انتقادات لحكمهم له صداه وتأثيره في أسماع المجتمع العربي المسلم، لأن انتقاداتهم مبنية على أسس علمية وواقعية يدركها الجميع، فما كان من الخلافة الأموية إلا أن ردت على معارضيها في تغطيتها لأسباب أخذها الحكم بالغلبة والقوة، أن راحوا يلتمسون الشرعية في القول بمبدأ "القضاء والقدر"، إذ ادعوا أن الله سبحانه **قد قضى وقدر لبني أمية أن يحكموا** المسلمين، معتمدين **الجبر** كعقيدة قاموا

بنشرها بين الناس. إلا أن عناصر المعارضة التي كانت تنادي بالعدل والمساواة، رأت في الجبرية مخالفة للإسلام الذي أعطى للإنسان حريته، فهو مخلوق ذو عقل، وبالتالي فهو مخير، و يحاسب على أعماله؛ إن كانت خيراً يثاب عليه وإن كانت شراً يعاقب عليه، ورأت أن إشاعة الأمويين لمبدأ الجبرية قد خلق الفوضى في المجتمع، فكانت عواقبه وخيمة على الأمويين قبل غيرهم، فغرضهم من الجبر تعطيل التفكير ووقف المناداة بالتغيير الذي كانت تقاتل من أجله المعارضة.

كان الإسلام قد وصل إلى أراض وشعوب مختلفة كانت لها علوم وثقافات متقدمة، فتطور المجتمع العربي الإسلامي وتطورت معه المعارضة السياسية في أدائها وأفكارها وفلسفتها، وكسبت المزيد من المعارضين إلى صفوفها، فتشكلت منهم فرق ومذاهب دينية وأحزاب سياسية، فبدلاً من أن يقوم الأمويون بإصلاح شئون حكمهم والاستفادة مما طرحته المعارضة من أفكار وبرامج للتغيير، قاموا بدلا من ذلك بتعيين الولاة القساة المعروفين بالعنف واستخدام القبضة الحديدية للقضاء على المعارضة في محاولة منها لفرض الطاعة للنظام الأموي بالتعسف والقوة، فاتخذوا طريق التعذيب والاغتيالات والتشريد للمعارضين، مبدأ استراتيجيا لهم، كما تفعل أنظمتنا العربية اليوم!

* إلا أن الاستبداد والحكم الفردي قد أدى إلى تصدع بيت الحكم الأموي القبلي، فنشبت الخلافات داخل الأسرة الحاكمة نفسها بعد فترة قصيرة من حكمها، و بدت أكثر وضوحا في فترة الخليفة الأموي الثالث معاوية الثاني، عندما اختلفوا على **وراثة** حكمه. كان الخلاف قد نشب بين فرعين من أسرة بني أمية: فرع **حرب بن أمية**، الذي بدأ من معاوية (الأول) بن أبي سفيان وانتهى بمعاوية الثاني، وفرع **أبي العاص بن أمية**، الذين منهم آل مروان. وفي صراعهما على الحكم استخدم كل طرف قبيلة عربية في محاربتها لمجموعة الطرف الآخر، فعاد الصراع القبلي في أوضح صوره منذ فترة ما

قبل الإسلام من تحالفات قبلية، إذ كانت بجانب مروان بن الحكم (فرع أبي العاص) قبائل اليمانية، وهؤلاء أسرفوا في قتل قبيلة قيس العدنانية المناصرة لعائلة معاوية (فرع حرب)، وبعد سفك الدماء تولى الحكم: مروان بن الحكم، واستمر الحكم في هذا الفرع الأموي. إلا أن الخلافات الأسرية والقبلية ظلت مستحكمة تطل برأسها حتى بعد أن قضت الأسرة العباسية على العائلة الأموية، وبقيت العداوة مستمرة بين القبائل اليمانية والقيسية العدنانية في كل مكان تواجدوا فيه .

كانت قوى المعارضة قد وجدت في ذلك الصراع الدموي بين أفراد الأسرة الحاكمة الأموية فرصتها للانتشار والقيام بعصيانها في كل مكان أمكن للمعارضة قيامها بذلك.

* واستثناء مما ذكر عن إدارة الحكم الأموي، وأزمة حكمها مع المجتمع، فإنه للحقيقة التاريخية لا بد من الإشادة بالخليفة الأموي: عمر بن عبد العزيز بن سليمان بن عبد الملك بن مروان، هذا الخليفة الذي تنفست المعارضة في أثناء حكمه الصعداء بعد توليه سدة الخلافة، هذا الخليفة الذي قال للناس في يوم توليه الخلافة:

"إني ابتليت بهذا الأمر من غير رأي مني فيه، ولا طلبة ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم غيري"

فهذا الخليفة إذن كان صادقاً – بقوله هذا – مع نفسه ومع أمته وعقيدته، وأنه لا ريب في أن ما قاله فيه تأكيد وتصديق لما أكدنا عليه في هذا الكتاب عن توريث الخلافة، وقوله يوضح ذلك :

– قال: "**إني ابتليت** بهذا الأمر من **غير رأي مني** فيه .." أي أنه قد ولي الخلافة وراثة من غير أن يؤخذ رأيه. فما بالكم بالآخرين من الخلفاء؟! اعتبر هذا الخليفة عدم أخذ رأيه و رأي المسلمين هو ابتلاء أصابه وأصاب الأمة، فتولي زمام الأمور في حكم الأمة من غير طرقه السليمة فهو ابتلاء للحاكم وبلاء على المجتمع والأمة.

وقال أيضاً: "ولا **طلبة** ولا **مشورة** من المسلمين". قال أنه عندما ورث من قبل عائلته لقيامه بخلافة المسلمين، فإن المسلمين لم يطلبوا منه ذلك، كما أنه لم يتم أخذ مشورة ورأي المسلمين في هذه الخلافة ؟

كما قال: "وإني قد **خلعت** ما في **أعناقكم** من بيعتي .." ويعني بذلك أنه إذا كانت هناك من بيعة له بالخلافة بتلك الصورة التي لم تتم بطلب ولا بمشورة من المسلمين، فإنه يخلع بيعتهم له من أعناقهم.

وبناء على ذلك قال: "**فاختاروا** لأنفسكم غيري.."، ونظراً للمثالب والعيوب والمخالفات في توريثه خليفة، فقد طلب من جماعة المسلمين أن يختاروا وينتخبوا غيره .

إلا أن جموع من في المسجد صاحوا: "قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضيناك أميرنا **باليمن** و**البركة**"، أي أنهم قد اختاروه عن رضا وتوافق منهم، وأن في اختيارهم هذا خير وبركة للمجتمع .

وأنه بعد حصوله على مباركتهم وبيعتهم: "أمر مناديه أن ينادي : "ألا كل من كانت له **مظلمة فليرفعها**". ورفعت له المظالم الكثيرة التي ارتكبها خلفاء بني أمية من قبله.

لقد وجدت المعارضة في حكم هذا الخليفة أنه قد أعاد الناس إلى سيرة الخلفاء الراشدين؛ إذ قام بالعدل في الأمة ومساواة أفراد المجتمع في الحقوق والواجبات، وعفت يده عن أخذ أموال الرعية، وحرص على المال العام من التبذير، وصرفه في وجوه الصالح العام. قام برد المظالم، ورفع أعباءها عن كاهل الناس، وأبطل سب الإمام علي بن أبي طالب (ع) على المنابر، كما أبطل مغارم كثيرة كانت قد استحدثت من قبله في عهد والي الأمويين الحجاج بن يوسف الثقفي. هذا الخليفة الصالح لم يدم عهده سوى مدة سنتين و يزيد و يقال أنه قتل.

هذا الخليفة الأموي كان فريدا من بين الخلفاء في العهدين الأموي والعباسي في تخليه عن روابطه العائلية القبلية وتوجهه لخدمة أفراد المجتمع

بالتساوي، كما أنه لم يتزوج سوى امرأته ولا اشترى جارية دليل استقامته الشخصية أيضا.

توفى في نهاية المائة الهجرية، عندما كان قد مر على الإسلام قرن من الزمان، أمتد فيه تواجده من المحيط الأطلسي غرباً في اسبانيا والمغرب الأقصى، وحتى المحيط الهندي شرقاً، وشمالاً إلى أرمينيا وبلاد القوقاز، وبالإضافة إلى فارس والجزيرة العربية، مما أكسب الثقافة والفكر العربي أبعادا متقدمة جديدة في النظرة إلى الحكم وإلى الحياة الاجتماعية.

* فالحكم الصالح الذي نفذه الخليفة عمر بن عبد العزيز، لم يستمر في انتهاجه من جاءوا من بعده بالوراثة العائلية، فعاد الحكم الأموي على نهجه المعتاد في الاستبداد والحكم الفردي، مما أدى في نهاية المطاف إلى حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار في أنحاء مختلفة من دولة الخلافة ومنها إقليم الجزيرة الفراتية التي فيها مدينة الموصل. لقد تأججت النزاعات الشديدة بين المدن المختلفة في الدولة الأموية: المدينة والكوفة، البصرة والشام، وكان أشد المتضررين هم أهل الحجاز، الذين قضى الأمويون على زعمائهم ولاحقوا من بقي منهم، ففروا منها إلى خارج الجزيرة العربية، وقد حدث كل ذلك بسبب تغيير نظام الحكم بتوريث الخلافة، لقد فر هؤلاء هاربين مما قاسوه من عذاب قهرهم وإرغامهم على مبايعة الخليفة المورث له، كما سنلاحظ ذلك لاحقا.

لقد تدهورت الأحوال في دولة بني أمية، ذلك لأن أنظمة الحكم القائمة على الاستبداد والحكم الفردي المطلق، تخلق هي نفسها الفساد، وهي بأفعالها تقوي المعارضة، فالنظام نفسه يؤدي بفساده الى إنهاء دولته، كما أشار إلى ذلك العلامة ابن خلدون، وهذا ما حدث عندما جاءت المعارضة العباسية من خراسان في فارس إلى بغداد لإسقاط نظام قبلي وإقامة نظام قبلي مماثل له، يحمل اسم فرع آخر من العائلة القرشية، ووجدت لها من يساندها.

*الخلافة العباسية؛ أسرة وبيت بني العباس (لمحة سريعة)

- **هاشم** و**المطلب** هما ولدا عبد مناف وكانا من أم واحدة، أما أخويهما **عبد شمس** و نوفل ابني عبد مناف فلكل منهما أم مختلفة.

- وعبد المطلب بن **هاشم** بن عبد مناف، كان لديه كثير من الأبناء (بني هاشم)، وبقي في عقبيه كثير من أولاده، ولكن العدد الأكبر والأعظم كان من ولديه ؛ العباس وأبي طالب، الذين غطوا بأخبارهم أحداث التاريخ العربي بأكمله تقريبا.

- ولذلك فإن أبا العباس السفاح (الذي هو أول خليفة عباسي) هو أبو العباس عبد الله بن محمد و ينتهي نسبه إلى جده **العباس** بن عبد المطلب بن **هاشم** بن عبد مناف بن قصي.

من ذلك يتضح أن الجد لكل من بني أمية وبني العباس هو عبد مناف، و أن ابنيه هما: **عبد شمس**، الذين من نسله معاوية وبني أمية، وابنه الثاني **هاشم**، الذين من نسله العباسيين والعلويين (العلويون هم المنتسبون إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع)، وبذلك يعتبرون هم الأقرب نسبا للنبي محمد (ص).

استولى الأمويون على الحكم فقاموا باضطهاد وتعذيب العلويين والعباسيين أبناء عمومتهم، هذا الاضطهاد كون منهم مع جماعات أخرى جبهة معارضة قوية تجاه الحكم الأموي، مما أدى بالتالي إلى سقوط الخلافة الأموية وأخذ بنو العباس الحكم منهم **بالغلبة والشوكة** أيضا كما فعل الأمويون من قبلهم .

لقد وقعت المعركة الفاصلة بين الجيوش العباسية والأموية على ضفة (الزاب الأكبر) النهر المتفرع من نهر دجلة في شمال العراق، فكانت فيها هزيمة الأمويين . ومن الكوفة تولى أبو العباس السفاح حروب إسقاط بقية قلاع الخلافة الأموية، و في 132 هجرية التي تقارب 750م سقطت دمشق

التي حاصرتها القوات العباسية، وارتكب العباسيون حاملو الراية السوداء المجازر في حق الأسرة الأموية التي عذبتهم من قبل، فالاستبداد في الحكم القبلي يولد استبدادا أشد قسوة (لا قانون إلا قانون الثأر القبلي)، فالحكم الذي يتم أخذه بقوة السلاح (ومنها الانقلابات العسكرية) ينتفي فيه وجود مبدأ تداول السلطة في المجتمع، وأن ما كان موجوداً في السلطة والحكم القبلي العشائري في كل زمان ومكان، هو أن يقوم القوي بكسر عظام وجوزة رأس الضعيف ليستولي هو على الحكم (ليحصل على لب الجوزة)! وأنه مما لا شك أن في هذه الأفعال من كسر العظام للحصول على السلطة ليس هذا هو بمفهوم البشر إنما فيه تعبير حقيقي عن غريزة حكم حيوانات الغابة؟!

عندما نشر العباسيون ألويتهم السوداء، أخذوا بداية من المعارضة ما كانت تندد به من أفعال كان يقوم بها النظام الأموي الذين سموهم "أهل الجور" وخاصة تجاه العلويين، كما أخذ العباسيون من المعارضين لبني أمية أيضا أخذهم عليهم أنهم "فشلوا في تطبيق العدالة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". وقال العباسيون وهم في سبيل تأسيس دولتهم، أن الأمويين لم يتبعوا "كتاب الله وسنة نبيه"، إلا أنهم اضطهدوا العلويين كما فعل من قبلهم.

فما كانت تطرحه المعارضة في وجه الخلافة الأموية تبناها أبو العباس السفاح تجاه الأمويين أيضا بغرض وصول أسرته إلى كرسي الحكم، ولكن العباسيين عندما حصلوا على مبتغاهم وهدفهم في الوصول إلى الحكم مارسوا أعمال "الجور و الظلم" منذ أول ساعة سعوا فيها إلى حكم الدولة الإسلامية؛ ولم يتبعوا "كتاب الله وسنة نبيه " في حكم المسلمين بالشورى والانتخاب ليصل أكفأ المسلمين في المجتمع ليصبح فيهم خليفة وإماماً، هذه الأنظمة كانت قد ضربت تلك المبادئ الإسلامية عرض الحائط، وأخذت بالنظام القبلي العشائري القائم على الغلبة للوصول إلى الحكم القبلي الوراثي.

* بعد أبي العباس السفاح، ورث الحكم أخوه أبو جعفر المنصور، فواجه الصراع على الحكم مع أقرب الناس إليه فعمل في رقابهم السيف، وأشاع الدسائس والمؤامرات، وباستمرار هذا الصراع اضطر الخروج من **مجتمع الكوفة** المأزوم بالتمرد والثورات، إلى "مدينة السلام" التي بناها في موقع **قرية** "بغداد"، وقد غلب الاسم القديم للقرية " بغداد" على الاسم الجديد للمدينة "مدينة السلام"، وبقيت مدينة **بغداد عاصمة** الدولة العباسية قرابة خمسة قرون، قامت فيها نهضة ثقافية وفكرية وحضارية كبرى لا يزال يذكرها التاريخ، وذلك خلال العصور الوسطى الأوروبية.

* وتتضح لنا مرة أخرى المآسي التي يتركها **التوريث**، فبعد أن توفي هارون الرشيد عام 808/192، وهو من أشهر الخلفاء العباسيين في عهده كانت بغداد بلغت أوج عمرانها وسيطرتها على أجزاء الدولة المترامية الأطراف من الغرب إلى حدود الصين، وحيث إنه جعل حكمها وراثياً في أولاده : الأمين و المأمون والمؤتمن، وعهد بولاية العهد من بعده للأمين ثم للمأمون، ومن بعده للمؤتمن، إلا أن هذا التدبير من **التوريث** سبب **الفتنة**، التي لم تصب العائلة المالكة، وإنما قد أصابت المجتمع كله؛ اقتتل الأمين والمأمون على الحكم فقتل في حربها الأمين، ولكن بعد أن حل كثير من الدمار ببغداد. وأنه بعد **حرب التوريث** هذه انعدمت الثقة وساءت العلاقات بين أفراد الأسرة الحاكمة العباسية، الذين صار ملجأ ثقتهم وحاميهم جيوشاً من المرتزقة؛ مرة من الفرس، وأخرى من الأتراك، حتى أن مدينة بغداد صارت عبئاً على خلفائها العباسيين لكثرة الفتن بها، مما دفع الخليفة المعتصم الى بناء عاصمة جديدة، سماها "سامراء" أو "سر من رأى"، ورغم أن خلفاء من العصر الثاني العباسي رجعوا إلى "بغداد"، إلا أن ذلك قد جاء هروباً من الأزمات المستحكمة في الحكم ومن الثورات والتذمر الحاصل في المجتمع.

* وكما فعل الأمويون في إشاعتهم لفكرة الجبرية في استفرادهم بحكم المسلمين، للرد على معارضيهم، فعل العباسيون الشيء نفسه، ولكن بمقولة

أخرى، فقد ظهروا للناس بقولهم: أن الله هو الذي شاء لهم أن **يحكموا**، وإنهم إنما يحكمون **بإرادته** ويتصرفون بمشيئته. لكن المعارضة سرعان ما أظهرت زيف هذا القول الصادر من السلطة العباسية المستبدة، لقد كان خليفة المسلمين زمن الخلفاء الراشدين ما هو إلا "**خليفة للنبي**" فكيف يصبح الخليفة العباسي "**خليفة لله**" **وسلطانه** في أرضه؟ إن في هذا الإدعاء مخالفة للتعاليم الإسلامية وللكتاب والسنة .

* لقد تطور المجتمع العربي الإسلامي في كافة أقطاره ومدنه، ولم يصدق قول السلطة العباسية أنهم يحكمون بمشيئة الله سبحانه، ذلك لأن المجتمع العربي المسلم قد تملك عقيدة إسلامية اجتماعية واضحة شملت **كافة** أقاليمه وأقطاره وكل مدنه المختلفة، فأصبحت قوى المجتمع تطالب بانتخاب إمام عادل يتولى أمر المسلمين، وصارت قوى معارضة تجأر بالقول أن السلطة تطاع إذا اتبعت كتاب الله وسنة نبيه، وإذا كانت عادلة، وإلا فيتحتم مقاومتها، والثورة عليها، بل هناك من القوى الاجتماعية من نادت بشهر السلاح في وجه السلطان الظالم لشعبه أو المخالف للمبادئ الشرعية الإسلامية، حتى يستقيم أمر المسلمين.

من ذلك نرى أن قوى المجتمع العربي الإسلامي منذ تلك الآونة وهي تنادي بالعدالة والمساواة، وإزالة الفوارق الطبقية في المجتمع ورفع الظلم عن المستضعفين، هذه القوى كانت تطالب بسلطة منتخبة من المجتمع، ووضعت ضوابط وشروطاً لمن يجب أن ينتخب، فاعتبرت أن منزلة الشخص الذي سيتولى قيادة الأمة، يعتمد في انتخابه لهذا المنصب على مقدار علمه وسلوكه في المجتمع، ليصبح مؤهلا لمنصب الدولة أو الخليفة، وليس لنسبه أو قبيلته.

كل ذلك الحراك الفكري والاجتماعي والسياسي في المجتمعات التي كانت تحكمها الدولة العباسية ومن قبلها الدولة الأموية، جعل السلطات الحاكمة تنشئ جيوشاً أغلب أفرادها من (المماليك) من: أسرى الحروب ومن الذين

استعبدوهم وتملكوهم عن طريق أسواق النخاسة، فكونوا منهم جيوشاً اعتقدت الأنظمة العباسية أن هذه الجيوش ستكون مخلصا لها في محاربتها للقوى المعارضة، صحيح أن تلك الجيوش استخدمت كل وسائل القمع في مواجهة القوى المعارضة، إلا أن تلك الوسائل القمعية قد أججت الوضع الاجتماعي والسياسي ضد السلطات الحاكمة نفسها، مما جعل الجهات التي استفادت من ظلم أفراد المجتمع، واستفادت من خلق الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المضطربة، هم جيش الأسرى والمماليك، فهؤلاء هم الذين أخذوا الحكم من أسيادهم بالقوة والغلبة فيما بعد، ولكن منهم من تبنى العقيدة الإسلامية وقام بالدفاع عنها في أحلك الظروف، كما هو معروف في التاريخ العربي.

تلك الأعمال التعسفية التي قامت بها الأنظمة الاستبدادية في مواجهتها للمعارضة، قد وحدت قوى المعارضة ضدها – كل ضمن طائفته ومذهبه – فمن وقع عليه الظلم والاستبداد تتوحد قواه في مواجهة السلطات الحاكمة، وهذا الموقف جعل من الفرق المختلفة تتحد على الرغم من تفرقها في الأهواء والمشارب والمبادئ والأهداف التي فيما بينها، وتم ذلك في فترات متباعدة، واجهت بها ظلم السلطات، فوحدت جميع الفرق دعوتها في المطالبة بالعدالة والمساواة، مما أنتج تحولات فكرية وثورات اجتماعية قادتها حركات دينية واجتماعية وسياسية عديدة، سنذكر بعضها في فقرات لاحقة.

* إلا أنه لكي يدرك شبابنا حقيقة مجتمعنا العربي الإسلامي ومقدار الوعي الذي كان يتمتع به في مواجهته لأخذ الحكم بالقوة وما تلاه من توريث للخلافة الإسلامية، فإن هذا التحرك قد أنتج الأفكار والمبادئ التي تبنتها قوى المعارضة، كما أنه من واجب الشباب الاطلاع على الآثار الخطيرة التي تركها الانقلاب على الحكم الشرعي المنتخب، والآثار التي تركها توريث الخلافة، وعليه في نفس الوقت معرفة المصير الذي آلت إليه الكثير من حركات المعارضة عندما تسلمت السلطة والحكم، وهذا ما سنلاحظه في الفقرات التالية، ونكمله في الفصل القادم .

الآثار التي تركها الانقلاب على الحكم الشرعي المنتخب:

شكل أخذ الأمويين الحكم بالقوة واعتباره حقا لهم، مشكلة أساسية دارت حولها الفرق والمذاهب الدينية والسياسية في الكوفة والبصرة والمدينة ومكة وغيرها من العواصم العربية الإسلامية، وكان الفعل الأموي هذا مصدر تمرد هذه القوى، بل هو مصدر توالد بعضها من بعض، رتبت في أحضانها القوى المتمردة الثائرة على السلطات الحاكمة، مما أدى إلى جعل كل منها يبدي تشدده في المبادئ الإسلامية أكثرمن غيره. هذه القوى كانت قد **بدأت** رحلتها الطويلة بتساؤلاتها العديدة التي نوجز منها الآتي :

- هل السيف هو الحكم الفصل في تسلم زمام الخلافة الإسلامية؟
- هل التمرد على حكم شرعي منتخب يؤدي إلى خلافة شرعية ؟
- هل الخلافة شرعية، عندما يؤخذ فيها الحكم بالغلبة ؟
- هل للأمويين الحق في الحكم الذي جاء بطريق الحرب والغلبة ؟
- أليس من الواجب على المسلم قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن يجعل إرادة الله في المجتمع هي العليا؟
- و إذا كان هذا هو الواجب الشرعي الملقى على عاتق المسلم القيام به، لماذا أحجم وقصر في قيامه بواجبه؟ وما حكم المسلم الذي يسكت ويغض الطرف عن السياسات الفاسدة التي تقوم بها السلطات الحاكمة في مجتمعه؟
- وعلى أية حال، لماذا إذن لا يقوم المسلم بواجبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أي من درجاته الثلاث؟

التساؤلات التي ذكرت ما هي إلا مثال فقط ضمن فيض التساؤلات الكثيرة التي طرحتها المعارضة، ولإجابة المعارضة على تساؤلاتها استعانت بمبادئ الأصول الدينية لخدمة أهدافها من تفسير وحديث وغيره،

استخدمت ذلك في مطالبتها السلطات الحاكمة **بالحق والعدل**، ودارت رحى الحرب بين الطرفين على أساس هذه المطالب ضمن إطارها الديني والسياسي حسب مفاهيم تلك الفترة.

* لا شك أن قوى المعارضة التي طرحت تلك التساؤلات، هي قوى مجتمعية انبثقت أفكارها من الحالة الاجتماعية التي كانت تعيشها المجاميع الشعبية التي تطالب بالإصلاح الديني والمجتمعي، وحيث إنه لا يوجد فصل بين الدين والدولة في الإسلام، فإن العديد من قوى معارضة عملت منذ بداية تحركها وهي تسعى جاهدة بأفكارها وتجمعاتها لوصولها إلى السلطة والحكم، حيث وجدوا أن أفكارهم التي يحملونها في حاجة إلى **سلطان** يستطيعون به تجسيد وفرض أفكارهم على المجتمع، (فبسلطانهم وبسيطرتهم إدارياً وفكرياً وعملياً على فئات اجتماعية معينة؛ قبلية أو طائفية، كانت كافية لنشر دعوتهم، وجمعهم في صفوف القوى المحاربة التي تسعى إلى الحرب لتتسلم زمام الحكم والسلطة، وبهذه الطريقة أصبحت أفكارهم التي سبق لهم المناداة بها، أن غدت واقعاً ملموساً في المجتمع، وليست مجرد نظرية و فكرة .

هذا التصرف من قوى المعارضة يعتبر أمرا معتادا تقوم بتنفيذه كافة الأحزاب السياسية في كل زمان ومكان. فالمعارضة تسعى جاهدة إلى غرس أفكارها في المجتمعات لمساعدتها في وصولها إلى غاياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية. لكن الذي حدث أن قوى المعارضة العربية الإسلامية الجاري ذكرها، كانت كل فئة منها قد ضمت إلى جانبها عددا من مريديها ومؤيديها وأتباعها (دينياً، قبلياً، عشائرياً) وسعت مباشرة للحكم والسلطان، فوصلت إليه عن طريق الغلبة والحرب مثلها مثل الأنظمة والحكومات التي كانت تعارضها، بغض النظر عن مقدار التأييد الشعبي لها أم لا، ذلك لأن عقيدتهم قائمة على القوة و الشوكة التي تعتبرها هي السبيل إلى الحكم والسلطان، فهي ليست في جعبتها برامج إصلاحية: اقتصادية

واجتماعية وغيرها، وإنما كان هدف معظمها الوصول إلى الحكم. هذه الفئات المعارضة عندما تمكنت من بسط سلطتها على المجتمع بتلك الطريقة، فرضت نظام الملوك والسلاطين واتبعتها بنظام التوريث (للخلافة أو الإمامة وغيرها)، على الرغم من أن أكثرها كان ينادي بنظام الإمامة وليس بنظام الملوك، وأنها كانت تنادي بالانتخاب والشورى وليس بالتوريث، والأخطر من ذلك أنها لم تساعد بحركتها في وحدة الأمة وتمتين صلابة موقف الأمة تجاه الأعداء، بل كانت سبباً في التفرقة، وفي أحيان كثيرة كان هدفها في سبيل المحافظةا على عروشها كانت تتحالف حتى مع الأعداء. هذا الدوران في الحلقة المفرغة في عدم تطبيق المعارضة لما نادت به، أفقد الكثير منها مصداقيتها الشعبية .

* وبعد الذي ذكر في الفقرات أعلاه، آن لنا الآن التطرق لبعض من الحركات الفكرية العربية الإسلامية، نتناولها في قسمين: القسم الأول تمثل حركات فكرية دينية/ سياسية/ اجتماعية بدأت ثم انتهت، والقسم الثاني حركات قامت بتأسيس نظم سياسية لها في أقاليم الجزيرة العربية. وسيتم تناول القسمين في صورة موجزة ومختصرة، خاصة تلك التي تم تناولها في كتاب (حوارات-1)، مع ملاحظة ما سبق التأكيد عليه من أن ما سنقدمه ما هو إلا بعضاً من الحركات الفكرية العربية الإسلامية التي غمرت الأرض العربية بوهجها، ثم توقف كثير منها عن عطائها لعدم مواؤمتها وتطورها مع العصر، كما أن تعرضنا لهذه الأفكار لا علاقة له بفلسفتها أو بتفسيراتها المذهبية الإسلامية، التي ليست ضمن سياق موضوعنا هذا .

القسم الأول: حركات فكرية لم تصمد أمام صراع الزمن:

الموضوعات التالية هي عناوين قليلة مختصرة الغرض منها إثارة الحوارات مع شبابنا العربي وبالذات شباب الجزيرة العربية، لما له من علاقة بتاريخ الأفكار العربية ومنها أقاليم الجزيرة العربية الأربعة، وهي

أفكار كان قد طرحها العرب الأقدمون حول المجتمع والسلطة، ويتضح منها لشبابنا أن مجتمعنا العربي لم يكن خاوياً من الأفكار الاجتماعية والسياسية وفقا لمفاهيمهم السابقة، وعلى ذلك يكونون قد أدوا واجبهم الفكري الثقافي فأصابوا بأفكارهم حينا و فشلوا فيها أحياناً أخرى.

1: فرقة المعتزلة:

– بعد انتشار الإسلام في أقطار عديدة مختلفة، رأى بعض المسلمين أن في المنطق الإغريقي وسيلة لتوضيح الإسلام لشعوبهم، كما وجدوا أن في الأخذ بعلم المنطق فيه وسيلة علمية للدفاع عن الإسلام تجاه العقائد غير الإسلامية، فنادوا باستخدام منطق العقل و التحليل العلمي في حل المسائل الدينية والدنيوية.

– ففي القرن الثامن الميلادي في **مدينة البصرة**، كان علماء الدين فيها قد استخدموا علوم المنطق التي اقتبسوها من الفلسفة اليونانية، فسبب هذا خلافا بين علمائها عندما أخذوا بالمنطق الجدلي في تفسيرهم للعلوم الدينية، فانفصلت جماعة منهم سموا بالمعتزلة، هذه الجماعة سمت نفسها بالعدل والتوحيد، ولم تتكر الاعتزال عن فكر الجماعة في مدينة البصرة.

– كان هدف الاعتزال في بدايته هو وحدة الأمة تجاه الأعداء، ووقف الفتن بين الجماعات الاسلامية، ووقف الحروب الدائرة بينهم، الناتجة عن الحكم القبلي الوراثي، مما نجم عنه صراع السلطات الحاكمة مع القوى الاجتماعية الفاعلة، وهي التي رأت أن أساس المشكلة في الحروب والفتن سببها أخذ السلطة بالغلبة والقوة من المجتمع، فرأت أنه لا بد من وضع ضوابط ومعايير لمن يتولى السلطة نيابة عن المجتمع، ثم تطور موقفها إلى ما يسمى: "المنزلة بين منزلتين" أي أن الشخص الذي يتولى المناصب الاجتماعية يجب أن يعتمد المجتمع في انتخابه على **منزلته الشخصية** من الناحية العلمية والعملية ومقدار خدماته **للمجتمع**، وليست على منزلته القبلية

أو العائلية. وبالتالي فإن على المجتمع أن **ينتخب** إماماً عادلاً عالماً ليحكم فيه بما أمر الله بالعدل والمساواة.

– وعلى هذا القياس قدر المعتزلة نظام الحكم الإسلامي الذي يرونه، وهو أن السلطة في ذلك الحكم تطاع إذا اتبعت كتاب الله وسنة نبيه، وكانت عادلة، وإلا قومت إذا فعلت عكس ذلك، فموقف المعتزلة من السلطة الحاكمة، هو واجب على السلطة تطبيقها للمبادئ الدستورية الواردة في (كتاب الله وسنة نبيه).

ــ لقد حذا حذو المعتزلة كثير من الجماعات المعارضة، حتى اللاحقة منها تولت الجدل الكلامي المعتزلي، وإن اختلفوا معها في جوانب من أفكارها.

ــ إلا أن المعتزلة وهي التي عملت على تطوير علم الكلام المبني على المجادلة الإغريقية لتوضيح الإسلام والدفاع عنه، قد دخلت في مجادلات عديدة عطلت تلك المبادئ النيرة التي توصلت إليها حول السلطة والمجتمع، وذلك عندما غرقت في مجادلات أثارتها حول؛ طبيعة القرآن الكريم، هل هو أبدي سرمدي كالله سبحانه، أم أنه مخلوق ؟!

ــ وحول هذا الموضوع قال المعتزلة إن: "القرآن كتاب الله ووحيه وهو **مخلوق محدث**، أنزله على نبيه ليكون هادياً ودالاً على نبوته، وجعله دلالة لنا على الأحكام لنرجع إليه في الحلال والحرام".

إلا أن من خالفهم رأيهم هذا قالوا: "إن القرآن **غير مخلوق** ولا **محدث** بل **قديم قدم الله تعالى** ".

فرد المعتزلة عليهم: "أن القرآن كلام الله، والله سبحانه خالق كل شيء، والقرآن شيء". مشيرين إلى أن الله وحده هو السرمدي وليس أياً من مخلوقاته.

وعلى ذلك النحو دار الجدل الفقهي الديني والكلامي الفلسفي بين المعتقدين "**بخلود القرآن** " وبين المعتزلة المعتقدين "**بخلق القرآن**".

وقد انتهى الجدال الفلسفي والديني والثقافي بهزيمة المعتزلة، لأن أغلب المسلمين كانوا مع خلود القرآن الذي أنزله الله على نبيه محمد (ص)، وبالرغم مما آل اليه مصير المعتزلة، فإنهم قدموا أطروحات قيمة للفكر العربي في نواحيه المختلفة.

– و قد زاد الأمر تعقيدا تجاه المعتزلة عندما استغلت السلطات العباسية خلاف المفكرين الإسلاميين حول أطروحة "خلق القرآن" فتدخلت لصالح المعتزلة لقهر وإذلال المعارضين وإرغامهم ليكونوا مع هذه الفكرة لكي ترضى عنهم السلطات، وإلا عليهم أن يلاقوا عقابها.

– لقد خسر المعتزلة مواقف الطبقات الشعبية المختلفة، عندما رأوا السلطات الحاكمة قد استغلتهم كأداة قهرية لتنفيذ أفكارهم من جهة، كما أن الطبقات الاجتماعية لم تستوعب بسهولة أفكارهم الفلسفية واللغوية الجدلية المعقدة من جهة أخرى، مما أدى إلى هزيمتهم فيما نادوا به سياسيا، إلا أن أفكارهم وفرقهم استمرت في عملها مما جعل قوى معارضة أخرى في الجزيرة العربية وخارجها تتبنى أفكارهم.

– ندعو شبابنا الى أخذ العبرة مما آل إليه الفكر المعتزلي، وذلك فإن عليهم أن يصوغوا أفكارهم ومبادئهم الجديدة بحيث تكون موائمة ومفهومة للطبقات الاجتماعية، تلامس متطلباتهم الحياتية السياسية والاقتصادية والثقافية دون تعقيدات فلسفية مقعرة يستعصي على العامة إدراكها وفهما، فينفرون منها .

2: انتفاضة الزنج :

كانت الأفكار والعقائد في مجتمع مدينتي **البصرة** و**الكوفة** كأنما كانت توضع على أتون من لهب تنضج في أوعيتها الحركات الثورية والثقافية والاجتماعية والسياسية، فتتغذى على أفكارهم ومذاهبهم الشعوب العربية الإسلامية! تلك هي المكانة العلمية التي كانت لمجتمع هاتين المدينتين.

ففي النصف الأخير من القرن التاسع الميلادي انتفض الزنج المتواجدون في **البصرة**، هؤلاء الافارقة الذين جلبتهم الطبقات الإقطاعية في الجنوب العراقي للعمل في الأراضي السبخة في مستنقعات جنوب العراق، حيث تتجمع فيها تربة طمي نهري دجلة والفرات جراء ما يجرفه النهران معهما من طمي حتى مصبهما الأخير في جنوب العراق. هذه المناطق تلتقي في مواقع منها بمياه الخليج المالحة فتختلط بالمياه العذبة للنهرين العظيمين، هذه التربة غنية بالمواد التي تجعلها صالحة لزراعة مختلف أنواع المحاصيل (إنها أرض الإنسان الأول في التاريخ)، إلا أن هذه التربة لكي تصبح صالحة للزراعة لا بد من إعدادها بإزالة ما علقت بها من شوائب، وهذا عمل شاق ومضن. الإقطاعيون ملاك الأراضي في البصرة، أحضروا عبيدا من إفريقيا لإزالة السبخ من سطح التربة في شرق البصرة، فكانوا يعملون في ظروف بيئية شاقة، وعلى الرغم من جهدهم ذاك فإن هؤلاء العمال العبيد لا يحصلون مقابل جهدهم إلا على ما يقيم أود حياتهم.

كان العصر العباسي في بدايته، وكانت بغداد في أوج توهجها الاقتصادي والثقافي والاجتماعي والتنوع البشري، مما أدى إلى وجود فوارق طبقية شديدة التباين بين غنى فاحش وفقر مدقع، مصحوب باستبداد من قبل الطبقة الحاكمة الإقطاعية. هذا الوضع الاجتماعي والمعيشي أوجد قوى معارضة للحكم من الذين وقع عليهم الظلم الاجتماعي والسياسي. فتوجهت قوى معارضة تدعم مطالب العبيد الفقراء، فجاءت دعوة علي بن محمد، المنتسب لآل البيت،داعمة لهذه الانتفاضة، فاستمرت ثورتهم لفترة ست سنوات أو أكثر، استولوا خلالها على البصرة وهددوا بغداد، فتحركت ضدهم القوى الحاكمة الإقطاعية فأخضعوا حركتهم وأذاقوا أفرادها أقسى أنواع العذاب، ففر الآلاف منهم هاربين من الموت والعبودية، وكانت شواطئ الخليج العربي والجزيرة العربية ملجأ لهم، التقوا فيها بالحركات الثورية الأخرى هناك.

3: دولة القرامطة :

تناولنا هذه الحركة في (حوارات-1)، ونوجز بالقول: لقد ساعد الانفصام بين السلطة والمجتمع إلى ظهور هذه الحركة التي تحولت إلى دولة وحكم، كونتها الظروف والأوضاع الاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة في العصر العباسي، وبالذات في العراق. قامت هذه الحركة في ظل نشوء الفوارق الطبقية الاجتماعية والاقتصادية وفي صراع هذه الطبقات مع السلطة أخذت جانب الفقراء المعدمين، منددة بالظلم الاجتماعي وبالفساد المستشري في السلطة الحاكمة، فتكون لديها فكر يناهض استبداد السلطات الحاكمة، فالتف حولها الناس.

حشدت هذه الحركة قواها ووصلت إلى سلطة الحكم في إقليم شرق الجزيرة العربية بالغلبة والشوكة، وعلى الرغم من استمرار حكمها في الجزيرة العربية لفترة طويلة، إلا أنها بعد الحرب التي قامت بها في مكة المكرمة بإقتلاعهم الحجر الأسود من مكانه وأخذه إلى الإحساء، محاولين بذلك أن يجعلوا منها (الكعبة) بدلا من مكة؟!. عندها بدأت سلطة هذه الحركة في الانحدار، حيث شعر المسلمون بالإهانة تجاه قدسية معتقداتهم الإسلامية، التي هي القبلة (الكعبة) في مكة المكرمة، التي يتوجه إليها المسلمون في صلواتهم خمس مرات في اليوم، واستمر هذا الشعور طوال السنوات التي أخذ فيها الحجر الأسود، ولم يشعر المسلمون أن القدسية قد عادت إلى مكة إلا عندما أرجع الحجر الأسود إلى مكانه في البيت الحرام في حوالي منتصف القرن العاشر الميلادي. تلك التصرفات الناشئة عن الانحراف الفكري أدى في النهاية إلى اندثار الحركة وانتهاء الدولة، بعد أن اتخذت نظام الحكم الوراثي، الذي كانت تنادي بعكسه، فأصبحت واحدة من الأنظمة القبلية بسلطتها الحاكمة المستبدة التي؛ اشتعلت نيران حروبها الطويلة على امتداد الجزيرة والشام وفلسطين ومصر، وسفكت فيها الدماء في أنحاء كثيرة من الأرض العربية. وهكذا فالأنظمة التي تأتي بالأفكار

والإيدلوجيا ثم تنتهي بفساد تطبيقاتها الخاطئة تصيب بوابلها وضررها المجتمع الذي وثق في وعود سلطتها في بداية عنفوانها، مما يؤدي إلى تفرقة الأمة – من قبل تلك السلطات الحاكمة – بدلا من توحيد كياناتها.

4: إخوان الصفا وخلان الوفاء:

– يقدر الدارسون أنه في القرن العاشر الميلادي ظهرت في مدينة **البصرة**، جماعة سمت نفسها "إخوان الصفا وخلان الوفاء" وضعت لنفسها مذهبا قالت عنه أنه يقربها إلى الفوز برضوان الله، وقالت بأن الشريعة دنست بالجهالة واختلطت بالضلالة ولا سبيل لغسلها إلا **بالفلسفة**، ورأت أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة الإسلامية فقد حصل الكمال .

وضعت هذه الجماعة **رسائل** عدة قدر عددها بحوالي 50 رسالة أوضحت فيها أهدافها. وصفت هذه الرسائل بأنها تحمل الدعوة العقلانية، فلاقت رواجا بين الناس لما حملته من أفكار طابعها عقلاني فلسفي، مرتكزة على التوفيق بين الفلسفة والدين والأخذ من جميع الأديان السابقة، للوصول إلى العقيدة التوحيدية في الإسلام .

واضعو تلك الرسائل أخفوا أسماءهم حرصاً على حياتهم، لأن في دعوتهم مسّاً بالسلطات الحاكمة الذين اعتبروها "دولة أهل **الشر**" التي يعشش فيها الفساد، فدعوا إلى إقامة "دولة **الخير**" أو دولة "المدينة الفاضلة"، ولهذا نظر الدارسون لهذه الدعوة على أنها تحمل نزعة باطنية قائمة على الكتمان والتقية. ونسب البعض أفكارهم إلى الإسماعيلية .

يعتقد الدارسون لهذه الجماعة أن الوقت الذي ظهرت فيه رسائل "إخوان الصفا" كان فيه المظهر العام للوضع العربي الإسلامي مشحون بالاضطرابات السياسية والاقتصادية، وبالفتن الدينية التي أزهقت فيها الأرواح. فالعباسيون مثلهم مثل الأمويين، ألقوا بالهاشميين صفات التآمر

على حكمهم، فاتخذوا حيالهم القسوة والتعذيب، مما دعا هؤلاء إلى التقية والستر، فتنقلوا في الخفاء من مكان إلى آخر، وتفرقوا في بلدان مختلفة .

كما أن من بين الدارسين من أكدت لهم بحوثهم أن جماعة "أخوان الصفا وخلان الوفاء" هم إسماعيليو المذهب، لأن رسائلهم كانت تحمل تلك الأفكار، كما ذكروا أن العديد من الأفكار التي تضمنتها الرسائل هدفت الى إصلاح المجتمع والسلطة، وأنه لزهد منهم لم تسع الجماعة إلى تأسيس حزب أو دولة تنفذ وتطبق أفكارهم، مع أن عدداً من التنظيمات السياسية تبنت أفكارهم، مثلهم مثل المعتزلة .

القسم الثاني : نماذج من حركات فكرية كونت لها دولاً في الجزيرة العربية :

1 - فرقة الخوارج :

لأسباب التي كونت هذه الحركة/ الفرقة الدينية هي النتائج التي تمخضت عنها حرب صفين بين جيشي على ومعاوية والتي أدت إلى التحكيم، ومن ثم إلى نهاية الخلافة الشرعية، بتولي الأمويين الحكم. وكان لهذه الحرب نتائج وآثار كبيرة على الفكر والتاريخ العربي الإسلامي، والنقاط التالية الموجزة لها علاقة بموضوعنا الدائر حول السلطة والمجتمع العربي .

1 ـ ألمحنا من قبل إلى مواجهة الخليفة الراشد الإمام علي بن أبي طالب(ع) للتمرد الذي قاده والي الشام المعزول معاوية بن أبي سفيان، والذي أدى تمرده إلى معركة صفين، والتي كان فيها (أهل العراق) تحت

قيادة الإمام علي بن أبي طالب (ع)، وكان (أهل الشام) تحت قيادة معاوية بن أبي سفيان.

في تلك المعركة عندما مال النصر (لأهل العراق) رفع معاوية وصحبه المصاحف على أسنة الرماح تجنبا لهزيمتهم، وقد فهم (أهل العراق) أصحاب علي بن أبي طالب (ع)- وهم الذين يعتبرون أنفسهم على الحق والجانب الآخر على الباطل - أن رافعي المصاحف كانوا يطلبون الحق تحت راية كلام الله وأنهم يريدون كلمة الله أن تحكم بينهم لا كلمة السيف، فأصحاب علي (ع) أخذوا هذا الموضوع من ناحيته الدينية البحتة التي فيها احترام للقرآن الكريم وتعاليمه.

حذر الإمام علي (ع) أتباعه من الخديعة التي لجأ اليها المهزومون، إلا أن خضوعاً منه لرأي أنصاره وافق على مبدأ التحكيم ليقيهم الخلاف في تفسيرهم لرفع المصاحف على رؤوس الرماح، وبناء عليه وضع (أهل العراق) سلاحهم أمام التحكيم. إلا أنه فيما بعد، تيقن (لأهل العراق) صحة رأي الإمام علي (ع)، عندما رأوا أن الحكمين قد خالفا ما عهد إليهما به، وأن في الأمر خدعة ومكيدة من قبل الذين كانوا قد شارفوا على الهزيمة.

فتكونت جماعة من أهل العراق ثارت على نتيجة التحكيم، وشكلت حركة معارضة سميت بـــ(الخوارج)، قائلة: أن التحكيم لا محل له، وأن أتباع معاوية قد رجعوا عن الحق بمحاربتهم للخليفة الشرعي المنتخب من قبل المسلمين، وبالتالي لا يجوز التمرد على الإرادة الجماعية، فنادت بقولها "كفر الحكمان. لا حكم إلا لله"، وفي معارضتها الشديدة للتحكيم اتجهت لأهل العراق والشام بقولها لهم: "إن الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا القرآن وراء ظهورهما، وأحييا ما أمات القرآن، واتبع كل منهما هواه" .

والحكمان المشار إليهما هما: أبو موسى الأشعري، الذي اختاره أهل العراق، وعمرو بن العاص الذي مثل أهل الشام. الأول يماني والثاني قرشي. والمعركة موضوع التحكيم (صفين) دارت في مدينة (الرقة) في

الجزء الأعلى من نهر الفرات في شمال سورية. من ذلك يتضح أن الجزيرة العربية وبالذات الحجاز واليمن ليستا ببعيدتين عما يحدث في الأجزاء الأخرى من الأرض العربية الإسلامية .

أصحاب هذه الحركة الرافضة للتحكيم الذي أسفرت نتيجته عن تمكين معاوية من الحكم، سموا أنفسهم "بالشراة"؛ وتعني أنهم "يشرون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله"، لقد هدفوا من ذلك إلى تأسيس مذهب ديني سياسي يوصلهم إلى تحقيق مجتمع يسيرون به إلى ما يتفق مع أوامر الله نواهيه، وبما أنهم كانوا لا يتصورون أن مبادئهم تلك يمكن تحقيقها على أرض الواقع في فترة قصيرة أثناء حياتهم، ارتضوا أن يبيعوا حياتهم مجاهدين في سبيل الله، عندما رأوا أنه لا يمكنهم السكوت على خصومهم الذين خالفوا أوامر الله ونواهيه (وقد رموا هؤلاء بالفسق والفجور). وبناء على نهجهم هذا استحلوا سفك دماء أعدائهم الذين نعتوهم بالكفر،حتى ولو أدى ذلك إلى فقدانهم أنفسهم لحياتهم التي اشتروها مرضاة لله. ووفق هذا الاعتقاد مارسوا أعمالا إرهابية قاسية قاموا فيها بوضع قوائم بالذين يستحقون الموت ونفذوها بداية باغتيالهم للإمام علي بن أبي طالب(ع) الذي كان قد حاربهم على أعمالهم المتطرفة تلك.

تطورت هذه الحركة مثلها مثل أي حركة سياسية معارضة تخرج على أنظمة الحكم السائدة؛ وكونت لها أهدافها ومقاصدها – سواء اتفقنا أو اختلفنا معها – فمن بين مواقف هذه الحركة أنها كانت تعتبر أن الامويين مغتصبون للخلافة، وأنه كان على الإمام علي (ع) ألا يقبل بمبدأ التحكيم لأنه خليفة شرعي منتخب. ونادت بأن تكون الخلافة بالانتخاب يتقلدها أجدر المسلمين بها، وصارت تدعو إلى الثورة على كل سلطان غير منتخب من أهل الحل والعقد، لأن السلطة على المسلمين لا يتولاها إلا إمام عادل يتم انتخابه ليحكم بين المسلمين بالعدل و المساواة .

* انتشرت هذه الحركة في الكوفة والبصرة، وفي اليمامة واليمن وغيرها. ولقيت استحساناً بين الطبقات الفقيرة، لما طرحته من أفكار تحارب بها مظالم الحكام. وكان قد ظهر في إقليم اليمن عبد الله بن أباض التميمي، في أثناء خلافة مروان بن محمد، آخر خلفاء دولة بني أمية، فأجمع مناصروه على إمامته وأسسوا إمامة الأباضية في كل من حضرموت وعمان، وفي أماكن مختلفة.

- التقت أفكار هذه الحركة بأفكار فرق إسلامية أخرى، رأت أن **الإمامة** تعني: من يؤتم به ويقتدى بأفعاله وأقواله، وله الرئاسة في أمور الدين والدنيا، وقراراته نافذة في المسائل الدينية والسياسية. في حين أن مذاهب إسلامية أخرى قائم اعتقادها على أن الإمامة أساسها شرعي، بما يعني أن الله سبحانه لم يترك الناس وشأنهم بعد موت نبيهم يفعلون ما يشاؤون ويرجعون إلى الجاهلية، فالأئمة هنا يتولون نيابة عن الرسول (ص) قيادة دفة أمور المسلمين دينيا وزمنيا دنيويا.

ـ اتخذت إمامة الأباضية مركزها في جبال عمان لموقعها المميز البعيد عن أعين وسيوف الأنظمة الحاكمة الأموية ثم العباسية، هذه المنطقة تتكون من سلسلة جبلية منيعة تسمى سلسلة جبال (الحجر) وأهمها الجبل الأخضر، وهو جبل تكسوه الأشجار الكثيفة المثمرة ومراعيها الكثيرة، هذه المنطقة هي امتداد في جغرافيتها وطبيعتها لليمن، أما عاصمتها مدينة (نزوى) الواقعة ضمن هذه السلسلة الجبلية، فهي المكان الذي استقرت فيه الإمامة، فقد توفرت فيها المحاصيل الزراعية والمناعة الجغرافية التي ساعدت هذه الحركة على استمرارها لعدة قرون. وعلى الرغم من أن كثيراً من المؤرخين قد ربطوا مذهب الأباضية بحركة الخوارج، إلا أن القائمين على الفكر الأباضي لا يقرون بذلك، ويعتبرون أنفسهم حركة إسلامية إصلاحية لها حركتها السياسية ولها مبادئها الفكرية والاجتماعية .

– فالمذهب الأباضي الذي هو حركة دينية سياسية أخذت **بالحكم الشرعي** الذي يقوم على يد **إمام** عادل ينتخب لعلمه وصلاحه. أسست الإمامة ووصلت إلى السلطة والحكم لتجسد أفكارها وتحقق أهدافها الدينية والسياسية معا، وبقيت في جبال عمان لقرون طويلة، حتى الربع الأخير من القرن العشرين، فهل نجحت هذه الحركة أم فشلت في إدارتها للحكم، وهل حققت تقدم مجتمعها؛ اقتصادياً/ اجتماعياً/ علمياً؟ وهل ساعدت في وحدة الأمة، هذا ما سيتضح في الفصل القادم.

ـ وعلى أية حال، أنه عندما اشتعلت الثورة المسلحة، في منتصف القرن العشرين؛ ثورة في جبال عمان، وثورة أخرى في جبال ظفار، وهاتان الثورتان كانتا استمرارا للثورة في اليمن: شماله وجنوبه . في هذا الوقت الذي تحركت فيه القوى الشعبية العربية تقود النضال في الجزيرة العربية من أجل التحرر من الرجعية والاستعمار الغربي عموماً، والاستعمار البريطاني بوجه خاص، هذه الثورات العربية في جنوب الجزيرة العربية لم تترك الأفكار القديمة على حالها، وإنما جاءت بأفكارها الحديثة المستقاة من منابع فكرية جديدة، وخصوصا من ناحية السياسة والاقتصاد، فجاءت في صورة جبهات وأحزاب سياسية وطنية وقومية واشتراكية وأممية. فالأفكار مثلها مثل أي كائن حي يصيبها التغير والمرض والشيخوخة، ولكن الحياة تستمر بنشاطها الذهني وعملها الجديد.

2 ـ الإمامة الزيدية :

– تنتسب الإمامة الزيدية إلى أتباع: **زيد** بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع). ولد في المدينة المنورة، وهو الابن الأكبر لعلي بن الحسين (زين العابدين، السجاد، كان صغير السن في وقعة كربلاء) .

– أعلن مبدأ الخروج على الحاكم الظالم ونقل عنه قوله: "إنما أقاتل لإحياء السنن، وإماتة البدع، وإزالة الظلم عن المظلومين" .

– فقاتل عامل الأمويين في **الكوفة** في حوالي 740 م في خلافة هشام بن عبد الملك، وقد انفض عنه أنصاره الذين بايعوه بالإمامة خلال المعركة، فقاتل الأمويين بنفسه حتى قتل ثم صلب وذلك في عام 741 م، كما خرج ابنه يحيى بن زيد من بعده، وقتل أيضا في خراسان عام 743م .

ـ توفى الإمام زيد بن علي أثناء حياة أبيه الإمام علي بن الحسين (ع). وزيد هو الابن الأكبر له، وبعد وفاة أبيه أصبح ابنه الإمام محمد الباقر (ع) هو الإمام من بعده، إلا أن الزيديين رفضوا إمامة محمد الباقر، وأصروا على إمامة زيد لأنه هو الابن **البكر** الذي تصبح الإمامة في **صلبه**.

ـ فاستشهاد زيد بن علي في الكوفة لم تكن نهاية الحركة الزيدية، بل أن أتباعه وجدوا فيه رمزاً يلتفون حول آرائه، ورأوا فيه الإمام الذي "قام بالسيف على أئمة الضلال وحزب الشيطان وخرج على أئمة الجور" واعتبروا يوم استشهاده بداية للحركة الزيدية.

– استولت أهداف ومبادئ الزيدية على مشاعر جماهير إسلامية كبيرة، لما لاقاه دعاة وأئمة الزيدية من عنت الخلفاء، ولأن الناس رأوا أن مبدأهم قائم على الإمامة التي تتم بالانتخاب، يتقلدها أجدر المسلمين بها، وشرطهم في أن يكون الإمام من ولد فاطمة الزهراء (ع)، وأن يكون شجاعاً يخرج بالسيف على الإمام الظالم .

*** دولة الأئمة الزيدية في اليمن استمرت إلى ما يقرب من 11 قرنا :**

– نوجز بشأنها في القول: أن الفرقة الزيدية تحولت إلى دولة في نهاية القرن التاسع الميلادي، في تلك الفترة التي كانت فيها الفوضى ضاربة أطنابها في الجزيرة العربية، وكان إقليما الحجاز واليمن هما الأكثر تأثراً بالخلافات والصراعات الكثيرة الناشبة بين القبائل والدويلات المتصارعة، وبين طوائف ومذاهب وفرق مختلفة من بينها القرامطة والإسماعيلية

وغيرهما. في ضوء تلك الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والصراعات المذهبية تأسست دولة الأئمة الزيدية في **صعدة** في جبال اليمن الشمالية.

ـ في خضم تلك الصراعات المذهبية والسياسية في اليمن، وجد رؤساء القبائل أنفسهم عاجزين عن حل لمشاكلهم المتفاقمة تلك، التي لا يقوم بحلها إلا بوجود قيادة تكفيهم شر التفرقة، وتوحد صفوفهم وتبقي على وحدتهم. فوجدوا رجل دين في الجوف ذا شخصية قيادية، يتمتع بعلم ونسب، وجدوه شخصا بمقدوره وقف الاضطراب السياسي وحل الخلافات المذهبية وتعدد الولاءات، فبعثوا إليه يدعونه القدوم إلى اليمن. فخرج يحيى بن الحسين، من الجوف متوجها إلى نجران ثم إلى صعدة، فبايعته قبائل اليمن، مما مكنه من تأسيس دولة الأئمة الأولى القائمة في أصولها الفقهية على مذهب الإمام زيد بن علي، الذي يجيز الخروج على حكم الظلمة، فلقب هذا الإمام (بالهادي).

ـ عندما تأسست الإمامة الزيدية في المرتفعات الشمالية، فقامت بمقارعتها للحكام الظلمة، وكانت المذاهب الإسلامية الأخرى موجودة في اليمن، في الساحل وفي الجنوب المذهب الشافعي، إلا أن الجميع غلبوا الوحدة الوطنية على ما سواها، وواجهوا القوى الغازية والمحتلة لليمن طوال فترات زمنية متعاقبة.

ـ نلاحظ هنا أن الإمامة الزيدية، مثلها مثل الإمامة الأباضية، اتخذت لها مواقع حصينة في الجبال، ذلك أن الطبيعة الجغرافية لليمن وعمان تتكون من جبال وسواحل بحرية. وقد عرفت السواحل بنشاطها التجاري وبحركتها الاجتماعية، أما الجبال فاحتفظت بالقيادة الروحية المذهبية وحركتها الفكرية.

– تعاقبت دول الأئمة الزيدية في اليمن لفترة امتدت أحد عشر قرناً بين قوة وضعف، كان حكمهم يشمل في بعض الأحيان حدود اليمن الطبيعية، وينكمش أحيانا فيقتصر على صنعاء وشمالها أو على بعض المناطق

الشمالية التي منها مدينة صعدة المركز الديني للأئمة. وقد ساهمت الإمامة الزيدية في تنشيط الحياة الفكرية وتوطيد تقاليد الجدل والاجتهاد الفقهي، وكانت لهم مواقفهم في محاربتهم للحكام الظلمة، ونضالهم ضد الغزاة والمحتلين لليمن .

– وبحكم موقع اليمن الجغرافي ومكانتها التجارية والثقافية، فقد جعلها موضع الطامعين الاجانب، وجعل من أئمة اليمن، في احيان كثيرة، في صراع واقتتال مع مختلف الدويلات، بالاضافة الى صراعها ضد القوى الاجنبية، التي كانت السبب في آلام الشعب اليمني وتمزيق وحدته، وتخلفه الحضاري، كما سيتضح لنا. إلا انه عندما كانت تنحسر موجات التدخلات الأجنبية، والاضطرابات والحروب والحوادث القبلية الدينية، نجد أن اليمن عموماً ينعم بالاستقرار وبعودة الحكم المركزي على كل الأراضي اليمنية، فتنتعش التجارة والاقتصاد، ويزدهر الفكر والأدب فيها. وقد نعمت اليمن بالاستقرار وعودة الحكم المركزي على كل الاراضي اليمنية لفترة طويلة من حكم الأئمة الأوائل، الذين حاربوا المظالم، فازدهر الفكر و**الأدب على الرغم من الإضطرابات** والحروب والحوادث القبلية .

– إلا دخول المستعمرين الاوربيين بسفنهم وقواتهم الحربية، منذ بداية القرن السادس عشر واحتلالهم شواطئ جنوب الجزيرة العربية، نشأ واقعاً جديداً تمثل في التأثيرات التكنولوجية التي صاحبت وجود المستعمر الأجنبي، ومن حينها انعزلت المرتفعات اليمنية والعمانية في مرتفعاتها، ومارست العُزلة السياسية والاقتصادية والثقافية عن العالم الخارجي .

– خلال تلك الفترة الطويلة حكمت في اليمن عدة أسر من الأئمة الزيدية؛ من بينهم آل الهادي وآل القاسم، وكان آخرهم آل حميد الدين . وقد اتخذ الكثير من الأئمة الزيدية نظام الحكم بالتوريث رغم مناداة العقيدة الزيدية بعكس ذلك، وقد استمر أحفاد يحيى بن الحسين (الهادي)، المؤسس الأول، والأسر المتعاقبة المنتمية إليهم تحكم المرتفعات اليمنية، بالدرجة

الاساسية، مع استمرار الصراعات بين الدويلات والمذاهب المختلفة في الساحل والجنوب، إلى أن وصلت الأوضاع في اليمن إلى درجة من التخلف الاجتماعي والتأخر الاقتصادي استدعت الناس القيام بثوراتهم المتلاحقة في سبيل التخلص من ظلم واستبداد حكم الأئمة، وآخرهم الإمام أحمد من أسرة يحيى حميد الدين، وكان الإمام أحمد قد وضع ابنه الإمام البدر، ولياً للعهد، تولى الحكم بعد وفاته، إلا أن ثورة 26 سبتمبر عام 1962 أطاحت به، ونشبت الحرب الأهلية، كما سيأتي الحديث عن ذلك .

– برزت تناقضات الإمامة الزيدية بين النظرية والتطبيق؛ مع تولي أئمتها في القرون الاخيرة، فبالرغم من اعتماد مبدأ الامامة، إلا أننا نجد أن الحكم قد انحصر في عائلات من الأئمة الزيدية، احتكرت السلطة وتوارثتها على الضد من العقيدة الزيدية القائمة على عدم الإقرار بمبدأ التوريث، واذا انقطع حكم أسرة منها نتيجة لغزو أجنبي، فإن الأسرة الزيدية الغالبة تأخذ بنظام التوريث للعهد الجديد. كما أنه من المفروض أن يكون نظام حكم الزيدية إمامياً، إلا هذا لم يعمل به في جميع الأحوال، فآخر أسرة زيدية كان اسم دولتها "**المملكة** المتوكلية اليمنية" وذلك لأن الإمام يحيى حميد الدين لقب نفسه (المتوكل على الله) فسميت مملكته بالمتوكلية، وحكم البلاد حكما استبداديا، بنظام إقطاعي متخلف عن ركب الحضارة. كما وأن النظام الزيدي لم يوحد الأمة الإسلامية والعربية، وهو المبدأ الذي قامت عليه الإمامة، بل أثناء حكمها اسهم في تقسيم الوطن اليمني إلى جنوبي مستعمر، و شمالي منعزل يحكم بنظام متخلف عن ركب الحضارة .

نستنتج مما ذكر أن الإمامة الزيدية، بالذات في عقودها المتأخرة، لم تطبق ما نادت به، بل مارست الظلم والاستبداد والفساد، مع أن مبدأها هو (الخروج على الحاكم الظالم)، فالتنكر للمبادئ ومخالفة العقائد هي المسبب للفوضى والتأخر والظلم والاستبداد وتمزيق أرض الوطن إلى شطرين: جنوب اليمن، وشمال اليمن. فحكم الأئمة الظالم هو الذي استدعى من القوى

الاجتماعية اليمنية تنفيذ مبدأ (الخروج على **الحاكم الظالم**) فقامت بثورتها للتخلص من الحكم الظالم الذي عاش فيه المجتمع اليمني ردحا من الزمن، وعندما قام النظام الجمهوري في الشمال، اسهم في اشعال الثورة في الجنوب، وبتكاتف الشعب اليمني في شماله وجنوبه أمكن دحر الاستعمار البريطاني من جنوبه، فالثورات وحدت اليمن، وأسهمت في تغيير الاوضاع القريبة منها. وهذا ما سنلاحظه في الفصل القادم .

3 - الفرقة الإسماعيلية:

– الإسماعيلية هي الفرقة القائلة بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، وينتهون عند إمامة جعفر الصادق (ع). والتي اعتبرت إسماعيل هو الإمام بعد جعفر الصادق (ع)، وقالتا بإمامة الستة وأن الإمام السابع هو إسماعيل بن جعفر الصادق، واختلفت في موته؛ فقالت فرقة أن إسماعيل هو الابن الأكبر للإمام جعفر الصادق (ع) الذي أوصى له بالإمامة من بعده، وتوفي الإمام الصادق بعد وفاة ولده إسماعيل. وقالت ثانية أن إسماعيل هاجر إلى قرية "السلمية" بالقرب من مدينة حلب في سورية واختفى فيها ومات بعد أبيه. وهكذا نشأت فرق إسماعيلية على هذا المنوال، كل لها رأيها حول إمامة إسماعيل ووفاته.

– أخذت الإسماعيلية **بالفلسفات** الإغريقية والفارسية والأفلاطونية وبأفكار ومذاهب أخرى، أما أركان عقيدتهم فهي الوحدانية والإيمان بالله الواحد الأحَد.

– في إقليم اليمن، أسست الإسماعيلية دولتها بتولي العائلة الصليحية الحكم في منتصف القرن العاشر الميلادي، وتسلمت سيدة بنت أحمد الصليحي الدعوة والحكم في هذا الإقليم، وفصلت **الدعوة** الإسماعيلية عن **الدولة**، مما ساعد في نجاح إدارة حكمها، كما سبق ذكر ذلك من قبل .

الفاطميون :

الفرقة الفاطمية نسبت اسمها إلى السيدة فاطمة الزهراء (ع) ابنة الرسول (ص)، وزوجة الإمام علي بن أبي طالب (ع). والفاطميون اتبعوا العقيدة الإسماعيلية، فحكموا مصر وتواجدوا في الحجاز و اليمن.

تواجد الفاطميون في المغرب العربي في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي، وأسس عبد الله المهدي الدولة الفاطمية، فحكموا تونس وصقلية، وبعدها اندفعوا تجاه وادي النيل، وتغلبوا على حكام مصر فحكموها، وبنوا مدينة القاهرة، وأسسوا جامع **الأزهر** الشريف.

أدرك الفاطميون وهم في مصر أهمية البحر الأحمر وجنوب الجزيرة للتجارة العالمية. وفي نهاية القرن العاشر الميلادي احتلوا الحجاز واليمن بحجة حمايتهم للأراضي المقدسة، وحصلوا على مؤيدين لهم في هذه المنطقة من القرامطة وفرق أخرى، ولكن الاحتلال والحرب والسيطرة في الحجاز واليمن التي تمت عبر قرون من قبل الفاطميين وما تلاهم من أيوبيين ومماليك وعثمانيين، قد تركوا الجزيرة العربية في حالة تأخر وفقر؛ قيادات دينية انعزلت في الجبال، وجزء كبير من السكان احتموا بالصحراء، وآخرون فروا هاربين من الظلم إلى بلدان الله الواسعة.

تطرقنا في الفقرات أعلاه لمجموعة من أصحاب الأفكار، وصل بعضهم بأفكاره إلى سدة الحكم، ويمكن من الفقرات أعلاه ملاحظة ابتعاد أصحاب الأفكار عن مبادئهم وأفكارهم التي نادوا بها قبل تسلمهم زمام السلطة والحكم. فكان بعضها يدعو لخروج المجتمع بالسيف على الحاكم الظالم، ولكنها بعد زمن من تسلمها مقاليد الحكم، أنشأت الظلم والاستبداد والتأخر والفساد. فلم تعمل تلك الأنظمة على وحدة الأمة، ولعل اليمن مثالا، فنتج عن مخالفتهم ما نادوا به، الصراع المستمر بين السلطة الظالمة المستبدة المنتجة للتخلف وبين المجتمع الذي ينزع إلى الحرية والتقدم من

جهة، وتمزيق الوطن من جهة ثانية. هذا الصراع الطويل الذي لم يوضع له حل ونهاية، وكان سبب التخلف الحضاري والضعف العربي الذي سهل احتلال الفرنج ثم التتار للأراضي العربية. هذا في بداية الأمر، وتلاه احتلال الاستعمار الغربي بعد ذلك، كما سنلاحظ ذلك في الفصل القادم.

ـ ويعود السبب في الاحتلالات الأجنبية لأرضنا إلى توقف المسلمين عن تطوير معارفهم في إدارة أنظمة الحكم، في الوقت الذي نهضت اوربا وبدأ عصر الأنوار فيها، وبدأ التغيير الشامل في العقلية الاجتماعية، فقامت المجتمعات الأوروبية بتغيرات في أنظمة حكم بلادها، أما المسلمون والعرب فقد وقفوا في وجه الدراسات العلمية التي بدأوها، واقتصروا على دراسة الفقه والدين والشريعة، وأشاعوا بين الناس أن هذه العلوم وهؤلاء العلماء و المتعلمين هم وحدهم الذين لهم الجزاء والثواب في الآخرة!

(4) الحركة الوهابية :

نتيجة لما سبق ذكره، فإن الأوضاع في شبه الجزيرة العربية في بداية القرن الثامن عشر الميلادي يكون قد مر عليها حين من الدهر، جعل مجتمعها غارقاً في النزاعات والصراعات والاقتتال، مما نتج عنه تخلف اجتماعي واقتصادي وسياسي وحروب بين قبائلها وأقاليمها، فأتاح الفرصة للتدخل الأجنبي واحتلاله شواطئ الجزيرة العربية غرباً وجنوباً وشرقاً، بعد أن حوصر شعب قلب الجزيرة ووسطها.

كان إقليم وسط الجزيرة، هو على ذلك النحو الذي ذكر، ففي نجد وما حولها كانت الحرب دائرة في قتال وصراع مستمر بين القبائل؛ تسبى فيها النساء وتهتك الأعراض ويقتل الأطفال، فنشأ عنها ما يلي:

كانت السلطة المتمثلة في الأمير القبلي وأتباعه، تفرض الضرائب الجائرة، وتتبع الأساليب التعسفية تجاه أفراد المجتمع، مما أفسح المجال

لعصابات الحكم للقيام بالسلب والنهب، فانعدم الاستقرار، فأصبح القوي فيها يعتدي على الضعيف ؛ لا حكومة ولا عدل ولا أمن بين الناس .

كانت سبل التجارة وطرقها غير مأمونة، وقطاع الطرق يقطعون كل طريق فلا يرون قافلة إلا ونهبوها، ولا رجالا يملكون بعض المتاع إلا وقتلوهم طمعاً فيما يملكون، فتوقفت التجارة عن الاستيراد والتصدير خوفاً على الأموال والأرواح .

أما الفلاحون والبدو، فكانوا يساقون إلى الحروب الناشبة بين القبائل تاركين الأرض يتلف زرعها، والمراعي يختفي أثرها والمواشي تهلك وتنفق، فلا ضرع يسقي، ولا ثمر يقي غائلة الجوع، فتبقى الديار فارغة من سكانها.

أما المساجد وهي مكان للعلم والتعليم والعلماء، فلم تعد آهلة بأهل العلم وطلابه، فتفشى الجهل والفقر بين الناس، وانتشرت الأمراض والأوبئة تفتك بالسكان.

في الفترة المذكورة من مطلع القرن الثامن عشر ولد في أعالي نجد الإمام محمد بن عبد الوهاب، وقد كان والده قاضياً في قرية العينية، فأخذ الإبن من والده حب الدراسة والعلم، فسافر لطلب العلم في مدن النجف والكوفة والبصرة والحجاز والإحساء، وعندما عاد إلى نجد انصب اهتمامه على تدريس التفسير والحديث والفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وكان متأثرا بشخصية أحمد بن تيمية الذي عاش في القرن الثامن الهجري في حران بأرض الشام .

ــ نظر هذا العالم الديني فيما حوله فرأى الفقر والجهل والتخلف والتمزق السياسي في كل مكان في أرض الجزيرة العربية، ورأى الاحتلال الأجنبي يحيط بالجزيرة كالمعصم، ثم شخص ببصره إلى الماضي، فوجد أن هذا هو المكان الذي انبثق منه نور الإسلام، وعاش على أرضه الأجداد الذين وحدوا

الأمة، وأعطوا للعرب قوتهم وتقدمهم، عندها لم يرتض لنفسه أن تصبح أمته على تلك الحال.

ـ قام الإمام محمد بن عبد الوهاب بدعوته التي طالب فيها بإحياء ما أهمله المسلمون من أمور الإسلام وأوامره، فأطلق عليها الدعوة السلفية لتمييزها عن الدعوات الأخرى القائمة في ذلك الوقت. فأقام فكره ومذهبه على بعث الاتجاه السلفي الذي يأخذ بظواهر النصوص الأصلية، ونفر من الفلسفة والتأويل، وأخذ بصريح الكتاب والسنة واعتبار ما لا أصل له منهما بدعة. وعلى هذا الأساس اعتبر منهجه هذا إتجاهاً محافظاً في الفكر الإسلامي .

– وبما أن الفكر يحتاج إلى وسائل تطبقه وتنفذه ليترك أثره في المجتمع، فكان التقاء الإمام محمد بن عبد الوهاب بالأمير محمد بن سعود، أي التقاء السلطة الدينية، بالسلطة السياسية، عبّر عن تجسيد الفكر الوهابي في نظام الدولة، فتكونت على قاعدته الدولة السعودية، وبذلك تحقق فكر العلامة بن خلدون في نظريته لتأسيس الدولة التي أحد عناصرها التقاء الاهواء.

– هذا الالتقاء بين الدين والدولة اتخذ مظهراً حربياً قاد على الجيوش، كانت في البداية لحمل الناس على اعتناق الافكار، وبعد انتشارها انتهت بالدفاع عن الحكم الحامل للعقيدة الوهابية، وعن القبيلة المؤازرة لها بعد صراعها مع قبائل أخرى. وفي نهاية القرن الثامن عشر وصلت السلطة الوهابية السعودية إلى ضفاف شرق الجزيرة العربية، وفي بداية القرن التاسع عشر وصلت هذه القوة إلى ضفاف البحر الأحمر في الحجاز، في الفترة الأولى قاوم الاستعمار البريطاني في الخليج هذا التحرك الوهابي السعودي، وفي الفترة الثانية في الحجاز قاتلته الجيوش العثمانية بقيادة واليهم في مصر، فانتهت الدولة السعودية الأولى، التي نهضت فيما بعد.

كان الفكر الوهابي السلفي قد أوجد اختلافاً في وجهات النظر الإسلامية بينه وبين العثمانيين ومع مذاهب إسلامية أخرى، مما نتج عنه صدام السعودين مع الأتراك الذين كانوا يسيطرون على مقدرات الجزيرة العربية.

* وفي ختام هذا الفصل نجد أن الأقاليم الأربعة في الجزيرة العربية؛ الحجاز واليمن وعمان والاحساء (ومعها الخليج العربي)، وآخرها نجد، قد قام كل منهم بواجبه في الحركات الفكرية الاجتماعية والسياسية، وفقاً للظروف التي عاشتها هذه المناطق.

وبناء عليه، لا بد لنا الآن من تقدير ما قام به أولئك المعارضون السابقون - سواء اتفقنا أم اختلفنا مع مذاهبهم أو فرقهم أو مللهم - فقد فكروا وكافحوا من أجل أفكارهم ومبادئهم التي آمنوا بها. لقد كانوا يعتبرون أفكارهم التي اعتنقوها من اجل التغيير هي المناسبة لمجتمعهم وزمانهم ومكانهم، فأصابوا حيناً وأخفقوا أحيانا، ونجحوا مرة وفشلوا مرات. وقد آن الأوان لأصحاب الأفكار تلك أن يوقفوا الحروب الناشبة بينهم التي فرقت شمل الأمة، ويعملوا بصدق وأمانة دينية وقومية على إجراء الحوارات الجادة لتقريب مفاهيمهم للتفسير والحوار بين فرقهم وغيرها من المذاهب والفرق الإسلامية جميعها، بحيث تصل حواراتهم إلى نتائج مثمرة لصالح المجاميع الشعبية، على أن يكون ذلك في اسرع وقت ممكن، لأن تلك المجادلات والتفسيرات العقيمة القديمة كان من نتيجتها أن كفر كل منهم الآخر، وألغى كل منهم الآخر، فكل منهم يعتقد أنه يمتلك الحقيقة الدينية دون سواه. لقد انهكت تلك المجادلات والتفسيرات قوى الشعب العربي، وبما أن القوى الشعبية العربية تتطلع إلى الأمام، فإنها تدعو إلى تفاهم ديني مذهبي إسلامي يعيد اللحمة، وترى أن أولى تلك الحوارات فيما بينهم جميعا أن تبدأ بتناسي الأحقاد التاريخية القديمة، وأن تتجاوز الأحداث الأليمة الماضية التي نشبت بين المذاهب والفرق كافة، لأنها من فعل الماضي وملك للأمة جمعاء، وأن عليهم بدء صفحة جديدة؛ توحد ولا تفرق، تقوي ولا تضعف.

ولكن ما هو دور الشباب من جيل السبيعنيات من تلك الأفكار والأحداث الماضية؟

نعتقد أن للشباب دوراً أساسياً في هذا المجال، فمن واجبهم العمل على إنارة الطريق المظلم، بأفكارهم الجديدة الحية الصالحة لزماننا ومكاننا ومجتمعنا، وبالتالي فإن الواجب عليهم أن تكون أفكارهم تلك معبرة عن الوحدة والتضامن ونبذ القبلية والطائفية، بحيث تعمل أفكارهم المرجوة على مساعدة المجتمع في كفاحه من أجل التقدم والتغيير، وتحرير الأرض والأوطان، لا أن نقوم جميعاً – كما نفعل اليوم- بنقل ما قدمه الأقدمون من أفكار دون تمحيص وتجديد وتطوير، كما هو حادث لمجتمعنا العربي اليوم، فهل لشبابنا سبيل من إنقاذنا من ورطتنا هذه؟

ونعيد التأكيد على أن الهدف الذي نسعى إليه من حواراتنا هو نظرتنا للحاضر والمستقبل أساساً، وإذا ذكر شيء عن الماضي ما هو إلا لأخذ العبر، لنستفيد منه لحاضرنا ويستفيد منه أحفاد المستقبل، مع التأكيد على أن الأجداد قد فكروا ضمن حدود قدراتهم وظروفهم الموضوعية، وسعوا من خلالها إلى **تحسين أوضاع زمانهم** الدينية والدنوية، وأن علينا ان نحذو حذوهم ونفكر **لزماننا ومستقبلنا**، بحوارات مستمرة، وبالذات بين الشباب من أمتنا، حتى يمكن خلق تنمية بشرية فكرية تعمل على بناء الوحدة العربية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتعليمية، لنتحدى بها ظروفنا العربية السيئة الراهنة.

الفصل الحادي عشر

الجزيرة العربية تدق أبواب التحدي الحضاري

الشرق الأوسط، أو الشرق الأوسط الكبير أو الأوسع، أو الشرق الأدنى، وغيرها من المسميات الحديثة والقديمة، لا تغير من حقيقة أن الوطن العربي هو كبير فعلاً مهما أطلقت عليه من مسميات جغرافية، فحقيقته التاريخية والجغرافية قائمة منذ القدم لوقوعه في وسط العالم القديم، وهو كذلك في العالم الحديث أيضاً، هو جسر بين الشرق و الغرب تعبرعليه الحضارات والأديان التي نشأت في الشرق، وهو طريق ضروري تمر عبره التجارة العالمية المنتجة والواردة من الشرق، ثم انعكست الآية فيما بعد فصار العبور من الغرب إلى الشرق، وازدادت أهمية تلك الجسور الآن ثقافيا واستراتيجياً ونفطياً.

فالعالم العربي، هو بالفعل عالم يحتضن كل تلك المميزات، فجناحاه المنتشران على رقعة أرضه الواسعة الممتدة من المحيط إلى الخليج، كونته عوامل الطبيعة و التاريخ، فخلقتا منه معاً عالمين متناقضين، أحدهما روحي ديني يتمثل فيه المكان الذي نشأت فيه الأديان السماوية الثلاث الداعية لعبادة إله واحد فرداً صمداً، وداعية الناس إلى اتباع طريق الصلاح والعدل بين البشر، بحيث لا يظلم ولا يستغل الإنسان أخاه الإنسان. أما عن عالمه الثاني فتتمثل فيه المنافع الدنيوية المادية؛ اقتصاد/ تجارة/استثمار، وهذه قوامها

وأساسها المنافع الفردية الشخصية المرتبطة بقوانين أنظمة السوق والمعاملات المادية البحتة؛ من منافسة واستغلال لفرص البيع والشراء، وكثيراً ما تطغى فيها المصالح الشخصية على المصلحة العامة، فتصل بها أحيانا إلى حد الجشع وأخذ الربا الفاحش، وتؤدي هذه إلى الاستعمار والاحتكار والعبودية وغيرها، على الرغم من التعاليم الدينية المطالبة بالحد من تلك الأطماع الشخصية الذاتية التي تؤثر على مصالح مجموعة أفراد المجتمع، وتؤدي إلى الحرب بين المتنافسين على الاحتكار والاستغلال الأكثر شراهة، فإن تلك الأعمال المخالفة لتلك التعاليم قد استمرت وازدادت سوءاً .

فعلى أرض العالم العربي يتواجد فيه الروحي/ الديني، والدنيوي/ النفعي/ الزمني معاً، فهي مركز ديني أساسي تحتضن الأماكن "المقدسة"، كما أنها في نفس الوقت مركز اقتصادي تجاري استثماري فائق التميز، وينظر إلى الديني "**المقدس**" والزمني (التجارة و الاقتصاد) **من الناحية الروحانية الأخلاقية** على أنهما على طرفي نقيض عند أخذهما المصلحة الإنسانية والمجتمعية في الحسبان، إلا أن هذين العاملين معاً كانا هما غرس ونبت هذه المنطقة، عاشا فيها جنبا إلى جنب، فخلقت لأرضنا من كليهما مكانتها المميزة. إلا أن هذا التميز قد جلب لشعوب منطقتنا كثيراً من الآلام التي مصدرها دائما صراع القوى العظمى، القديمة والحديثة، الساعية إلى الاستغلال والاستحواذ والاستفراد بالميزتين معا، كما لاحظنا ذلك في الفصول السابقة التي تحدثنا فيها عن فترات ما قبل الإسلام وحتى في عصرنا الحاضر.

* ففي القرن الحادي عشر كان الإقطاع والتخلف متفشياً في الدول الأوروبية، وكانت الحروب الشرسة دائرة بين دولها وقبائلها، فهو العصر الوسيط في أوروبا، وكانت الكنيسة تملك السلطتين الروحية والزمنية، وفي محاولة من الكنيسة إخراج الدول الأوروبية من أزمتها هذه، توجهت بدعوتها إلى الدول الأوروبية لوقف الاقتتال بين دولها، وتوحيد صفوفها لمواجهة غزوات المسلمين، ودعتهم بدلاً من ذلك الى التوجه بجيوشهم إلى المشرق

العربي للاستيلاء على **الأراضي المقدسة** في فلسطين، ووعدت المقاتلين منهم بمكافآت روحية ومادية مقابل أعمالهم تلك.

وابتداء من النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي بدأت تتجمع جيوش يقودها **ملوك** من كافة الدول الغربية (الفرنجية) تقريباً، حاملة الصليب رمز الدعوة المسيحية، متخذة وجهتها ناحية الأرض العربية، ولم يصل القرن الحادي عشر إلى نهايته إلا وجيوش الفرنجة قد بدأت أولى "الحروب الصليبية "، و بعدها استمرت في صورة حملات عسكرية منظمة للاستيلاء على الأرض العربية وعلى الخصوص فلسطين و**الأماكن المقدسة**. في بداية تلك الحملة استولوا على الساحل السوري الذي احتلوه – والذي كانت فلسطين جزءاً منه – فقسموه إلى أربع إمارات سموها (**دول الصليبيين اللاتينية**)، ومن بينها كونوا (**مملكة بيت المقدس**)، واستمرت الحملات الصليبية تترى على المنطقة العربية حتى القرن الرابع عشر الميلادي، حيث بلغ مجموعها تسع حملات صليبية مستمرة، اشتبك معها العرب جميعاً، بمن فيهم المسيحيون العرب لاختلافهم معهم في العقيدة المذهبية المسيحية ولاقوا من العذاب ما لاقاه المسلمون، واستمرت تلك الحروب يتراوح مداها بين مد وجزر خلال قرنين ويزيد على أراضي سورية الطبيعية ومصر، ولطول مدتها قسمت من الناحية التاريخية بين حروب صليبية متقدمة، وحروب صليبية متأخرة جاءت بعد الأولى، واعتبر الفاصل بين تلك الحروب معركة حطين.

وكما هي عادة شعبنا العربي الذي لا يسكت على ذل وهوان المحتلين لوطنه، فهو يقاوم الغزاة دائماً– سواءً جاءوا تحت مسمى ديني أو اقتصادي – حتى ينتزع النصر من أعدائه مهما طال الزمن، وعلى هذا الأساس فإنه لم تأت الحملة الصليبية الثالثة، إلا والاستعدادات العربية للمواجهة معهم قد اكتملت في صورة وحدة مصر وسورية (إنها الوحدة التي تهزم المعتدين، ليتها استمرت كذلك؟!)، ونشبت معركة **حطين** (موقعها في غرب بحيرة

طبرية المحتلة) في عام 1187 م، وتحقق النصر للعرب فيها بقيادة البطل الإسلامي العربي صلاح الدين الأيوبي، وتم استرداد بيت المقدس، إلا أنها لم تكن نهاية تلك الحروب، إذ أنها استمرت بين العرب والفرنجة بين هزيمة ونصر، إلى أن كانت الحملة التاسعة التي منيت بالفشل واستعاد فيها العرب المسلمون **عكا آخر** للصليبيين في فلسطين في عام 1291/690م.

لقد كان الهدف المعلن لتلك الحروب على أرضنا العربية هو الحج إلى الأماكن المقدسة في "بيت المقدس"، من أجل الاستغفار والتوبة وغسل النفوس من الخطايا والذنوب، إلا أن الذي ثبت على أرض الواقع أنها حركة استعمارية، جاءت في فترة التوسع الاقتصادي لأوروبا الغربية، فاتخذت الدين ستاراً لإخفاء ما انطوت عليه من مطامع وأغراض استعمارية استيطانية، كانت تلك بدايتها، ثم تلتها حملات كان المشاركون فيها ملوك أوروبا الغربية. لقد أقاموا الممالك والحصون على أرضنا، وإذا كانوا بعد ذلك قد هزموا راجعين فلا يعني أنهم تخلوا عما سبق أن احتلوه من أرض العرب؟

* وقبل أن تشرف الحروب الصليبية على نهاية هزيمتها في معركة عكا، جاءت هجمة شرسة كبرى على الأرض العربية، قادمة في هذه المرة **من الشرق**، يقودها التتار القادمون من أواسط آسيا

كانت بغداد حاضرة الخلافة العباسية وعاصمة العالم الإسلامي لمدة تربو على خمسة قرون، واستمرت غارات المغول/التتار على هذه المنطقة مستخدمين البطش والوحشية لإشاعة البلبلة والفوضى والرعب في نفوس سكانها، ولما وصلت جحافل جيوشهم الغازية إلى العراق، دخلوا مدينة بغداد العريقة في 656 هجرية /1258 ميلادية وفتك قائدهم هولاكو بأهلها وتركها مستباحة لعدة أيام يعبث فيها جنوده؛ أحرقوا أثناءها بغداد وخربوا مساجدها ليحصلوا على قبابها الذهبية، وهدموا مكتبات بغداد الثمينة والغزيرة بعلومها وترجماتها عن الهند والفرس والإغريق والرومان؛ حرقوا الكتب ورموها في نهر دجلة. لقد بلغ الغزاة التتار بفعلتهم تلك أقسى درجات العدوانية عندما

أغرقوا في نهر دجلة تلك المعالم الحضارية المتقدمة، فهم لم يقتلوا الإنسان فقط، وإنما أرادوا القضاء على مخزون تاريخي من الفكر والعلوم الإنسانية العربية جمعت عبر قرون. ذلك هو زمن التتار. لكن ماذا نقول عن **غزاة** بغداد **اليوم** الذين فعلوا أبشع وأكثر ظلماً مما فعله التتار؛ احتلوا، وقتلوا ما يعادل مجموع الضحايا من التتار، وعذبوا شعب العراق، وهدموا ونهبوا أيضاً متاحف العراق الغنية بآثارها؟! أحرقوا المعامل والمصانع، وقاموا بانتهاكات يومية ضد لحقوق الإنسان؟! وسنترك لكم ياشباب الأمة العربية الإجابة على هذا السؤال الهام، لماذا فعلوا ما فعله التتار وهم يدّعون أنهم أعلى أمم الأرض حضارة ؟

إلا أن الشعب العربي في كل الأوقات والأزمان لا يسكت على الغزو والاحتلال وإنما يجمع الصفوف فيقاوم ويهزم المحتلين ويطردهم عن أرضه ووطنه، لقد كان هدف الغزاة التتار احتلال مصر أيضاً، ومن ثم الوصول إلى شمال إفريقيا، إلا أن الجيوش المصرية أوقفت هذا الزحف عندما انتصرت على الغزاة في معركة **عين جالوت** في عام 1260 ميلادية .

لقد ثارت الموصل أيضاً على التتار، وكان قد شجعها الانتصار الكبير الذي حققه العرب في معركة عين جالوت فاستطاعت أن تقاوم القوات المغولية التتارية مدة تربو على السنة، عجز خلالها الغزاة عن اختراقها .

*** التفرقة والهوان العربي هما في واقع الأمر تسهيل للأجنبي في غزوه واحتلاله أرض العرب:**

هذان الحدثان من الغزوات الأجنبية القادمان من الغرب ومن الشرق: الحروب الصليبية الفرنجية، وهجوم وغزوات التتار، تزامنتا معا في فترة ممتدة من القرن الحادي عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلاديين وامتدتا بعد ذلك في صور شتى تكاد تكون متتالية. فالحرب الأولى التي بدأت بغزوات الفرنجة المتلاحقة على أرضنا العربية كانت قد أدت للحرب

الثانية، فالحربين القادمتين من الغرب ومن الشرق في تلك الآونة، جرتا وراءهما أزمات على وطننا العربي استمرت آثارهما لقرون عديدة.

إلا أنه لا بد من القول أن مثل هذه الغزوات ما كانت لتحدث لو كانت الحالة العربية الإسلامية في وضع أفضل عما كانت عليه، إنما – مع الأسف– كانت الأوضاع العربية الإسلامية قد وصلت إلى أدنى درجات ضعفها وتفكك قواها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فمثل تلك الأوضاع هي بلا شك عامل مساعد للطامع الغريب في أن يقدم على غزو واحتلال أراضينا التي هي غنية بمواردها الطبيعية وبموقعها الاستراتيجي .

* وفي سبيل التعرف على بعض من الأسباب التي أدت لذلك الغزو الأجنبي القديم لأراضينا في تلك الحقبة الزمنية من القرن الحادي عشر الميلادي، يحسن بنا الرجوع إلى الفترة التي **سبقت** هذا الغزو، إلى ما قبل القرن الحادي عشر الميلادي، محاولين بقدر معرفتنا بيان أسبابها التي نوجزها فيما يلي:

الآثار السياسية **التي تركها توريث الخلافة في الجزيرة العربية :**

لقد كان لتوريث الخلافة، والذي شكل انقلاباً على نظام الحكم العربي الإسلامي الوليد، سبباً رئيسياً من أسباب الضعف والتفرقة بين الجموع العربية الإسلامية منذ تلك الفترة وما تلاها لاحقا، مما هيأ للغزو الأجنبي الذي كان قد أخذ مجراه بتلك الصورة التي أشرنا إليها، والتي تمثلت في التالي:

– لقد واجه توريث معاوية لابنه يزيد انتقادات واحتجاجات كبار الصحابة من بينهم الذين في الحجاز، في **المدينة ومكة**، فكانت معارضة التوريث بمثابة الوباء الذي انتشر في الأرض العربية الإسلامية، واستمر هذا المرض يحمل الجرثومة التي نخرت كيان المجتمع العربي تفرقة وضعفاً، وفعلت الشيء نفسه في جسم السلطات الحاكمة العربية الإسلامية، حتى

وصلت إلى الحالة التي هيأت للغزو المشار إليه الذي أتاح للأجنبي أن يتجرأ بإقدامه على ذلك الغزو والاحتلال، ونوجز الآثار التي سببت معارضة توريث الخلافة في المدينة ومكة في خلافتي بني أمية وبني العباس، في نقاط سريعة تالية:

– انتقد عدد من الصحابة في الحجاز توريث الخلافة، مثلهم مثل زعامات إسلامية أخرى، وقالوا أنه ليس من حق الخليفة أن يعين من يخلفه في حياته ليتولى الخلافة بعد مماته ذلك أن البيعة مقدماً قبل وفاة الخليفة ليست حقاً مقرراً لمعاوية أو لغيره، إنما هي متروكة لإرادة وخيار الأمة .

– كما نظر هؤلاء إلى هذا التوريث على أنه قد تم بموجبه تحويل الخلافة إلى **ملك** عضوض (أي **بتعسف وظلم**) وأطلقوا عليها خلافة ناقصة.

– مثل تلك الأسباب وغيرها جعلت من المعارضة الحجازية تزداد وتتفاقم، وكان عبد الله بن الزبير، أحدهم، حيث قاد إحدى تلك المعارضات الحجازية، مما جعل بني أمية يقومون بقذف البيت الحرام بالمنجنيق، فحرقوا البيت الحرام مرتين في عهد يزيد الأول وفي عهد عبد الملك بن مروان. وقد قتل في الثانية عبد الله بن الزبير، تلك القتلة المشهورة في التاريخ العربي وما نقل عن أقوال ورثاء والدته له .

ـــ إن تلك الأفعال الأموية التي تمت بتلك القسوة، والتي جرت في أماكن مقدسة تم فيها التخلص من شخصيات معروفة من الصحابة، وكانت قبلها معركة كربلاء، هذه الأفعال أوجدت شرخاً عميقاً في الوحدة العربية التي بناها الإسلام، تركت أثرها على الأوضاع الاجتماعية والسياسية، بل إن الحياة المعيشية قد تأثرت كذلك عندما نصبت سلطات الخلافتين عمالا لها، قساة، ظلموا الناس، ونهبوا أموال الدولة، واستأثرت قلة منهم بموارد الولاية الحجازية، فأمثال هؤلاء أشاعوا الفساد في المجتمع، وقاموا بملاحقات حربية

واقتصادية تجاه المعارضة، مما أدى إلى إفراغ الجزيرة العربية – وبالذات الحجاز – من قادتها وزعمائها .

ـ و نسوق مثالا آخر على خلو الحجاز من زعمائها، ذلك أنه بعد مقتل الإمام الحسين (ع) أفلت من تلك المعركة قلة من أنصاره بقوا على قيد الحياة، وكان منهم إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع)، وأخوه يحيى بن عبد الله بن الحسن اللذان لجآ إلى المدينة المنورة، إلا أنه نتيجة للملاحقة والأذى الذي لاقوه من قوى السلطة، فقد اتجه الأول غربا مروراً بمصر ومخترقاً شمال إفريقيا حتى المغرب الأقصى، وبعد مبايعته من أهلها أسس دولة **الأدارسة** في طرف الدولة من المغرب، أما الآخر فقد اتجه إلى المشرق، نواحي الديلم لقربها من مركز الخلافة، وقتل.

* فالحرب والقتل والملاحقة للمعارضين أدت إلى إفراغ مدن ومراكز الجزيرة العربية من قياداتها ومن مجاميعها الشعبية النشطة تجارياً وثقافيا، بالإضافة إلى ما لاقته هذه المنطقة من إهمال الخلافتين لها، حتى الولاة جاءوا من خارجها، مما سبب التذمر الشعبي في كل مكان. والتذمر لم يقتصر على مدن الجزيرة العربية، و إنما شمل مدناً كالبصرة والكوفة السباقتين للتذمر من السلطة، فالعراق كان أساس مركز التذمر والمعارضة أثناء الخلافة الأموية، بعد أن انتقلت الخلافة من الكوفة إلى دمشق، هذا الانتقال بالخلافة لم يؤد إلى انتقال الحكم فقط، وإنما انتقل معها بيت المال، فتأثرت الكوفة وبلاد الرافدين من هذا الإجراء، وهي البلاد الغنية بمواردها الكثيرة، فما بالك بالجزيرة العربية التي أهملت اقتصادياً وتجارياً وتمت محاربة أهلها وتشتيتهم في أماكن كثيرة، وهي لا تملك من الموارد إلا قليلها مقارنة بأرض العراق. يضاف إلى كل ذلك أن الخلافتين كانتا قد تركتا الجزيرة العربية بدون **حكم مركزي**، خلافاً لما كانت عليه في صدر الإسلام وأثناء الخلافة الراشدة، مما سبب الفراغ في السلطة وأفسح المجال للقوى القبلية الداخلية أن تبرز بقوة من

جديد، مسببة الفوضى بصراعاتها واقتتالها المستمر، والأدهى والأمر من ذلك أن هذا الوضع قد أفسح المجال للقوى الأجنبية أن تحتل شواطئ الجزيرة التي تركت بدون حماية تذكر.

* ولمتابعة تلك الأحداث نأخذ أقاليم الجزيرة العربية الأربعة مثالا على ذلك، نقوم فيها بزيارة سريعة (لمتحفها) و(معرضها) اعتباراً من القرن التاسع الميلادي وما تلاه، أي الفترة السابقة على الغزو الأجنبي المشار إليه وما بعدها، لمعرفة مقدار التفرقة والضعف التي لحق بالمجتمعات العربية وسلطتها الحاكمة.

ـ إقليم اليمن

تنقسم طبيعته الجغرافية بين جبال في الوسط وشواطئ في الأطراف، أشرنا إلى الظروف التي أدت إلى تأسيس دولة الأئمة الزيدية في صعدة في جبال اليمن، والتي سعت لتحقيق الوحدة في ربوع اليمن بعد الاقتتال والفتن، وبما ان الجبل له حمايته الطبيعية فأوكلت الزعامة الدينية والقيادة الروحية إلى القيادة في الجبل، وتركت للشواطئ قيادتها للتجارة، ولكن عندما جاءت حملات إسلامية إلى شواطئ اليمن (قرامطة، إسماعيليون، فاطميون، أيوبيون، مماليك، عثمانيون)، هذه القوى الإسلامية حاربت الشعب في الشاطئ والجبل بهدف الاستيلاء على الزمني والروحي في هذا الإقليم، فانغلق الجبل أكثر على نفسه لأنه أكثر صموداً ومنعة، وانعزل عن الساحل، وهكذا فإن القوى الإسلامية تلك كان المفروض منها تعزيز وحدة الأمة وإقامة مجتمع صالح ببرامجها الإصلاحية الاقتصادية والتنموية، قامت بخلاف ذلك، **حيث** حاربت ومزقت وحدة المجتمع العربي الإسلامي، وفرقته طوائف ووحدانا، وكأن ليس لديها من هدف سوى الحرب المستمرة، مما أسهم في إضعاف اليمن وعزز عزلته، وأجبر أهله على الهجرة إلى الصحراء أو خارجها.

ـ وفي الطرف **الغربي** من الجزيرة العربية في **إقليم** الحجاز، في نهاية القرن التاسع الميلادي، بات معزولا بسبب هجرة أهله، ولم يتبق منه سوى كونه مركزا دينيا إسلاميا رئيسياً، صارت له رعاية دينية أكثر منها سياسية أو اقتصادية. لقد حل بهذا الإقليم ما حل باليمن من غزوات واحتلال من جانب قوى إسلامية، عملت على تفتيت قواه الاجتماعية، وعزله وإضعافه . حتى جاءت فترة أصبح فيها تحت سيطرة بني الخضر، إلا أن **القرامطة** تغلبوا عليهم، وبعد فترة صارت (مكة والمدينة) للهواشم وكان أولهم هاشم العلوي، وبعدها استقرت في بني قتادة، أشرافاً لمكة، وهم فرع من الهواشم، حتى فترة متأخرة. هذا الإقليم الذي هز أركان المعمورة بقوته الاقتصادية والبشرية، وبوحدة عقيدته وشعبه، نجده قد ذوى واضمحل أثره، وأصبح مكاناً سهلاً لغزوات المسلمين أنفسهم قبل غيرهم.

– أما في الطرف **الشرقي**، **إقليم** شرق الجزيرة العربية وعمان، فقد اقام القرامطة في فترة القرن العاشر الميلادي دولتهم بعد أن اجتاحت دعوتهم البحرين ذات الأهمية الجغرافية والاقتصادية، واستمرت ما يزيد عن القرنين من الزمان، وقد أشعلت هذه الدولة حروبا في الجزيرة العربية وعلى أطرافها، مما جعل الجبل في عمان ينغلق على الساحل، وبالتالي فان هذه الجماعة قد أسهمت في تمزيق وحدة الأمة وأضعفتها، بدلا من تمتين اواصرها.

* تلك هي حروب الحركات الإسلامية وغزواتها على الأقاليم العربية. عملت في جسم الأمة تمزيقاً وتفرقة طائفية، مما أوجد الخوف والهلع ممن تربطهم معهم علاقات دينية وقومية، وجعل من سكان أقاليم الجزيرة يحتمون بالجبال هرباً، فانعزلوا فيها، كما أن منهم من تفرقوا في الصحارى والبوادي، هرباً من ظلم الأقربين، ويبدو ذلك واضحاً في إقليمي الحجاز واليمن–عمان، لأنهما الإقليمان اللذان بدأنا بهما هذا الكتاب:

– فقد جاء إلى إقليمي الحجاز واليمن؛ الفاطميون حاملو العقيدة الإسماعيلية، من المغرب العربي وتغلبوا على مصر، فوجدوا أن منفذ مصر إلى تجارة الهند يمر عبر البحر الأحمر والجزيرة العربية وشواطئها، ومن مصر توجهوا إلى الأماكن المقدسة، فاحتلوا إقليمي الحجاز واليمن وشواطئهما في نهاية القرن العاشر الميلادي، وساعدهم وجود مؤيدين لهم من القرامطة والإسماعيليين، واستمروا في هذا الإقليم حتى الربع الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي. وقد قوبل وجود الإسماعيليين والفاطميين بمقاومة السكان وعلى الخصوص سكان الجبال، ومرة أخرى نجد أن الحملات الحربية التي شنتها قوى إسلامية في أراضي الجزيرة العربية قد جوبهت من سكانها، هذه الحروب أبعدت العرب المسلمين عن وحدتهم.

– و بعد الإسماعيليين والفاطميين جاء الأيوبيون إلى إقليمي الحجاز واليمن، بعد انتصارهم في معركة حطين واستردادهم القدس فاعتبروا أن من مسؤوليتهم حماية الأماكن المقدسة في فلسطين والحجاز أيضاً، ومع استمرار الحروب الصليبية، ضم صلاح الدين إقليمي الحجاز واليمن إلى مملكته لأغراض دينية وتجارية وسياسية، فتمت له السيادة على أجزاء من الجزيرة العربية.

– بقي إقليما غرب الجزيرة بيد الأيوبيين حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، عندما خلفهم في حكمها سلالتا المماليك، الذين استطاعوا مواجهة الفرنجة، بالاضافة الى طوائف المغول والتتار؛ فحكم المماليك البحرية إقليمي الحجاز واليمن، وسموا بالمماليك البحرية لأنهم كانوا من ساكني جزيرة الروضة على بحر نهر النيل في القاهرة، ثم انتقلت السلطة من بعدهم إلى المماليك البرجية /الجركسية، وسموا كذلك لأنهم كانوا قد أقاموا في برج القلعة في القاهرة .

– استمر المماليك في حكمهم لغرب الجزيرة العربية، حتى دخل العثمانيون الأتراك مصر في بداية القرن السادس عشر الميلادي، وأعلن المماليك ولاءهم للسلطان سليم العثماني أملاً منهم أن يترك لهم استمرار حكمهم في اليمن، إلا أن السلطان العثماني قضى على نظامهم في الشام ومصر وفي الجزيرة العربية، واحتل العثمانيون كل تلك المناطق .

* لاحظنا فيما سبق كيف أن تواجد تلك القوى العربية الإسلامية في شواطئ الجزيرة العربية التي جاءت بقوتها الحربية، قد خلقت العزلة والضعف للجزيرة العربية، مما أتاح لرؤساء القبائل استغلال تلك الفوضى فطمعوا في الانفصال بعشائرهم عن حكم الدولة بصنعاء وغيرها، مما مهد الطريق للاستعمار البريطاني أن يثبت أقدامه على أرضنا.

ـ ولا بد من الإشارة هنا إلى أن جميع القوى التي وصلت إلى أرض اليمن قد دخلت في معارك مع دول الأئمة الزيدية في شمالها، وهذا ما جعل دول الأئمة تحافظ على وجودها في جبال اليمن طوال تلك القرون على الرغم من الغزوات الكثيرة، أما الشواطئ العربية فقد بقيت عرضة دائمة للغزوات والاحتلال.

ـ لا ريب في أن تلك القوى الإسلامية التي تواجدت على أرض الجزيرة العربية كانت تهدف إلى المحافظة على الإسلام والدفاع عنه، إلا أن قيامها بذلك الواجب كان قد جاء في كثير من الأحيان على حساب الشعوب والمجتمعات وكياناتها وقواها الاجتماعية الفاعلة، مما أحدث كل تلك الأضرار .

* وأنه بعد الذي ذكر، نترك للقارئ الكريم إبداء تصوره عن الحالة التي وصل إليها الوضع العربي في تلك الفترة التي هدموا فيها كيان وحدتهم، وله أن يتساءل: ماذا بقي من حضارة وتقدم للجزيرة العربية بعد

تلك الحروب وذلك الاحتلال من قبل قوى إسلامية لم تعمل على بناء المجتمعات التي احتلتها وتولت أمرها بل خنقتها وهدمت كيانها؛ اقتصاديا واجتماعيا وثقافياً وعلمياً، وتجارياً ومالياً، مما تركها في حالة من التخلف والتأخر، فسهل وضعها هذا، استعمارها من قبل القوى الغربية .

* بعد تلك الزيارة القصيرة التي قام بها شبابنا العربي (لمعرض) و(متحف) الجزيرة العربية باطلاعهم على تلك الحقبة من الشريحة التاريخية، فإن شبابنا لابد أنهم قد لاحظوا مدى تمزق الكيان العربي الإسلامي، وهو الذي كان أمة واحدة وكياناً واحداً، فأصبح دويلات، وفرقاً ومذاهب شتى، مع العلم أن ما ورد ذكره ما هو إلا نزر قليل مما كان قد حصل من تفرقة وتشتت في الأفكار والمذاهب والملل والفرق، وعلينا التأكد من حقيقة ضعفنا إذا عرفنا أن كلا من تلك المذاهب والملل كانت قد كونت حكومات ودولاً مستقلة، يحارب كل منها الآخر، مما سهل للغزو الأجنبي الشرقي والغربي على حد سواء من احتلاله لأرضنا، فما كان قد حدث للممالك اليمنية القديمة، قد تكررت أحداثها بعد ذلك.

* ونعيد القول في أن الذي ذكر نهدف منه الحصول على العبرة من حوادث تاريخنا وألا يكرر مرة أخرى بفرقتنا وتمزق وحدتنا، وما هو مطلوب من شبابنا اليوم هو العمل بهمة ونشاط على توحيد الصفوف لتجنب ما حدث بالأمس، لبناء الحاضر والمستقبل.

* و في الحدود التي تم ذكرها عن تمزق الكيان العربي الواحد، علينا أن نتوقف قليلا وننظر إلى ما حل بنا منذ تلك الفترة :

* الحضارة والمدنية العربية قبل نشوب الحروب الصليبية الفرنجية وبعدها:

من المعروف أن مراكز الحضارة والمدنية كانت قبل نشوب الحروب الصليبية قد استقرت في كل من **العالم** العربي الإسلامي أساساً، وفي بيزنطة المجاورة لهذا العالم. كانت أوروبا في ذلك الوقت يغلب عليها النظام الإقطاعي والتخلف. كانت تعيش في فترة **العصور** الوسطى .

إلا أنه وقبل أن تهدأ موجات الحروب الصليبية وينتهي عصرها في القرن الرابع عشر الميلادي وبعده، بدأت أوروبا تخرج من عصر الإقطاع والتخلف، وتغيرت فيها الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، بل اختفت فيها ــ لا سيما من غرب أوروبا ــ الكثير من المظاهر والأفكار التي كانت سائدة في بداية الحركة الصليبية وحروبها (العصر الوسيط) سواء من ناحية الفكر الديني أو الفكر الدنيوي العلمي والثقافي، فأصبح المجتمع والسلطة عندهم قائمين على دعامات أساسية من علوم **القانون** و**الفلسفة** الاجتماعية؛ بفعل احتضان الجامعات التي أنشئت منذ ذلك العهد لهما، فكانا عماد التغيير الذي حدث في أوروبا بعد الحروب الصليبية، وعبدا الطريق لتطوير العلوم والصناعة والاقتصاد، والسياسة والاجتماع. لقد قامت القوى الاجتماعية بسلسلة من الانقلابات والثورات الاقتصادية أدت إلى نمو **الطبقة البرجوازية** التي أحدثت الثورات الفكرية والعلمية، فنقلت المجتمع الأوروبي إلى تاريخ عصر الأنوار، **وعصر الاكتشافات والبحوث والعلوم** .

كانت تلك هي حال أوروبا قبل وأثناء وبعد الحروب الصليبية، ولكن ما هو حال الضفة الأخرى المقابلة لأوروبا؟ ونعني بها الأرض العربية التي كانت المتلقي لحروب الصليبيين والمغول؟

* الجواب باختصار شديد هو أنه: في الوقت الذي كانت فيه **كافة** قوى المجتمع الأوروبي تصعد درجات التقدم الحضاري متمثلة في حركة النهضة الفكرية والاقتصادية والإصلاح الديني والاستكشافات الجغرافية، كانت القوى الاجتماعية العربية في الوطن الكبير تنزل فيه درجات عن النهضة الحضارية، وكأن حالنا وأوروبا، كراكبين سلمين متحركين من سلالم المجمعات التجارية الحديثة! كان العرب على سلم **النازل** من علو متخلين فيه عما بنوه وبدأوه من حضارة، أما الأوروبيون الفرنجة فكانوا على سلم **الصاعدين** إلى أعلى مستعينين بما انتجه العرب وزادوا عليه علما ومعرفة وتقدماً هائلاً، والنتيجة هي هذا الفارق الحضاري الشاسع بين الضفتين !؟

في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، نقلت الثورتان المتزامتان الفرنسية والإميركية مجتمعات غرب أوروبا واميركا من الحوانيت الحرفية إلى المصانع، ومن الرأسمالية التجارية إلى الرأسمالية الصناعية، فانتقل مجتمعها من استعمار تجاري، إلى استعمار صناعي هدفه الحصول على المواد الأولية الصناعية اللازمة لتصنيعها ثم إعادة تسويقها مصنعة في أسواق المستعمرات، في حين بقي الوطن العربي مستعمراً، موارده ضائعة وإنتاجه معدوم. وكانت الجزيرة العربية أكثر تضرراً بعد إفراغها من قواها الإنتاجية، فعاشت في فوضى وتأخر .

* لقد أتاحت الحروب الصليبية لملوك وقادة ومفكرين أوروبيين التواجد على الأرض العربية، مما مكنهم من تبين أهمية المناطق العربية الغنية بالثروات الطبيعية والبشرية التي كانت تعرفها منذ أزمان بعيدة، فتجددت معرفتها بها، وأدركت أهميتها الإستراتيجية ومكانتها الملاحية البحرية، إضافة إلى مكانتها الدينية. وبناء على ذلك فإن الحروب الغربية لم تهدأ في منطقتنا العربية – رغم اخفاقها في محاولات عديدة لما واجهته من مقاومة شعبية. إلا أن الحروب الغربية كانت مستمرة وازدادت كلما ازدادت أوروبا في قوتها العلمية والاقتصادية، واستمرت على هذا النحو حتى

القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ولم تخف حدتها إلا لفترة، عندما اتجهت أنظار الأوروبيين إلى ما وراء المحيط الأطلسي بعد اكتشاف أمريكا، وعادت إلينا مباشرة، وعودتها في هذه المرة كانت عن طريق البحار والمحيطات .

*** أساطيل الاستعمار الغربي تصل إلى جنوب وشرق الجزيرة العربية :**

في السنوات المنتهية من القرن الخامس عشر الميلادي وصل الأسطول البرتغالي إلى جنوب الجزيرة العربية (جزيرة سوقطرة اليمنية) يقوده فاسكو دي جاما الذي كان قد وصل بسفنه إلى الرجاء الصالح في جنوب إفريقيا، والتف منها حول القارة الإفريقية متخذاً طريقه إلى الشرق، إلى عالم **الثروات الطبيعية** في أرض الشرق عموماً والقارة الهندية وما جاورها على وجه الخصوص. وكان **التجار** البرتغاليون يعرفون العرب الذين عاشوا معهم في شبه الجزيرة الابيرية (إسبانيا) أو الأندلس، وهم يعرفون شواطئ الجزيرة العربية، المكان الذي كانت تلتقي فيه تجارة المحيط الهندي من آسيا وإفريقيا، إنه طريق الأطايب إلى البحر الأبيض، كما مر بنا من قبل. جاء البرتغاليون إلى شواطئ الجزيرة العربية لاحتكار التجارة والسيطرة على منابع مواردها، والاستعمار البرتغالي لم يستمر منفردا في الاستغلال إنما دخل في صراع معه مستعمرون أوروبيون آخرون، واهتمت **كافة** الدول الأوروبية في مرحلة صعودها الاستعماري بمنطقتنا العربية، إلى أن تغلب عليهم الاستعمار البريطاني واستفرد بالسيطرة على منطقتنا العربية.

*** الاستعمار البريطاني:**

شارك ملوك بريطانيا في الحروب الصليبية التي دارت رحاها في بلاد الشام، في شمال الجزيرة العربية، وبوصول السفن البرتغالية إلى المياه

الدافئة تطلعت بريطانيا نحو شواطئ الجزيرة العربية الموصلة إلى جزر التوابل، فدخلت في صراع **استعمار البحار** مع البرتغاليين والهولنديين، من أجل الاحتكار التجاري للدول المستعمرة، فتكونت للتجار الإنجليز علاقات تجارية مع الهند، ومنها تبينت لهم أهمية الموانئ العربية، التي من بينها ميناء **عدن**، الموصل إلى البحر الأحمر وإلى مصر، ومنها إلى أوروبا.

وبناء على ذلك، فإنه في نهاية القرن السادس عشر تماما 1600 م منحت ملكة بريطانيا اليزابيث الأولى ترخيصها للتجار الإنجليز لتأسيس **شركة** الهند الشرقية البريطانية، بهدف تمكين التجار الإنجليز من الاستيلاء **على تجارة القارة الهندية، وتأمين الطريق البحري** التجاري الضروري بين الهند وبريطانيا، فاستولت هذه الشركة على شواطئ الجزيرة العربية، نظراً لكونها طريق المواصلات لكافة الدول الاستعمارية الأخرى أيضا، فنشب الصراع والمنافسة بين القوى الاستعمارية الغربية، وكانت الأرض العربية مسرح صراعها.

- وطبقاً لبنود تأسيس هذه **الشركة**، استطاعت أن تتملك أساطيل تجارية وحربية معاً، **استعمرت** بها **مياه البحار** وشواطئ اليابسة، ولنا أن نتصور نتيجة ومدى ذلك الاستغلال والتعسف الذي وقع على شعبنا وأرضنا العربية، إذا كان المتحكم في مصيرنا هي "**شركة**"؟!

ـ هذه الشركة أصبحت لها حكومة، وأصبحت هذه **الشركة/الحكومة** هي المؤسس وهي الممثل وهي المعبر عن رأي وفكر وفلسفة الاستعمار البريطاني. وغني عن القول أن لهولندا شركة مماثلة بل هي الشركة الأولى في هذا المجال، ولفرنسا مثيلتها أيضاً. إنه الاستعمار الغربي منذ تلك القرون!

* ولكن ما هي الآثار التي تركتها شركة/ حكومة/ الاستعمار البريطاني على وضعنا العربي؟

* **في كتاب (حوارات-1)** أشرنا إلى ما كتبه الزعيم الهندي جواهر لال نهرو وهو في غياهب سجون الاستعمار البريطاني في ثلاثينيات القرن الماضي حيث قال:

"لقد كان وضعنا **غريباً** أن يستمر 550 أميراً في حكم 550 إمارة حكماً رجعياً فردياً **يحول** دون قيام دولة هندية **ديمقراطية** "

مقارنة وضعنا العربي مع ما كتبه الزعيم نهرو نصل الى الاستنتاج التالي:

إن الاستعمار البريطاني كان قد مزق الوطن الهندي إلى إمارات وحكومات بلغ عددها 550 أميراً وإمارة.

وأن ذلك العدد الكبير من الإمارات الهندية كانت تحكم "**حكماً رجعياً فردياً**"، في حين أن الهند كانت في حاجة ماسة لتحقيق التقدم والازدهار للشعب الهندي، ولكن كيف لها الوصول إلى ذلك وشعبها وأرضها تحت حكم أنظمة رجعية فردية متخلفة أوجدها المستعمر البريطاني؟

كان هدف النضال الهندي هو من **تحقيق** وحدة تراب الوطن الهندي، ولذلك سمى الزعيم الهندي ما جرى من تفتيت للأرض الهندية إلى كيانات صغيرة أنه "**وضع غريب**"، فما الذي كنت ستقوله لنا أيها الزعيم الهندي عن أوضاعنا التي تركها لنا الاستعمار؟ لقد استمرأنا استمرار بقاء الوضع الإستعماري وتثبيت أركانه، أليس "**وضعنا هذا غريب" وعجيب ايضاً؟**

كما أوضح الزعيم نهرو، أن الوطن الممزق أشلاءً بتلك الصورة: "يحول دون قيام دولة هندية ديمقراطية "، مما يعني أن **الديمقراطية** الحقيقية لا تتحقق إلا في ظل **حرية** الأوطان و**وحدة** الكيان الشعبي، وهذا ما **أدركه** شعبنا في جنوب الجزيرة العربية المحتل، عندما قاوم مشاريع الاستعمار المختلفة.

لقد أدرك هذا الزعيم الهندي حقيقة الاستعمار في تمزيقه لأرض وطنه إلى دويلات صغيرة بلغ عددها المئات، ساد فيها الفقر والتخلف الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، والأخطر من ذلك هي الفرقة والنزاع فيما بين تلك الكيانات المصطنعة. ولهذا عندما تولى هذا الزعيم سلطة بلاده بعد الاستقلال، قام هو وحزبه الذي أسسه الزعيم غاندي، حزب المؤتمر، وبتضافر وتعاون أحزاب وقوى اجتماعية وسياسية عديدة، بإزالة آثار الإستعمار البغيض، والغاء **كافة** الفوارق والحدود المقامة بين تلك الإمارات الهندية، وبدلا من 550 إمارة، أصبحت "جمهورية هندية" واحدة، وبدلاً من 550 أميراً إقطاعياً تحت الحماية البريطانية، أصبحت الهند المستقلة الحرة كلها تحت قيادة واحدة منتخبة ديموقراطياً ويحكمها دستور واحد، ورئيس واحد، فالهند العظيمة استمدت قوتها من **وحدتها**، فغدت الآن قوة ديمقراطية؛ وقوة بشرية، و**قوة** علمية ناهضة، ذلك هو ثمرة الحرية، وثمرة التحرر من الاستعمار والاحتلال الأجنبي، وتلك هي قوة الوحدة الوطنية الشعبية الهندية، إن الوحدة تعني التقدم و**الإزدهار** للشعب.

* من الواضح أن ما كتبه الزعيم نهرو عن تقسيم الاستعمار البريطاني الغربي لوطنه الهند، يماثل تماماً الطريقة والسياسة التي نفذها المستعمرون في وطننا العربي، وعليه نردد بصوت عال مقولة نهرو "وضعنا غريب" .. "وضعنا غريب"!، والفرق بيننا وبين الهند، أن الزعيم نهرو اعتبر هذا الوضع الغريب هو وضع مؤقت يجب ألا يستمر، وبالفعل فإن الهنود لم يدعوه يستمر، فوحدوا وطنهم بعد جلاء المستعمرين وحصولهم على الاستقلال التام، بينما في وطننا العربي استمر هذا الوضع الغريب، لأن السلطات العربية الحاكمة وجدت في استمراره مصلحة لها، واستمر وبصورة أكثر غرابة من ذي قبل، حتى اعتبر البعض التجزئة قدراً محتماً وعلينا أن **نبقى** مجزئين في وطننا!؟ فبعد فترة من الاستقلال أو الحكم الذاتي الذي مضى عليه قرن من الزمن، والتجزئة والتفرقة التي أقامها

الاستعمار الغربي، لا تزال قائمة ومستمرة، بل هي ماضية كحد السيف لا يستطيع أحد المساس بها وإلا قطعت يده وعنقه، **رغم** التضحيات الجسام التي بذلها شعبنا ولا يزال .

* وبناء على ذلك، يرجى ألا يؤخذ الحديث عن الاستعمار الغربي لوطننا أنه صادر عن انفعال عاطفي يراد منه تحميل مسؤولية تخلفنا على الغير!! **ف**الأمر بالنسبة لوضعنا العربي مع الاستعمار واضح وتشير اليه حقائق واقعية تاريخية على الأرض تحكي لنا ما فعله الاستعمار. وما هو ماثل بيننا اليوم هو خير دليل على ما تركه لنا الاستعمار من تمزيق لأرضنا التي عطلت قيام وحدتنا، وأعاقت قيام **الديمقراطية**، وأخرّت تحقيق التقدم والعدالة للمجتمع الواحد الكبير، بل إن الاستعمار البريطاني إمعاناً منه في تمزيقه لأرض وطننا الواحد، زرع وسط أرضنا كياناً غريباً، هو الكيان الصهيوني، فتمزقت أرضنا وتأخرت وحدتنا وتخلفنا الحضاري.

* إلا أن تلك الظروف من التخلف والاستعمار، خلقت صراعاً بين سلطة التخلف والاستعمار من جهة وبين طبقات المجتمع المتطلعة إلى الحرية وتقدم الشعوب والأوطان من جهة أخرى، **انبثق** عنه وعي جماهيري عربي، أنتجت قواه الفاعلة كفاحاً متواصلاً ضد التخلف والتفرقة، فناضلت القوى الشعبية وقامت بثوراتها من أجل إخراج المستعمر المحتل من أرضنا، **فأعادت** للوطن عزته ولحمته ووحدته، كما حدث في اليمن .

* ولنأخذ فترة من ذلك الصراع والنضال العربي الممتد منذ القرن التاسع عشر في أقاليم الجزيرة العربية حتى إخراج المستعمرين، حيث حارب شعبنا الاستعمار البريطاني وقوى التدخل الخارجي وقوى التخلف في المنطقة، وكان ثمرة ذلك النضال هو النصر والوحدة. ونود هنا التأكيد على أن ما سيجيء ذكره من أحداث تاريخية الغرض منها أخذ العبرة لبناء وحدة أقاليم الجزيرة العربية كلها، التي هي أحد روافد الوحدة العربية

الكبرى، ولهذا سيتم تجنب كل ما له علاقة بالنزاعات الحدودية وغيرها، التي هي من آثار الماضي، وأن الشعوب تتطلع بأمل إلى المستقبل المشرق؛ فهي تأخذ من الماضي ما يجمع وتترك ما يفرق. ولهذا ندعو شباب الجزيرة أن يدخل (متحف) و(معرض) الجزيرة العربية ليقرأ الفقرات التالية التي تؤكد له ضرورة وحتمية بناء وحدة الجزيرة العربية في أسرع وقت وبدون تأخير .

الاستعمار يوطد سيطرته في منطقتنا ويقابل في النهاية بالتحديات العربية:

ـ من الناحية الزمنية، فإن جيل السبعينيات من شبابنا العربي لم يعش الفترة الاستعمارية الغربية السابقة، وبالتالي ربما لم يدرك النضال الذي خاضه الأجداد من أجل الحصول على الحرية والاستقلال، ولهذا ندعوه الآن أن يتمعن فيما سببه الاستعمار الغربي من تمزيق لأرضنا العربية، آخذين مثالاً واحداً من الجزيرة العربية يساعدهم في تبيان الأضرار التي **ألحقتها** التدخلات الخارجية والاستعمار بوطننا، من تمزيق لأرض وشعب كل من إقليمي **عمان واليمن**، نوجزه فيما يلي:

ـ في نهاية القرن الثامن عشر، أي في الوقت الذي جرى فيه اتساع مناطق النفوذ **الروسي والفرنسي**، تطلع نابليون نحو الأقاليم العربية فاحتل الأرض المصرية عام 1798، وشخص ببصره نحو شواطئ الجزيرة العربية المؤدية إلى طريق الهند، مما أثار مشاعر الخوف لدى "**شركة** الهند الشرقية البريطانية" على مصالحها في الهند؛ مستعمرة "التاج البريطاني"، فأوفدت في الحال قوة **بحرية** احتلت جزيرة ميون في مضيق باب المندب بين خليج عدن والبحر الأحمر، وبنت عليها قاعدتها التي اتخذتها مركز وثوب إلى اليمن وعمان والقرن الإفريقي والبحر الأحمر والخليج العربي،

تأميناً لطريق تجارتها مع الهند والشرق الأقصى، وكانت تلك مقدمة لاحتلال الجنوب واستعمار ميناء عدن.

- كانت هذه **الشركة** تتحكم في الشواطئ العربية منفردة دون منازع، إلا أن وجود فرنسا في مصر جعلها تسارع في تثبيت وتعزيز مواقعها في منطقتنا العربية **أكثر** من ذي قبل، فعقدت الاتفاقيات التجارية والسياسية والعسكرية مع السلطات المحلية - أو بالأحرى فرضتها عليهم فرضاً- لزيادة سيطرتها على مضايق وموانئ ومرافئ منطقتنا من جهة، ولوضع اليد عليها بصورة قانونية تجاه الجهات الخارجية من جهة ثانية، فاحتلت عدن وما حولها من سلطنات وامارات جنوب اليمن، وسمت عدن مستعمرة وبقية الجنوب مناطق محمية، (عدن ومحمياتها) أو (عدن والنواحي التسع)، حيث أخضعتها جميعاً **لمقر رئاستها** في بومبي، وبعد فترة أخضعتها **لحكومة بومباي** الإنجلو- هندية، فأرضنا وشعبنا أصبحا خاضعين لإرادة **شركة** الاستعمار البريطاني تتحكم فينا كيف ما تشاء تنفيذاً لمصالحها الاستعمارية ؛ الاقتصادية والعسكرية والإستراتيجية.

- فالعبارة المشهورة " فرق تسد" المعبرة عن الأساليب والطرق التي نفذها الاستعمار البريطاني لتسهيل سيطرته على أراضينا ومقدراتنا، هذه العبارة ليست تعبيراً مجازياً نسوقه لشبابنا، إنما هي واقع عاشه الشعب العربي واستمر يعيشه تفرقة وتجزئة حتى الآن، وكان الاستعمار هو الراعي لكل قوى التخلف في وطننا العربي وخاصة في **عمان واليمن**، وواجبنا الآن إزالة الأوضاع التي تركها الاستعمار:

1. الإقليم العماني :

- عمان هي الجبل وهي الشواطئ والسواحل، عمان الجبل؛ هي تلك السلسلة الجبلية الطويلة والعالية (حيث يبلغ ارتفاع اعلى قممها في الجبل الاخضر حوالي 3500 متراً)، أما سواحلها فهي طويلة على البحر

العربي وخليج عمان والخليج العربي، وكانت تمثل ملاجئ طبيعية منيعة للأساطيل العربية عبر التاريخ. وكانت عمان تملك **أسطولاً بحرياً معروفاً** بقوته ومكانته. لذا عمل الاستعمار الإنجليزي على تجزئة هذا الإقليم إلى ثلاثة أجزاء سياسية: عمان الداخل (الجبل)، ومسقط وتوابعها أي خليج عمان و شواطئ البحر العربي، و ساحل عمان الذي أطلق عليه مسميات: (ساحل القرصنة)!، أو ساحل الهدنة، أو ساحل الصلح البحري، أو ساحل عمان المتهادن أو المتصالح Trucial Coast ويمتد من شبه جزيرة قطر حتى خليج عمان، التسميات العديدة الأخيرة الغاية منها الإذلال والاستهانة وفرض السيطرة والتجزئة؛ وبناء عليه فصلت عمان الداخل عن الساحل، ثم فصلت عمان عن مسقط وتوابعها!

– لقد قامت **شركة** الهند الشرقية **بحملتها** على الساحل العماني (القسم الثالث)، بحجة محاربة القرصنة، ففصلت الساحل العماني عن بقية عمان، ثم فصلت عمان إلى: عمان الداخل ومسقط وتوابعها.

ـــ **ولمنع الساحل العماني** من ممارسة نشاطه البحري المشهور جردته الشركة من قوته البحرية، ثم جزأته إلى **سبع** وحدات سياسية، إمعاناً في إضعافه وسبيلاً للتحكم فيه، فلم يعد متصالحاً و إنما متفرقاً متنازعاً.

– وبعد أن استولت السلطات البريطانية الغازية على ثغور وقلاع ومدافع وسفن أهل **الساحل العماني** بقيادة القواسم، قامت بتجريدهم من قوتهم التجارية والبحرية، ومنذ الربع الأول من القرن التاسع عشر غيرت بريطانيا تسمية الساحل العماني إلى ساحل القراصنة، لتبرير حملاتها المتكررة على المنطقة.

– وبعد إخضاع الاستعمار البريطاني الساحل العماني بتلك القسوة عملت بريطانيا على إدخال الممزق في معاهدات غير متكافئة قامت على الفرض والخضوع، بعد تدمير كافة السفن التجارية والحربية والمدن

الساحلية، فأرغمت الشركة الاستعمارية القواسم، قادة الساحل، على توقيع اتفاقية سلام (استسلام) معها، فتحقق للاستعمار البريطاني ما خطط له من تفكيك وحدة الإقليم العماني.

– كانت **شركة الاستعمار** تتعامل من قبل مع **شيخ واحد** في مدن الساحل العماني، إلا أنها في أعقاب غزوها الجديد تعاملت مع **سبعة مشايخ** عقدت معهم اتفاقات **فردية** جردتهم من جميع أسباب القوة؛ ذلك لأن الوحدة في حد ذاتها قوة والتفرقة ضعف (فرق تسد)، وهذا ما فعله الاستعمار البريطاني في شعبنا وأرضنا من قبل، وما ينفذه الاحتلال الأميركي اليوم .

– وهكذا فإن **الشركة/الحكومة** البريطانية، أكدت بالإخضاع والسيطرة والتحكم الاستبدادي في شرق الجزيرة العربية الذي اعتبرته الشركة/ الحكومة حقها المطلق في احتلاله والتصرف في أراضيه ومرافقه وموارده بلا منازع ولا رقيب من أهلها.

– فبريطانيا العظمى التي استعمرت مياه الخليج حولت سواحله إلى إمارات **محمية** مراقبة من قبل أسطول الشركة/ الحكومة، ولاستكمال دائرة حلقة سيطرتها الاقتصادية والعسكرية الداخلية، اتخذت من العرف الدبلوماسي الخارجي تغطية لما تقوم به في هذه المحميات من أعمال استعمارية، وإظهارها بمظهر المحميات المستقلة، فقامت بتعيين معتمدين بريطانيين مسئولين أمام المقيم السياسي البريطاني في الخليج .

* وباختصار، فإن الاستعمار البريطاني كرر أفعاله الاستعمارية في **الجزء العماني** أيضا، فالأسطول العماني الذي اشتهر به أهل **صور**،تم احراقه عن بكرة أبيه في المحيط الهندي من قبل البحرية البريطانية.

* وبعد الذي قام به الاستعمار/ الشركة من حرب وتمزيق لأرض وشعب هذا الإقليم العربي وما اتبعه من إخضاع وإذلال، ألا يحق لشعب

عمان والخليج أن ينهض محارباً الاستعمار مطالباً بخروجه من ارض وطنه؟

هذا ما فعله شعبنا في منتصف القرن العشرين إذ قام بثورته في الجبل الأخضر وجبال ظفار، مما سنأتي على ذكرها.

ثانياً: إقليم عدن والجنوب اليمني :

لاحظنا باختصار ما فعله الاستعمار بإقليم عمان الذي مزق كيانه الوطني وسلب قواه الاقتصادية والحربية، أما بالنسبة لإقليم عدن والجنوب اليمني، فكانت الخطة الاستعمارية هي أيضا قائمة على تفرقة مجمعاته الشعبية وتمزيق أرضه، وما حدث في الجنوب هو سابق على ما قبله ومتقدم على سواه من الأفعال الاستعمارية .

- في عام 1839 احتلت بريطانيا عدن **وجعلتها مستعمرة بريطانية،** وأسمت المنطقة المحيطة بها محميات بريطانية. ووقعت في البداية مع السلطنات والإمارات والمشيخات سلسلة من الاتفاقات أسمتها في أول الأمر بمعاهدات السلام والصداقة والتعاون، وألحقتها بمعاهدات الاستشارة ثم تطورت السياسة الاستعمارية إلى توقيع اتفاقيات الحماية التي تعني وضع الإمارات تحت الهيمنة الكاملة، فوقعت اتفاقية حماية مع قادة العشائر في المحميات المصطنعة، وكونت فيها حكومات قبلية، أحيت فيها الروح والنزعات والنعرات القبلية القديمة الغائرة في القدم؛ من قبائل حضرموت وحمير وغيرهم، فغدت كل محمية تدافع عن كيانها، مما أجج روح الخلافات القبلية القديمة عندما شعرت أن كيانها اصبح محمياً من قوى خارجية، فحقق الاستعمار البريطاني أهدافه بتمزيق وحدة شعب اليمن، وبالتالي سهل عليه السيطرة على جنوبها وعزل شمالها، فأصبح اليمن **يمنين:** شمالي وجنوبي، وهذا ما رفضه الشعب منذ البداية وعمل على

إسقاط هذه المشاريع الاستعمارية، وبكفاحه المستمد من تاريخه العريق اعاد اللحمة الشعبية ووحد تراب الوطن.

* لقد جاءت التحركات **الإستعمارية** البريطانية في جنوب إقليم اليمن في مرحلة الصعود الاستعماري البريطاني في القرن التاسع عشر الميلادي وما بعده وذلك لما يلي :

1. الأهمية الاستراتيجية لجنوب الجزيرة العربية، وبالدرجة الاساسية ميناء عدن، حيث عملت بريطانيا على ربط هذه المنطقة بمشروعها الاستعماري البعيد المدى في بسط كامل سيادتها الاستعمارية على البحار والمضائق العربية، التي منها مضيق باب المندب، ومضيق هرمز، المتصلة بحارها بالقارة الهندية.

2 . لم تمض سوى سنوات قليلة على ذلك الاستعمار في الجنوب، حتى فتحت قناة السويس التي تربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر، فأصبحت مرافئ الجنوب وبالذات ميناء عدن، طرق بحرية مهمة إلى الهند.

3. وزادت أهمية الإقليم مضاعفة عما كان عليه ،عندما اصبح البحر الأحمر خطاً ضرورياً لوصول ناقلات النفط إلى البحر الأبيض المتوسط.

فالأهمية الاستراتيجية لهذا القطر العربي جعلته مركزاً انطلقت منه عملية توسيع النفوذ البريطاني في أنحاء الخليج العربي وعمان وجنوب الجزيرة والبحر الأحمر والقرن الإفريقي .

ـــ و نظرا لتلك الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية لهذا الإقليم، أمعن الاستعمار البريطاني فيه تجزئة وتمزيقاً ؛ فمن "مستعمرة عدن" الى تمزيق الجنوب الى ما يزيد على عشرين **سلطنة** و**إمارة** و**مشيخة** سميت **محميات عدن**، وقسمت إدارياً: محميات شرق عدن ومحميات غرب عدن، فواجه الشعب اليمني بالنضال والثورة رافضاً تلك التقسيمات الاستعمارية **الانفصالية** عن بقية أرض اليمن الأم .

رفض أهلنا في جنوب الجزيرة هذه التقسيمات وهذا الاستعمار والاحتلال، الذي أدى إلى تحويل اليمن كله شماله وجنوبه إلى شبه مستعمرة بريطانية من الناحية الاقتصادية و**الاستراتيجية**، استمر نضالهم في الشطرين من أجل وحدة تراب الوطن، فتركت تلك الظروف القاسية شعب اليمن في وعي دائم، مما مكنه في النهاية من تحقيق انتصاراته في وحدة الجنوب من جهة وبعدها وحدة اليمن كله، وفوت على الاستعمار تحقيق مآربه في التجزئة وتمزيق الوطن الواحد، وهذا ليس بمستغرب على اليمن التاريخ .

إلا أن السؤال هو كيف أدت أحوالنا العربية حتى يصل الأمر الى تجزئة اقليم عربي عريق كاليمن إلى : يمن شمالي،و يمن جنوبي؟ وكيف أعاد هذا الشعب وحدته؟ وكيف تتحقق الوحدة على أرض الجزيرة كلها؟

ندعو شباب الجزيرة العربية مشاركتنا في الإجابة عن تلك الأسئلة الهامة، والتي هي ضمن **الحوارات** التي بدأنا بها الكتاب حول الحضارة اليمنية القديمة. وارتباطاً بهذا الموضوع سنأخذ من الأحوال والظروف التي مرت بالإقليم اليمني مثالا على ما حل باليمن وبالوطن العربي من تجزئة وتأخر نتيجة للتدخلات الخارجية والاستعمار. نتناوله في ثلاث مراحل زمنية أخيرة **أفضت** إلى الوحدة الوطنية اليمنية الحالية، ونأمل من هذه الوحدة أن تؤدي إلى وحدة أرض الجزيرة العربية كلها، وأن هذه لأمل آخر أن تكون هذه خطوة أولية نحو الوحدة العربية الكبرى .

المرحلة الأولى: التدخلات الخارجية والاستعمار قضيا معا على الكيان الاجتماعي في الجزيرة العربية، وخلفا سلطات قمعية أخرت المجتمع لسنوات عديدة :

سبق أن ذكرنا عن السيطرة الفاطمية والأيوبية على اليمن حتى القرن الثالث عشر، وأشرنا الى أن المماليك قد خلفوهم من بعدهم، وعندما ظهر

البرتغاليون في القرن السادس عشر على الأراضي اليمنية، أبدى اليمنيون مقاومة في صدهم للتدخلات والسيطرة الأجنبية، وساعد الصراع الداخلي على تدخل الدولة العثمانية في منتصف القرن السادس عشر، وكان ذلك هو تدخلها الأول الذي واجهه الشعب اليمني مدة قرن من الزمان اضطر بعده العثمانيون إلى الرحيل .

أججت التدخلات الخارجية من البرتغاليين والمماليك والعثمانيين، الأوضاع في اليمن، وساعدت على اضطرابها، فانتهزت سلاطين وأمراء الإقطاع هذه الظروف، وعملوا على استقلال المناطق الشرقية والجنوبية عن المركز في صنعاء، وخاصة بعد زراعة **البن في تلك المناطق** واتخاذ ميناء (المخا) مركزاً لتصديره، وهكذا نجد كيف يعيد التاريخ نفسه كما ورد ذكره عن الممالك اليمنية القديمة، **وعلى الرغم من** المحاولات التي بذلها المركز إلا أنه لم يستطع إعادة الوحدة اليمنية، ذلك لأن القوى العشائرية الإقطاعية عملت على تثبيت أركان دويلاتها مستعينة بقوى داخلية وخارجية.

استمرت محاولات جمع شمل الشمال والجنوب تحت إدارة واحدة، إلا أنها كانت تصطدم دائما بالتدخلات الأجنبية. في بداية القرن التاسع عشر زحفت على الجزيرة والحجاز واليمن قوات الوالي العثماني في مصر لمحاربة الدولة السعودية ذات العقيدة الوهابية للقضاء عليها لأن نفوذها امتد من وسط الجزيرة في نجد إلى شرقها وغربها، فهزمت القوى المتدخلة الدولة السعودية الأولى. وقد وقفت الدول الكبرى ضد التدخل العثماني/ المصري في المناطق التي وصلت إليهاً خوفا من ان تتحول الدولة المصرية إلى قوة كبرى، فضغطت بريطانيا وغيرها على محمد علي باشا، لسحب قواته من اليمن والجزيرة العربية وبلاد الشام والأناضول في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، وحصر ملكه في مصر .

تلك الأوضاع من الحروب والتدخلات وانسحابات القوات الأجنبية، تركت اليمن في حالة من الفوضى، مما جعل بريطانيا تنتهز هذا الوضع

وتستولي على عدن في عام 1839. واعتباراً من هذا التاريخ زالت سيطرة صنعاء عن الجنوب، وانقسم اليمن إلى شطرين: شمالي تحت حكم يمني، وجنوبي تحت السيطرة البريطانية والاقطاعية المحلية.

وبعد ما يقرب من عقدين من رحيل العثمانيين الأتراك، عادوا في منتصف القرن التاسع عشر إلى اليمن، بعد قرنين من الاحتلال الأول، مسيطرين على شواطئ اليمن الشمالي. وكانت الدولة العثمانية تعتبر نفسها دار الخلافة الاسلامية، وبالتالي صاحبة الشرعية الطبيعية على اليمن، لأهميته الاستراتيجية والتجارية والحربية لها.

استمر العثمانيون والبريطانيون يمددون مساحات سيطرتهم في الأراضي اليمنية، مما خلق صراعاً بريطانياً عثمانياً على مناطق يمنية اعتبرها البريطانيون مناطق نفوذ لهم مثل موانئ حضرموت، واعتبرها العثمانيون مناطق تابعة لهم في الوقت ذاته.

في نهاية القرن التاسع عشر كانت القوتان قد اقتربت حدودهما، وبموجب الاتفاق بينهما، فرض على الشعب اليمني واقع مجزأ هو : شمال اليمن، وجنوب اليمن، فشطر الشعب الى شطرين في وطنه، هذه الحدود التشطيرية بقيت قائمة حتى نهاية القرن العشرين، ولم تتم إزالتها إلا عندما هزت الثورات ارجاء اليمن في الستينيات من القرن العشرين؛ وأمكن إلغاء الحدود المصطنعة، وأعاد الثوار اللحمة إلى شعب وأرض اليمن، بعد جولة أخرى من الصراع الداخلي.

نعود إلى أن هزيمة العثمانيين الأتراك في الحرب العالمية الأولى ووفق الاتفاقيات المعقودة مع الدول المنتصرة، قد اجبرتهم على الجلاء عن اليمن في عام 1918، فتخلوا عن **(ولاية اليمن)**، وقامت ما عرف باسم (المملكة المتوكلية اليمنية)، وكان على رأسها الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، الذي اتخذ لنفسه لقب (المتوكل على الله).

ظلت **ممتلكات الأتراك** في اليمن ولاية عثمانية طبقا لفصول الصلح! ولكن هذه الولاية أو (المملكة) كانت بدون سواحل، **على الرغم من** أنها اعتبرت مستقلة! مما استدعى من الشعب اليمني الدخول في حروب ليصل إلى ساحل بلده، أما اليمن الجنوبية فقد ظلت تحت السيطرة الاستعمارية البريطانية التي كانت تعرف دوليا باسم **(عدن ومحمياتها)** أو (عدن والنواحي التسع).

* نعتقد أن الفقرات المختصرة أعلاه قد أعطت لشبابنا صورة أولية عن الحالة التي وصل إليها الشعب اليمني العريق من تفرقة وتمزق واحتلال واستعمار في الربع الأول من القرن العشرين، حيث أدت السيطرة الخارجية والاستعمار إلى القضاء على كيان المجتمع اليمني النشيط، وجعلا من سلطته تحت إدارة احتلال ضمن ولاية عثمانية، وأخرى تحت سيطرة استعمارية بريطانية .

* تلك الظروف القاسية التي مرت بها الأمة العربية ومنها الشعب اليمني، قد ساعدت على انبعاث الوعي القومي الوحدوي:

لا شك أن تأثيرات الحرب العالمية الأولى وما تلاها قد أيقظت الوعي القومي الوحدوي في الأمة العربية، متأثرة بالتطورات التي شهدتها المنطقة العربية والعالم. وبالنسبة لليمن فإنها تأثرت أيضا بما كان يجري في الهند من مقاومة شعبها للاستعمار البريطاني .

لقد تغير الزمن تجاه الأنظمة الحاكمة، وتخلى الناس في اليمن عن فكرة الإمام المصلح، وبدأ الشعب يتذمر من الحكم الإمامي الحميدي الذي جعله في عزلة عن العالم الخارجي وفرض عليه التخلف عن ركب التقدم الحضاري، وذلك عند مقارنة أحوالهم المعيشية والاجتماعية بما كان حاصلاً في جنوب اليمن المستعمر!. وبناء على ذلك فإن إعلان الاستقلال عن الباب العالي التركي أتاح للقوى الشعبية اليمنية أن تتقدم بمطالبها لسلطات الإمامة، التي من بينها :

على سلطة الإمامة العمل في استمرار الكفاح الوطني لتحرير بقية المناطق اليمنية المحتلة .

كما طالبت **بإحداث** تغييرات جوهرية تمس النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في المملكة المتوكلية.

ذلك عن الشمال، أما في الجنوب فقد تأثرت صورة بريطانيا أمام محمياتها، فاتسعت الحركات المطالبة بالتحرر من الاستعمار البريطاني .

* وبنشوب الحرب العالمية الثانية تولدت حركات وطنية منها الحركة الدستورية وحركة تحرير اليمن، حيث **ضحى** فيها الأحرار بأرواحهم من اجل الحرية و الخلاص من الحكم (الظالم) الإمامي الحميدي. كما انبثقت في الجنوب حركات مستمرة مطالبة بالتحرر من الاستعمار البريطاني، وداعية إلى وحدة اليمن شماله وجنوبه.

المرحلة الثانية: **النصف الثاني من القرن العشرين مثّل بداية التحدي العربي من أجل نيل الحرية و الاستقلال :**

ندعو شبابنا العربي إلى دراسة وتمعن ما جرى في الخمسينيات من القرن العشرين، لأن هذه هي الفترة من تاريخنا العربي الحديث التي مثلت حقبة النهوض القومي العربي، بما أحدثته من تبدلات فكرية وحزبية، وما جاءت به من أنظمة سياسية بعد الانقلابات العسكرية والثورات ضد المستعمرين في سوريا وغيرها من الأقطار العربية، إنما هي محاولة لرد الاعتبار على الهزيمة التي منيت بها جيوش الأنظمة العربية في فلسطين، التي أدت إلى نكبة الشعب العربي الفلسطيني باغتصاب الصهاينة لأرضه وتشريده في المخيمات، وهي المأساة التي لا تزال مستمرة .

كان جمال عبد الناصر قائداً عسكرياً في حرب فلسطين، وأدرك مدى خيانة وفساد الأنظمة العربية التي أدت إلى الهزيمة بتقديمها للمقاتلين اسلحة

فاسدة، هذه الأنظمة هي التي سببت تأخر المجتمع العربي: عسكرياً وعلمياً واجتماعياً وسياسياً، مما أدى إلى الهزيمة والذل والاحتلال، فقامت ثورة 23 يوليو 1952 مغيرة النظام المصري الملكي إلى نظام جمهوري. وساندت الجماهير العربية قيادة الثورة المصرية التي حققت انتصارات اجتماعية وسياسية وعسكرية، داخل مصر وامتد أثرها الى الأقطار العربية والإفريقية؛ في مصر تحقق الإصلاح الزراعي، وإجلاء القوات البريطانية، وتأميم قناة السويس، وبناء السد العالي متحدياً الارادة الامريكية والبريطانية، وأفشلت قيادة جمال عبد الناصر حرب العدوان الثلاثي على مصر الذي قادت جحافل جيوش كل من : بريطانيا وفرنسا، والدولة العبرية المصطنعة المدعومة من الصهيونية العالمية والإمبريالية العالمية، التي شكلت راس الرمح في العدوان على مصر في نوفمبر 1956 .

تلك الانتصارات ساندتها القوى الشعبية العربية في كل بقعة في الأرض العربية، وأيدتها الشعوب المتطلعة إلى الحرية والاستقلال، وتلك الانتصارات بالمقابل جعلت من الثورة المصرية سنداً وقوة لثورات العالم الثالث، ومنها الثورات العربية: الثورة المسلحة في الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، وثورات اقطار المغرب العربي الاستقلالية التحررية، ثم توجت تلك الانتصار التحررية بقيام الوحدة بين مصر و سوريا، تلك الانتصارات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية أدت إلى خروج بريطانيا وفرنسا الاستعماريتين من المنطقة .

ذلك الزخم من الإنجازات الشعبية، ما هو إلا تعبير عن مكنونات شعبية عربية تجمعت طوال قرون، فراحت الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج ترفع رايات القومية العربية والوحدة العربية، هذه الشعارات التي رفعتها أيضاً أحزاب وقوى وطنية في سورية ولبنان والأردن والعراق وفي أقطار عربية أخرى، كانت جميعها تنادي بالقومية والوحدة العربية، فعلقت السلطات العثمانية المشانق لأصحاب تلك المبادئ، وذلك في بداية القرن

العشرين. ونتيجة لذلك قامت القوى الوطنية العربية، مدعومة من قبل الجماهير العربية الواسعة، فشكلت جبهات عديدة تحارب الاستعمار والمخطط الصهيوني لتهويد فلسطين. لقد رصت المعارضة صفوفها وأشعلت الثورات في كل مكان من الأرض العربية وكان للجزيرة العربية نصيب كبير من هذا التحرك العربي الواسع: في اليمن الشمالي، وفي الجنوب المحتل، وعمان والخليج العربي، وانتفضت أقاليم الجزيرة العربية جميعها على الأوضاع العربية المتردية، فتحولت تلك الحركات إلى ثورات مسلحة فتحت المزيد من الجبهات على الاستعمار البريطاني، مستندة في ذلك إلى الرفض الشعبي للوجود العسكري البريطاني، بعد هزيمتهم في قناة السويس وفي العدوان الثلاثي.

المرحلة الثالثة: **ثورات في كافة ارجاء الجزيرة العربية، تقودها جبهات تحررية بذلت فيها تضحيات فتحقق بفضلها بعضاً مما تطلعت إليه شعوبها.**

- من العوامل التي تركتها الثورة العربية على الاستعمار البريطاني، في بدايتها المبكرة، أن أقدمت قوات مسقط البريطانية في عام 1955، باحتلال مدينة نزوى، عاصمة عمان الداخل، وكان الإمام غالب بن علي، إماماً منتخباً في عمان، فتصدت الإمامة لقيادة الكفاح ضد الاستعمار البريطاني، وتلتها جبهات ذات اتجاهات سياسية مختلفة. ويعتبر الصدام المسلح المبكر في الجبل الأخضر العماني بداية لحركات تحررية أخرى واجهت القوات البريطانية المحتلة.

* أما في اليمن الشمالي فقد كانت نهاية الإمامة اليمنية :

كان الحكم الحميدي حكما قمعيا متخلفا، أوجد نظام الإمامة الحميدي تعاليم مجتمعية وثقافية اعتبرها إسلامية فحكم بها البلاد حكما استبداديا تعسفيا، فرضه بالقسوة على المجتمع اليمني الشمالي، فعزل هذا الشطر

العزيز من اليمن عن العالم الخارجي، مما سبب تأخره في **كافة** مناحي الحياة، في الوقت الذي كان العالم خارج اليمن يتغير بسرعة مذهلة، وبقي اليمن وحده منعزلاً، يعيش في جهل وفقر ومرض وتخلف، ومن كثرة ما مر على وضعه ذاك منذ أجيال عديدة، نسي العالم اليمن، ونسي تاريخه وحضارته.

كانت تلك السلطة العقيمة في اليمن في واد سحيق بعيدة عن الخضم الذي تعيشه المجتمعات العربية الثائرة على أنظمة حكمها، الساعية إلى الحرية والمساواة والعدالة الدستورية والاجتماعية، والثائرة على النفوذ الاستعماري. هذه الظروف كلها استدعت من القوى اليمنية الوطنية الإسراع في حركتها الثورية لتغيير وقلب الأوضاع المتخلفة التي عشش فيها الفساد والتخلف لزمن طويل، مستفيدة من دروس محاولاتها السابقة **لإسقاط** النظام الإمامي الملكي، فنجحت في تحقيق ثورتها في سبتمبر من عام 1962، التي اعلنت عن أهدافها في التحرر من الاستبداد والاستعمار، والعمل على تحقيق الوحدة اليمنية، وإجلاء الاستعمار البريطاني من جنوب اليمن. لذا كان من الطبيعي أن يعمل البريطانيون منذ البداية للقضاء على الثورة، ومواجهة تطلعاتها الوحدوية.

لقد نجح **الإنقلاب** العسكري وأطيح بالإمام البدر ونظامه، فأعلنت الجمهورية العربية اليمنية، وفر الإمام البدر، إلى المناطق الجبلية في أواسط القبائل، فاندلعت الحرب الأهلية بين الجمهوريين والملكيين، التي تدخلت فيها قوى محلية ودولية، ولم تتثبت الجمهورية أركانها إلا في عام 1970 .

وقد خلق الصراع والحرب الأهلية بين نظامين سياسيين مختلفين وعياً جديدا لدى الجماهير اليمنية، حيث أسهمت ثورة سبتمبر في بروز الكثير من القوى الوطنية التي شكلت المعارضة السياسية لنظام حميد الدين، وخاصة تلك القوى ذات التوجه القومي اليساري الديموقراطي النابذة للطائفية والقبلية

والحكم الإمامي المتخلف، فاندفع هؤلاء إلى ساحة المعركة ينشدون نشيد: الجمهورية أو الموت، وذلك خلال حصار صنعاء، الحصار الذي فرضه الملكيون وأنصارهم على العاصمة صنعاء في عام 1967 بعد النصر الذي تحقق في الجنوب. لقد كانت معركة شعبية حاسمة انتصرت فيها الجمهورية أخيراً، لكنها لم تنه الحرب الأهلية، ولم **تضع الحرب** أوزارها إلا في عام 1970،و لنا أن نتصور مقدار المعاناة و التصميم اللذين أبدتهما القوى الوطنية اليمنية في سعيها لتحقيق الوحدة، التي قامت في عام 1990 .

لم تمض سنة على الثورة في الشمال وهي تخوض ظروف حربها الأهلية،حتى امتد لهيبها الى جنوب اليمن المحتل. فانطلقت من جبال الجنوب الثورة المسلحة ضد الحكم البريطاني، وذلك في 14 أكتوبر من العام 1963، قادتها الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمني المحتل، والجبهة الوطنية لتحرير الجنوب اليمني المحتل، واستمر النضال موقعاً الخسائر البشرية والمادية بالقوات البريطانية، فأجبرت بريطانيا على الانسحاب من قاعدتها الأساسية في عدن في نوفمبر 1967 وحصل الجنوب على الاستقلال، إلا أن الوحدة مع الشمال لم تتم إلا في عام 1990، نتيجة لظروف داخلية فكرية وعقائدية على ضفتي شطري اليمن .

امتد لهيب الثورة اليمنية إلى مناطق مجاورة أخرى، فقامت الثورة المسلحة في جبال ظفار في عام 1965 . ظفار التاريخية وجبالها كانت وقت انطلاق الثورة معتمدة على تربية قطعان الأبقار والماعز والأبل، وعلى الزراعة التي تسقيها الأمطار الموسمية صيفاً، هذا الموقع القريب من الثورة في جنوب اليمن، جعلها مكاناً مناسباً. وتمكنت الثورة في ظفار من السيطرة على مناطق كبيرة من الريف في جنوب عمان. وقد استمرت الحرب في جبال ظفار حتى عام 1974

وفي زمن وعصر الثورات العربية انبثقت جبهة مقاتلة أخرى في عام 1966 التي هي جبهة تحرير شرق الجزيرة العربية المحتل، لتكمل حلقة النضال ضد الاستعمار والقوى المعادية للتحرر العربي .

وفي عام 1970 بدأت العمليات العسكرية التي قامت بها الجبهة الشعبية الديموقراطية لتحرير عمان والخليج العربي، والتي اتحدت لاحقاً مع الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل لتشكل الجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج العربي .

تلك الجبهات التي اعتمدت النضال المستمر واستمرت في اعمالها القتالية حتى بعد انسحاب بريطانيا من الجنوب اليمني المحتل في نوفمبر 1967، جعل الحكومة البريطانية تتخذ قرارها في عام 1968 بالانسحاب العسكري من شرق عدن، من منطقة الخليج، في فترة أقصاها نهاية عام 1971.

وفي أغسطس 1971 تم إعلان استقلال البحرين، فانهت بذلك بريطانيا مرحلة **حمايتها** التي امتدت منذ عام 1880، وتبعته سلسلة الانسحابات البريطانية التي شملت: قطر ودولة الإمارات العربية في نفس العام أيضا، فألغيت معاهدات الحماية الاستعمارية. لقد جنى شعب الجزيرة ثمرة كفاحه ونضاله فحقق الاستقلال .

كما أنه بعد مضي ثلاثة أرباع القرن على توحيد واستقلال المملكة العربية السعودية، وما يقرب من نصف قرن على استقلال الكويت، وما يزيد على ثلاثين عاما على استقلال شرق وجنوب الجزيرة العربية، وبعد ما قامت به اليمن من خطوات وحدوية واجتماعية وسياسية مهمة، كل ذلك يستدعي من شباب الجزيرة العربية من جيل السبعينيات قيامهم بواجبهم الوطني والقومي بتحديهم الحضاري في تحقيقهم وحدة الجزيرة العربية، القائمة على الديموقراطية الدستورية والعدالة الاجتماعية وحقوق المرأة، من

أجل حاضر ومستقبل شعبنا عموماً، ولمصلحة شبابنا بوجه خاص، لأن هذا المجتمع الواسع الكبير **بإمكانياته** المادية والبشرية قادر على تحقيق التقدم الصناعي والتجاري والعلمي والتكنولوجي لشعب الجزيرة العربية، فالتاريخ والجغرافيا وغيرهما، تؤكد لنا ألا وسيلة أمام شعبنا سوى وحدة أرضه.

وبعد..

بعد أن انتهيتم يا شباب الجزيرة من قراءتكم لفصول الكتاب، وعلى الخصوص الأجزاء الأخيرة منه، فهل ترون من المناسب إجراء حوار معكم بهذا الخصوص ؟

أليس فيما قرأتم عن شعب الجزيرة دليلاً على وعي ويقظة شعبها الذي ناضل وكافح كفاحاً مستمراً من أجل التحرر والتقدم، وأنه قادر على القيام بدوره الحضاري في بناء وحدة عربية ؟

إن شعباً لديه ذلك التصميم للوصول إلى أهداف تقدمه وعزته وكرامته أليس بمقدوره مواجهة التحدي الحضاري المطلوب؛ في الإصلاح السياسي والاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي، والعلمي، والتكنولوجي، وبالتالي بناء دولته الديموقراطية الواحدة القائمة على العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان وحقوق المرأة ؟

لقد دلت محتويات فصول هذا الكتاب على أن الشعب العربي في الجزيرة العربية بما يمتلكه من قدرات بشرية ومادية قادر على تحقيق انتصاره الحضاري، لكونه يرتوي من ينبوع ثري من الثقافة والمعرفة هيأتا له ولوج معترك التحدي الحضاري الحالي، فسقياه هو من مورد معين علمه ودرايته وخبرته وتجربته مع أنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية متنوعة، ربما لم تعشها ولم تعرفها إلا قليل من الشعوب:

فقد ثار هذا الشعب وحارب أنظمة وحكومات، فأسس على إثرها حكومات وأنظمة جمهورية بأنواعها ومسمياتها المختلفة: الجمهورية العربية، والجمهورية الشعبية، والجمهورية الديموقراطية الشعبية.

وعرف وأدار أنظمة ملكية، وأنظمة سلطات وحكم للإمارات والمشيخات، والسلطنات، وعرف الاستقلال، وعاش معترك الحرب الأهلية، وأدرك أهمية الوحدة، وثار على لإنفصال، وعرف الاتحاد والاتحاد الفيدرالي .

وعاش في كنف الدويلات العشائرية والقبلية، والطائفية المذهبية .

وعاش في أنظمة حكم إقطاعية وقبلية وعشائرية، وكوّن أنظمة اشتراكية ورأسمالية، وغيرها .

وعرف هذا الشعب التجارة والاقتصاد والصناعة والزراعة والرعي والصيد، واشتهر بأعماله الحرفية منذ القدم.

وعاش ضمن أنظمة الاستعمار، والمحميات، والكمونولث البريطاني .

وأسس في مجتمعه المدني الأحزاب السياسية بايدلوجياتها المتنوعة والمتقاطعة منها: القومية والاشتركية، والأممية، وكذلك الأحزاب الدينية، والطائفية والمذهبية، وغيرها.

وعاش في الصحاري والبوادي والواحات، وفي المدن والقرى وعلى الجبال وسفوحها، وفي السهول والأودية، وعاش وعمل على شواطئ البحار.

هذا الشعب الذي يمتلك كل تلك القدرات المعرفية والفكرية والإنتاجية، لا يمكن ان يختزل في صورة فيلم من الغرب عن الإعرابي الذي يعيش في خيمته ومع جمله في الصحراء العربية!!!، هذا الإعلام يجب ألا يؤثر في وعي شبابنا ويصيبهم بالإحباط والقنوط. فهذه ما هي إلا مجرد جزء من صورة في لوحة سريالية عظيمة لشعبنا، متقاطعة فيها الخطوط والألوان

والأبعاد التي ذكرناها، فيها علم ومعرفة ونضال شعب حضاري عظيم، يعمل على تجميع قواه المادية والبشرية، ليقوم بتحديه الحضاري بوحدته وتقدمه المأمول .

إن وحدة الجزيرة العربية هدف وطني منشود، وشعار رفعته كافة القوى الوطنية، وهو شعار رباطه مقدس لعلاقته بالدين والدنيا، لأن المجال الطبيعي للعربي هو أن تكون الجزيرة العربية وحدة واحدة: سياسية واقتصادية ومالية ونقدية وثقافية وتعليمية، وبحثية وعلمية، وعسكرية وأمنية، فلا اطمئنان ولا كفالة لتقدم شعب عرب الجزيرة، إلا إذا أمسك الشعب مصيره بيده، وحمى منجزاته وتقدمه وحضارته، بدلاً من اعتماده على القواعد العسكرية الأجنبية والحكم الأجنبي التي لا يجلب سوى الخراب والدمار للبلاد و العباد.

إن الإنجاز الحضاري الإنساني المتمثل في وحدة الجزيرة العربية، معالمها ثابتة وباقية فهي في الصلوات الخمس وفي الآثار التي تركها الأجداد، وأن عوامل الطبيعة والطقس والزمان والمكان والإنسان والدعاية والإعلام ومختلف المؤثرات لا يمكن أبداً محوها واندثارها، فالوحدة لصيقة بجسم وجلد وعقل العربي، إنسانياً، دينياً،تاريخياً، ثقافياً؛ فالإنسان والأرض كونا معا ذلك كله ولا فكاك لأي منهما عن الآخر .

من هنا نقول إذا جاء تجمع **دول** مجلس التعاون الخليجي، الذي مضى عليه ما يزيد على ربع قرن ولم يستطع إنجاز ما حرره ودونّه في نظامه الأساسي، ذلك لأن المجلس انتقص من تكوينه شطراً أساسياً، وركناً مهماً من أركانه البشرية والمادية والاستراتيجية، وهي الجمهورية العربية اليمنية، ففي هذا الانتقاص مخالفة واضحة لجغرافية الجزيرة العربية وتاريخها، وفيه إهانة لا مبرر لها لشعب الجزيرة بأكمله، فلا يوجد سبب واحد يحول

دون انضمام اليمن لهذا التجمع. إن المنظومة الوحدوية للجزيرة العربية لا يكتمل بناء صرحها الشامخ إلا بإلتحام اليمن ضمن هذا الاتحاد العربي لتحقيق أماني وتطلعات شعب الجزيرة العربية التي طال انتظارها، وذلك لأن الخليج في شرق الجزيرة، مرتبط بالبحر الأحمر في جناحه غرب الجزيرة العربية. فالأمل معقود على الاتحاد الواحد لشعب الجزيرة العربية وأنظمته معاً، أن يتبع في ذلك خطى الاتحاد الأوروبي في وحدة شعبه وأنظمته، وفي تماسكه وفعاليته وانتاجيته. فالمطلوب من اتحاد الجزيرة العربية، بعد تحقيق وحدته هذه، أن يضم إلى صفوفه أيضا كلا من: القطر العراقي، والقطر السوري واللبناني والأردني، والفلسطيني .. وهكذا، حتى يصبح الوطن العربي في وحدة الاتحاد العربي الكبير من المحيط إلى الخليج، والإنسان العربي في وطنه الكبير في حاجة ماسة إلى هذه الوحدة الآن أكثر من أي وقت مضى، وعلى الأنظمة السياسية القطرية ألا تعطل ذلك، فالزمن الحاضر هو في وحدة المؤسسات الوطنية الكبرى، أما الدويلات القطرية الصغيرة، فلا مكان لها في عالم اليوم، مهما بلغت إمكاناتها المادية ؟!

نخلص :

إلى أنه لا مجال أمام شباب الجزيرة العربية إلا العمل على انجاز تحديهم الحضاري المنشود في تنمية وبناء الوحدة العربية القائمة على أسس الديموقراطية الدستورية والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان، وحقوق المرأة العربية. وهذا ما كتبه لنا التاريخ وأوصى به وعمل من أجله الأجداد، وضحى من أجله المناضلون والثوار الذين أخرجوا المستعمر وحققوا الاستقلال. ولا معنى للاستقلال إذا لم يحقق الشعب تقدمه وسيره إلى الأمام في بناء الدولة العربية الدستورية الديموقراطية، التي تحقق العدالة

الاجتماعية والمساواة لأبنائها. وإن شعبنا بإمكانياته الهائلة يمكنه تحقيق ذلك في الأجل المنظور، في القريب العاجل.

وأخيراً :

بعد أن أنهينا حوارنا حول الجزيرة العربية التي هي عضو أساسي من جسم وطننا العربي، أجد نفسي مدعواً لأقول لشباب الجزيرة العربية من جيل السبعينيات، أننا سنلتقي مرة أخرى في حوارات قادمة حول عضو آخر من وطننا، نكمل به حواراتنا التي تؤدي بنا إلى عمل مشترك نحقق به تنمية إنسانية، تبني وحدة الأمة العربية المشيدة أسسها على الديموقراطية الدستورية والعدالة الاجتماعية والتقدم الحضاري.

المراجع

1 ــ القرآن الكريم.

2. ارنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية.

3. محمد عبيد غباش، الدولة الخليجية سلطة أكثر من مطلقة – مجتمع أقل من عاجز ، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية

4. علي خليفة الكواري، منتدى التنمية: نحو إصلاح جذري في أقطار مجلس التعاون لدول الخليج العربي، اللقاء الخامس و العشرون – الدوحة

5. المجتمع المدني في الوطن العربي، و دوره في تحقيق الديموقراطية، مركز دراسات الوحدة العربية.

6. الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالإسكندرية.

7. د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين.

8 . الموسوعة اليمنية، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

9 . نافع محمد مبروك، عصر ما قبل الإسلام، مكتبة النهضة المصرية.

10 . جاك ريسلر ، الحضارة العربية، تعريب: د. خليل أحمد خليل، منشورات عويدات. بيروت– باريس.

11 . د. ابراهيم جمعة، الأطلس التاريخي للدولة السعودية، الرياض .

12. فكر ابن خلدون .." العصبية و الدولة"، معلم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي ، مركز دراسات الوحدة العربية.

13. العلامة عبد الرحمن بن خلدون المغربي، كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، منشورات: دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر .

14. مقدمة ابن خلدون، مطبوعات مكتبة ومطبعة الحاج عبد السلام بن محمد، شارع بيبرس- مصر.

15. د. عمر فروخ، العرب والإسلام في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط منذ الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، مطبعة دار الكتب، بيروت .

16. كلودي فايان، كنت طبيبة في اليمن، تعريب: محسن أحمد العيني، دار الطليعة، بيروت.

17. جامعة عدن، الندوة العلمية حول اليمن عبر التاريخ.

18. زهور عبد الله الجفري، تاريخ اليمن – الممالك القديمة إلى العصر الإسلامي، مكتبة فكري، القاهرة .

19. سلطان أحمد عمر، نظرة في تطور المجتمع اليمني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.

20. د. كمال صليبي، التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة: عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان.

21 . ت.أ. لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.

22. د. محمد حسن عبد الكريم العمادي، التجارة العربية وطرقها في الجزيرة العربية بعد الإسلام حتى القرن الرابع الهجري، أربد، الأردن.

23 . أبا حسين علي عبد الرحمن، تاريخ الجزيرة العربية، دار قريش للطباعة والنشر ، مكة.

24. الموسوعة الفلسطينية، القسم العام – الطبعة الأولى

25 . د. توماس ل. تومبسون، بالتعاون مع د. سلمى الخضراء الجيوسي، القدس: أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ، مركز دراسات الوحدة العربية.

26 . عطا الله جليان، مجتمع قريش السياسي والديني في عام الفيل، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت.

27 . الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، مطابع جامعة الملك سعود.

28 . د. علي محمد الصلابي ، السيرة النبوية، القاهرة.

29 . د. أميل توما، الحركات الاجتماعية في الإسلام، دار الفارابي، بيروت.

30 . د. محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفرق الإسلامية، السياسي والديني، دار الفكر العربي، القاهرة.

31 . شريف يحيى الأمين ، معجم الفرق الإسلامية، دار الأضواء، بيروت.

32 . شاكر الجوهري، الصراع في عدن، مكتبة مدبولي.

33 . الرئيس جمال عبد الناصر، فلسفة الثورة والميثاق، دار المعرفة، بيروت.

34 . جون ب. كيلي ، بريطانيا والخليج (1795-1870)، ترجمة : محمد أمين عبد الله، وزارة التراث القومي والثقافي، سلطنة عمان.

35 . رياض الريس، و ثائق الخليج العربي .. إلى 1971، رياض الريس للكتب و النشر ، بيروت..

36. د. سيد نوفل، الخليج العربي أو الحدود الشرقية للوطن العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.

37 . أحمد عبد الغفور عطار، محمد بن عبد الوهاب، دار العلم للملايين، بيروت.

38 . د. أمل إبراهيم الزياني، البحرين بين الاستقلال السياسي والإنطلاق الدولي، البحرين.

39 . د. سلطان بن محمد القاسمي، تقسيم الإمبراطورية العمانية.

40 . د. زهدي عبد المجيد سمور، تاريخ ساحل عمان السياسي (في النصف الأول من القرن التاسع عشر) ، منشورات ذات السلاسل، الكويت .

ف : 15 تاريخ استلام : 1/3/2007

41 . د. أحمد بن يوسف عبيدلي، الإمام عزّان بن قيس (1868-1871)، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

هذا الكتاب

الكتاب الثاني من سلسلة حوارات مع الشباب العربي، حيث يطل الاستاذ حسين قاسم على التاريخ العربي منذ الحضارات اليمنية القديمة، متمعناً في قدرة الانسان العربي في تحديه للطبيعة الصحراوية، وما حققه من وحدة تجارية، مستخدماً فيها قوافله التجارية، فشيدت على تلك الطرق المدن العربية المتحضرة. ومع بزوغ فجر الإسلام توحد العرب حضارياً؛ لغوياً ودينياً وثقافياً وتجارياً..إلخ

إلا أن العربي اليوم، وهو في عصر النفط والغاز والمعادن، لم يتبق له من الوحدة العربية شيء يذكر سوى حلم قديم، بعد أن انتهت في مجتمعه إرادة التحدي، فأصبح في وضع متخلف حضارياً وعلمياً وصناعياً وثقافياً واجتماعياً وسياسياً، لأن الوحدة التي بنتها الأجيال تهدمت واندثرت .

ويعلق الكاتب الكثير من الآمال على الشباب العربي حيث أنهم اليوم أكثر من أي وقت مضى، لديهم القدرة والتصميم على تحقيق طموحات أمتهم، لذا فانهم مدعوون لتحقيق التقدم العربي المبني على مبادئ الديموقراطية البرلمانية الدستورية، وتداول السلطة وحقوق الإنسان وحقوق المرأة العربية، وإقامة الحكم الصالح.

كتاب يستلهم من التاريخ ما ينير طرق المستقبل

الناشر

المركز الوطني للدراسات

البحرين

هاتف: ١٧٧٤٢٥٢٢ ـ فاكس: ١٧٧٠٠٠٨٦